



رواية

معركة الرماح الذهبية

- أسد فلاندرز -

ترجمة: بسنت عادل فؤاد

بسنت عادل فؤاد/ مترجمة مصرية من مواليد عام 1984 حاصلة على ليسانس اللغات من كلية الألسن قسم اللغة الفرنسية عام 2006 ؛ حصلت على دبلومة معتمدة من جامعة السوربون، وقامت بترجمة العديد من الأوراق البحثية والقانونية، صدرت لها عدة ترجمات عن الفرنسية مع دار صفصافة؛ "العنصر المشترك بين البشر"، و"من أجل حرية الصحافة".

معركة الرماح الذهبية - أسد فلاندرز

طبعة 2024

رقم الإيداع: 2023/10222

الترقيم الدولي: 978-977-821-337-9

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والانتهاج العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء التويهي

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تمير بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is full translation of: The Lion of Flanders by
HENDRIK CONSCIENCE.

Ceci est la traduction intégrale de : Le Lion des
Flandres par HENDRIK CONSCIENCE.

This Book was published with the support of Flanders
Literature (www.flandersliterature.be).

 **FLANDERS
LITERATURE**


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
sefsafa@outlook.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة: شروق
مجدي.. لصالح مكتبة صناد الإلكترونية

تصدير

مقدمات ومسار هذه المعركة الشهيرة التي يرويها لنا هندريك كونسكينس بنبأ وحيوية في هذا الكتاب، أصبحت من الكلاسيكات. وتظهر لنا رواية «أسد فلاندرز»، المليئة بالشرف والشجاعة والحب للوطن الأم، أن هذه الفضائل كانت على الجانبين: الفرنسي كغزاة والفلمنكي كأصحاب أرض.

ولد هندريك كونسكينس في أنتويرب عام 1812 لأب من أصل فرنسي وأم من أنتويرب. كتب نحو مئة رواية، بما في ذلك رواية أسد فلاندرز، والتي كان لها تأثير كبير وأثبتت شعبيته.

بعد والتر سكوت وديكنز، كان الروائي الأكثر قراءة في القرن التاسع عشر. تُرجمت رواياته إلى جميع لغات أوروبا، وحتى إلى العربية والأرمنية واليابانية.

عند وفاته في عام 1883، قام الفلمنكيون الذين ساعدتهم، من خلال عمله لإعادة اكتشاف هويتهم وشخصيتهم، بالنقش على شاهد قبره في أنتويرب:

«لقد علم القراءة للشعب».

لطالما فضلت الأساطير على التاريخ؛ لأن التاريخ حقيقة
تشوه من فم إلى فم وتصبح كذبة، بينما الأسطورة، من
فم إلى فم، تكتسب قوة وتصبح حقيقة.

جون كوكتو

كان إيمان آباءنا راسخاً مثل تلك الجدران القديمة، التي على الرغم من شقوقها العميقة وتويجها بالخرصة الوحشية، فقد نجت على مر القرون وما زالت قائمة، على الرغم من الأمطار وهبوب العواصف.

(بترونيل موينز)

ذات صباح من عام 1280، كانت مجموعة صغيرة من الفرسان تتقدم، بمنتهى الهدوء، نحو مدينة روسيلاري في فلاندرز الغربية. كانت الشمس تشرق في الأفق، ترسل ضوءاً يزداد سطوعاً وإشراقاً في كل لحظة. ظلت الأبخرة التي يميل لونها إلى الزرقة والتي ارتفعت من الأرض تحلق إلى قمم الأشجار، وكانت أوراق الزهور المبللة بالندى، تفتح بمنتهى المحبة لاستقبال أشعة النهار الأولى. منذ الفجر كان العندليب يردد أغنيته الحلوة؛ ولكن التغريد المختلط لبقية مغني الغابة قد أسكت ألحانه الجميلة.

عندما بدأت قصتنا، كان هؤلاء الفرسان يعبرون غابة كثيفة. فقط صرير الأسلحة وخطى الخيول الرنانة هي التي تعكر صفو هدوء الغابة. بين الحين والآخر، يندفع أيل، خائفاً في مخبئه، من أيكته، ويهرب أسرع من الريح عبر الغابة، أمام الخطر الذي يشعر به.

كانت الأزياء والأسلحة الرائعة لهؤلاء الفرسان، تسمح باقتراض أنهم بارونات أو كوتات، أو على أقل تقدير لوردات من أعلى رتبة. كانت الصدرية الحربية (1) تنزل على أكفهم في ثيابا متموجة، وغطت رؤوسهم خوذة فضية يعلوها ريش أرجواني وأزرق. كانت دورعهم الفولاذية، وقفازاتهم الواقية والصفائح المعدنية الحامية للساقين تتلأأ تحت أضواء الصباح؛ الجياد المليئة بالحماسة والبيضاء مثل الرغوة، والتي كان أسيادها يلجمونها بصعوبة، كانت حركاتها المفاجئة تجعل فضة وحرير عدتها تتألق وتلمع.

وعلى الرغم من أن المسافرين لا يحملون دروعهم الحربية، إلا أنهم كانوا على استعداد لمواجهة أي مفاجأة أو عدوان. تم تأمين أذرعهم بأكام زردية (2) وهي عبارة عن حلقات معدنية متشابكة معاً. كانت السيوف القتالية الرائعة تتدلى من سروج خيولهم، يتبعها حاملو السلاح بدرع كبيرة. أخيراً، كتكلمة لزيهم، تم تطريز شعار النبالة لكل فارس على صدره، والذي يشير إلى عرقه وعائلته. كانوا يتقدمون بمنتهى الهدوء؛ وكان برد الصباح يثقل كاهل أطرافهم، ويثقل جفونهم، وبالكاد يستطيعون مقاومة النوم الذي يكاد يطغى عليهم.

كان هناك شاب يسبق فرقة النبلاء، سيراً على الأقدام.

كان شعره الأشقر الطويل يسقط على كتفيه العريضتين؛ كان اللهب ينفجر من عينيه الزرقاوين وكان ذقنه مغطى بزغب خفيف، كان طويل القامة، رشيماً وعصبياً بعض الشيء، كان يرتدي ثوباً ضيقاً من الصوف، وكان هناك خنجر قصير يتدلى من حزامه، مغطى بغمد جلدي (3).

كان من السهل أن نقرأ من ملاحظته أنه لم يكن مقبولاً من المجتمع الذي يعمل كمرشد له بأي شكل من الأشكال؛ يمكن للمرء أن يدرك حتى أن تصميماً سرياً قد تم تحريكه في قلبه؛ من وقت لآخر كان يلقي نظرة جانبية على الفرسان الذين يتبعونه. على الرغم من حداثة سنه، كانت قامته الطويلة وتكوينه الهائل، يجذبان له نوعاً من الإعجاب ممزوجاً بالرعب؛ كان يسير بخطوات ثابتة وسريعة، حتى بالكاد كانت الخيول تستطيع أن تتبعه.

كان الموكب ينطلق هكذا لبضع لحظات عبر الغابة، عندما تعثر فجأة حصان بجذع شجرة وانقلب على الطريق وسقط. لمس صدر الفارس رقبة الحصان وكانت الهزة قوية لدرجة أنه كاد يفرغ ما في حلقه.

- ماذا يعني هذا؟ أعتقد أن حصاني نام أثناء المشي.
صاح بالفرنسية.

- سيدي دي شاتيلون، كان أحدكم نائماً بالفعل! أجاب رفيقه ضاحكاً.

- اضحك كما تشاء، أيها المهرج السيئ. أجاب الكونت دي شاتيلون؛ ولكن ليس صحيحاً أنني كنت نائماً. على مدار الساعتين الماضيتين، كنت أعلق عيني على تلك الأبراج الساحرة، والتي يبدو أنها تبتعد كلما اقتربنا منها، ولكننا نفضل أن نعلق على المشاق ولا نحصل على كلمة طيبة منك.

وبينما كان الفارسان يتبادلان هذه الدعابات فيما بينهما، وقد ابتهج رفاقهما بمرح على حساب الكونت، أيقظت هذه الحادثة الطفيفة جميع أفراد القوات من خدرهم.

السيد دو شاتيلون، الذي أوقف حصانه على أقدامه مرة أخرى، لم يستطع تحمل السخرية الموجهة إليه طويلاً، وبعد أن حاول عبثاً إسكاتهم، استولى عليه فجأة غضب شديد لدرجة أنه غرس منخسه (4) في جنب حصانه، الذي أصبح غاضباً بسبب الألم، ووقف على قدميه الخلفيتين، ثم انطلق كالسهم عبر الأشجار. ولكن، على بعد بضع مئات من الخطوات، اصطدم بجذع شجرة بلوط قديمة، وأصيب بجروح خطيرة، وسقط على العشب.

لحسن الحظ، حافظ الكونت على هدوئه؛ لكن في لحظة الاصطدام، سواء كان هو نفسه قد قفز من السرج إلى أسفل، أو اصطدم بعنف في الشجرة، لا بد أنه أصيب

بجروح خطيرة؛ لأنه بقي بضع لحظات مستلقياً على الأرض دون القيام بأي حركة.

وبمجرد أن انضم إليه رفاقه، ترحلوا جميعاً وأنهضوه، وأغدقوا عليه أقصى علامات الاهتمام. بدا الفارس الذي ألقى الدعابة الأولى هو الأكثر قلقاً في الوقت الحالي ورسم حزن عميق على وجهه.

- ساحني على كلماتي الطائشة - قال له - لم يكن في مخيلتي إهاتك.

صاح دي شاتيلون، منتزِعاً نفسه من بين أذرع رفاقه:

- اتركوني جميعكم بسلام! أنا لم أمت بعد، أيها السادة! هل تعتقدون أن سكان الصحراء قد أنقذوني حتى آتي وأسقط مثل كلب في قاع الغابة؟ لا، باسم الرب! ما زلت على قيد الحياة، وسوف تكفر على الفور على استهزائك بي، سان دي بول، إذا سمح لي في أي وقت بالانتقام منك!

أجاب سان دو بول:

- هيا، هيا، اهدأ، أنت مجروح يا أخي الصالح.. الدم يتدفق عبر زرديتك المعدنية.

قام الكونت برفع الكم عن ذراعه اليمنى ولاحظ أن غصناً قد انغرس قليلاً في جلده. فقال:

- هذا لا شيء، إنه ليس سوى مجرد خدش! ولكن لا

يمكن أن يكون هذا الفلمنكي اللعين يقودنا في هذا الطريق
الرهيب دون نية سيئة! وإنني سأؤكد من الأمر.. ولأفقد
اسمي إذا لم أعلق الخائن على فرع من فروع شجرة البلوط
الملعونة تلك.

وهكذا، لم يأتِ الفلمنكي موضع الاستجواب بأي حركة.
بدا أنه لا يفهم اللغة الفرنسية. لكنه رفع عينيه ونظر بكل
جرأة إلى دي شاتيلون في وجهه.

صاح الفارس:

- أيها السادة، انظروا إذاً إلى النظرة الوحشة لهذا الفلاح.
تعال هنا، أيها الرجل البأس، اقرب.

اقرب الشاب ببطء دون أن يغمض عينيه للحظة واحدة؛
لكن تعبيراً غريباً ظهر على ملامحه، تعبيراً يختلط فيه
الغضب بالمكر، ومليئاً جداً بالتهديدات الغامضة التي جعلت
دي شاتيلون يشعر بأن هناك قلقاً خفياً يستولي عليه.

في هذه اللحظة، استدار أحد الفرسان الموجودين في هذا
المشهد فجأة وابتعد بضع خطوات تحت الأشجار الكبيرة،
مما سمح له بما يكفي لإدراك وجود حالة من الغضب
والاستياء.

قال دي شاتيلون، مخاطباً المرشد:

- تعال، تحدث، وأخبرني لماذا تقودنا عبر هذه الغابة،

ولماذا لم تحذرننا من أن جذع شجرة يسد الطريق؟

أجاب الفلمنكي، بفرنسية سيئة:

- سيدي، لا أعرف أي طريق آخر يؤدي إلى قلعة وينينديل، ولم أكن أعلم أن سيادتكم معتاد أن تمام على ظهر الخيل، وفي هذه الساعة.

عند قول هذه الكلمات، ترك المرشد ابتسامة ساخرة ومتعجرفة ترسم على وجهه. كان يمكن للمرء أن يقول إنه يريد إثارة غضب الكونت من أجل أن يتحداه.

صاح دو شاتيلون:

- وحق! هل تجرؤ على السخرية من شخصي! مهلاً، توقفوا أيها الناس، لنشتق هذا الفلاح المتعجرف القصير، ولنستخدمه كغذاء للغربان!

أصبحت ابتسامة الشاب أكثر وضوحاً؛ تصلبت زوايا فمه بعنف؛ وقد أصبح شاحباً ثم احمر لونه تباعاً،

وهمس:

- شنتق فلمنكي؟ لن يكون الأمر سهلاً أيها السادة..

وقد ألقى بنفسه للوراء بضع خطوات، وارتكأ على شجرة، وطوى كم صدريته حتى الكتف، وسحب نصل خنجره المتلألئ من الغمد. ثم وقف بلا حراك.. تشددت عضلات

ذراعيه واتخذ وجهه شيئاً من وجه الأسد. صرخ بصوت
مدوّ للغاية:

- ويل لمن يلمسني! الغربان في فلاندرز لا تلتهم فلنكي؛
فهم يفضلون لحم الأجنبي!
صاح دو شاتيلون:

- صه أيها الفلنكي! صه أيها الوغد! أسقطوه.. هيا أيها
الجنباء! هل تخافون من سكينه؟ لا أستطيع تلطّيح يدي
بدمه.. إن هذا هو عملكم أيها الرفاق.. أشرار ضد أشرار..
ألا تسمعونني؟ هيا افعلوها.

كان عدد قليل من الفرسان يحاول تهدئة الكونت.
لكن معظمهم كان من دواعي سروره أن يصفق للفلنكي
المشوق؛ والرجال المسلحين، الذين يحفزهم سيدهم، كانوا
سيهاجمون الشاب، قبل أن يظهر فارس في تلك اللحظة،
ظل حتى ذلك الحين منعزلاً، منغمساً في أفكاره. زيّه
ودرعه كانا يفوقان بكثير ثروة رفاقه؛ كان شعار شرفه
مطرزاً على صدره، حاملاً ثلاث زهور ذهبية على مساحة
من اللازورد، يعلو كل ذلك تاج الكونت، الذي يشير إلى
الدم الملكي.

صاح في الرجال المسلحين، بنبرة شخص معتاد على إلقاء
الأوامر:

- توقفوا، لا أحد يتحرك.

ثم التفت إلى الكونت دي شاتيلون:

- سيدي، فلاندرز هذه إقطاعية أتحمل مسؤوليتها بالنيابة عن أخي ملك فرنسا فيليب. هذا الفلمنكي تابع لي وحياته ملك لي وحدي. يبدو لي أنك قد نسيت ذلك بسهولة!

أجاب دو شاتيلون بغضب:

- وهل يجب أن يهينني حربي وصاحب مهنة حقير ويفلت من العقاب؟ في الحقيقة، من المدهش أنك تدافع دائماً عن الفلاحين ضد النبلاء! كما أن هذا الفلمنكي يمكن له أن يتفاخر بأنه أهان فارساً فرنسياً دوغماً أي عقاب! ألا يستحق الموت؟

قال سان دو بول:

- سيدي لورد دي فالوا (5)، ماذا تساوي حياة هذا التابع العنيد لسمو جلالتك؟

صاح شارل دو فالوا بصوت غاضب:

- اسمعوا، أيها السادة، أنا أمنعكم من التحدث بهذه اللغة أمامي. فأنا أقدر حياة كل واحد من رعاياي بدرجة كبيرة. دعوا هذا الشاب يذهب.. على ظهور الخيل، أيها السادة! إن هذا مضيعة لكثير من الوقت!

همس سان دو بول في أذن أخيه:

- هيا، لا تجب، خذ الحصان من مرافقك ودعنا نذهب.
سيظل سيد دي فالوا دائماً مدافعاً عن عامة الناس، بشكل
لا يصدق، ولا يمكن إصلاحه.

ومن ثم، أعاد المرافقون والرجال المسلحون السيوف إلى
أغمادها، وجلبوا خيول أسيادهم.

تساءل الكونت دو فالوا:

- هل أنتم مستعدون أيها السادة؟ في هذه الحال، دعونا
نسرع، من فضلكم، وإلا فإننا سنصل في وقت متأخر جداً
للصيد. وأنت أيها التابع، سر بجانبنا ولا تبتعد عن الطريق.
ما زلنا بعيدين عن وينينديل؟

أظهر الشاب نفسه باحترام وانحنى لمنقذه وأجاب:

- مسيرة ساعة أخرى سيراً على الأقدام، سيدي.

قال سان دو بول:

- هذا الرجل مشتبه به بالنسبة لي! ربما كان ذئباً محتبئاً
تحت جلود الأغنام.

أضاف المستشار بيير فلوت:

- إن هذا ما كنت أفكر فيه منذ فترة طويلة، في الحقيقة،
إنه ينظر لنا كالذئب ويتصنت علينا حتى لو حدثت بيننا

محادثة صغيرة.

صاح دو شاتيلون:

- أوه! حسناً! إني أعرف من هو! ألم تسمعوا، أيها السادة،
عن ناسج معين، اسمه بيير دي كوينيك، يعيش في بروج؟
أشار راؤول دي نيسل:

- أنت مخطئ، سيدي الكونت، أنا شخصياً أتجت لي
الفرصة، في بروج، للتحدث إلى الناسج الشهير، وعلى الرغم
من أنه يتفوق في البراعة والحقد على الرجل الذي تتعامل
معه، إلا أنني يجب أن أصرح أن لديه عيناً واحدة، في
حين أن مرشدنا لديه اثنتان في خدمته.

قال دو شاتيلون:

- كفوا عن هذا الموضوع أيها السادة! لئن هذه المحادثة..
بالمناسبة.. هل تعرف ماذا يدعي ملكا الكريم فيليب أنه
سيفعل مع هذا البلد النبيل فلاندرز؟ في رأيي، إذا أبقى
حاكنا اللامع خزائنه مغلقة، كما يبقى سيد دو فالوا فه
مغلَقاً، فنحن سنأكل أقل القليل في القصر.

أجاب بيير فلوت:

- حديث فارغ! عندما يشاء الملك سيتكلم. أيها السادة،
ابطثوا من مشية خيولكم قليلاً، وسوف أعرفكم أشياء لا
تعرفونها.

اقترب الفرسان من بعضهم البعض بفارغ الصبر، وتركوا الكونت دي فالوا يتقدم قليلاً. عندما أصبح بعيداً بما فيه الكفاية لدرجة أنه لم يستطع سماعهم، تابع المستشار:

- اسمعوا، خزائن ملكنا الكريم فيليب لو بيل فارغة. جعله إنجيراند دي ماريني يعتقد أن فلاندرز يمكن أن تملأها، وبالطبع هذه ليست كذبة؛ لأن هذا البلد الصغير الذي نوجد فيه يملك بمفرده أموالاً أكثر من فرنسا بأكملها.

ابتسم الفرسان وهزوا رؤوسهم عدة مرات كعلامة على الموافقة.

تابع بيير فلوت:

- استمعوا إليّ مرة أخرى، لدينا ملكة اسمها جين تكرة الفلمنكيين. في الواقع، لا يمكن التعبير عن مقدار كراهيتها لهذا الشعب المتغطرس. لقد أعربت عن ذلك منذ وقت طويل. لقد سمعتها وهي تقول بعظمة لسانها أنها تود أن ترى آخر فلمنكي يتدلى من جبل المشنقة.

صاح دو شاتيلون:

- وهذا ما يسمى بالتعبير عن الذات كملكة! إذا أصبحت حاكم هذا البلد، كما وعدتني صاحبة السيادة الكريمة، فأنا أضمن لكم، أيها السادة، أن خزانتها ستكون مليئة بالمال وأنا سي ساعرف كيف أتخلص من بيير دي كوينيك،

ومن المهن، والنقابات ومن جميع الشخصيات التافهة
في الحكومة الشعبية. أوه، إن الأمر كذلك! ولكن لماذا
يستمع إلى حديثنا هذا الفلاح الوديع؟

كان الفلمنكي الذي يخدمهم كمرشد قد اقترب منهم دون
أن يلاحظه أحد واستمع باهتمام إلى الحوار المتبادل بين
الفرسان، بمجرد أن تم اكتشاف أمره، اندفع عبر أشجار
الغابة؛ رسم تعبيراً لا يمكن تحديده على ملامحه؛ توقف على
بعد مسافة ما وسحب خنجره من غمده الجلدي.

وقد صرخ مهدداً:

- سيدي دي شاتيلون، ألقِ نظرة فاحصة على هذا
النصل، حتى تتمكن من التعرف إليه في اليوم الذي
يضربك في القلب.

صاح دو شاتيلون بغضب:

- أي من رجالي سيتخلص من هذا الرجل المهرج.

بمجرد أن قال هذه الكلمات، قفز جندي قوي من فوق
جواده وركض نحو الشاب، شاهراً سيفه. توقف الأخير،
ووضع خنجره بهدوء في غمده، وأغلق قبضتيه، ووقف
بحزم في وجه عدوه.

صاح الجندي المسلح شاهراً سيفه في وجه المشرد:

- سوف تموت، أيها الفلمنكي الملعون!

لم يتحرك الشاب، ولم ينطق بكلمة، ولكنه ثبت عينيه
الكبيرتين على خصمه، واللتين كانتا مشتعلتين مثل البرق.
المهاجم، الذي توغلت في أعماق روحه هذه النظرة بقوة،
أنزل سلاحه، أصبح كأنه مفتقر إلى الشجاعة.

صاح به دو شاتيلون:

- اقتل! اقتل!

لكن الفلمنكي لم ير من المناسب انتظار تأثير هذه
الكلمات، وبقفزة واحدة، اندفع نحو الرجل المسلح، متجنباً
سيفه، وشبك ذراعيه القويتين خلف ظهره، وضرب رأسه
بعنف على جذع شجرة، حتى انهار التعيس بلا حياة فوق
الأرض. هزت صرخة خوف قوية الغابات؛ مرت نوبة
تشنج مخيفة وأخيرة بجسد الجندي، وأغلقت عيناه فلن
تفتح ثانية.

انفجرت ضحكة انتصار من صدر الفلمنكي، واقترب
بشفتيه من الجثة الهامدة؛ وقال بسخرية دامية:

- اذهب وأخبر سيدك أن لحم جون بريدل ليس مخصصاً
للغربان.. لحم الأجانب هو الطعام المفضل لهم (6)!

بعد هذه الكلمات، اتخذ مساره عبر الشجيرات واختفى
في أعماق الغابة.

لقد تابع الفرسان بقلق هذا الصراع الرهيب؛ ولكنه كان سريعاً لدرجة أنه لم يسمح لهم الوقت لتبادل كلمة واحدة، ولكن بمجرد أن عادوا إلى رشدهم.

صاح الكونت سان دو بول:

- في الحقيقة، يا سيدي الكونت، يا أخي، أعتقد أن رجلك المسلح كان يتعامل مع ساحر. هذه المعركة ليست طبيعية.

رد دو شاتيلون بيأس:

- بلد ملعون! حصاني كسرت رقبتة؛ وخادمي المخلص دفع حياته ثمناً لتفانيه! كان يوماً نحساً! تعالوا يا أصدقائي، ارفعوا جثة رفيقكم، انقلوها قدر الإمكان إلى أقرب قرية، حتى تشفى أو تدفن! من فضلكم دعوا الكونت دي فالوا لا يعرف شيئاً عن هذا الحادث.

أجاب بيير فلوت:

- نحن نفهمك تماماً! لكن، يا سادة، دعونا نسرع ونتقدم إلى الأمام. انظروا، سيختفي سيد دي فالوا تحت الأشجار.

بعد هذه الكلمات، أطلقوا العنان إلى خيولهم، وسرعان ما انضموا إلى قائدهم. كان هذا الأخير يتبخر ببطء بحصانه ولم يلاحظ اقتراب رفاقه. كان رأسه، المغطى بخوذة فضية، منحنيًا على صدره، وقفازه الحديدي ولجامه يرتزان

على عرف فرسه؛ ويده الأخرى كان يمسك بمقبض
سيف حربي معلق في السرج.

وعندما كان مستغرقاً في تأمل عميق، وبينما كان
الفرسان الآخرون ينظرون إلى بعضهم البعض بنظرات
ساخرة نحو التصرف الحزين لسيدهم، ظهرت قلعة
وينينديل فجأة أمامهم بأبراجها التي تلوح في الأفق
وأسوارها العملاقة.

صرخ راؤول دي نيسل بفرح:

- عيد الميلاد! عيد الميلاد! هذه نهاية رحلتنا أخيراً! ها
نحن نرى وينينديل رغم الشيطان والسحرا!

غمغم دو شاتيلون:

- أود أن أراها مشتعلة! لقد كلفتني بالفعل حياة حصان
ممتاز وحياة خادم مخلص.

في هذه اللحظة، استدار الفارس الذي كان يرتدي زهرة
الزنبق على صدره وقال، ويده ممدودة نحو القلعة:

- ها نحن نرى القلعة بالكامل في هذه اللحظة، أيها
السادة، هذه القلعة منزل كونت فلاندرز التعيس، جي
دي دامبيير؛ إنه أب انتزعت منه ابنته. أتوسل إليكم أيها
السادة ألا تظهروا أمامه بفخر المنتصرين، ولا تزيدوا حزنه
بالخطب المتغترسة.

أجاب دو شاتيلون ببعض المارة:

- كونت دي فالوا، هل تعتقد أن قوانين الفروسية غير معروفة لنا، لسنا مدركين، أنا من أتحدث إليكم، إنه من واجب الفارس الفرنسي أن يتصرف بسخاء بعد النصر؟
أجاب الكونت دو فالوا مؤكداً على هذه الكلمات:

- يسعدني أن أعرف أنك تعرف ذلك، ولذا أحثكم على العمل وفقاً لهذا. فالشرف لا يتألف من كلمات جوفاء، سيدي دي شاتيلون! ماذا يهم إذا كانت قوانين الفروسية على شفاهنا، إذا لم تكن مكتوبة في قلوبنا؟ من لا يكرم من دونه قد لا يكون كريماً مع نظيره.

أدى التلميح إلى سلوك دي شاتيلون إلى إثارة غضبه الشديد، وكان من المؤكد أنه سينفجر بكلمات عنيفة، إذا لم يقم شقيقه، الكونت سان دي بول، بتقييده من خلال الهمس في أذنه:

- احرس يا أخي احرس إذا! قائدنا على حق. لن يكون من العدل أن نجلب إلى كونت فلاندرز الكهل مزيداً من الحزن.. محنته كبيرة بالفعل بما فيه الكفاية.

- ماذا؟ هذا التابع المجرم تجراً على إعلان الحرب على ملكنا. لقد أثار استياء ابنة أختنا جين دي نافار لدرجة أنها تكاد تكون مريضة، ولا يزال يتعين علينا توخي الحذر منه!

كرر بصوت عالٍ الكونت دو فالوا:

- أيها السادة، لقد سمعتم بالفعل رجائي. لا أستطيع أن أصدق أن أيًا منكم لا يفكر إلا بأن يتصرف بسخاء تجاه هذا المضيف الحزين. إلى الأمام! لقد سمعت نباح الكلاب، وقد رأونا الآن، فالجسر يسقط والبوابة ترفع.

كان قصر وينينديل (7)، الذي بناه الكونت النبيل جي دو فلاندرز، في ذلك الوقت، أحد أجمل وأقوى القلاع الترفيهية في فلاندرز. من أسفل الخنادق الواسعة التي تحيط به، توجت الجدران السميكّة بالعديد من أكشاك المراقبة. بين الأسوار يمكن للمرء أن يرى النشاب تظهر والنقاط الحديدية لسهامهم تتألق. وراء الأسوار ترتفع أسطح المنزل الفخم، وتعلوها دوارات الهواء. ستة أبراج مستديرة، بنيت على زوايا الجدران وفي وسط الساحة تسمح بإطلاق جميع أنواع المقذوفات إلى الريف ومنع العدو من الاقتراب من القلعة. كان جسر متحرك واحد يربط هذه الفخامة المحصنة بعزلتها بالوديان المحيطة. حالما ظهر الفرسان في العراء، أعطى البواب الإشارة من أعلى الباب إلى الحارس الداخلي، وسرعان ما فتحت الأبواب الثقيلة والواسعة، وهي تصدر صريراً من مفاصلها. في هذه اللحظة، دوت خطوات الخيول فوق الجسر المتحرك، ودخل الفرسان الفرنسيون القلعة وهم يعبرون صفّاً مزدوجاً من الرجال المسلحين القلمنكيين. أغلقت الأبواب خلفهم، وسقطت

البوابة ذات الرؤوس الحديدية، وارتفع الجسر المتحرك
ببطء.

ترددت أصوات أبواق الصيد مئات المرات من جديد
في غابة وينينديل.

(بار. فان دوز)

كانت السماء زرقاء صافية لدرجة أن العين لا تستطيع إدراك عمقها. كانت الشمس، مشعة، تشرق في الأفق، وكانت اليمامة المحبوبة تشرب آخر قطرة من الندى على أوراق الأشجار النظرة والخضراء. ترددت الشائعات عن كل شيء في قلعة وينينديل؛ وقد ارتفع نباح الكلاب في الهواء. واختلط صهيل الخيول بصوت أبواق الصيد الصاخب؛ ومع ذلك، لم يتم إنزال الجسر المتحرك بعد ولم يكن بوسع المارة سوى تخمين سبب كل هذه الضوضاء. سار العديد من الحراس، مسلحين بأقواس ودروع، بهدوء شديد على قمة الأسوار الخارجية، ومن خلال الأسوار، يمكن للمرء أن يرى حشداً من الخدم يركضون ذهاباً وإياباً في جميع الاتجاهات. أخيراً ظهر عدد قليل من الرجال فوق الباب الرئيس، وانخفض الجسر المتحرك؛ في الوقت نفسه، تم فتح الباب الخلفي الجانبي، واندفع الكلاب والخدم وقطار الصيد بأكله إلى الريف؛ تبعهم ببطء موكب رائع، مؤلف من اللوردات والسيدات من النبلاء الذين سنقوم بتعدادهم.

في المقدمة، على حصان بني، كان جي دي دامبيير (8)، كونت فلاندرز يتقدم. حملت ملاح وجهه علامات استسلام ناعم وحزن هادئ؛ كان رأسه منحنيًا تحت ثقل الثمانين عامًا من عمره، وكان خداه ممتلئين بالتجاعيد العميقة. سقطت عباءة أرجوانية اللون من كتفيه حتى السرج، وشعره الأبيض اللامع كان مربوطًا بغطاء رأس من الحرير الأصفر؛ كان غطاء الرأس هذا يشبه عمامة ذهبية فوق جبهته، تحيط بقطعة قماش تحمل خيوطًا فضية. كان يرتدي وسط صدره شعارًا على شكل قلب، أسد فلاندرز، من رمال على حقل من ذهب.

كانت شيخوخة هذا الأمير حزينة؛ فقد كانت تميل نحو القبر جبهته المجردة من تاجه، في حين كان ينبغي أن تكافئ الراحة اللطيفة مسيرته الطويلة والشاقة. لقد حطم مصير الجيش إرث آبائهم، وكان البؤس ينتظرهم، وهم الذين كان من المفترض أن يكونوا أمراء أوروبا الأكثر ثراء. أحاط الأعداء المنتصرون بالملك التبعيس، ومع ذلك، في قلبه الأقوى من العديد من المصائب، لم يستطع اليأس أن يجد مكانًا له.

وبجانبه سار شارل دي فالوا، شقيق ملك فرنسا. كان يتجادل بقوة مع الرجل الكهل؛ لكن يبدو أن الأخير كان لا يوافق على كلماته. لم يعد سيف المعركة معلقًا في سرج الأمير الفرنسي؛ الذي كان يرتدي ملابس أكثر بساطة

وأكثر راحة، وقد تدلى رمح طويل ورفيع، وحل محل أسلحته الثقيلة في اليوم السابق.

خلفه، كان يسير فارس تبدو على ملامحه الغطرسية والنفور بمنتهى الوضوح. كان ينظر بفخر لكل من حوله، وعندما تسقط نظرتة، بالصدفة، على رجل فرنسي، كانت شفتاه تمكشان بتعبير سيادي يتم عن الاستياء والكرهية. ربما كان عمره نحو الخمسين عاماً؛ ولكنه ما زال يبدو بكل قوته، وصاحب صدر عريض، بالإضافة إلى مكاتبه القوية، يشار إليه بشكل كافٍ على أنه أقوى الفرسان من حوله. كان حجم الحصان الذي يمتطيه يفوق حجم كل الخيول الأخرى، بحيث سيطرت جبهته على الموكب بأكمله. وشكل درعه خوذة متألثة يعلوها ريش أزرق وأصفر وسلسلة ثقيلة وسيف مقوس؛ وكانت الصدرية، التي تسقط خلفه على ظهر الحصان، تحمل أيضاً أسد فلاندرز في حقل من الذهب. وكان الفرسان الذين عاشوا في ذلك الوقت، يعرفون بين الآلاف، هذا الفارس المعتز بنفسه، روبرت دي بيثون (9)، الابن الأكبر لـجي دي دامبيير.

لعدة سنوات كان مسؤولاً عن الحكومة الداخلية لفلاندرز، وفي جميع البعثات قاد الفرق الفلنكية واكتسب شهرة جليلة وعالمية في الخارج. وخلال حرب صقلية، حيث كان مع قواته في صفوف الجيش الفرنسي، أنجز مثل هذه الأعمال الحربية الرائعة والتي أكسبته منذ

ذلك الحين لقب أسد فلاندرز. وكان الشعب، المتحمس دائماً لقوة الحرب ومجدها، قد جعل من أسد فلاندرز بطل أساطيره وكان يفخر بطاعة الشخص الذي يوماً ما سيرتدي تاج فلاندرز. نادراً ما كان يغادر الدوق جي قلعة وينينديل، نظراً لكبر سنه، وأيضاً لم يكن محبوباً من قبل الفلمنكيين. ومن ثم حصل روبرت، على لقب الكونت، وكان يحترم ويطاع في جميع أنحاء البلاد على قدم المساواة وأكثر من ذلك بل بمثابة أنه ملك وسيد حقيقي.

على يمينه، كان يقود حصانه، جيوم، شقيقه الأصغر، والذي يتناقض خداه الشاحبان، ووجهه الحزين، وخصائصه الجسدية السيئة مع ملاح روبرت الذكورية بروزية اللون. لم يكن زيه مختلفاً عن زي أخيه، باستثناء السيف المقوس الذي لم يكن يرتديه أي فارس غير روبرت.

ثم يأتي بعد ذلك العديد من اللوردات الفرنسيين والفلمنكيين. وكان من بين هؤلاء: غوتيه، سير مالديخم، تشارلز، سير كنسلار، سير أكسبويل، جون، سيد غافر، ديدريك دي فوس وجيرار دي مور (10).

كان جاك دي شاتيلون، وجي دي سان بول، وراؤول دي نيسل ورفاقهم يمتطون الخيول وسط اللوردات الفلمنكيين ويتحدثون معهم بلطف.

كان أدولف دي نيولاند، الفارس الشاب الذي ينتمي إلى واحدة من أنبل العائلات في مدينة بروج الفخمة، يسير في المؤخرة (11). لم يكن وجه هذا السيد الشاب، للوهلة الأولى، يغوي بجمال ناعم ومختبئ؛ فلم يكن واحداً من هؤلاء المراهقين ذوي الحدود الوردية بضم مبتسم والذين يمكنهم بسهولة، وبفضل الزي، إخفاء جنسهم والتحول إلى امرأة. لا، لم ترتكب الطبيعة هذا الخطأ في حقه. لونت الشمس صدغيه قليلاً وأضفت طابعاً ذكورياً وصارماً على وجهه. على جبهته الشابة، رأينا بالفعل بعض التجاعيد، وهي علامة مبكرة على ذكاء ناضج وجاد بالفعل. أعطت ملامحه تعبيراً مذهلاً ورجولياً، والخطوط القوية التي أبرزتها أعطت رأسه تشابهاً مذهلاً لتمثال نصفي هرب من إزميل واحد من النحاتين اليونانيين؛ وأخيراً، من عينيه، نصف الخفيتين بحاجبيه، أفلتت نظرة ثابتة وحادقة، وهي علامة أكيدة على روح متحمسة ومتأملة. على الرغم من أنه لم يستسلم بأي شكل من الأشكال، فيما يتعلق بتوضيح العرق، إلى الفرسان الآخرين، فقد ظل طواعية في الخلف وسمح لمن هم أدنى منه في الرتبة بأخذ زمام المبادرة. في مرات عديدة، تحركوا جانباً للسماح له بالاقتراب من رأس الموكب؛ لكنه لم يلتفت إلى علامات الاحترام هذه، وبدا أنه منغمس في قلق عميق.

أي شخص كان يري أدولف دي نيولاند مع روبرت

دي بيثون كان من السهل أن يخطئ ويعتبره ابنه؛ بغض النظر عن الاختلاف الكبير: في العمر، بدا الفارسان متشابهين بشكل مذهل: نفس القوام، نفس السلوك، نفس ملامح الوجه؛ كانت ملابس الشاب الصغير فقط من لون مختلف، والشارة المطرزة على تجويف الصدر، بدلاً من أسد فلاندرز، كانت تحمل ثلاث فتيات صغيرات بشعرهن الذهبي في حقل من الخيوط.

في قمة شعار النبالة تقرأ هذه الكلمات: «جميل أن نموت من أجل الوطن».

نشأ أدولف دو نيولاند منذ طفولته في عائلة الكونت روبرت، وأصبح صديقه وكاتم أسراره، وعامله الكونت مثل الابن المحبوب. من جانبه، كان يكرم المحسن له باعتباره والده وسيده، وقد كرّس له ولأبنائه عاطفة لا حدود لها.

ليس بعيد عنه، كانت النساء النبيلات يتقدمن بملابسهن المرصعة بالذهب والفضة وكان مظهرهن يبهر نظر الجميع. وكانت النساء كافة يركبن خيولاً إلى حد ما صغيرة وسريعة الحركة، وقد سقطت من كل منهن تمورة طويلة، مخصصة للنساء لركوب الخيل، والتي غطت جوانب خيولهن. وقد أبرزت الصدريات الجميلة من القماش ذهبي اللون خصورهن الرشيق، وانحدرت شرائط كبيرة من أكفاهن،

من أعلى قلنسواتهن المزينة باللآلئ الثمينة. حملت معظمهن طائرًا جارحًا على قبضاتهن.

من بين هؤلاء السيدات النبيلات، كانت هناك من تطغى عليهن جميعاً، بجماها وروعة زيها. كانت هذه هي ماتيلدا، أصغر بنات روبرت.

كانت تقريباً أصغر النساء عمراً، ربما لم يكن عمرها أكثر من خمسة عشر عاماً، لكن رشاقة جسدها النحيل، والجازبية التي اتضحت على ملامحها الرقيقة، وأخلاقها الدمثة التي طبعت على شخصيتها كلها طابعاً ملكياً، أثارت شعوراً لا يُقاوم بالاحترام من أولئك الذين اقتربوا منها. وعلى الرغم من أن جميع الفرسان قد منحوها ألف علامة تدل على الإعجاب وتمافسوا في جهودهم لإرضائها، إلا أن أيًا منهم لم تكن لديه الجرأة على ترك الحب يستيقظ في قلبه. فقد كانوا يعرفون أن أميراً فقط يمكن أن يطمح إلى السعادة من وجود ماتيلدا كزوجة له.

كانت الفتاة الشابة تجلس بمنتهى الرشاقة على جوادها، وكانت ترفع جبهتها عالياً. بيدها اليسرى كانت تمسك باللجام بمنتهى السهولة، وكان يستقر على قبضتها اليمنى صقر رأسه مغطى بقلنسوة حمراء وأجراس ذهبية.

مباشرة يتبع النساء الجميلات العديد من المرافقين والغلمان الذين يرتدون ملابس حريرية بألوان مختلفة. يمكن التعرف

بسهولة على أتباع الكونت جي من زيهم المومج بالأسود على الجانب الأيمن والأصفر الذهبي على الجانب الأيسر. يرتدي البعض الآخر الأرجواني والأخضر، والبعض الآخر يرتدون الأحمر والأزرق، اعتماداً على اللون الذي يرمز لسيدهم.

كان الصيادون والصقارون يسيرون في المؤخرة. وأمام الصيادين والصقارين، سار نحو خمسين كلباً تم إمساكهم بمقاود من الجلد؛ من أفضل أنواع الكلاب البوليسية على الإطلاق.

كانت كل هذه الحيوانات، المتحمسة بعنف من اقتراب الصيد، سحبت المقاود التي تعوقهم كثيراً لدرجة أن الصيادين، في نهاية الأمر، اضطروا إلى رمي أنفسهم إلى الوراء لإيقافها.

على عصي الصقارين، كما نرى صقوراً وطيوراً جارحة من كل نوع جائمة، كما نرى الصقور الوكرية، والنسور والباشقات الأوراسية. كانت رؤوسها مغطاة بغطاء أحمر مع أجراس، وأرجلها ملفوفة بطبقة رقيقة من الجلد. بالإضافة إلى ذلك، حمل الصقارون طيوراً مزيفة من القماش القرمزي بأجنحة، بهدف تذكير الصقور التي ضلت طريقها.

وبمجرد وصول الموكب إلى مسافة معينة من الجسر، في

مسار أوسع، اختلط اللوردات مع بعضهم دون تمييز في الرتبة وبحث كل منهم عن صديق، أو رفيق، لتقصير الطريق بمحادثات مرحة أو ممتعة؛ وقد اقتربت العديد من السيدات حتى من الفرسان.

ومع ذلك، لا يزال جي دي فلاندرز وشارل دي فالوا على رأس القوات. لا أحد، في الواقع، كان لديه ما يكفي من الجرأة للتقدم عليهما، أو حتى الوقوف معهما في نفس الرتبة. ومع ذلك، فقد اقترب روبرت دي بيثون وجيوم، شقيقه، من الكونت جي، ومن جانبهما، جاء راؤول دي نيسل وجاك دي شاتيلون ليصطفا بالقرب من زعيمهما شارل دي فالوا؛ وقد ألقى هذا الأخير نظرة حانية على رأس كونت فلاندرز الأبيض ثم على الملاح الحزينة لابنه جيوم، وقد قال:

- صدقني أيها الكونت النبيل، وضعك المؤلم يؤرقني حقًا. وأني أشعر بحزنك الشديد كما لو أن مصائبك قد أصابتنى. ومع ذلك، احتفظ ببعض الأمل. فبفضل صلاتي، سيوافق أخي الملكي على الصفح وينسى الماضي.

أجاب جي بنبل:

- أنت مخطئ، يا سيدي، لقد اتضح لي بمنتهى القوة أن ملك فرنسا، ملكك، يرغب بشدة في تدمير فلاندرز؛ أليس هو من أثار رعاياي ضدي؟ ألم يخطف مني ابنتي فيلبين

بطريقة غير إنسانية وألقى بها في ززانة؟ كيف تريده أن يرفع الصرح الذي أطاح به وقد أراق الكثير من الدماء؟ في الحقيقة، يا سيدي، أنت مخطئ للغاية. فيليب لو بيل، أخوك وملكك، لن يعيدني أبدًا إلى البلد الذي أخذه مني. سيظل كرمك محفورًا في سطور لا تحي في قلبي حتى آخر يوم لي، لكنني أكبر من أن أهدأ بأمل خادع؛ سيدي، لقد انتهى عهدي، وهذه إرادة الرب!

أجاب كونت دي فالوا:

- أنت لا تعرف أخي الملك، في هذه المناسبة، صحيح، أفعاله تشهد ضده لكن أقسم لكم إن قلبه مخلص وكريم مثل قلب أعظم فارس.

قاطع روبرت دو بيثون السيد دي فالوا في هذه اللحظة وصرخ بصوت نافذ الصبر:

- ماذا تقول يا سيدي، قلب الملك فيليب مثل قلب أعظم فارس! هل من المفترض أن أي فارس ينتهك كلمته ويخون الثقة فيه؟ عندما وصلنا إلى كوربيل، مع فيلبين المسكينة، قدم لنا ملكك كرم الضيافة ثم ألقى بنا جميعاً في السجن (12). هل هذه الخيانة من عمل فارس مخلص، على سبيل المثال؟

أجاب الكونت دو فالوا:

- هذه كلمات جارحة للغاية، سيدي دي بيثون، ومع ذلك، لا أعتقد، حتى بعد سماعها، أنك قلتها بنية الإساءة إليّ أو إهانتني؟

أجاب روبرت:

- أوه! لا، بشرفي، لقد جعلنا كرمك أصدقاء. لكنني لا أصدق أنك تقول باقتناع إن فيليب ملك فرنسا هو فارس حقيقي.

رد الكونت دو فالوا:

- اسمع، أكررها لك: فيليب ملك فرنسا، أخي، أنبل روح وأرفع قلب. لكن الجبناء المتملقين يسيطون به ويجعلون أنفسهم مستشاريه. إنجويراند دو ماريني (13)، هذا الشيطان المتجسد يدفعه بلا انقطاع إلى الشر، وينصحه شخص آخر بما يرتكبه من أخطاء. الاحترام يغلق في ويمعني من تسميته؛ هو وحده سبب مصائبكم.

صاح الكونت دو شاتيلون بغطرسة:

- ومن هو هذا الشخص؟

أجاب روبرت دي بيثون:

- أنت تسأل عما تعرفه بالفعل، يا سيدي، لكن انتبه جيداً لكلماتي، سأقوم بتسميتها لك، هذه المرأة، هذه

الملكة، إنها جين دي نافار، ابنة أختك (14) التي تحتفظ بأختي عاترة الحظ لديها في الأسر. استمع مجددًا! إنها جين دي نافار، ابنة أختك التي غيرت العملة في فرنسا، إنها جين، ابنة أختك أخيرًا، التي أقسمت على خراب فلاندرز. عند هذه الكلمات، الكونت دو شاتيلون، المشتاط غضبًا، خطى بحصانه وتوقف أمام روبرت، وصرخ في وجهه بأعلي صوت:

- إنك تكذب بشأن ذلك زورا!

عند سماع هذه الإهانة المخزية، قام روبرت دي بيتون بإزاحة حصانه إلى الخلف بمنتهى الحدة وسحب سيفه المقوس من الغمد، ولكن عندما كان على وشك الاندفاع إلى دي شاتيلون، لاحظ أن عدوه ليس لديه أسلحة فأعاد سيفه إلى الغمد بغضب واضح، واقترب من الكونت وقال له بصوت مختق:

- لا أعتقد يا سيدي أنه من الضروري أن أرمي قفازي في وجهك (15). أنت تعلم أن الإهانة التي وجهتها لي للتو هي - في عيني - وصمة عار تغسل بالدم فقط. قبل أن تغرب الشمس سأطلب محاسبتك على إهانتني!

رد الكونت دو شاتيلون:

- ليكن، أنا مستعد للدفاع عن شرف ابنة أختي الملكة

ضد جميع فرسان فلاندرز والعالم!

لم يضيف الخصمان كلمة واحدة بعد ذلك وعادا لمكانيهما قبل الخلاف. لكن هذه المشاجرة القصيرة سمعها الفرسان الآخرون بمشاعر مختلفة. شعر العديد من الفرنسيين بالغضب الشديد تجاه الكلمات التي قالها الكونت روبرت بمنتهى الثقة، لكن وفقاً لقوانين الشرف، لم يتدخلوا بأي شكل من الأشكال في الشجار. هز تشارلز دي فالوا رأسه بفارغ الصبر، ويمكننا أن نرى على وجهه مدى استيائه من هذا الشجار، بينما، على العكس من ذلك، أضاءت ابتسامة فرح ملامح الكونت جي. وقال بصوت منخفض وكان يميل نحو الكونت دي فالوا:

- ابني روبرت، إنه فارس شجاع. وقد عرف ملكك فيليب مدى شجاعته عندما حاصر ليل، وسقط أكثر من نبيل فرنسي تحت سيفه. شعب بروج، يحبه أكثر مما يحبني، يطلقون عليه لقب أسد فلاندرز، وهو لقب شرف فاز به من خلال قتاله مينفروي (16) في بينيفنت.

أجاب الكونت دو فالوا:

- إنني أعرف السيد روبرت منذ فترة طويلة، والجميع يعرف بأي شجاعة انتزع هذا السيف البتار من يد الطاغية الذي ذكرته للتو مينفروي. وتحظى مآثره بشهرة عالية بين فرسان وطني. في فرنسا، يعتبر أسد فلاندرز الذي لا يقهر،

وهو جدير بسمعته العظيمة.

عند هذه الكلمات أضاءت ابتسامة من السعادة ملامح الأب الكهل. ولكنها سرعان ما اختفت وأطرق برأسه، وأجاب بتنهيدة مؤلمة:

- سيدي دي فالوا، أليست مصيبة عظيمة ألا تكون قادراً على ترك ميراث لمثل هذا الابن؟ هو الذي كان سيجلب الكثير من المجد والبريق اللامع إلى منزل فلاندرز! آه هذه الفكرة وسي ابنتي هذان الشبحان اللذان يدفعاني نحو القبر.

لم يرد الكونت تشارلز على مظالم جي الحزينة، وظل لفترة طويلة منغمساً في التأمل العميق وترك لجام حصانه معلقاً من حلق السرج. لاحظ جي هذا المنظر وأعجب بسخاء قلب السيد دي فالوا؛ لم يكن يشك في ذلك، كانت مصائب عائلة فلاندرز بالنسبة للأمير الفرنسي مصدر حزن مرير وحقيقي.

فجأة عاد تشارلز دي فالوا إلى رشده، وأضاءت عيناه بفرح، ووضع يده في يد الكونت جي وقال:

- حقاً، إنها السماء التي أرسلت لي هذا الإلهام!

نظر إليه جي بفضول. أجاب الكونت دو فالوا:

- نعم، أريد ذلك؛ أخي الملك فيليب سيعيدك إلى عرش

أسلافك!

- وما هي الوسيلة القوية بما يكفي التي يمكن أن تصنع مثل هذه المعجزة، بينما أعطاك الملك ممتلكاتي كافة؟

- اسمعني، أيها الكونت النبيل، ابنتك تئن في الأبراج المحصنة في اللوفر؛ يُصادر ميراث أجدادك ولم يعد لأبنائك إقطاعية واحدة. حسناً، أعرف طريقة لإنقاذ ابنتك واستعادة مقاطعتك.

صاح الكونت جي بفرح:

- إذا كان الأمر كذلك.. لكن لا، أجب مرة أخرى بحزن، للأسف، لا أستطيع أن أصدقك، سيدي، ما لم تكن قد تلقيت خبر وفاة ملكتك، جين دي نافار.

رد الكونت دي فالوا:

- لا، تحتاج جين إلى معجزة، لكن الملك فيليب يعقد جلسة عامة في كومبيين والملكة جين في باريس! وإنجويراند دو ماريني معها. أتوافق على متابعتي إلى كومبيين، باصطحاب أخلص التابعين لك في المقاطعة، وألقي بنفسك عند قدمي أخي لتكريمه بصفته أرحم ملك؟

سأل جي في مفاجأة:

- وبعد؟

- سوف يستقبلك بالرحمة وسوف يسلمك دولة فلاندرز
وابنتك في الوقت نفسه. ثق بكلماتي؛ لأن أخي في غياب
الملكة هو أشرف الأمراء.

صاح جي بمنتهي الحماس:

- شكراً لملاكك الحارس، الذي أعطاك هذا الإلهام
المبارك، ولك، سيدي دي فالوا لقلبك النبيل! يا إلهي،
إذا كان بفضل هذا يعني أنني أرى دموع طفلي المسكينة
وهي تجف! لكن ربما تنتظرنني سلاسل زلزلة في فرنسا
هذه المليئة بالمخاطر.

أجاب تشارلز دي فالوا:

- لا تخش شيئاً سيدي الكونت، لا تخف، سأدافع
عنك وأدعمك ضد الجميع. جواز المرور بأمان يحمل ختمي
ويضمنه شرفي سيعيدك إلى روبلوند إذا كانت جهودنا غير
مجدية (17).

ترك الرجل لجام حصانه، وأمسك يد الفارس، وضغط
عليها بامتنان عميق. قائلاً بصوت متأثر:

- أنت خصم نبيل!

وبينما تتواصل المحادثات، ويقدم لهم الكونت دي فالوا
بعض التفسيرات الضرورية، وصلت القوات بأكملها إلى
سهل شاسع يتخلله نهر الكريكليبيك بشكل متعرج، واستعد

الجميع للصيد. أخذ الفرسان الفلنكيون صقورهم على قبضاتهم. تم تقسيم الكلاب إلى مجموعات مختلفة وفكت قيود الصقور.

ثم اختلقت السيدات بالفرسان وحدث أن وجد تشارلز دي فالوا نفسه بجوار ماتيلد الجميلة. فقال لها:

- أعتقد أيتها الأميرة الجميلة، أن ثمن الصيد لا يمكن أن يكون غير مؤكد، إنني لم أر أبداً طائراً جميلاً مثل الذي تحمليه، بريشه المتساوي، ومنقاره القوي ومخالبه القوية للغاية. هل هو ثقيل على قبضتك؟

أجابت ماتيلد:

- أوه! نعم سيدي، إنه ثقيل للغاية، ولكن على الرغم من أنه تدرب فقط على الصيد المنخفض، إلا أنه سيعرف أيضاً كيف يصطاد البلشون والكركي في أعلى نقطة هواء.

لاحظ الكونت:

- يبدو لي، أن سيادتك تجعلينه ينمو أكثر من اللازم. ألن يكون من الأفضل تقليل طعامه ولو حتى قليلاً؟

صاحت الفتاة الصغيرة بفخر:

- لا، لا، عذراً يا سيدي، لكنك مخطئ؛ إن صقري على المستوى المطلوب. لا تسخر مني، فعلى الرغم من أنني فتاة صغيرة، فأنا أفهم في الصقارة ورعاية الصقور. لقد قت

بتربية هذا الصقر النبيل، ودرسته على الصيد، وشاهدته
في الضوء أثناء الليل.. توقف، سيدي دي فالوا، توقف
-أضفت بسرعة- ها هو ديك الغابة يحلق في السماء!

بينما أدار الكونت عينيه نحو المكان المشار إليه، حرت
ماتيلد رأس صقرها من قلنسوته وألقته في الهواء.

الطائر، الذي شعر بالحرية أخيراً، أعطى أربع أو خمس
ضربات بجناحيه في الهواء وبدأ يحلق برشاقة أمام سيده.

صاحت ماتيلد:

-هيا يا عصفوري المحبوب! اذهب!

عند هذا الأمر، حلق الطائر بسرعة السهم؛ بالكاد يمكن
للعين أن تتبعه. للحظة، بقي عالياً في الهواء، كما لو كان بلا
حراك ونائماً على جناحيه، ولكنه كان يبحث بعينه الثاقبة
عن فريسة معينة. وقد رأى ديك الغابة وهو يحاول الهروب
والطيران سريعاً، فسقط كحجر على الطائر المسكين،
واحتضنه بين مخالبه الحادة.

صاحت الأميرة الشابة بفرح:

- وكما ترى يا سيدي، ها أنت ترى كيف أن يد المرأة
يمكن أن تفهم أيضاً في ترويض الصقور! ستري بكل
تأكيد أن الطائر الوفي سوف يعود بغنيمته.

لم تكذب تنتهي من كلماتها، حتى سقط الصقر على يدها وهو

ممسك بفريسته.

وتابعت:

- «سيدي، لا تغضب مني». لقد وعدت أخي أدولف، وهو حالياً بالقرب من والدي، بأول صيد له.

- تقصدين أخاك جيوم، سيدتي؟

- لا، أخي، أدولف دو نيولاند. إنه طيب، ولطيف جداً معي، لدرجة أنني أطلق عليه اسم أخي؛ فهو يساعدني في تربية صقوري، يعلمني الأغاني والقصائد ويعزف على القيثارة من أجلي. وكلنا نحبه.

بينما كانت ماتيلد تتحدث بهذه الطريقة، ركز عليها شارل دي فالوا نظرة ثابتة؛ لكن هذا الفحص أظهر له فقط إحساس الصداقة في قلب الفتاة. وقد قال مبتسماً:

- «إذا كان الأمر كذلك، فهو يستحق هذا الاسم الجميل وهذا النعمة الساحرة». أنا لا أمنعك من الذهاب، هيا اذهبي.

حيته ماتيلد، ودون أن تقلق بشأن وجود الفرسان الآخرين، صرخت بصوت عالٍ:

- أدولف! سيد أدولف!

ولوّحت بديك الغابة في الهواء بفرح وحركات طفولية.

عند هذا النداء، جاء الشاب راكضاً. صاحت:

- تفضل، أدولف، هذه هي مكافأة الحكاية الجميلة التي علمتني إياها.

انحنى الفارس الشاب للكوتيسة باحترام، واستقبل بسعادة الطائر بين يديه. كان اللوردات الحاضرون ينظرون إليه بعين الحسد، وحاول أكثر من شخص، ولكن دون جدوى، اكتشاف شعور سري في وجهه. و فجأة انتزعوا بعيداً عن هذا التحقق.

صاح كبير الصقارين، سيدي دي بيثون:

- بسرعة! حرر صقرك وأطلقه، هناك أرنب!

بعد لحظة حلق الطائر فوق السحاب وحل مثل البرق على الحيوان الفقير الذي اصطاده أثناء طيرانه. يا له من مشهد مثير للفضول وغريب! بمجرد أن ينقض الصقر بمخالبه على جوانب الأرنب الذي يركض بسرعة كأنه في قمة السباق، يتشبث به بقوة ويسحب الحيوان في محاولة هروبه. ولكن السباق لا يكون طويلاً؛ فبمجرد مرور الضحية بالقرب من إحدى الشجيرات، يمسك الصقر بفرع بأحد مخالبه، ويمسك بالآخر الأرنب بقوة لدرجة أن الحيوان البائس، رغم كل جهوده، لا يستطيع أن يخطو خطوة جديدة. ثم يتم إطلاق سراح بعض الكلاب، الذين يندفعون نحو الأرنب ويأخذونه من الصقر. يطير بعد ذلك

الطائر الشجاع منتصراً، ويبدأ يحوم فوق الكلاب ويرافقهم إلى جانب الصيادين؛ ثم يصعد إلى السماء ويظهر فرحه وهو يدور في الهواء.

صاح الكونت دو فالوا:

- سيد دو ييشنون، في الحقيقة أن لديكم طائراً نبيلاً هنا؛ إنه صياد جميل وشجاع.

أجاب روبرت:

- نعم يا سيدي، إنه صقر رائع، وفي لحظة، سأريك قوة مخالفه.

عند هذه الكلمات اكتشف الطائر الذي كان يناديه، وبجرد أن رآه الصقر، جاء وهبط على قبضة سيده.

تابع روبرت، وهو يظهر الطائر إلى الكونت دي فالوا:

- انظر إلي ذلك الريش البني الجميل، ذلك الصدر بلونه الأبيض النقي وتلك الأرجل المرتفعة ذات اللون الأزرق الجميل.

تابع الكونت:

- أنا معجب به، سيد روبرت، معجب بقوته وشجاعته، إنه لا يشبه أي صقر على الإطلاق؛ لكن يبدو أنني أرى بضع قطرات من الدم.

فحص روبرت أرجل الصقر وصاح بقوة:

- هنا أيها الصقارون! مزق الطائر درعه الجلدي وأصيب بجروح بالغة. يا إلهي! من الواضح أن الحيوان المسكين يبذل جهداً عنيفاً للغاية! اعتنِ به بشكل جيد! ستيفن، أنت الذي رببته وروضته، عالجها؛ سأكون أسفاً إذا مات.

كاد أن يسلم الصقر المصاب لستيفن، الذي أخذه والدموع في عينيه. كان ستيفن مسؤولاً عن تربية الصقور وترويضها؛ كانت هذه الحيوانات قريبة من قلبه وكأنها أطفاله.

بعد أن أطلق اللوردات الرئيسون صقورهم، أصبح الصيد عاماً. في غضون ساعتين، تمكنوا من صيد جميع أنواع الطيور التي تحلق على ارتفاع عالٍ، مثل البط، البلشون، الكركي، وأيضاً الكثير من الطيور التي تحلق على ارتفاع منخفض، الحجل، السمان والكراون. عندما اشتدت حرارة النهار، دوت أبواق الصيد في السهل. وبعد ذلك، تمت إعادة ترتيب الموكب والانطلاق نحو وينينديل.

على طول الطريق، استأنف تشارلز دي فالوا حديثه مع جي الكهل. على الرغم من أن كونت فلاندرز لم يكن خالياً من عدم الثقة والتردد في القيام بالرحلة إلى فرنسا، إلا أنه عقد العزم، بدافع المودة لأطفاله، أن يخاطر بهذه الرحلة الاستكشافية المقلقة. استسلم أخيراً لتوسلات الأمير

الفرنسي، واتفق مع جميع النبلاء الذين ظلوا متعلقين بمصيره على الذهاب ورمى نفسه عند قدمي فيليب لو بيل والسعي، بهذه الخطوة المتواضعة، لتحريك شفقة سيده. هز غياب الملكة حين قلبه بأمل جميل أن فيليب لو بيل، إذا أصبح بمفرده، لن يكون عنيداً.

انفصل روبرت دو بيثون والكونت دو شاتيلون عن اللوردات الآخرين؛ لقد تجنبنا كل المناسبات التي يمكن أن تجمعهما، ولم يتكلم أي منهما، منذ الخلاف، بكلمة واحدة. سار أدولف دو نيولاند بجوار ماتيلد وعمها جيوم. بدت الأميرة الشابة منتبهة للغاية ومشغولة للغاية بأغنية أو بحكاية شعبية مغناة يرددتها لها أدولف؛ فمن وقت لآخر تصيح السيدات من حوله بإعجاب:

- ياله من راوٍ جيد، ياله من مغنٍ مثقف هذا السيد نيولاند!

وصلوا أخيراً إلى وينينديل، ودخل الموكب القلعة. لم يرتفع الجسر ولم تسقط البوابة. بعد لحظات قليلة، عاد اللوردات الفرنسيون إلى الظهور بأسلحتهم. عند عبور الجسر المتحرك، قال شاتيلون لأخيه:

- تم الاعتداء على شرف ابنة أختنا؛ كان على عاتقي الدفاع عنها وأنا أعتمد عليك كطرف ثانٍ في النزال.

تساءل سان دو بول:

- ضد الكونت روبرت؟ لا أعلم، لكن هذه المنازلة ستكون صعبة؛ إن سيف أسد فلاندرز ماهر وأنت تعرف ذلك جيداً مثلي.

صاح دو شاتيلون بكل نخز:

- لا يهم! يثق الفارس بمهارته وشجاعته، وليس بقوته الجسدية.

- أعرف يا أخي. الفارس لا يجب أن يتراجع أمام أي أحد؛ ولكن من الأفضل عدم الكشف عن نفسه دون تفكير. لا داعي للقلق بشأن ما قد يقوله الكونت، من كلمات؛ لأنه لم يعد يمتلك أي إقطاعية وهو تحت رحمتنا الآن!

- احرس، سان دو بول! ما تقوله خطأ. هل تفتقر إلى الشجاعة؟

بعد ذلك، غاصا تحت الأشجار مع الفرسان الآخرين.

أسقط الرجال المسلحون البوابة، ورفعوا الجسر المتحرك، واختفوا.

لأخذ من الآلهة شهداء على جهودي. من أجل
التخفيف من مصير أطفالك ومصيرك..

(جان تن برينك، ميدي)

في الوقت الحالي، يجب علينا أن نجعل قراءنا يتعرفون
على الجزء الداخلي لقلعة وينينديل. بعد اجتياز البوابة
المتحركة، دخل الفارس أو الشاعر الغنائي الذي تم تقديمه
أولاً في مربع بزواياه الأربع وفي الهواء الطلق. على يمينه،
كان بإمكاننا رؤية الإسطبلات، وهي كبيرة بما يكفي
لاستيعاب مئة حصان بسهولة. كانت الإسطبلات تحظى
بقليل من العناية لدرجة أن أكواماً من السماد، ينقرها
عدد لا يحصى من الحمام، كانت منتشرة أمام الأبواب.
على اليسار، ارتفع المبنى الذي كان بمثابة نزل للرجال
المسلحين ومروزي الخيول، وبعيداً، في نهاية الفناء،
تكادت آلات الحرب والحصار (18) تحت سقائف
ضخمة. كانت عبارة عن كباش ضخمة مع دعائمها وخزانات
نقلها، ومقذوفات، تهدف إلى رمي السهام إلى المكان
المحاصر، ومنجنيق يمكن بواسطته إلقاء حجارة كبيرة على
قمة الأبراج وما وراء الأسوار، ثم مرة أخرى الجسور
التي تسقط فوق الجدران، في وقت الهجوم، والمزالق،
والمقذوفات الحارقة ومجموعة من الآلات التدميرية

الأخرى.

أمام المسافر الذي يدخل، ترتفع أبراج قصر الكونت بشكل مهيب فوق المباني السفلية التي تحيط به. يؤدي درج حجري، عند سفحه أسدان أسودا اللون، إلى الطابق الأول الذي يسمح بالوصول إلى سلسلة طويلة من الغرف المربعة. العديد منها بداخلها سرير مخصص لاستقبال ضيف عابر، ومنها ما هو مزين بالأسلحة القديمة التي كانت تخص كونتات فلاندرز القدامى، أو بالرايات أو جبال الرايات التي كانوا يستخدمونها في المعارك. على اليمين، في زاوية هذا المبنى الشاسع، كانت هناك غرفة أصغر، مربعة أيضاً، لكنها مختلفة تماماً عن الغرف الأخرى. على البساط الذي يغطي الجدران، نرى القصة الكاملة للحملة الصليبية السادسة، ممثلة بشخصيات بدت على قيد الحياة. على أحد الجانبين يظهر الكونت جي مرتدياً الحديد من الرأس إلى أخمص القدمين ومحاطاً بفرسانه، وهو يقدم لهم الصليب المقدس. في الخلفية، بدأت مجموعة من الرجال المسلحين في المسيرة. يمثل الجانب الثاني معركة المنصورة التي وقعت عام 1250 وانتصر فيها المسلمون. كان من السهل التعرف على سان لويس، ملك فرنسا، والكونت جي من خلال راياتهما. يقدم الجانب الثالث مشهداً مروعاً. كان عدد كبير من الفرسان المسيحيين، مصابين بالطاعون، يموتون على الأرض الجرداء والقاحلة، بين بقايا رفاقهم القتلى

وجثث خيولهم المشوهة! كانت غربان الشؤم تحلق فوق الجيش البأس وتنتظر أي محارب يخرج آخر نفس لديه لتغذى على جسده. قدم الجانب الرابع مشهداً أكثر بهجة. كانت العودة السعيدة لكونت فلاندرز إلى ولاياته. زوجته الأولى، فوغاست دي بيتون، رأسها على صدره، تذرف دموع الفرح، بينما ابناه روبرت وبودوان يضغطان على أيديهما بمودة. كانت هذه العودة هي اللوحة الأخيرة.

كان في هذه الغرفة، بالقرب من المدفأة الرخامية التي اشتعلت فيها النار باستخدام قطع خشبية صغيرة، كان الكونت فلاندرز الكهل جالساً، عند عودته من الصيد: كان يستريح على كرسي -بذراعين- ثقيل وضخم، فريسة لقلق عميق؛ ورأسه مستلقٍ على يده اليمنى، كان يحرق بنظرة غامضة وغير منتبهة إلى ابنه جيوم، جالساً غير بعيد عنه ومشغولاً بقراءة الصلوات في كتاب مزين بشرائط فضية. كانت الكونتيسة ماتيلد، ابنة روبرت دي بيتون، تلعب مع طائرها المفضل في الطرف الآخر من الغرفة. كانت تربت على الطائر دون الالتفات إلى جدها أو عمها جيوم. في حين أن جي، الذي كان يسيطر عليه نذير شؤم، يفكر في مصائبه الماضية ويطلب الرحمة من السماء، لم تكن الفتاة الخالية من الهموم قلقة على الإطلاق من أن إرث والدها قد وقع في أيدي الفرنسيين. ومع ذلك، فإن قلب الفتاة، التي كانت نصف طفلة، لم يكن قاسياً؛ لكن حزنها، سحابة

طفيفة، لم تدم أكثر من زمن الحدث الذي ولده. عندما أعلن أن العدو غزا جميع مدن فلاندرز، انفجرت بالبكاء بمرارة؛ ولكن في مساء نفس اليوم، عندما بدأت في تدليل صقرها مرة أخرى، جفت دموع الفتاة الصغيرة ونسيت كل شيء..

لوقت طويل كان الرجل الكهل ينظر إلى ابنه بعين يملؤها الشك والحنان، هذا عندما أنزل فجأة يده التي تسند رأسه، وقال له:

- جيوم، ابني، ماذا تطلب من الرب بكل هذه الورع؟
أجاب الشاب:

- أدعو الرب لأختي فيلبين المسكينة. الرب أعلم، يا أبي، إذا لم تكن الملكة جين قد ألقته بالفعل إلى القبر.. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإن صلاتي من أجل روحها!

عند هذه الكلمات، خفض رأسه بعمق، وكأنه يريد إخفاء دموعين نزلتا من عينيه. تنهد الأب المسكين تنهيدة طويلة؛ لقد شعر في قلبه بنفس توقع ابنه، جين دي نافار كانت امرأة شريرة وقاسية؛ لكنه لم يدعه يرى ألمه وواصل:

- ليس من المعقول، يا جيوم، أن تحزنك مجرد توقعات قائمة. الأمل موجود لمواساة الإنسان فوق الأرض، فلماذا ليس لديك أمل؟ أليس من الأفضل لك أن تكون غير

حساس للمصير المحزن لأختك؛ ولكن باسم الرب، ابدل
جهداً لتخلص من اليأس الكئيب الذي يربكك.

- تريدني أن أتوقف عن البكاء يا أبي! فهل يمكنني أن
أبتسم بينما تتأوه فيلبين المسكينة في الزنزانة؟ لا، أنا لا
أستطيع. إنها تذرف دموعها في صمت على أرض سجنها
المتجمدة، وتشكو للسماء الآماها؛ تباديك يا أبي. تبادينا
جميعاً لمساعدتها، ومن يجيبها؟ أصداء اللوفر الكئيبة تحت
الأرض! ألا تراها شاحبة مثل شبح الموت، واهنة
وذابلة مثل الزهرة المحتضرة؟ ألا يمكنك أن تراها وهي
تمد ذراعيها إلى الرب؟ ألا تسمعها تصرخ: «أبي! إخوتي!
حرروني! إنني أموت تحت وطأة السلاسل..». هذا ما
أراه، ما أسمعه في أعماق قلبي.. ما يتردد في روحي.. بعد
ذلك كله، أتريد مني أن أتوقف عن البكاء!

ماتيلدا، التي سمعت نصف هذه الإجابة المؤسفة، وضعت
صقرها على عجل فوق ظهر كرسي وسقطت على قدمي
جدها وهي تبكي، أحنّت جبهتها على ركبتيه وصاحت وهي
تنتحب:

- عمتي العزيزة هل ماتت؟ يا إلهي يا له من حزن كبير!
هل هي حقاً ميتة؟ ألن أراها مرة أخرى؟
رفعها الكونت بلطف وقال لها في حنان:

- اهديني يا ابنتي العزيزة؛ لا تبكي: فيلبين لم تمت.

تساءلت الفتاة مندهشة:

- ليست ميتة؟ لماذا إذا يتحدث سيدي جيوم عن الموت؟
أجاب الكونت:

- أنت لا تفهمين، لم يتغير شيء في وضع فيلبين.

ماتيلدا، بينما كانت تجفف دموعها، ألقت نظرة لوم على
جيوم وقالت وهي تنتحب مرة أخرى:

- أنت تحزنني دائماً دون سبب يا سيدي! قد يميل
المرء إلى الاعتقاد بأنك نسيت كل كلمات العزاء؛ لأن
خطاباتك دائماً ما تكون مؤلمة للغاية، لدرجة أنها تجعلني
أرتجف، حتى صقري يخاف من صوتك، وقد أصبح جباناً
ومثيراً للشفقة! لا يليق بك يا سيدي أن تزيد من حزننا
بهذه الطريقة.

نظر جيوم إلى الفتاة الصغيرة بنظرة يبدو منها أنه يتوسل
لها لكي تسامحه؛ وبمجرد أن رأت ماتيلدا تلك النظرة الحزينة
والمؤلمة، ركضت نحوه وأخذت إحدى يديه بحنان بين
يديها، وقالت:

- أوه! اغفر لي، سيدي جيوم! أحبك من كل قلبي،
ولكن أيضاً لا يجب أن تحزنني دائماً بكلمة الموت القبيحة
التي لا تزال ترن في أذني. سامحي أرجوك!

قبل أن يحظى جيوم بالوقت للإجابة، عادت إلى نهاية الغرفة واستأنفت تسليتها، رغم أنها لم تكن قد كفت عن البكاء بعد.

قال الكونت لجيوم:

- ابني، لا تدع نفسك تتأثر بكلمات ماتيلد. أنت تعرف كم هي صريحة وعاطفية للغاية.

- أنا أسامحها من كل قلبي يا أبي. كان الحزن الذي شهدته لتوها على وفاة فيلبين بمثابة تعزية لي.

أعاد جيوم فتح كتابه وقرأ هذه المرة بصوت عالٍ:

«يا يسوع المسيح مخلصنا ارحم أختي. باسم مسيرتك المؤلمة، حررها يا رب».

عند سماع اسم الرب، قام جي الكهل قليلاً، ضم يديه على بعضهما وانضم إلى جيوم في صلاته، وركعت ماتيلد في ركن من الغرفة أمام صليب كبير. واصل جيوم:

«إلى مريم المقدسة، والدة الإله، أتوسل إليك، استمعي إلي.. العذراء المقدسة، عزيها في سجنها المظلم! يا يسوع الحبيب يا يسوع الممتلئ بالرحمة ارحم أختي المسكينة!».

انتظر جي انتهاء الصلاة، ثم توجه بالحديث إلى ابنه، دون أن يعير ماتيلد أي اهتمام، قال له بصوت عالٍ:

- ألا يبدو لك أننا مدينون بامتنان كبير لسيد دي فالوا؟

أجاب الشاب:

- السيد دو فالوا من أفضل الفرسان الذين أعرفهم. لقد كان دائماً نبيلاً ويتعامل معك بود كبير، لقد احترمت شعرك الأبيض يا أبي، وكانت كلماته لك مواساة وتعزية. كانت مصيبتنا، أسر أختي سنتهي منذ زمن بعيد، إذا كنا تحت سلطته. الرب يرزقه الخلاص الأبدي جزاء لمشاعر قلبه النبيلة!

أجاب الكونت جي:

- نعم يرحمه الرب في آخر ساعة له! لأنه، وهو خصمنا، وأمير من الدم الملكي الفرنسي وشقيق الملك، مضطهدنا، كان كريماً بما يكفي لمواجهة، غضب وكرهية جين دي نافار بسببنا.

تابع جيوم:

- ولكن، يا أبي، ماذا يمكن أن يفعل تشارلز دو فالوا لنا ولأختي؟

- اسمع يا بني العزيز. هذا الصباح، أثناء الصيد، أطلعني على طريقة لمصالحتنا، بمساعدة الرب، مع الملك فيليب، ملك فرنسا.

صفق الشاب بيديه بحركة تم عن البهجة وصاح:

- أوه! يا إلهي! كان ملاكه الحارس يتكلم من فمه، فماذا تفعل حيال ذلك يا أبي؟

- سأذهب، مع النبلاء، أبحث عن الملك في كومبيين، وأقدم فروض الطاعة والولاء.

- والملكة جين؟

- جين دونافار الملكة التي لا ترحم في باريس مع إنجويرانيد دي ماريني. لم تأت لحظة موأية من قبل مثل هذه اللحظة.

- أرجو من الرب ألا يخيب أملك يا أبي. ومتى تريد الشروع في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر؟

- سيأتي السيد دو فالوا، متبوعاً بفرسانه، لاصطحبانا بعد الغد من وينينديل. إنه هو نفسه الذي سيكون بمثابة مرشدنا. لقد أرسلت إلي النبلاء الذين ظلوا مخلصين لي، وعندما يتم لم شملهم، سأبلغهم بمشروعي. لكن بالمناسبة أين روبرت؟ لماذا يبقى خارج القلعة لفترة طويلة؟

- هل نسيت هذا الشجار الذي حدث في الصباح يا أبي؟ لا شك، أنه في الوقت الحاضر، يعاقب السيد دي شاتيلون على الإهانة الجارحة التي تلقاها منه.

أجاب الكونت الكهل:

- آه! هذا الشجار! السيد دو شاتيلون هو عدو يجب تجنبه.
إنه من ضمن الأشخاص الأقوياء وذوي النفوذ في بلاط
فيليب لو بيل.

في ذلك الوقت، لم يكن للفارس ما هو أعلى من شرفه
وسمعه الطيبة. كان ظل الإهانة كافياً لجعله يخاطر
بحياته، وبالتالي أصبحت المبارزات أمراً متكرراً لم يعد أحد
يهتم به كثيراً.

نهض جي وقال:

- لقد قاموا للتو بإنزال الجسر المتحرك. لقد وصل
أصدقاؤنا بلا شك. أعطني ذراعك يا بني ودعنا نذهب إلى
القاعة الكبرى.

بعد ذلك، خرجا وتركما ماتيلد بمفردها.

بعد فترة وجيزة، تجمع أسياذ مالديجم، رود، كورتريك،
أودينارد، هايل، نيفيل، روباي (19)، جوتيه دي
لوفنديجم مع شقيقه، والعديد من الآخرين، والذين وصل
عددهم إلى اثنين وخمسين (20)، في قاعة الشرف حول
الكونت الكهل. كان بعضهم يقيمون مؤقتاً في القلعة،
وكان الأمراء الآخرون يقيمون بالقرب من وينينديل.

انتظر الجميع بفضول الأخبار أو الأمر الذي سيعطيه
الكونت لهم ووقفوا منتصبين ورؤوسهم مكشوفة، مع

كامل الاحترام لسيدهم المخلوع.

تبع ذلك بضع لحظات من الصمت. أخيراً خاطبهم جي دي دامبيير:

- أيها السادة، أتم تعلمون أن ولائي للملك فيليب، السبب الحقيقي للهآسي. عندما طلب مني أن أسأل المقاطعات عن حسابات إداراتها، قررت بصفتي تابعاً خاضعاً الامتثال لطلبه. لكن بروج رفضت أن تطيعني وثار رعاياي ضدي. عندما ذهبت إلى فرنسا مع ابنتي لتكريم الملك، أخذنا جميعاً سجناء، ولا تزال ابنتي تئن، في الوقت الحاضر، في زنازين اللوفر! أتم تعلمون كل هذا يا سادة لأنكم كنتم رفقاء أميركم المخلصين. كنت أرغب، حسب ما يتطلبه كرامتي، أن أضمن أن يسود حقي بقوة السلاح، ولكن سوء الحظ تحالف ضدنا: لقد حنث ملك إنجلترا بوعده وقاطع التحالف الذي كان بيننا وتخلي عنا في وقت الخطر. اليوم، تم غزو بلدي، وأصبحت الأخير فيما بينكم، ولم يعد شعري الأبيض يطوقه تاج الكونت. وأتم الآن تطيعون سيداً آخر.

صاح جوتيه دولوفينديجم:

- ليس بعد! ليس بعد! إذا كان الأمر كذلك، كنت سأكسر سيفي إلى الأبد. مولاي وسيدي الوحيد هو النبيل جي دي دامبيير!

- سيد لوفينديجم، إن ولاءك وإخلاصك لي يلامسان قلبي بالفعل، ولكن كن رابط الجأش واستمع إليّ حتى النهاية: غزا السيد دي فالوا فلاندرز بالقوة المسلحة وحصل عليها كإقطاعية من شقيقه الملك فيليب. وبسبب كرمه ما زلت أجد نفسي بينكم في وينينديل، كان هو نفسه من استدعاني من روبلوند إلى هذا السكن. علاوة على ذلك، فقد قرر رفع منزل فلاندرز من انحطاطه وأحل تاج الكونت مرة أخرى على رأسي. وفي هذا الشأن يجب أن أتحدث إليكم؛ لأنني أجمع بكم اليوم لطلب المساعدة والعون منكم في هذا الأمر.

ارتفعت دهشة اللوردات، الذين يستمعون إلى جي باهتمام شديد، إلى ذروتها. لقد بدا أمرًا لا يصدق بالنسبة لهم أن تشارلز دي فالوا أراد إعادة البلاد التي احتلها. نظروا إلى بعضهم البعض ونظروا إلى الكونت في دهشة. تابع جي بعد استراحة قصيرة:

- أيها السادة، تعاطفكم معي معروف بالنسبة لي، ولهذا أخطبكم بأمل كامل في موافقتكم على آخر رجاء سأطلبه منكم. بعد غد، سأرحل إلى فرنسا: سألقي بنفسني عند أقدام الملك؛ ورجبتي هي أن ترافقوني إلى هناك.

أجاب اللوردات، واحدًا تلو الآخر، أنهم جميعًا على استعداد للرحيل، لمرافقة الكونت حيثما يشاء لقيادتهم

وتقديم المساعدة له في جميع الظروف. واحد فقط بقي صامتاً. كان فارساً كهلاً مثله اسمه ديديه ديفوس.

تساءل الكونت:

- السيد ديديه، ألن تكون معنا؟

- بعيداً عني هذا التفكير! -صاح ديديه- ديفوس سوف يرافقتك، حتى إلى أسفل الجحيم. لكنني أقول لك أيضاً، أيها النبيل، ساعني على جرأتي، أقول لك إنه ليس من الضروري أن تكون ثعلباً طاعناً في السن لترى الفخ. لقد تم سجنك مرة وتريد أن تسلك مرة أخرى نفس المسار؟ آه! سيدي، الرب يكلل مسعك بالنجاح! ولكن، على أي حال، أنحن متأكدون أن فيليب لو بيل لن يأخذ ثعلبنا؟

تابع الكونت:

- أنت تحكم وتحدث باستخفاف، سيدي، سيعطينا تشارلز دي فالوا جوازاً بالمرور بأمان موقع بيده، وقد وعدني، بشرفه، بإعادتنا إلى فلاندرز سالمين.

اللوردات، الذين يعرفون ولاء كونت دي فالوا، اعتبروا وعده ضماناً كافياً واستمروا في التحدث إلى جي. في غضون ذلك، تسلل ديديه ديفوس من الغرفة وذهب سيراً على الأقدام إلى الفناء.

بعد فترة وجيزة، تم إنزال الجسر المتحرك وعبر روبرت

دي بيثون مدخل القلعة. عندما نزل من على حصانه،
اقترب منه ديديه وقال:

- إنه من غير المجدي، يا سيدي أن أسال عن أخبار
عدوك؛ فسياف أسد فلاندرز لم يخفق أبداً. شاتيلون
بالتأكيد في طريقه إلى العالم الآخر؟

أجاب روبرت:

- لا. شكراً للرب! إنه ما زال يسكن في هذا العالم؛ لكن
سيفي قد انغرس بقوة في خوذته، مما سيجعله لا يستطيع
أن ينطق بكلمة على الأقل لمدة ثلاثة أيام، لكنه لم يمت،
حمداً للرب! ولكن مصيبة أخرى تحزنني. أدولف دو
نيولاند، الذي كان يلعب دور الرجل الثاني في النزال،
قد أصيب للتو في رأسه، عندما فتح درعه، وأصابه سيف
سان دي بول بجروح خطيرة. اركض لمقابلته، سيد
ديفوس، فأتباعي يعيدونه إلى القلعة.

تساءل ديديه:

- لكن سيدي، ما رأيك في هذه الرحلة إلى فرنسا؟
أليست هذه خطوة متهورة؟

- أي خطوة؟ أي رحلة!

- ماذا؟ أنت لا تعرف شيئاً؟

- أوه لا، حقاً! تكلم!

- حسنًا، بعد غد، سنتوجه إلى فرنسا مع سيدي الكونت.

- ما هذا وماذا تقصد ديديه؟ أنت تمزح، على ما أعتقد، وأنا لا أريد ذلك، أقسم بذلك. كيف؟ هل سنرحل إلى فرنسا.

- نعم، نعم، يا سيدي، سوف نسجد عند قدمي الملك فيليب، لنطلب العفو عنا. إنني لم أرَ خطراً وشيكًا، لكنني سأراه قريبًا، أنا متأكد من ذلك، ما لم أفقد حدسي السليم.

- هل أنت متأكد مما تقوله، ديديه؟

- متأكد تمامًا، سيدي، اذهب إلى قاعة الشرف، وستجد جميع لورداتنا مع سيدي الكونت، والدك. آه! حسنًا! بعد غد، سنذهب إلى السجن. صدقني سيدي الكونت روبرت. نحن سنرحل ونترك وينينديل نهائيًا.

في هذه اللحظات وبعد علمه بهذا الخبر الذي لا يستطيع تصديقه، لم يستطع روبرت كبت غضبه. وصاح:

- ديديه يا صديقي، أتوسل إليك، انقل أدولف إلى جناحي، ضعه على السرير؛ اعتنِ به حتى عودتي؛ واستدعوا السيد روغارت لكي يأتي ويضمّد الجرح.

سار على عجل إلى الغرفة التي يجتمع فيها اللوردات

بالكونت. وقد شق طريقه سريعاً فيما بينهم وذهب مباشرة إلى والده.

كان لا شيء يضاهي مفاجأة الفرسان عندما رأوا روبرت، لا يزال يرتدي درع المعركة، ومغطى بالحديد والدم ومتأثراً للغاية. بادر قائلاً:

- أوه، أبي وسيدي، ما هذا الذي علمته للتو؟ ماذا؟ هل ستسلم نفسك إلى أيدي أعدائك وتعرض شيخوختك إلى إهانتهم؟ ألا تعلم أن جين قاسية القلب في اللوفر وتراقب باب سجن أختي؟

أجاب جي بإجلال:

- لقد قالوا لك الحقيقة يا بني، أنا ذاهب إلى فرنسا وأنت ستأتي معي. هذه هي إرادة والدك.

أجاب روبرت:

- حسناً، فليكن! سأذهب إلى فرنسا، أنا مستعد لمتابعتك. لكن هذا الخضوع، هذا الخضوع المخزي عاراً!

أجاب الكونت بصوت حازم:

- هذا الخضوع، سأقوم به وأنت معي.

صاح روبرت بلهجة غاضبة:

- أنا، أنا أذل نفسي، هكذا، أنا، روبرت دي بيثون، ألقى

بنفسي تحت أقدام عدونا؟ ماذا! أسد فلاندرز سيحني رأسه أمام ملك زائف، أمام ملك كاذب؟

ظل الكونت صامتاً لبضع لحظات. عندما اعتقد أن روبرت قد هدأ قليلاً، تابع:

- ومع ذلك، ستفعل، روبرت!

صاح الأخير:

- أبداً! هذا العار لن ينجس ذراعي أبداً. أنحني لملك أجنبي! أنا؟ أبداً! أنت لا تعرف ابنك إذاً يا أبي؟

أجاب جي بهدوء:

- روبرت، إرادة والدك قانون لا يمكنك كسره.. وأنا أريد ذلك!

صاح روبرت مرة أخرى:

- لا! يموت أسد فلاندرز ولكنه لا يتملق أبداً. للرب ولك أنت يا أبي أحني رأسي. أبداً، لا، لن أحنيتها أبداً أمام أي رجل آخر في العالم!

واصل الكونت بغضب:

- لكن روبرت، فكر في والدك، في أختك، في بلدك، أنت لن ترفض بعد الآن الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تمقذنا جميعاً! روبرت، القلب المنتفخ من الألم والغضب

يسقط قبضة السيف.

- ماذا تطلب مني يا سيدي وأبي؟ هل تريد من ملك فرنسا، وهو في ذروة عليائه، أن ينظر إليّ باحتقار؟ آه! إن هذه الفكرة وحدها تجعلني أموت من العار! لن تجبرني أوامرك ولا صلواتك! أنا لن أرحل إلى فرنسا!

سقطت الدموع على الخدين النحيفين للكونت. وظهر تعبير غريب على وجهه ونحن المتفرجون في هذا المشهد للحظة ذلك الشعور الذي يتحرك في قلبه. هل كان فرحاً أم حزناً؟ ومع ذلك، بدا أن الابتسامة المطبوعة على وجهه تم عن السعادة.

كان روبرت واقفاً بلا حراك، وقد تأثر بشدة عندما رأى دموع والده تتدفق، شعر بعمق في روحه بكل معاناة الاستشهاد، وكل الآلام الجحيم؛ ولكن اعتزازه بنفسه لا يزال يتدفق في هذا المشهد.

صاح روبرت أخيراً بغضب:

- العني، تبرأ مني، أميري وأبي، لكنني أقسم لك، لن أحمي جبهتي أبداً، لن أزحف على قدمي أبداً أمام شخص غريب.. لن أطيع أبداً الأمر الذي خرج للتو من فمك!

وما كاد روبرت دو بيثون ينتهي من القسم، حتى ارتبك وشعر بالخوف من كلماته الخاصة. لقد أصبح شاحباً،

وبدأت كل أطرافه ترتجف؛ وبدأت أصابعه ترتجف بشكل متشنج في راحة يديه، وبدأ الناس في الاستماع إلى صرير قفازاته الحديدية. لقد شعر بأن شجاعته تتحلى عنه وانتظر بألم شديد كلمة تخرج من فم والده، وقد خشي بالفعل أن تقع عليه اللعنة الأبوية.

بينما كان الفرسان، في دهشة عارمة مما يحدث، ثبتوا نظراتهم القلقة على الكونت، الذي قام، بحركة عفوية، بإلقاء ذراعيه النحيلتين حول رقبة روبرت، صائحاً ومذرفاً دموع الفرح والحب:

- يا بني النبيل! دمي.. دماء كوتات فلاندرز تتدفق جيداً في عروقك! إن عصيانك يجعلني أشعر بالكبرياء. الآن أستطيع أن أموت! قلبي مرة أخرى، روبرت، ابني الحبيب! آه! إن الفرح الذي أشعر به فرح سماوي.

خيمت عاطفة قوية على قلوب كل من شهد هذا المشهد المؤثر. وكانوا يتأملون، في صمت مهيب كأنهم يستمعون إلى موعظة دينية، الأب والابن مجتمعان في عناق طويل. سمح الكونت لابنه أخيراً بتحرير نفسه من ذراعيه، والتفت إلى أتباعه، وقال لهم بصوت عالٍ:

- انظروا أيها السادة! هذه الطريقة التي كان يعيش بها كوتات فلاندرز، ها هو ما كان يسري في عروقهم؛ إنني أرى شبابي، هكذا كان آل دامبير دائماً. احكموا بما

رأيتوه أو سمعته إذا كان روبرت يستحق تاج الكونت! آه يا فلاندرز الحبيبة، افتخري بأبنائك! نعم روبرت، نعم أنت على حق. يجب ألا يحني كونت فلاندرز رأسه أمام الغريب. لكنني كهل، وأنا والد فيلين الأسيرة، وأنا والدك، ابني الباسل؛ أنا وحدي الذي سأثني ركبتك أمام فيليب المتكبر. هكذا يأمر الرب! وأنا سأخضع لإرادته المقدسة. انت سترافقني؛ لكن لا تحني جبهتك، ابق واقفاً، يا بني، حتى يكون الكونت الذي سيأتي بعدي خالصاً من كل لوم وإذلال.

ناقشوا بعد ذلك الاستعدادات للرحلة، والعديد من القضايا السياسية؛ روبرت دي بيتون، مرة أخرى هادئاً وبارداً، غادر غرفة الشرف وذهب إلى الغرفة حيث كانت ماتيلد. ثم أخذ ابنته من يدها وجعلها تجلس على كرسي؛ ثم سحب لنفسه كرسيًا آخر وجلس بجانبها.

- عزيزتي ماتيلد - قال ذلك - أنت تحبين والدك، أليس كذلك؟

صاحت الفتاة الصغيرة، وهي تداعب خدي الفارس الخشنة، والتي لفحتها الشمس، بيدها الرقيقة:

- أحبك يا أبي.

قال روبرت:

- حسناً، إذا خاطر رجل بحياته للدفاع عني، ألن تحببه أيضاً؟

- قل لي من هو هذا الفارس يا أبي وسأحبه وسأظل مدينة له بعرفان جميل أبدي.

- حسناً، يا ابنتي، فارس وقف إلى جانب والدك ضد العدو، وأصيب بجروح خطيرة، إن لم تكن قاتلة.

صاحت ماتيلد:

- يا إلهي! سأصلي من أجله مدة أسبوعين.. سأصلي من أجله حتى يشفي.

- هذا جيد، وادعي لي أيضاً، طفلي العزيزة؛ لكن لا يزال لدي شيء آخر أطلبه منك.

- تكلم يا أبي. أنا خادمتك المتواضعة والمطبعة.

- افهميني جيداً، ماتيلد، أنا ذاهب في رحلة لبضعة أيام؛ جدك وجميع اللوردات النبلاء الذين تعرفينهم سيرحلون أيضاً. من سيروي عطش المسكين الجريح وهو عطشان؟

- من؟ أنا يا والدي. لن أتركه لحظة حتى عودتك. سوف أخذ صقري إلى غرفته وأبقى في صحبته. لا تخف من أن أتركه لرعاية الخدم. فأنا سأحضر له كأس الماء بيدي حتى شفّيته. أوه! كم سأكون سعيدة إذا شفّني!

- أشكرك يا بني، إنني أعرف قلبك العظيم؛ ولكن لا يزال يتعين عليك التعهد بعدم إحداث أي ضجيج في الغرفة في الأيام القليلة الأولى وعدم السماح بدخول أي شخص، ولا حتى الخدم.

- أوه! لا، لا تخف شيئاً يا أبي. سأتحدث بصوت منخفض جداً مع صقري. منخفض جداً لدرجة أن الفارس المعذب لن يسمعني.

أخذ روبرت ماتيلد من يدها وأخرجها من الغرفة. تم نقل أدولف دي نيولاند ووضعته على سرير في إحدى الغرف في جناح روبرت. الجراحان اللذان ضمدا إصابته كانا واقفين مع ديديه ديفوس بجانب السرير. لم يكن يظهر عليه أي علامة حياة. كان وجهه شاحباً للغاية وعيناه مغمضتان. سأل روبرت أحد الجراحين:

- حسناً، ما رأيك في صديقنا البأس؟

أجاب الجراح:

- لا شيء جيد، سيدي. لا أستطيع أن أقول بعد ما إذا كان يمكننا أن نأمل في الشفاء أو لا. ومع ذلك، هناك شيء يخبرني أنه لن يموت.

- إذا الإصابة ليست قاتلة؟

- من الضروري أن نتفق، سيدي؛ الطبيعة أفضل

الأطباء، ففي بعض الأحيان تعمل ما لا يمكن أن تفعله الأعشاب ولا الأجار الكريمة (21). لقد وضعت على صدره شوكة من التاج الحقيقي لإلهنا، هذه البقايا المقدسة سوف تساعدنا.

خلال هذا الحديث، اقتربت ماتيلد تدريجياً من المريض. وحاولت الفتاة الصغيرة الفضولية رؤية وجه الفارس المريض.

وجأة تعرفت على أدولف دي نيولاند. وعندما حدث ذلك، تراجعت بعنف إلى الوراء، وأطلقت صرخة رهيبة، وانفجرت في البكاء وبدأت تنتحب بصوت عالٍ.

قال لها روبرت بعنف:

- ماذا يعني ذلك ماتيلد؟ الصمت! طفلي ألا تعلمين أنه من الضروري الهدوء والصمت بالقرب من سرير المريض؟

قالت الفتاة الصغيرة:

- هدوء! متي سموت السيد أدولف؟ هذا الصديق، صديق الطفولة طيب القلب، من سيكون إذاً مغني وينينديل من الآن فصاعداً؟ من سيساعدني في تربية صقوري؟ من سيكون أخي؟

شاعرة بالارتباك، ركضت إلى الفراش، ونظرت إلى الفارس الراقد بلا حراك ودموعها تنهمر، وصرخت بصوت

مكسور:

- أدولف! السيد أدولف! أخي العزيز!

ولأن الفارس لم يرد عليها، رفعت يديها إلى وجهها وتراجعت، وسقطت على أحد المقاعد وهي تئن.

عندما رأى روبرت أن ابنته لا تكف عن البكاء وخشي أن يكون وجودها أكثر ضرراً من نفعها، أخذ بيدها قائلاً:

- طفلي، هيا اتركي هذه الغرفة. سنعود عندما يكون أملك أهدأ قليلاً.

لكن ماتيلد رفضت الخروج وأجابت:

- أوه! لا، يا أبي دعني بالقرب منه. لن أبكي بعد الآن. اسمح لي بأن أعتني به. سأتلو على سريره الصلوات التي علمتني إياها بنفسك.

أخذت وسادة، ووضعتها فوق الأرض، بجانب سرير الرجل المصاب، وبدأت بالصلاة بصوت منخفض، فيما لا تزال تنهدات الانتخاب المختنق تفلت من صدرها، وتفويض الدموع من عينيها..

قضى روبرت دي بيثون الليلة مع أدولف، على أمل أن يستعيد وعيه وقدرته على الكلام في أي لحظة؛ لكن هذا الأمل لم يتحقق. كان تنفس الجريح مؤلماً وبطيئاً؛ بقي بلا حراك على الدوام. بدأ السيد روغارت يخشى بشدة

على حياته عندما رأى حمى طفيفة تظهر وتلهب خدي
المريض.

اللوردات الذين لا يقيمون في القلعة غادروا وينينديل
وقد ابتهج الفرسان المخلصون؛ لأنهم ما زالوا قادرين على
الاستمرار في خدمة سيدهم الكهل ومنحه دليلاً أخيراً
على ولائهم له. أولئك الذين بقوا في القلعة انسحبوا إلى
أجنحتهم. بعد ساعتين، في وينينديل، لم يُسمع شيء سوى
صرخة الحراس ونباح الكلاب وأنين طيور الليل التي
ترفرف حول الأسوار.

كثيرا ما يقال إن الحية تختبئ تحت الأزهار وبالتالي تفاجئ من يأتون لقطفها. ولكنني، أعرف شيئاً غادراً آخر، حية وزهرة في الوقت نفسه، وإذا سألتني ما هو، فسأخبرك بصراحة تامة إنه المرأة.

(أغنية قديمة)

كانت الرحلة التي كان الكونت جي على وشك القيام بها، وفقاً لنصيحة السيد دي فالوا، مليئة بالمخاطر، سواء بالنسبة له أو لبلده فلاندرز، وكان نجاحها غير مؤكد، فقد كان لدى فرنسا اهتمام كبير بالاحتفاظ بها في حوزتها لأطول فترة ممكنة بالمقاطعات الفلمنكية الغنية.

سحب فيليب لو بيل وزوجته جين دي نافار كل أموال المملكة تقريباً إلى خزائنها، ومع ذلك، فإن المبالغ الهائلة التي منحها لهما الشعب لم تكن كافية لإشباع بذخهما الجامح، وفي النهاية ليزيد فيليب من موارده، لم يجد وسيلة أخرى لملء خزائنه المنهكة سوى تزوير عملات المملكة. لقد فرض أعباء ثقيلة على الولايات الثلاث، ولكن ما زالت هذه الضرائب لم ترض الوزراء الجشعين. وقد حثهم باستمرار إنجويراند دي ماريني، قبل كل شيء، على فرض أكثر من ضريبة كضريبة الملح بالرغم من الهمهمة العنيفة للشعب وبوادر الثورة. من الصعب أن نفهم كيف أن

فيليب لو بيل، الذي كان يطرد اليهود من فرنسا في كثير من الأحيان، لبييعهم حق العودة مقابل أجر ضئيل، لم يكن لديه، على الرغم من وسائله، موارد مالية مزدهرة إلى حد ما.

كان التلاعب بالعملات تدييراً مؤسفاً؛ فبدلاً من أن يستبدل التجار بضائعهم بهذه الأموال المزورة، هجروا فرنسا، فقد أصبح الشعب فقيراً، ولم تعد الضرائب تُدفع، ووجد الملك نفسه في وضع حرج للغاية. على العكس من ذلك، ازدهرت فلاندرز بفضل الصناعة ونشاط سكانها. وقد اعتبرتها جميع دول العالم المعروف آنذاك موطنها الثاني وجعلت أرضنا الأم المخزن العام لثروتها. في مدينة بروج وحدها، كانت تجارة المال والبضائع أكثر عدداً وأهمية مما كانت عليه في فرنسا بأكملها، وكانت هذه المدينة حقاً منجم ذهب، وكان فيليب يعرف ذلك جيداً. وأيضاً، لعدة سنوات، عمل كل ما بوسعه لجعل فلاندرز تحت سيطرته. في المقام الأول، كان قد طالب الكونت جي بطلبات لا تطاق لإجباره على عصيانه؛ ثم احتجز ابنته فيليبين؛ وأخيراً، استولى على فلاندرز وغزاها بقوة السلاح.

كان الكونت الكهل يفكر في كل الخطر الذي كان عليه مواجهته ولم يخف العواقب المحتملة لرحلته؛ ولكن الأم الذي شعر به من أسر ابنته الصغرى جعله ينسى كل شيء ويقبل كل الوسائل التي كان يعتقد أنها قادرة على بلوغ

تحريرها. كان جواز المرور بأمان الذي أعطاه إياه تشارلز دي فالوا وطمانه إلى حد ما.

وها هو جي ينطلق مع ابنه روبرت وجيوم وخمسين فارساً فلنكيًا، يرافقه شارل دي فالوا مع عدد كبير من الفرسان الفرنسيين.

بعد بضعة أسابيع، وصل الكونت إلى كومبيين مع حاشيته، وبفضل السيد دي فالوا، سكن في مكان رائع، في انتظار الأمر الملكي باستدعائه إلى المحكمة. وقد تصرف السيد دي فالوا بشكل جيد مع الملك، شقيقه، حتى إنه وافق على تدابير العفو، وسرعان ما أمر الكونت جي بالمثل أمام المحكمة، ولكن بمفرده ودون حاشية.

الكونت، الممتلئ بالأمل، ذهب بثقة إلى هذه المقابلة الملكية. تم إدخاله إلى غرفة واسعة ومهيبة. في نهاية الغرفة، كان العرش يرتفع وكانت تحيطه من الأعلى وحتى الأرض ستائر زرقاء مخملية مرصعة بالزهور الذهبية؛ كما أن سجادة منسوجة من خيوط من الذهب والفضة كانت مفرودة أمام درجات هذا المقعد الرائع. عندما دخل الكونت، كان فيليب يتجول، وكان إلى جانبه ابنه لويس، الذي أطلق عليه اسم الجراح منذ ذلك الحين (22). وكان يتبعهم العديد من اللوردات، ومن بين هؤلاء، كان هناك واحد أكثر تفضيلاً، وكان يتحدث مع الملك بشكل ودي؛

كان السيد دي نوجاريت، الذي تجرأ، بناءً على أمر فيليب، على اعتقال البابا بونيفاس وإساءة معاملته (23).

وبمجرد إعلان قدوم جي، اقترب الملك من العرش، لكنه لم يصعد. بقي ابنه لويس إلى جانبه. تم تقسيم الحاشية إلى صفين. مشى كونت فلاندرز الكهل ببطء إلى الأمام وأحنى ركبته أمام الملك.

- أيها التابع! ابق في هذا الوضع المذل الذي يليق بك بعد كل المصائب التي تسببت فيها لنا. إنك تستحق الموت، وسيكون من العدل أن أجعلك تعاني منه؛ ومع ذلك، لأجل عفونا الملكي، سنوافق على الاستماع لك. انهض وتحذث!

نهض الكونت الكهل على قدميه وأجاب:

- مولاي وسيدي، واثق في عدالتك، أتيت من أبعد مكان لألقي بنفسي عند قدمي جلالتك حتى تعاملني كما يحلو لك.

تابع الملك:

- هذا الخضوع متأخر للغاية. لقد وحدث قواك ضدي مع عدوي إدوارد الإنجليزي؛ لقد تمردت مثل تابع مجرم ضد سلطانك، وتجرات على إعلان الحرب عليه وكعقاب على سلوكك الغادر والعصيان، لقد تم احتلال بلدك

وغزوها.

قال جي:

- يا أميري! دعني أجد العفو بالقرب منك. أرجو من جلالتك أن تفكر في الألم والحزن اللذين يشعر بهما الأب الذي حرم من ابنته. ألم أتوجه إليك بشكوى من قلب مكسور؟ ألم أتوسل إليك أن تعيد ابنتي المسكينة إليّ؟ يا ملكي، إذا أخذ منك هذا الابن، الأمير لويس، هذا الملك المقبل، الذي يقف إلى جانبك بكل نخر، نعم، إذا تم أخذه منك، ليصبح عبداً في أرض غريبة، ألن يكسر الألم روح جلالتك؟ ألم تكن تفعل شيئاً لتنتقم وتحزر هذا الابن النبيل من دمك؟ أوه! نعم، قلبك الأبوي يفهمني، وسأجد بالفعل العفو لديك.

في هذه اللحظة، ألقى فليب لو بيل نظرة حانية على ابنه؛ فقد تأثر أثناء التفكير في مصائب جي الهائلة، وقد شعر بأن قلبه أصبح ممتلئاً بتعاطف سري تجاه الكونت التعيس.

صاح لويس الشاب بعاطفة شديدة:

- مولاي، أشفق عليه من أجلي. ارحمه وارحم ابنته، أتوسل إليك.

ولكن سرعان ما عاد الملك إلى رشده، وبوجه صارم

تابع:

- لا تتخذ بكلمة تابع متمرّد، يا بني. ومع ذلك، لا أريد أن أكون عنيداً سأصفح، ولكن إذا كان مدفوعاً إلى التمرد بالحب الأبوي وليس بسبب الذنب والتكبر.

أجاب جي:

- سيدي، جلالة الملك يعلم أنني نفذت كل الوسائل الممكنة لإعادة ابنتي إليّ. لم تنجح أي من محاولاتي، صلاتي وتضرعاتي رفضت وبقي كل شيء حتى مداخلة البابا كانت بلا نتيجة. سيدي، كن عادلاً، ماذا يمكنني أن أفعل أيضاً؟ أعترف.. ساحني، اعتقدت.. أنني من الممكن أن ألبأ إلى السلاح! مولاي، ما أردته هو ابنتي! تحرير ابنتي كان فكري، أملي! يا إلهي، لقد كنت مخطئاً، لقد خانتني الأسلحة، وكان حظ جلالتك أوفر! والآن..

قاطعته الملك:

- لكن ماذا يمكننا أن نفعل لك اليوم؟ لقد أعطيت أتباعنا مثلاً سيئاً، والعفو الذي تمنحه لك قد يدفعهم جميعاً إلى التمرد! ربما أنت نفسك ستنضم إلى أعدائنا مرة أخرى.

أجاب جي:

- فلتوافق جلالتك على إعادة ابنتي إليّ، وأقسم لك إن الولاء الذي لا ينقسم سيربطني من الآن فصاعداً بتاجك.

- وهل ستدفع فلاندرز المبلغ الذي نطلبه؟ هل ستزودنا

بالمال لتغطية النفقات التي فرضها علينا تمردك؟

- سيدي، العفو الذي يمكن لجلالتك أن تمنحني إياه لن يكون أبداً باهظ الثمن بالنسبة لي. سأنفذ أوامرك باحترام..
لكن ابنتي، مولاي! أتوسل إليك، أعد لي ابنتي!

كرر فيليب لو بيل بتردد:

- ابنتك..

في تلك اللحظة كان يعتقد أن جين دي نافار ستوافق بصعوبة على إطلاق سراح ابنة كونت فلاندرز. كان يريد أن يتمهل في منحه العفو، وقد أسكتت ذكرى الملكة المتعجرفة حركة قلبه الكريمة. ومن ثم، لم يرغب في الالتزام بأي شيء آخر من خلال وعد رسمي لجي، فتابع:

- كانت كلمات أخي الحبيب الطيبة بالغة الأثر علينا. تحلّ بالأمل ضد مصيرك البأس. لقد كنت مذنباً وقد عوقبت بشدة! سأبذل قصارى جهدي للتخفيف من تكفيرك عن خطئك. بيد أنني لا أريد أن تحصل على عفونا اليوم؛ فهذه المسألة الخطيرة تتطلب منا دراسة جادة. أريد أيضاً أن تخضع هنا بشكل رسمي وبحضور جميع اللوردات التابعين لنا، حتى تكون قدوة ودرسا. هيا اذهب، أيها الكونت جي؛ دعني أفكر فيما يمكن أن أفعله بشأن واحد من الرعايا غير مخلص ولكنه جاء الآن نادماً وتائباً.

بناءً على هذا الأمر، خرج كونت فلاندرز من الغرفة، ولم يكن قد غادر القصر بعد عندما انتشرت الشائعات بالفعل بأن الملك قد أعاد ابنته وشرفه إليه. وقد ابتهج بعض اللوردات الفرنسيين كثيراً بهذه السعادة التي وصلت أخيراً إلى الكونت. لكن البعض، الذين أقاموا مشاريع طموحة على غزو فلاندرز، شعروا بالاستياء ولكن بشكل سري. ومع ذلك، بما أن إرادة الملك كانت مقدسة، فقد أخفوا ذلك.

لقد دخلت الفرحة والثقة في قلب اللوردات الفلمنكيين، وبدؤوا بتهديد أنفسهم للأمل الجميل وزاد إيمانهم بتحرير وطنهم واستعادته. وبدا لهم أن لا شيء يمكن أن يؤثر النتيجة السعيدة لمساعيهم؛ لأنه بغض النظر عن الترحيب الكريم الذي قدم للكونت، أعطى الملك السيد دي فالوا تأكيداً بأنه سيعامل الكونت جي بلطف وسعة صدر.

يا من اضطرت إلى الكفاح ضد قسوة القدر، ومن تألمت وبكيت في هذا الصراع، أنت تعلم مدى سهولة أن يسيطر الفرح على قلب حارب طويلاً! فسرعان ما ننسى أحزاننا لاحتضان سعادة غير مؤكدة، كما لو أن كأس الشدائد كانت فارغة بالفعل، في حين أن أكثرها مرارة، الرواسب، لا تزال في القاع. نرى الابتسامة على شفاه الجميع، تتصافح مع كل من يبتهج بسعادتنا. لكن لا تتكئ

على عجلة الحظ المخادعة؛ ولا تثق في ملامح أولئك الذين كانوا أعداءك أيام محنتك. فالحسد والخيانة يختبئان تحت هذه الوجوه ذات الوجهين، مثل الحية تحت الزهور والعقرب تحت ثمرة الأناناس الذهبية. عبثاً نبعث، على العشب، عن أثر الأفعى؛ نشعر بعضتها ولا نعرف كيف أتت إلينا. وبالمثل، فإن الغيورين والحاسدين يدبرون المكائد ويجعلون أعمالهم في الخفاء؛ لأنهم يعرفون مقدار شرهم الخاص ويخجلون من أعمالهم السيئة. إن ملاحظهم تضربنا في القلب، ونعتقد أنهم أصدقاؤنا؛ لأننا لا نستطيع أن نقرأ في نظراتهم المخادعة الظلمة الرهيبة لأرواحهم؛ يغلفون أنفسهم في الغموض والازدواجية كما هي الحال مع الحجاب الذي لا يمكن اختراقه؛ يمكن أن تظهر الحشرة السامة أحياناً في وضع النهار؛ لكنهم أبداً!

كان الكونت جي يتخذ بالفعل الخطوات اللازمة لتنفيذ أوامر الملك، ومنذ عودته إلى فلاندرز، يحاول نسيان ويلات الحرب بسلام طويل. لم يعد روبرت دي بيثون نفسه يشكك في العفو الموعود؛ لأنه، منذ أن كان والده مع الملك في جلسة الاستماع، ضاعف جميع اللوردات الفرنسيين من محبتهم واحترامهم تجاه الفلمنكيين. وكانوا يعتقدون أن هذا دليل على حسن تصرف الملك، فقد كانوا يعلمون أن كل خطط الأمير وأفكاره تنعكس على التصرفات العابرة لرجال البلاط.

وكان الكونت دو شاتيلون نفسه قد زار الكونت جي عدة مرات وقدم له التهاني؛ ولكنه احتفظ بكرامية شديدة في أعماق قلبه وأخفاها بابتسامة. كانت جين دي نافار، ابنة أخته، قد وعدته بفلاندرز كإقطاعية، لطالما كانت مكائدها الطموحة تستهدف الاستحواذ على هذه المقاطعة الغنية، وهذه المصالحة جعلت هذا الاحتمال بالثراء يتلاشى مثل الحلم.

ليست هناك من عاطفة تدفع الإنسان إلى الشر أكثر من الطموح. إنه يكسر بلا رحمة كل ما يعترض طريقه ولا يستدير لرؤية الجرائم التي ارتكبت بالفعل؛ لأن عينه ثابتة بعناد فقط على الهدف الذي يسعى وراءه. وقد عقد الكونت دي شاتيلون -الذي استعبده هذه العاطفة القتالة- العزم على تنفيذ خطة غادرة أهدته بها الأناية وحدها، وكان ضميره المنحرف يسعد بتزيينها له باسم الواجب المقدس.

ففي نفس اليوم الذي وصل فيه إلى القصر في فلاندرز، جنباً إلى جنب مع اللوردات الآخرين، دعا أحد أكثر خدامه المخلصين، وأعطاه أفضل حصان له وأرسله على عجل إلى باريس. كانت مهمته إعلام الملكة وإنجويراند دي ماريني بكل ما كان يجري، ودعوتها إلى كومبيين.

وقد نجح مشروعه الغادر تماماً. وقد جعلت رواية الرسول

جين دي نافار في حالة غضب عنيف. العفو أو الصفح عن الفلمنكيين! أهي التي نذرت لهم كراهية لا ترحم، تترك فريستها تهرب! وإنجويراند دي ماريني، الذي أهدر مقدماً الأموال التي كان من المقرر أن تنتجها فلاندرز! لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، وكان للملكة ووزيرها مصلحة كبيرة في الاحتفاظ بهذا البلد حتى تستمر معاناته. فبمجرد تلقيهما الأخبار المهمة، غادرا على عجل إلى كومبيين، وظهرت فجأة في غرفة الملك.

صاحت جين:

- مولاي، هل أنا أصبحت لا أمثل لك شيئاً، كيف لك أن تعفو عن أعدائي دون إذني؟ وكيف تكون أعشى بهذا الشكل، وتريد أن تطعم وتدلل هذه الأفاعي الفلمنكية ليتحقق هلاكك؟

رد الملك بهدوء:

- سيدتي، وأنت بدورك، يجب أن تكوني أكثر حذراً من ذلك وألا تهيني زوجك وملكك في الوقت نفسه. إذا كان من المناسب لي أن أعفو عن كونت فلاندرز الكهل، فستتحقق إرادتي الملكية.

صاحت جين، وهي تشتاط غضباً:

- لا، لا، لن تتحقق. لا أريد ذلك، هل تفهم، مولاي؟

لا أريده ! كيف! هؤلاء المتمردون الذين أسقطوا رؤوس
أخوالي (24) ييقون هكذا دون عقاب! لقد كانوا
يتفاخرون بإهانة الملكة دي نافار في دمها العائلي!

أجاب الملك:

- الغضب مستشار سيئ يا سيدتي! إنني أرفض أن أستمع
إليك وأنت تتحدثين هكذا بصوت عالٍ، أو بالأحرى، فكري
بهدوء وأخبريني ما إذا كان من العدل إعادة الفتاة إلى
حنان والدها أم لا؟

ازداد غضب جين أكثر مما قاله، وصاحت:

- إعادة فيليبين إلى والدها! ولكن، يا سيدي، هل فكرت
في هذا الأمر بنفسك؟ نعم، امنح لها حريتها، وسترى أميرة
فلاندرز تتزوج من ابن ملك إنجلترا، ويضيع الأمل في هذا
التحالف لابنك إلى الأبد. لا، لن يحدث ذلك، أقسم لك.
وإلى جانب ذلك، فإن فيليبين هي أسيرتي أنا. كل قوتك لن
تنجح في انتزاعها من بين يدي!

صاح فيليب:

- سيدتي، هذه اللغة المتغترسة تتجاوز الحدود؛ وحتى
إن كانت تخرج من فك أنت، فأنا لن أحتملها، فكري في
الأمر مرة أخرى. يمكنني أن أجعلك تكفري بقسوة عن
خطئك. إرادتي هي إرادة ملكك وسيدك!

- وهذه الإرادة هي إعادة فلاندرز إلى هذا الكونت جي المتعجرف! تريد إعادتها لإعلان الحرب مرة أخرى. هيا، إذا فعلت ذلك، فإن هذه الحماقة ستكسبك حسرة مريرة. بالنسبة لي، نظراً لأنني هنا لا أعتد إلا على القليل جداً بحيث لا يتم استشارتي في مسألة تهمني بشدة، فأنا أعلن لكم أنني سأرحل إلى مملكتي نافار، وفيلبين ستبغني (25).

كان لهذا التهديد أثر كبير داخل الملك. كانت نافار هي أفضل جزء من مملكته، ولأن جين قد هددت بالفعل برحيلها عدة مرات، فقد كان يخشى أنها ستنفذ تهديدها أخيراً. بعد لحظة من التفكير، تابع:

- أنت تهينين نفسك، سيدتي. من يجعلك تعتقدين أنني أريد التخلي عن فلاندرز؟ في الحقيقة أنا لم أقرر شيئاً بهذا الخصوص..

أجابت جين:

- إن لغتك تخون أفكارك؛ على أي حال، أكرر، إذا كان لديك ما يكفي من الاحترام لي حتى تستهين بنصيحتي، فسأرحل. لا أريد أن أشهد عواقب عدم تبصرك. لقد استنفدت الحرب ضد فلاندرز خزائن الدولة، والآن بعد أن أصبحت لديك الوسائل للمها، تتخيل نفسك تعفو عن هؤلاء المشاغبين! لم تكن أوضاعنا المالية أسوأ من أي وقت

مضى، السيد دي ماريني قادر على إثبات ذلك لك.

ثم اقترب إنجويراند دو ماريني من الملك، وقال:

- سيدي، من المستحيل بعد الآن أن تدفع إلى رجال الجيش. كما أن الشعب يرفض دفع الضرائب. وقد رفض عميد تجار باريس تقديم الإعانة، وقرياً لن أتمكن من تغطية نفقات منزل الملك. فلاندرز، أكرر ذلك بعد سيدتي الملكة، مولاي، فقط فلاندرز يمكن أن تساعدنا. الأشخاص الذين أرسلتهم إلى هناك، والذين يتمتعون بالمهارة في جلب الأموال، سينقذوننا من هذا الوضع الحرج. فكر في الأمر يا مولاي! لكن التخلي عن هذا البلد سيكون نذيراً لأعظم الكوارث.

تساءل فيليب بإحباط:

- هل تم صرف الإعانات التي تم أخذها من الغير؟

أجاب إنجويراند:

- سيدي، لقد أعدت إلى إتيان باريتي المبالغ التي أقرضها وكلاء تحصيل الضرائب في باريس لجلالتك. لم يتبق شيء، أو بقي أقل القليل في الخزانة.

لاحظت جين بفرح الانطباع المؤلم الذي تركه هذا الخبر على وجه الملك؛ لقد اعتقدت أن اللحظة أصبحت مواتية للحصول على إداثة جي، وعندها اقتربت من زوجها، قائلة

بصوت هامس:

- ترى جيداً، مولاي، أن نصيحتي ليست سيئة للغاية وأنها -على العكس من ذلك- لمصلحتك، فكيف تفكر في تفضيل المتمردين على حساب مملكتك الخاصة فرنسا. ألم يهينوك ويهينوني؟ ألم يقدموا المساعدة والإغاثة لأعدائنا المشتركين؟ ألم يحتقروا أوامرك؟ بما أن المال الذي يمتلكونه يجعلهم متعجرفين ومتعاليين، فما أسهل علينا أن ننتزع منهم هذا المال، يا مولاي؛ افعل ذلك بجرأة، وسوف يقبلون يدك الملكية مرة أخرى ليشكروك على أنك سمحت لهم فقط بالعيش. ألم يستحقوا كلهم الموت؟

سأل الملك السيد دي ماريني:

- ألا تعرف أي وسيلة لتوفير نفقات المملكة لبعض الوقت في المستقبل؟ الأموال من فلاندرز لا يمكن أن تصل إلينا في أي وقت قريب، وتصرفاتك تدفعني إلى اليأس الحقيقي.

- لا أعرف أي شيء يا سيدي! لقد استنفدنا كل مواردنا!

قالت جين للملك، مقاطعة السيد دي ماريني:

- اسمع، إذا كنت ترغب في التصرف تجاه جي وفقاً لرغبتني، فسوف أفرض على مملكتي نافر ضريبة استثنائية،

ولوقت طويل، لن نضطر إلى الاهتمام بهذه الأمور المحزنة
بعد الآن.

إما عن ضعف في الشخصية أو الحاجة الملحة للمال، فقد
أذعن الملك لرغبة جين، وتم التخلي عن كونت فلاندرز.
قررت الملكة الغادرة السماح لكونت فلاندرز بإعلان
خضوعه، ثم منعه بعد ذلك من العودة إلى بلده.

لقد وقعت، ضحية لولائي؛ إنه لأمر مؤسف! لقد تجرأت
على الوثوق بكلمة طاغية كرهه.

(هـ. هـ. كليف)

كانت الملكة جين ملكة نافار في كومبيين في ساعة
متأخرة من المساء. بينما، بفضل المكر والتهديد، انتزعت
من عقل الملك المتقلب العفو عن الفلمنكيين، وجد
الكونت جي نفسه وسط أتباعه النبلاء، في قاعة بمسكنه.
في كثير من الأحيان كان يُسكب النبيذ في الكؤوس
الفضية، بينما كان الضيوف يتبادلون فيما بينهم الآمال
العظيمة والرؤى المطمئنة.

لقد تغيرت هذه المقابلة السلمية عدة مرات عندما دخل
ديديه ديفوس، الذي كان، بصفته صديقاً مقرباً لروبرت،
يقيم لدى الكونت، إلى الغرفة وانضم إلى رفاقه.

لقد بقي واقفاً، صامتاً، ينظر تباعاً إلى كل من الكونت
وابنيه. تلاشى التعبير على وجهه، والذي كان عادة ما
يكون مرحاً وودياً، ليفسح المجال أمام التعاطف الصادق.
عند ظهوره، صمت الفرسان، خائفين، وقالوا لأنفسهم إن
الأخبار السيئة يجب أن تكون سبب تغير ملامحه.

كان روبرت دي بيثون أول من كسر حاجز الصمت،

قائلاً:

- هل فقدت لسانك يا ديديه؟ تحدث بسرعة، وإذا كانت كلماتك ستحزننا، ضع جانباً نكاتك المعتادة، من فضلك.

أجاب ديديه:

- هذا ليس المكان المناسب أو اللحظة المناسبة للمزاح، سيدي، لكني لا أعرف كيف أعلن لكم الخبر الذي أحمله؛ أخاف أن يتم اعتبار وجودي كرسول للشؤم والحزن.

ظهر الخوف، بسبب كلماته، على الوجوه كافة؛ وحدثت فيه العيون كافة بنظرة ممتلئة بالقلق. كان هذا الأخير قد أخذ كأساً وملاًها نبيذاً وتناولها، ثم تابع حديثه:

- إن هذا يمنحني الشجاعة اللازمة. استمع إذا يا سيدي، واغفر لعبدك المخلص ديفوس، إن كان الرب قد أمره بإبلاغك بهذه الأخبار. كنت تعتقد، أليس كذلك، أن فيليب لو بيل سوف يعفو ويصفح عنك، وكنت محقاً في هذا الأمل؛ لأن فيليب فرنسا هو أمير كريم وطيب القلب. حتى أول أمس، كان يجد نفسه سعيداً لأنه قادر على إظهار شهامته وعظمة قلبه، ولكن اليوم، أصبح ليس كما في أول أمس، عندما تمكنت منه الأرواح الشريرة.

صاح الفرسان بدهشة:

- ماذا يعني هذا؟ ماذا أصبح الملك حقاً..

قال روبرت بحزم:

- سيد ديدييه، دعك من هذا اللف والدوران الذي لا يليق بنا، واذهب مباشرة إلى الهدف، ألدك شيء آخر تخبرنا به. يبدو أن هذا السر لا يكاد يفلت من شفطيك.

أجاب ديدييه:

- لقد قلت ذلك يا سيدي.

وأضاف بعد ذلك، وهو يبذل جهداً عنيفاً مع نفسه:

- جين دي نافار وإنجويراند دي ماريني موجودان في

كومبيين!

أثر سماع هذه الأسماء الرهيبة تأثيراً مروعاً على الحاضرين. لقد ظلوا صامتين وكان على رؤوسهم الطير ولم ينطقوا بأي كلمة. أخيراً، رفع جيوم الشاب يديه نحو السماء وصاح في يأس:

- يا إلهي! أختي المسكينة! أبي! نحن ضائعون.

تابع ديدييه بحسرة:

- إن الأمر كذلك، هؤلاء هم الشياطين الحقيقيون الذين يمتلكون الملك. ترى، أيها الكونت العظيم، إن خادمك

ديديه كان مصدر إلهام جيد عندما أشار إلى هذا الفخ في وينديل.

تساءل الكونت كما لو كان لا يزال يشك في حقيقة الأمر:

- من أخبرك أن ملكة دي نافار في كومبين؟

أجاب ديديه:

- عيني، يا سيدي، خوفاً من المفاجأة والخيانة - ولأنني غير معتاد على كلماتهم الملتبسة - كنت أرى، أشاهد، أصغي بلا توقف! وقد رأيت جين دي نافار، وسمعت صوتها. أتعهد بشرفي كضمان لحقيقة كلامي.

قال جوتيه دي لوفينديجم:

- اسمعوا، يا سادة، دعونا لا نخدع. جين دي نافار لدى الملك بالفعل؛ لأن رفيقنا المخلص يؤكد ذلك بشرفه. لا شك في أن هذه الملكة القاسية ستفعل كل ما في وسعها لإحباط مساعيها وتدمير أملنا في الخلاص، والرب أعلم أنه لن تنقذنا إلا إمكانيات. يتبقى لنا مسار واحد فقط لكي نهرب من هذا الفخ المخزي، وهو الفرار في هذه اللحظة بالذات. ربما في لحظة سيتم القبض علينا، وسيكون الأوان قد فات.

استسلم الكونت، الحزين والكثير، تماماً لليأس ففي

وجود مثل هذا الوضع المحفوف بالمخاطر؛ وهو موجود على الأراضي الملكية، بدا له أنه من المستحيل الهروب لاستعادة فلاندرز. تنهد روبرت دي بيثون بغضب ثم تحدث بكلمات متداخلة ولعن هذه الرحلة التي تلقي به، منزوع السلاح في أيدي أعدائه.

بينما كان الجميع مغموراً في صمت قاتم، يتأملون الكونت الحزين، فتح باب الغرفة أحد غلمان القصر وأعلن:

- السيد دو نوجاريت، مبعوث الملك!

كانت الحركة المفاجئة دليلاً كافياً على القلق الذي استولى على الفلنكيين عند هذا الإعلان. بطبيعة الحال، كان السيد دو نوجاريت يأتي بشكل معتاد لتنفيذ أوامر الملك السرية، لذا تصوروا أنه برفقة الحراس، كان قادماً لأخذهم سجناء. سحب روبرت دو بيثون سيفه من الغمد ووضعه أمامه على المنضدة. كما رفع اللوردات الآخرون أيديهم إلى أسلحتهم، وكانت كل العيون تحدق بالبواب بفارغ الصبر.

كانوا في هذا الموقف عندما دخل السيد دو نوجاريت. وقد انحنى بلباقة أثناء مروره بالفرسان، ثم التفت إلى جي، وقال:

- كونت فلاندرز! يمتني ملكي وسيدي المعظم وطيب القلب أن تحضر أمامه غداً، في الساعة الحادية عشرة

صباحاً، برفقة أتباعك، وأن تسأله علانية العفو والصفح عن خطئك. أدى وصول ملكة نافار المعظمة إلى التعجيل بهذا الأمر. حتى إنها طلبت العفو عنك من الأمير زوجها، وأنا مكلف من جهتها لأخبرك كم سيكون خضوعك أمراً ساراً لها! أراكم غداً إذا أيها السادة. اعذروني لترككم سريعاً بهذا الشكل. جلالة الملك ينتظرنني. فليكن الرب في رعايته المقدسة!

بهذه الكلمات غادر المبعوث الملكي الغرفة.

قال جي:

- حمداً للسماء، أيها السادة، لقد أظهر ملك فرنسا رحمته؛ يمكنكم الرحيل مطمئنين ومرتاحي البال. هيا اذهبوا فقد سمعتم بأذانتكم رغبة الملك؛ أرجو الاستعداد لمقابلته بطريقة مناسبة.

عاد الفرح إلى الظهور مرة أخرى على وجوه الفرسان؛ وقد تحدثوا لبعض الوقت أكثر عن مخاوف ديدويه وعن النتيجة السعيدة التي وعدوا بها؛ وقد تم إفراغ الكأس الأخيرة تكريماً للكونت جي واستعدوا إلى الرحيل؛ ولكن، عندما كانوا على وشك الانسحاب، أمسك ديدويه بيد روبرت وقال له بصوت منخفض:

- وداعاً سيدي وصديقي! وداعاً! ربما لفترة طويلة من الآن، لن تكون يدي قادرة على مصافحة يدك. اعتمد

دائماً على خادمك ديديه؛ ستكون ذراعه وقلبه دائماً في خدمتك، أينما كنت وفي أي سجن قد تجد نفسك فيه.

رأى روبرت دمعة تتألق في عيون ديديه وأدرك مدى ارتباط صديقه المخلص به وكم هو صادق في ذلك.
همس روبرت في أذنه:

- أنا أفهمك، ديديه، ما تخشاه، أتوقعه أيضاً؛ لكن من المستحيل الهروب منه. وداعاً حتى أيام أفضل!

صاح ديديه وهو يتجه إلى الباب:

- أيها السادة، إذا كان لديكم أي أخبار تريدون أن تبلغوها إلى أقربائكم في فلاندرز، أسرعوا باطلاعي عليها، سأكون رسولكم!

صاح جوتيه دي لوفينديجم:

- ماذا تقول؟ ألن تأتي إلى المحكمة معنا، ديديه؟

- نعم، سأكون معكم وقريباً منكم للغاية؛ ولكن لن تتعرفوا عليّ لا أتم ولا الفرنسيون. لقد قلت ذلك: الملك فيليب لن يأخذ الشعب. حفظكم الرب أيها السادة!

كان قد خرج بالفعل من الباب عندما وجه هذه التحية الأخيرة لأصدقائه.

انسحب الكونت مع حاشيته والفرسان الآخرين وغادروا

القاعة أيضاً ليخلدوا إلى الراحة.

في الساعة المحددة، يمكن للمرء أن يرى في غرفة واسعة في قصر كومبيين أن الفرسان قد تجمعوا حول كونتهم. كان عليهم أن يلقوا بأسلحتهم عند الدخول. ظهر تعبير على وجوههم يدل على الراحة والفرح وكأنهم كانوا ينتهجون مقدماً بالعبء الذي وعدوا به. لكن وجه روبرت دي بيثون كان يحمل تعبيراً مختلفاً عن الآخرين. كان من السهل أن تقرأ عليه الاستياء المرير والغضب المركز. كانت النظرات المتعالية للوردات الفرنسيين تؤلم قلب الفيلسوف الشجاع، ولولا حبه لوالده، لكان قد سعى بالفعل إلى شجار مع أكثر من واحد. وكان القيد المفروض عليه يعذب روحه مراراً وتكراراً، ويمكن لأي عين مدققة أن ترى قبضتيه ترتعشان بشكل متشنج.

كان شارل دي فالوا يتحدث بمودة مع الكونت الكهل؛ في انتظار اللحظة؛ حسب أمر الملك أخيه، الذي عليه أن يقوده إلى قدم العرش. كان هناك أيضاً عدد قليل من رؤساء الأديرة والأساقفة في الغرفة. وكان لا يزال معهم العديد من المواطنين الشرفاء من الطبقة المتوسطة في كومبيين، الذين سمح لهم عمداً بحضور هذه المقابلة الرسمية. بينما يتم تبادل الأحاديث من جميع الجهات، دخل إلى الغرفة رجل مسن يرتدي زي الحجاج. كان يحني رأسه

بتواضع، وهو مغطى بقبعة كبيرة، وبالكاد يمكن رؤية ملامحه. كان رداء بني اللون مزين بالصدف يخفي شكل جسده، وعصا طويلة تدعم أطرافه المتيبسة من التعب. بمجرد أن رآه الأساقفة، اقتربوا منه وأغرقوه بأسئلة من جميع الأنواع. أراد أحدهم معرفة وضع المسيحيين في سوريا، وآخر حال الحرب الإيطالية، وثالث تساءل هل الحاج ليس عليه أن يحضر معه بعض الآثار الثمينة؟

أجاب الحاج على كل هذه الأسئلة كرجل عائد للتو من البلدان التي قيل له عنها، وحكى العديد من الأشياء العجيبة التي استمع إليها الحاضرون باحترام وفضول في الوقت نفسه. وعلى الرغم من أن كلماته كانت -بشكل عام- جادة وذات مغزى وعبرة، إلا أنه كانت تفلت منه أحياناً بعض الملاحظات المضحكة لدرجة أن الأساقفة أنفسهم لا يستطيعون إلا الابتسام. وسرعان ما اجتمع حوله أكثر من خمسين شخصاً، وحمل البعض إعجابهم واحترامهم لهذا الرجل المقدس حتى إن البعض لمسوا ثوب الحاج بأيديهم بكل خشوع.

لكن هذا الحاج المدهش كان مجرد مسافر بسيط: زار، في شبابه، البلدان التي بدا أنه يعرفها جيداً، ولم يحتفظ بذكريات دقيقة للغاية عما رآه هناك؛ فقط، عندما خاتته الذاكرة، جاء الخيال لمساعدته؛ فقال أشياء خارقة للطبيعة وضحك، بشكل جانبي، على سداجة أولئك الذين آمنوا

بقصصه. خلاصة القول، إنه معروف بالفعل؛ فليس هناك سواه، إنه هو ديديه ديفوس. فلا أحد يمتلك فن التحويل والتكر تحت الوجوه كافة كما يفعل. كان يعرف كيف يتقدم في السن أو كيف يصغر حسب رغبته، عن طريق المياه والألوان، مع الكثير من اللهسات الفنية حتى إن أصدقاءه أنفسهم لم يتمكنوا من التعرف عليه. وبما أنه لا يثق أدنى ثقة في كلمات الأمراء الفرنسيين، وكما قال لكونت فلاندرز، لا يريد أن يسجن الشعب، فقد اختار هذا التكر حتى لا يقع في أيدي أعدائه.

بعد فترة وجيزة، دخل الملك والملكة القاعة برفقة عدد كبير من الفرسان والسيدات، وأخذا أماكنهما على العرش. اصطف معظم اللوردات الفرنسيين في صفين على طول الجدار؛ وبقي الآخرون في جوار الحرفيين. وقف مناديان مسلحان يحملان رايات فرنسا ونافار على جانبي العرش.

عند إشارة من الملك، تقدم تشارلز دي فالوا مع كونت جي والنبلاء الفلنكيين. ثنى هؤلاء ركبهم على وسائل مخرمية أمام العرش وظلوا صامتين في هذا الموقف المذل. على يمين الكونت كان ابنه جيوم، وإلى يساره، بدلاً من روبرت دي بيثون، لورد نبيل اسمه جوتيه دي مالديجم. ظل روبرت وسط الفرسان الفرنسيين ولم يره الملك في البداية.

تألقت ملابس الملكة جين بالذهب والأجار الكريمة، وكان التاج الملكي الذي أحاط جبهتها يتلأأ بألف ماسة. متعالية ومتعجرفة، ألقت جين الغادرة نظرات ازدراء على الفلنكيين الذين يركعون أمامها، وابتسمت بتعبير جهني يتم عن الكراهية، بأنهم قد تركوا الكونت ينتظر طويلاً بشكل متعمد. أخيراً، همست بيضع كلمات في أذن الملك، والأخير بدأ في مخاطبة جي دي دامبير بصوت عالٍ:

- أيها التابع المجرم والخائن، بفضل إحساننا الملكي، اعتبرنا أنه من المستحسن أن يتم التحقيق في جريمتك، من أجل معرفة ما إذا كنت تستحق أن تحصل على رحمتنا وأنا نستطيع أن نصفح ونعفو عنك، كانت هذه هي رغبتنا الملكية؛ ولكننا أدركنا أن الحب الأبوي كان بمثابة عباءة لتخفي تمردك وأن كبرياءك وحده يدفعك إلى ارتكاب الذنب وإلى عصيان سيدك.

وبينما كان الملك يتكلم بهذه الكلمات، استحوذ الدهول والخوف على قلوب الفرسان؛ لقد أدركوا في الوقت الحالي الفخ الذي أشار إليهم ديديه ديفوس. ومع ذلك، نظراً لأن الكونت جي لم يتحرك، فقد ظلوا أيضاً راکعين. وتابع الملك:

- إن التابع الذي يتردد على سلطانه ومملكه يفقد - كما تعلمون - إقطاعيته، ومن يصنع تحالفاً مع أعداء فرنسا يتكبد

خسارة حياته. جي دو دامبير، ها هنا حاضرًا؛ لأنك قاومت أوامر ملكك، ووقفت جنباً إلى جنب، مع إدوارد ملك إنجلترا، عدونا، وقد قتم بحمل السلاح ضدنا (26). لهذا السبب، بصفتك تابعاً مجرمًا، فقد استحققت الموت؛ ومع ذلك، نرغب في تعليق تنفيذ هذا الحكم. ولكن، في انتظار قرارنا، بخصوصك أنت والنبلاء الذين اشتركوا معك في تمردك، سوف يتم أسرهم جميعاً في مملكتنا.

تقدم تشارلز دو فالوا، الذي سمع هذا الخطاب بألم عميق، إلى قدم العرش وقال:

- سيدي وملكلي، أنت تعلم بأي إخلاص خدمتكم؛ ولقد فعلت ذلك بحماس وتفاني أكثر رعاياك تواضعاً. لم يتمكن أحد من القول إنني لطخت سلاحي بمظهر من مظاهر الجبن أو الخيانة. حسناً، مولاي، هذا الشرف، الذي أبقيته طاهراً ونقياً من كل وصمة، سوف يتلاشى! وهذا، في نظر فرنسا وأوروبا وصمة عار، هذه الإهانة، ستكون من خلالك، من خلالك يا ملكي! من خلالك يا أخي! ستجعل مني خائناً، وستنكس جبهة أخيك تحت الاسم المهين لفارس خائن! أوه! مولاي، لا يمكن لذلك أن يكون! ضع في اعتبارك أنني أعطيت جي، كونت فلاندرز جوازاً بالمرور بأمان، وأنت تجعلني الآن كاذباً وحاتماً بالوعد.

وبينما كان ينطق بهذه الكلمات، ترك تشارلز دي فالوا نفسه ينغمس في الغضب. كانت نظراته تتمتع بقوة كبيرة لدرجة أن فيليب كان على وشك إلغاء عقوبته. لقد كان هو نفسه يقدر أن الشرف هو أعلى ما يملكه الفارس، وشعر في صميم قلبه أن سلوكه يتعارض مع هذا الشعور. ومع ذلك، فقد قام الفلمنكيون وانتظروا بفارغ الصبر نتيجة تدخل كونت دي فالوا. ولم يُظهر المتفرجون الآخرون انفعالاتهم بأي حركة وسقطت أعينهم بالتناوب على الملك وشقيقه وجين دي نافار واللوردات الفلمنكيين.

تحدثت الملكة جين على الفور، خوفاً من أن تهرب فرستها، وصاحت بغيرة:

- السيد دو فالوا، أنت من المفترض تكون آخر شخص يسمح بالدفاع عن أعداء فرنسا. أنت متهم بارتكاب الخيانة، وهذه ليست المرة الأولى التي تخالف فيها إرادة الملك!

- سيدتي، أجب تشارلز بمرارة، الأمر متروك لك لتوجيه الاتهام إلى شقيق زوجك بارتكاب الخيانة. هل يكون بسببك أن شارل دي فالوا قد خدع تابعاً عاثر الحظ؟ لا، بحق السماء، لن يحدث ذلك! أناشدك يا فيليب، صاحب السيادة وأخي، هل ستعاني عندما تتم إهانة دم سان لويس في شخصي؟ هل ادخرت هذه المكافأة نظير خدماتي المخلصة؟

لوحظ بعد ذلك أن الملك تحدث بجرارة إلى جين وبدا أنه أصر بجانبها على تخفيف العقوبة القاسية؛ ولكنها رفضت بكل عناد، فقد كانت تكن كراهية شديدة للفلمنكيين، وقد رفضت دعوة الملك، واحمر وجهها تماماً وهي تستمع إلى كلمات شارل دي فالوا لدرجة أنه بدا وكأنه مشتعل بالنار. كانت عيناها تلمعان وبجأة صرخت بصوت عالٍ:

- أيها الحراس! لتتحقق إرادة الملك! اقبضوا على هؤلاء الأتباع الخونة!

عند هذا النداء، دخل الحراس الغرفة بأعداد كبيرة عبر جميع الأبواب. ولقد سمح الفرسان الفلمنكيون للحراس بالقبض عليهم دون مقاومة، فقد كانوا يعلمون أن العنف لن ينقذهم، حيث تم نزع سلاحهم ويحاصروهم حشد من الأعداء.

اقرب أحد الجنود من الكونت جي ووضع يده على كتفه:

- سيدي، إني أعتقلك باسم الملك، مولاي.

نظر إليه كونت فلاندرز بحزن والتفت إلى روبرت؛ وقال بحسرة:

- يا بني التعيس!

وقف روبرت دي بيثون بلا حراك، ينظر بهدوء إلى الفرسان الفرنسيين، الذين كانوا يتأملونه بنظرة متسائلة. كما لو أن يداً غير مرئية قد لمستَه بعصا سحرية، مرت رجفة متشنجة في جسده كله؛ توترت عضلاته فجأة وبدت عيناه تطلقان ألسنة من لهب. قفز فجأة مثل أسد، ورج صوته المدوي الغرفة بأكلها:

- يا لي حقاً من تعيس! لقد رأيت يد نذل تسقط على كتف أبي، من السماء! وإذا ظلت هكذا، فأنا أريد أن أموت!

وانطلق إلى الأمام وانتزع بعنف بلطة من يد أحد الجنود. صرخة الخوف خرجت من الفرسان الحاضرين، الذين سبحوا جميعاً سيوفهم؛ لأنهم اعتقدوا أن حياة الأمراء الفرنسيين كانت في خطر. لكن هذا الخوف اختفى بنفس اللحظة؛ فقد ضرب روبرت ضربه. لقد فعل ما قال. كانت ذراع الشخص الذي لمس والده ملقاة فوق الأرض والدم يتدفق من جرح مروع.

اندفع الحرس الخاص في حشود نحو روبرت، الذي كان كالأعمى من شدة الغضب، وقد وضع البلطة بسرعة فوق رأس هدفه، ولم يجرؤ أي جندي على المغامرة في مرماه، وربما كانت ستحدث مصائب جديدة إذا لم يكن الكونت القلق على حياة ابنه قد صرخ في وجهه متضرعاً:

- روبرت.. بني! أعد سلاحك.. أنا والدك أتوسل إليك؛
أنا الذي أطلب منك أن تفعل ذلك.

عندما خاطب ابنه بصوت مؤثر للغاية، ألقى الكونت
الكهل ذراعيه حول عنق روبرت وأراح جبهته على صدر
ابنه، الذي شعر بدموع أبيه تسقط على يده. في ذلك الوقت
فقط، أدرك مدى تهوره. انتزع نفسه من ذراعي أبيه، ألقى
بيلطته على الحائط وصاح:

- هيا أيها المرتزقة البؤساء، اقتربوا من أسد فلاندرز! لا
تخافوا، إنه يستسلم.

ألقى الحرس أنفسهم عليه بأعداد كبيرة وقبضوا عليه.
بينما كانوا يخرجونه مع والده من الغرفة، صاح في شارل
دي فالوا:

- شرفك لن يلوث، سيدي دي فالوا. لقد كنت وما
زلت أشرف فارس وأكثرهم ولاءً في فرنسا تظل ثقتنا
فيك مصونة! هذا ما يقوله لك أسد فلاندرز وهو يمضي في
طريقه حتى يسمعه الجميع.

أعاد الفرسان الفرنسيون السيف إلى غمده بمجرد أن
أدركوا أن حياة الأمراء أصبحت غير مهددة. لم يكن عليهم
التدخل في اعتقال الفلمنكيين؛ كانت هذه مهمة أحقر من
دمائهم النبيلة.

بعد هذا المشهد ورحيل روبرت، كانت هناك لحظة من الارتباك في الغرفة؛ لكن هذه اللحظة كانت قصيرة، وسرعان ما عاد الصمت. خلال هذا الوقت، كان كل من الملك والملكة يشعر كل منهما في قلبه بمشاعر مختلفة. كان فيليب لو بيل حزيناً واستنكر الحكم الذي أصدره؛ على العكس من ذلك، شعرت جين بالنصر وخصوصاً عندما قاوم روبرت وتجراً، في حضور الملك، على إصابة أحد خدامه بجروح خطيرة. كان هذا فعلاً عنصراً مساعداً قوياً يدل على خطئه للانتقام.

لم يستطع الملك إخفاء حيرته وحزنه، أراد أن ينزل من على العرش ويغادر الغرفة بعيداً عن زوجته المتغترسة؛ ومن ثم نهض وقال:

- أيها السادة، نحن نأسف لأعمال العنف التي حدثت في هذا اللقاء وكنا نفضل أن نعطيكم دليلاً على عفونا في هذه المناسبة؛ ولكن، مع حزننا الشديد، كان ذلك مستحيلاً بالنسبة لنا ولمصلحة التاج. إن إرادتنا الملكية تكمن في ضمان عدم وجود أي مصدر للمشكلات أو ما يعكر صفو راحة قصرنا أكثر من ذلك.

قامت الملكة بدورها وكانت ستنضم إلى زوجها، لولا وقوع حادث جديد أوقفها مما أثار استيائها الشديد.

منذ أن توقف عن الكلام، ظل شارل دي فالوا واقفاً

في الجزء الخلفي من الغرفة، غارقاً في قلق عميق. كان الاحترام والعاطفة اللذان يكنهما إلى أخيه يتصارعان في قلبه ضد الغضب الذي يشعر به بسبب الخيانة التي حدثت للتو. ولكن هذا الغضب انفجر فجأة، فقد احمر وجهه بشدة وأخذ يشحب رويداً رويداً، واندفع نحو الملكة، يحركه السخط الشديد، وصرخ قائلاً:

- سيدتي! لن تسيئي لشرفي دون عقاب! استمعوا إليّ أيها السادة جميعاً؛ لأنني سأتحديث أمام الرب، قاضينا جميعاً! إنني أخاطبك أنت، جين دي نافار، أنت التي استنفدت موارد البلاد ببذخك؛ نعم، أنت التي أسأت لشرف مملكة أخي النبيل، أنت من تمثلين عار وخزي فرنسا! لقد جلبت التعاسة إلى رعايا الملك بتزوير العملات والامتيازات الحقيرة. واعلمي ذلك جيداً، سيدتي، هنا، أمام الرب، أمام الملك، أمام كل هؤلاء الفرسان الذين يسمعونني ويوافقونني، أعلن لك أنك ملكة بلا إيمان وبلا شرف، وأني لأتخلى عن أي علامة احترام تجاهك (27). وعند الكلمة الأخيرة، سحب سيفه، وحطمه إلى قطعتين على ركبته، ورمى الشظايا على الأرضية لدرجة أنها مع هذا القدر من العنف وصلت إلى درجات العرش.

في هذه اللحظة، كان سنط جين وغيظها وغضبها بلا حدود عند سماع هذه الكلمات؛ ارتفع الدم في وجهها، وانقلبت ملامحها رأساً على عقب وفقدت كل تعبير

بشري، وتشوهت بسبب انقباض مخيف، وبقيت مسمرة في مكانها، يمكننا أن نقول إن سكتة دماغية قد أصابتها. قبل أن تصبح:

- اقبضوا عليه، اقبضوا عليه.

أراد الحراس الذين كانوا في الغرفة تنفيذ هذا الأمر وكان قائدهم يقترب بالفعل من الكونت دي فالوا؛ ولكن الملك الذي كان يكن عاطفة كبيرة تجاه أخيه أمر ألا يلمسه أحد. صائحاً:

- من سيلبس السيد دي فالوا، سيموت في اليوم نفسه.

في ظل هذا التهديد، ظل الحرس بلا حراك وغادر كونت دي فالوا الغرفة بحرية، على الرغم من لعنات الملكة الغاضبة.

وهكذا انتهى هذا المشهد العنيف. احتُجز جي في كومبيين؛ ونُقل روبرت إلى بورج في ييري وشقيقه جيوم إلى روان في نورماندي. تم سجن كل من اللوردات الفلمنكيين الآخرين في مدينة مختلفة، بحيث لا يستطيع الجميع، الأسرى والمعزولون عن بعضهم، تقديم أي عزاء.

كان ديديه ديفوس هو الوحيد الذي عاد إلى فلاندرز؛ لم يتعرف عليه أحد في زي الحاج.

لم يرغب شارل دي فالوا في البقاء بفرنسا. فقد غادر على

الفور إلى إيطاليا ولم يعد إلى فرنسا إلا بعد وفاة شقيقه،
عندما أراد لويس لو هوتين أن يستولي على العرش. ومن
ثم اتهم إنجويراند دي ماريني بارتكاب جرائم عديدة ضد
الدولة وأعدمه شنقاً في مونتفوكون. ولكن الحقيقة هي
أن وفاة الوزير لا بد أن تعزى إلى اعتقال جي دي دامبير
وليس إلى أفعاله الخاطئة، وأن شارل دي فالوا كان قد
شنقه تكفيراً عن هذه الخيانة العظمى.

يا للوردة المسكينة! بالكاد أزهرتِ هذا الصباح، ولكن
 قد انتزعتِ من الساق وداستك الأقدام! بالكاد قد ولدت،
 ولكن قد عانيتِ بالفعل، وبالكاد تفتحت، ولكن قد ذبلت
 بالفعل! يا للوردة المسكينة بالألوان الزاهية، يا ترى من هذا
 الذي أصابك بهذه الجروح المميتة؟

(ف. دو فيسير)

في ذلك الوقت، كان هناك حزبان في فلاندرز يتقاتلان
 فيما بينهما ولم يدخرا شيئاً لتدمير بعضهما بعضاً. وقد أعلن
 معظم النبلاء والموظفين العموميين ولاءهم، تحت أي
 ظرف لفرنسا، وبسبب ذلك تمت تسميتهم الليليارد (28)،
 فلقد بدا الجميع خاضعين مثل الأشخاص المرسومين وسط
 الزهور في شعار فرنسا. ولعلنا نفهم بسهولة، من توالي
 الأحداث، لماذا تم تفضيل غزاة البلاد.

ففي السنوات الأخيرة، أدت البطولات باهظة الثمن
 والحروب الداخلية والحروب الصليبية في البلاد البعيدة
 إلى إفقار معظم النبلاء. وقد أُجبروا، بسبب النفقات
 الهائلة، على البيع لأتباعهم، بمبالغ كبيرة، حقوقهم في المدن
 وفي الإقطاعيات، واعترفوا لهم بعدد كبير من الحريات
 والامتيازات. كان الفقر قد أصاب المدن مؤقتاً،

ولكن سرعان ما أتت الامتيازات التي تم شراؤها بثمنها. الطبقات الدنيا، التي كانت ذات يوم تنتمي إلى النبلاء جسداً وممتلكات، أدركت - منذ ذلك الحين - أن العرق لم يعد يتدفق من جباههم لصالح السادة الظالمين، ولقد اختاروا عمداً هم ومستشاريهم وشكلوا الحكومة التي لم يعد على حكام البلاد أن يقلقوا بشأنها على الأقل. عملت المهن بشكل مشترك من أجل الرفاهية العامة ووضعوا على رأسهم عمداً مسؤولين عن إدارة مصالحهم.

وقد انجذب الأجانب إلى فلاندرز من جميع أنحاء العالم بسبب كرم الضيافة، وحصلت التجارة على زخم كان مستحيلاً في ظل النظام الإقطاعي البحت. وازدهرت الصناعة، وازداد الناس ثراءً، وبسبب فخرهم بكرامتهم التي لم يتم الاعتراف بها لفترة طويلة، فقد انتفضوا أكثر من مرة بيد مسلحة ضد أسيادهم القدامى. النبلاء الذين رأوا بهذا أن حقوقهم وثروتهم قد قضت عليها تقريباً، فسعوا، بالدهاء والعنف، لتقليل القوة المتنامية للمقاطعات. لكن في الوقت الذي نتحدث عنه، كانوا لم ينجحوا بعد؛ لأن الثروة الهائلة لسكان المدن مكنتهم، في حالة الخطر، من تكوين جيش مكتمل من الدفاع والحفاظ على الحريات التي كانوا يمتلكونها ضد النبلاء. في فرنسا، لم تسر الأمور بهذه الطريقة. فيليب لو بيل، مدفوعاً بالحاجة إلى المال، دعا بالفعل إلى اجتماع عام للولايات الثلاث حيث قليل

من المواطنين الذين يتمتعون بالامتيازات والحماية من الملك؛ لكن هذا لم يمنح الناس سوى نفوذ مؤقت، نفوذ لم يمض عليه وقت طويل حتى اختفى لصالح النبلاء، الذين لم يعد بإمكانهم رفع أصواتهم في فلاندرز، وكانوا يمتلكون فقط حق الملكية المشتركة لجميع الفلمنكيين. وقد ندم النبلاء بشدة على قوتهم المفقودة، وكانت الطريقة الوحيدة لاستعادة هذه القوة هي إحداث تدهور في المقاطعات التي كانت مزدهرة للغاية بالفعل، وبما أن الحرية لم تكن بعد في فرنسا، وبما أن هيمنة اللوردات الإقطاعيين لا تزال حصرية ولا جدال فيها، فقد كانوا يأملون في أن يغير فيليب الوضع في بلدهم وأن يعيدهم إلى حقوقهم وامتيازاتهم السابقة. وكانت نتيجة ذلك، أنهم ساهموا في تعزيز المشروعات مع فرنسا، ومن ثم حصلوا على توصيفهم المخزي الليليارد. وكان معظم هؤلاء النبلاء موجودين في بروج -المدينة التجارية والأغنى في ذلك الوقت- إلى جانب مدينة البندقية؛ وكان رؤساء البلديات وأعضاء إدارة البلدية أنفسهم، الذين تم تعيينهم تحت نفوذ فلاندرز، يطلق عليهم هذا الاسم (29).

ولذلك فقد غمرتهم السعادة بأخبار إلقاء القبض على الكونت والنبلاء الذين ظلوا مخلصين له، ومنذ ذلك الحين، أصبحت فلاندرز ملكًا للغزاة وبطريقة ما في حوزة فيليب لوبيل، وبالتالي يمكن لهذا الأخير، بمحض إرادته، القضاء

على القوانين والامتيازات المعمول بها.

على العكس من ذلك، فقد تلقى الشعب ببالغ الذعر والأسى أنباء أعمال العنف التي ارتكبت في كومبيين؛ وكان التعلق الذي يحمله دائماً لكونتاته قد بعث من جديد بفضل تعاطفه معهم وقد انفجر في المهمات ضد الثقة التي تم انتهاكها. لكن القوات الفرنسية التي احتلت البلاد والانقسام الذي ساد بين الطبقات المتوسطة في المدن التي تتمتع بالامتيازات والحماية من الملك، ثبطوا غضب الكوارتس، وبقي فيليب لو بيل، على الأقل في الظاهر، المالك السلمي لميراث جي دي دامبيير.

دعونا نعود الآن إلى قلعة وينينديل، حيث تركنا الأميرة ماتيلد والشاب المصاب أدولف دي نيولاند. بمجرد وصول الأخبار المحزنة إلى فلاندرز، ذهبت ماري، أخته، مع عدد كبير من التابعين إلى وينينديل، وتم نقل شقيقها إلى منزل العائلة في بروج. ماتيلد الفتاة الشابة، والتي انفصلت بقسوة عن عائلتها بأكملها، لحقت بهذه الصديقة الجديدة وغادرت القلعة، والتي كانت حامية عسكرية فرنسية قد استحوذت عليها بالفعل.

كان للمنزل الموروث لعائلة نيولاند في شارع إسبانيا في بروج برجان دائريان، تعلوهما أذرع هوائية، أحاط البرجان بالواجهة، وتجاوزا السقف وهيمنا على جميع المباني

المحيطة؛ عمودان حراريان، من العمارة اليونانية، يدعمان قبة الباب، متوجان بدرع نيولاند مع هذا الشعار فوق القمة: من العدل أن تموت من أجل بلدك. على كل جانب من جوانب الدرع، يقف ملاك يمسك في يد من أيديه بسعف النخيل.

في غرفة بعيدة بما يكفي حتى لا ينجح ضجيج الشارع المستمر في الوصول إليها، كان أدولف يستريح على سرير رائع. كان شحوبه شديداً، والألم الذي تسبب فيه جرحه جعله هزياً لدرجة أنه بالكاد يمكن التعرف إليه. بجانب سريره، تم وضع إبريق صغير وكوب فضي على طاولة. على الجدار، يمكن أن نرى درع الصدر والذي استطاع سيف السيد سان دو بول أن يخترقه وبسبب ذلك أصيب أدولف بجرحه، وبجانب هذا الدرع، توجد قيثاره أحبها غير مشدودة. ساد صمت كثيب حول سرير الجريح. كانت النوافذ نصف مغلقة تسمح بالكاد بدخول الحد الأدنى من ضوء النهار إلى الغرفة، حتى إنه يمكنك أن تسمع صوت التنفس المؤلم للجريح وحفيف الرداء الحريري.

كانت ماتيلد جالسة في زاوية من الغرفة، صامتة وعيناها تظنران إلى الأسفل. لم يبد الصقر المفضل، الجاثم فوق ظهر المقعد، غير مبالي بألم سيده، فرأسه كان منحنيًا تحت ريشه ولم يقم بأي حركة. الفتاة الصغيرة، التي كانت ذات يوم مرحة ومبتهجة، والتي كان يبدو أن الحزن لن

يصل إليها أبداً، قد تغيرت كثيراً الآن. لقد أصاب أسر كل من أحبهم قلبها الشاب بجرح، وبدا كل شيء الآن مظلماً وحزيناً لعينها. لم تعد السماء زرقاء، والغابات لم تعد فيها أوراق الشجر، والحقول لم تعد خضراء؛ لقد هربت الأحلام الناعمة والرائحة! اليوم، وجد الحزن واليأس وحدهما الطريق إلى روحها ولا شيء يمكن أن يواسيها، ولا يزيل من عقلها الفكرة القاسية المتمثلة في أسر والدها. بعد الجلوس لبعض الوقت، نهضت ببطء وحملت صقرها فوق قبضتها. وهي ما زالت تبكي، حدقت في الطائر وبدأت في التحدث إليه بصوت منخفض للغاية، وكانت من وقت لآخر تدمع عينها وتمسح بلل وجنتها الشاحبتين. ثم تخاطب صقرها بسداجة طفولية:

- يا طيري الوفي، أتوسل إليك، لا تحزن؛ لم يتركنا والدي إلى الأبد، لقد توسلت في صلاتي من أجله إلى السيد القديس ميخائيل. الرب عادل كما ترى! سيسمح له الرب بالهروب من غضب ملكة نافار القاسية، سنراه مرة أخرى قريباً، فلا تحزن على هذا النحو، يا صقري الحبيب!

وبينما كانت تتكلم بهذه الطريقة، تذرّف الدموع بغزارة. على الرغم من أن كلماتها كانت مليئة بالثقة والأمل، إلا أن هذا الأمل لم يكن في قلبها. لكنها واصلت كلامها قائلة:
- طيري الجميل، لن تذهب للصيد في الوديان حول

قلعتنا وينينديل الجميلة. لم تعد وينينديل ملكًا، فهي الآن ملك للفرنسيين. ألقى الفرنسيون الأشرار والذي البأس في السجن ووثقوه بالسلاسل الثقيلة. في هذه اللحظة، يئن في قاع زنزانة مظلمة والرب يعلم فقط ما إذا كانت الملكة حين ستقتله أم لا! أوه، يا طيري الحبيب، ونحن هكذا سنموت أيضًا من الألم. هذه الفكرة، هذه الفكرة الرهيبة وحدها تسلب مني كل قوتي. استرح هنا؛ لأن يدي المرتعشة لم تعد تعرف كيف تتحرك.

الطفلة الأميرة، في حال من اليأس، تسقط منهكة على مقعدها؛ لكن شحوبها لم يزد؛ فنذ فترة طويلة تلاشى اللون الوردي من فوق خديها تمامًا، وأصبحت دموعها المستمرة تمجر جفنيها. وقد اختفى السحر المغربي للملامحها وفقدت عيناها نيرانهما وحيويتيهما.

بقيت لفترة طويلة منغمسة في ألمها وفسح عقلها المجال بدوره لكل الأفكار التي يمكن أن تزيد من هذا الألم. ثار خيالها الحزين باستمرار، أمام عينيها، أكثر المشاهد كآبة، رأت والدها مقيدًا بالسلاسل في زنزانة رطبة، وسمعت ضجيج السلاسل الحديدية وأصدااء هذا الحبس المشؤوم الذي كان السبب في تكرار نحيب التعاطف مع أبيها السجين. كانت خائفة باستمرار أن يموت مسمومًا وألقى بها هذا الهاجس في عذاب متواصل؛ بكت كثيرًا وكانت حزينة، حزينة وراغبة في الموت.

سمعت تنهيدة مكتومة وصوتاً قادمًا من اتجاه السرير. سارعت ماتيلد إلى مسح دموعها وركضت باهتمام شديد إلى الفارس المريض. وبعد أن ملأت الكأس الفضية بمشروب صحي، مررت يدها اليمنى تحت رأس أدولف، ورفعته قليلاً، ورفعت الكأس إلى شفثيه. فتح الفارس عينيه على اتساعهما ونظر إلى الفتاة الشابة بتعبير غريب. تألقت عيناه بامتنان شديد في نظرتة المحمومة، وانتشرت ابتسامة مبهمة على وجهه الشاحب.

منذ أن أصيب الفارس بجرحه، لم يكن قد نطق بكلمة واحدة بوضوح؛ حتى بدا أنه لا يسمع الكلمات الموجهة إليه. فقط، من خلال قليل من القرائن غير المحسوسة تقريباً، يمكن للمرء أن يصدق أنه سمع ماتيلد، عندما قالت بصوت هادئ وحزين:

- تعاف، سيد أدولف، أخي الحبيب، تعاف بسرعة! سأصلي من أجلك؛ لأن موتك سيجعلني، في هذا العالم، أكثر بؤساً مما أنا عليه بالفعل!

عندما قالت هذا، وأشياء أخرى كثيرة، بجانب السرير، دون أي دافع خفي وبحسن نية، كان أدولف دائماً يسمعها ويفهمها، على الرغم من أنه لم تكن لديه القوة ولا القدرة على الكلام.

خلال الليلة السابقة حدث تحسن ملحوظ في حالة

المصاب. بعد صراع طويل، تغلبت الطبيعة على المرض،
وأعاد له النوم المريح بعض القوة والشعور بالوجود، وكانت
تنهيدة بالفعل تهرب بحرية من صدره.

بمجرد أن أزاحت ماتيلدا الكأس من شفثيه، فوجئت
بشدة بسماعه يقول بصوت ضعيف ولكنه مميز للغاية:

- أيها الفتاة النبيلة! يا ملاكي الحارس! أشكر الرب على
العزاء الذي أرسله لي من خلالك. هل أنا جدير برعايتك
السخية يا ماتيلدا؟ كيف أستحق يدك الكريمة التي أسندت
رأسي بكل هذا الحب؟ آه ستكونين مباركة على كل الرعاية
التي تعطينها للفارس المسكين!

حدقت الأميرة الصغيرة إليه بعيون مشرقة، وعندما
لاحظت كيف عاد إلى الحياة، رفعت يديها بفرح إلى
السماء، وأظهرت سعادتها بصرخات الفرح:

- آه، لقد شفيت يا سيدي أدولف! يا إلهي كم أنا سعيدة!
ولن أبكي الآن؛ على الأقل سيكون لدي أخ يواسيني!

وكما لو أنها تذكرت شيئاً منسياً في تلك اللحظة، صمتت
جفاة، وأصبح وجهها جاداً وألقت بنفسها على ركبتيها عند
الصليب الموضوع على رأس السرير. ضمت يديها ووجهت
صلاة حارة إلى الرب الذي مكن صديقها، وشقيقها،
أدولف، من الشفاء.

عندما نهضت، نظرت إلى الفارس مرة أخرى وقالت
بصوت ممتلئ بالسعادة:

- ابق ساكناً يا سيدي لا تتحرك لأن السيد روغارت يمنع
ذلك.

قال أدولف:

- ما الذي لم تفعله من أجلي يا ابنة الملك النبيلة؟ آه! لو
عرفت فقط كم من الوقت سحرت صلواتك أذني! كيف
دوى صوتك المعزّي بهدوء في قلبي! بدا لي أن ملاكاً من
الرب كان ينزل نحوي ويخرج الموت من فراشي.. نعم،
الملاك الذي دعم رأسي، الذي أطفأ عطشي الشديد وأكد
لي دون توقف أنني لن أموت. أوه! الرب يسمع صلواتي،
ماتيلد النبيلة والحبيبة، أتمنى أن يعيدني إلى الصحة، حتى
أريق دمي من أجلك!

ردت الأميرة الصغيرة:

- السيد دو نيولاند، لقد خاطرت بحياتك من أجل
والدي؛ لقد أحببتك كما أحبه.. ألا يجب أن أكون
أختاً لك وأعتني بك كأخ؟ الملاك الذي رأيته هو السيد
القديس ميخائيل، الذي توسلت إليه لمساعدتك. دعني
أخرج، سأذهب بسرعة كبيرة لأجد أختك ماري،
لأشاركها فرحتي؛ أريدها أن ترى مدى تحسن حالتك.

تركت الفارس وعادت إلى الغرفة بعد لحظات برفقة ماري. السعادة التي شعرت بها انعكست في ملامحها وانطبعت على شخصيتها كلها. كانت حركاتها أكثر حيوية وأسرع، ولم تعد دموعها تتدفق واستأنفت الحديث بسعادة مع صقرها المحبوب. بمجرد أن دخلت ماري الغرفة، التقطت الكوتيسة الصغيرة طائرًا في قبضتها واقتربت من سرير أدولف وهو معها. صاحت ماري وهي تضع قبلة على خد المريض الشاحب:

- أخي الحبيب هل هذا حقيقي؟ أخيرًا، ستركني الأحلام المشؤومة! لن أخاف بعد الآن بالقرب من سيريك! لن أبكي بعد الآن لأنني أراك تموت! الآن ذهب كل حزني. أنت تتنفس بصعوبة! هل أنت عطشان يا أخي الحبيب؟

أجاب أدولف:

- لكن، يا عزيزتي ماري لم أعانِ من العطش أبدًا خلال أيام المعاناة، لقد كانت ماتيلد الكريمة تعتني بي باهتمام كبير! وأيضًا، بمجرد أن أستطيع أن أذهب إلى سانت كروا (30)، سأدعو لها في صلواتي ببركة السماء، حتى يزيل الرب الحزن من كل خطواتها.

وبينما كان أدولف يتحدث مع ماري، كانت ماتيلد تخبر صقرها عن التحسن السعيد في حالة صديقها، والطائر،

عندما رأى سيدته سعيدة للغاية، خفق بجناحيه كما لو كان يستعد للصيد. قالت له:

- هل ترى، عصفوري الحبيب، أدارت رأسها نحو أدولف، هل ترى! السيد دي نيولاند، الذي رأيناه يعاني منذ فترة طويلة، سُفي بأعجوبة؛ لن نجبر بعد الآن على التزام الصمت. الآن سنتمكن من التحدث معاً، ولن نشعر بالحزن بعد الآن كما كنا في السابق. لم يعد هناك ما نخشاه، وربما تختفي أيضاً مواضيع الحزن الأخرى لدينا؛ لأن الرب كما ترى طيب ورحيم. نعم، يا صقري الجميل، ربما سينتهي يوماً ما هذا الأسر القاسي..

شعرت ماتيلد أنها ستقول شيئاً لا ينبغي للفارس أن يعرفه. وحتى مع سرعتها في قطع جملتها، فقد اخترقت كلمة أسر أذن أدولف، فصاح:

- ماذا تقولين ماتيلد؟ أسر من؟ أنت تبكين! يا أيتها السماء، ماذا حدث؟

ماتيلد لم تجرؤ على الإجابة. لكن ماري، التي كانت أكثر حذراً، جلبت شفيتها إلى أذن أخيها وهمست بصوت خفيض:

- أسر فيلبين طبعاً. لا تتحدث عنها بعد الآن، فهي لا تزال تبكي. والآن بعد أن أصبحت أفضل، سأخبرك بأشياء كثيرة، إذا سمح لك السيد روغارت بذلك، وأشياء

خطيرة للغاية، لكن الكونتيسة الشابة يجب ألا تعرف شيئاً عنها؛ ثم أكرر، أنا في انتظار السيد روغارت. لذلك ابق ساكناً، أخي الطيب، وانتظرنى؛ سوف آخذ ماتيلد إلى غرفة أخرى.

أراح الفارس رأسه على الوسادة وتظاهر بالراحة. التفتت ماري إلى ماتيلد وقالت:

- أيتها الكونتيسة، من فضلك تعالي معي، من فضلك؛ السيد أدولف يحتاج إلى الراحة. إن امتنانه لك يجعله يتحدث كثيراً.

تبع الفتاة الصغيرة صديقتها بمنتهى الطاعة.

بعد مرور بعض الوقت، ظهر السيد روغارت على عتبة الباب وقادته ماري إلى أخيها. صاح وهو يأخذ بيدها:

- حسناً، سيد أدولف، إن الأمور تسير على ما يرام، كما أرى. ولنضع جانباً أي خوف؛ الآن نحن خارج مرحلة الخطر. لست بحاجة إلى تضميد جرحك بعد الآن. اشرب الكثير من هذا الماء وابقَ بلا حراك قدر المستطاع. في أقل من شهر، سنذهب في نزهة خارج المدينة معاً. آمل ذلك على الأقل؛ لأن الحوادث غير المتوقعة وحدها يمكن أن تؤخر شفاءك. ومع ذلك، بما أن روحك ليست مريضة مثل جسدك، اسمح للآنسة ماري بإبلاغك بالأحداث المؤسفة التي وقعت منذ إصابتك، بشرط، ألا تعذب

نفسك كثيراً وأن تحافظ على هدوئك.

كانت ماري قد وضعت مقعدين بالفعل وجلست مع السيد روغارت بجانب سرير الفارس المصاب. نظر إليهما بفضول شديد ويمكن للمرء أن يقرأ في وجهه أنه كان حزيناً مقدماً على ما كان على وشك أن يعلمه. قالت ماري:

- دعني أتحدث حتى النهاية، لا تقاطعني وكن شجاعاً يا أخي.. في مساء اليوم الذي كان مميتاً للغاية بالنسبة لك، قام السيد الكونت جي بجمع أتباعه المخلصين وأعلن لهم أنه يريد القيام برحلة إلى فرنسا ورمي نفسه عند قدمي فيليب لو بيل. وهكذا تم اتخاذ القرار ورحل مع خمسين من النبلاء إلى كومبيين. لكن عندما وصلوا إلى هذه المدينة، تم أسرهم، واليوم، بلدنا تحت السيطرة الفرنسية. راؤول دي نيسل يحكم فلاندرز (31)..

العاطفة التي شعر بها أدولف بعد سماع هذه الرواية القصيرة لم تكن قوية كما كان متوقّعا. لم يرد وبدا وكأنه غارق في تفكير عميق.. فجأة صاح:

- يا إلهي! ما الذي فعله جي دي دامبيير في حياته، حتى يستحق أن يتعرض لكثير من الإذلال في هذا العالم؟ لكن أخبريني يا ماري، هل أسد فلاندرز أسير أيضاً؟

- نعم يا أخي، السيد روبرت دي بيثون سجين في بوج

والسيد جيوم في روان. من بين جميع اللوردات الذين اجتمعوا حول الكونت، نجا واحد فقط، على ما يبدو، هو ديديه ديفوس.

- أنا الآن أفهم الكلمات المتبورة ودموع ماتيلد التعيسة. من دون أب، دون عائلة، أصبحت ابنة كوتات فلاندرز تطلب اللجوء والحماية من الناس الأغراب.

وبينما هو يتكلم هكذا تألقت عيناه واتخذت ملامحه تعبيراً عن الحماسة، وتابع:

- الابنة المحببة لأميري وملكي كانت ترعاني مثل الملاك الحارس! وهي الآن وحيدة ومستسلمة! ومعرضة للاضطهاد! ماتيلد المسكينة! أوه! لكني سأذكر كل خيرات ومحاسن أسد فلاندرز؛ إنني سأعتني بها كما لو كانت وديعة مقدسة. يا لها من مهمة جميلة وعظيمة أعطيتموها لي لإنجازها! وإنني لمدين لها بحياتي، والتي يمكنني تكريسها بالكامل لها اعترافاً مني لها بالجميل!

ولكن، بعد لحظة من التفكير، أصبح وجهه داكناً فجأة، ألقى نظرة متوسلة على الجراح وقال:

- يا إلهي كم يثقلني جرحي الآن وكم هذا السرير مؤلماً! صديقي العزيز، السيد روغارت؛ اشفني قريباً، من أجل محبة الرب، حتى أفعل بدوري شيئاً لمن جاء بحبة لمساعدتي أثناء مرضي. لا تدخر المال، الجأ إلى أئمن

الأعشاب، إلى أنبل الأجار الكريمة، لتخرجني من هذا السرير بسرعة؛ لأنه من هذه اللحظة لم يعد لي راحة!
أجاب السيد روغارت:

- السيد دو نيولاند، ليس من الممكن التعجيل بشفاء جرحك؛ دائماً ما تستغرق الطبيعة وقتاً لتوحيد الأجزاء المنفصلة بعنف. الصبر والراحة سيكونان أكثر فائدة لك من الأعشاب والأجار، ولكن الآن ماذا آلت الأمور في بلدك. يحتلها الفرنسيون بالكامل، فهم أسيادها، وكلها طال أمد هيمنتهم، أصبحوا أكثر جراً. حتى الآن، تمكنا من إخفاء إقامة الكوتيسة ماتيلد عنهم؛ ولكن يُخشى أن يُكتشف يوماً ما؛ وهناك سبب للاعتقاد أنه في هذه الحال، سيتم تسليم الفتاة المسكينة إلى جين دي نافار.

صاح أدولف وهو يحاول النهوض من فوق سريره:

- أبداً طالما كنت حياً! لكنك على حق، سيد روغارت، يجب تجنب هذه المحنة، ولكن ما الذي يمكن فعله حيال ذلك؟ يا إلهي، ما هذا الذي أشعر به وأنا عالق بهذا الشكل في ظل عجز بائس، وهي تحتاج إليّ في هذه اللحظة.

أجاب بوغارت:

- إنني أعرف ملجأ، يمكن أن تكون ماتيلد فيه بأمان.

- أي ملجأ؟

- ألا تعتقد، سيد أدولف، إنها ستجد نفسها في مأمن من

كل خطر في أرضي و(32)، مع ابن عمها جيوم؟

أصبح الفارس خائفاً من هذا التساؤل بشكل واضح. هل يسمح لما تيلد بالذهاب إلى بلد أجنبي؟ هل سيسمح لشخص آخر بالدفاع عنها؟ لم يستطع دفع نفسه للقيام بذلك؛ لأنه سبق أن فرض على نفسه مهمة إعادة ما تيلد إلى والدها والحفاظ عليها من أي إهانة.

فكر لفترة طويلة محاولاً حل هذه المعضلة، وعندما ظن أنه وجد الطريق، أضاء وجهه تعبيراً عن الفرح، فأجاب بابتسامة:

- حقاً، سيد روغارت، ستكون هذه الإقامة آمنة تماماً، ولكن وفقاً لما قلته أنت بنفسك، فإن الفرق الفرنسية منتشرة في جميع أنحاء فلاندرز، ويبدو لي أنه أمر محفوف بالمخاطر بالنسبة للأميرة الصغيرة أن تقوم برحلة في مثل هذه الظروف. لن تستطيع أي حماية مرافقتها؛ لأن ذلك سيزيد من الخطر. وبعد ذلك، هل سأترك الكوتتيسة ما تيلد تذهب بمفردها مع هذه الحامية الضعيفة؟ لا، لا، يجب أن أشملها أنا برعايتي الخاصة؛ فكر في الأمر جيداً، بلا شك، سيطلب مني سيد روبرت دي بيثون يوماً ما النزال من أجل ابنته.

- بالطبع، سيد أدولف. لكن ألا تعرضون الكوتتيسة

للخطر أكثر بإبقائها في فلاندرز؟ هنا من يحميها، إنه ليس أنت، لا يمكنك ذلك. نبلاء المدينة لن يفعلوا ذلك أيضاً، فهم يخضعون لإرادة فرنسا؛ ماذا سيحدث للفتاة المسكينة إذا اكتشف الفرنسيون مكانها؟

أجاب أدولف:

- حسناً، لقد وجدت حماة لها. لترسل أحداً يبحث عن عميد النساجين.

وأضاف:

- سيد روغارت، سأضع كوتيستنا الشابة تحت حماية البلدية. هل تعتقد أن ذلك يعتبر إلهاماً جيداً، أخبرني؟

أجاب السيد روغارت:

- أعتقد ذلك، نعم هذه فكرة رائعة! لكنك لن تنجح، فالناس غاضبون للغاية من أي شيء يحمل اسم النبلاء. وفي الحقيقة يا سيد أدولف، يجب أن أعترف أنهم ليسوا مخطئين تماماً، فأنت تعلم أن معظم النبلاء يتحدثون مع أعدائنا ويريدون تدمير حقوق التاج.

- هذا لن يغير خطتي، تأكد، سيد روغارت. تدين مدينة بروج بالعديد من الامتيازات لأعمال والدي، ولم ينس ذلك بالتأكيد عميد النساجين ولا زملاؤه. علاوة على ذلك، إذا لم تنجح جهودي، فسنبحث عن طريقة أخرى

لنقل الكوتيسة إلى أرض يوليش.

ظلاً يتناقشان حول هذا الموضوع لمدة نصف ساعة تقريباً، عندما دخل السيد دي كوينك، عميد النساجين، الجناح الذي يتوجدان فيه. كان يرتدي نوعاً من السترات الصوفية الخشنة التي تسقط حتى قدميه؛ هذا الثوب، دون زخرفة أو تطريز، يختلف بشكل فريد عن زي النبلاء الغني والأنيق. كان واضحاً للجميع أن عميد النساجين قد استبعد كل المظاهر التي تدل على وضعه، ولأنه بهذا الشكل، يوضح تواضع حالته وبالتالي يحارب الكبر والغرور؛ لأن هذا السترة الصوفية البسيطة كانت تغطي أقوى رجل في فلاندرز كلها. كانت هناك قلنسوة تغطي رأسه وشعره الطويل الذي يغطي أذنيه. وقد جمع حزام ثنيات واسعة من سترته حول ظهره، ومقبض خنجر على شكل صليب يتوهج بشكل غامق في جانبه. فكما نعرف في بداية قصتنا فقد السيد دي كوينك إحدى عينيه، وهذه الخسارة جعلت وجهه منفراً إلى حد ما. شحوبه الشديد وخداه العظميان والتجاعيد التي غطت جبهته أعطت وجهه تعبيراً قاسياً وصارماً. في العادة، لا يلاحظ فيه شيء يمكن أن يميزه عن غيره من الرجال؛ ولكن بمجرد أن تشغله مجرد فكرة، مجرد مشروع أو حتى شيء تافه يثير اهتمامه بشكل خاص، تظهر عيناه على قيد الحياة وتبدو فيهما حيوية غير عادية، وتتدفق ومضات من الذكاء الرجولي من عينيه ومن شخصه بالكامل

تجعل شخصيته تبدو معترزة بنفسها وقوية. عندما دخل، نظر إلى الأشخاص الذين كانوا في الغرفة بنظرة متحدية مثل نظرة الثعلب، ونظر بشكل خاص إلى السيد روغانر، الذي لاحظ فيه، براعة أكثر من الآخرين. قال أدولف مخاطباً إياه:

- السيد دي كونينك، من فضلك اقرب مني؛ لا بد لي من أن أسألك خدمة أرجو ألا ترفضها إذا كان الأمل الذي أضعه فيك قائماً بالفعل! لكن قبل كل شيء؛ يجب أن تعدني بعدم الكشف عن السر الذي سأخبرك به لأي شخص.

أجاب السيد دي كونينك:

- إن عدالة ومحاسن السيد نيولاند لا تغيب قط عن أذهان النساجين، لذا أقسم لسيادتك بأنه يمكنك أن تعتمد عليّ، تكادم ممتن. ومع ذلك يا سيدي، إذا كان ما تريده مخالفاً لحقوق الشعب والجماعة، فإني أطلب منك أن تحافظ على سرك ولا تطلب مني شيئاً.

صاح أدولف:

- ومنذ متى يا سيدي، منذ متى أضر زعماء نيولاند بحقوقكم وامتيازاتكم؟ هذه اللغة تسيء إليّ وتشعرنني بالإهانة.

أجاب العميد:

- ساحني يا سيدي، إذا كان كلامي يؤذيك، لكن من الصعب جداً التمييز بين الخير والشر لدرجة أننا لا نستطيع أن نثق في الجميع ثقة مطلقة. اسمح لي، كما قلت، أن أطرح عليك سؤالاً واحداً فقط، إن إجابتك ستبدد كل شكوكي: سيدي دي نيولاند، هل أنت ليليارد؟

صرخ أدولف بسخط:

- ليليارد؟ ليليارد؟ أنا لست كذلك، سيد دي كونينك. في صدري ينبض قلب لا يتعاطف مع الغريب، والدعوة التي أدعوك بها هي في حد ذاتها معادية لهؤلاء الناس.

- إذا تكلم بصراحة يا سيدي. أنا جاهز لخدمتك.

- أنت تعلم أن الكونت جي أسير مع كل أتباعه؛ لكن ما لا تعرفه هو أنه بقي في فلاندرز شخص لاعم، محروم اليوم من كل المساعدة والدعم، ومن حقه، بسبب سوء حظه، فضلاً عن رتبته، أن يتمتع بتفاني الشعب الفلمنكي ورحمته.

قال دي كونينك مقاطعاً له:

- تقصد الكونتيسة ماتيلدا، ابنة السيد دي بيثون؟

تسأل أدولف، مندهشاً:

- كيف علمت بذلك؟

- إنني أعرف أكثر من ذلك يا سيدي. إنك لا يمكنك

إحضار الكوتيسة ماتيلد إلى منزلك سراً لدرجة أن دي
كونينك لا يسمع بذلك، ولم تكن لتتركه دون علمي بذلك.
تحرك أدولف حركة مفاجئة. بينما أجاب السيد دي
كونينك:

- لا تقلق. يمكنني أن أوكد لسيادتك أن قلة من الناس
في بروج يشاركونني هذا السر.

- أنت رجل غير عادي يا سيدي. كرمك يؤكد لي أنه
في حالة الضرورة ستحمي ابنة أسد فلاندرز من عنف أي
غريب.

لقد جاء دي كونينك من صفوف الشعب؛ ولكنه كان
واحدًا من تلك الأرواح المميزة التي أرسلها الرب إلى العالم
بمهمة الهيمنة على معاصريهم. وبمجرد أن نضجت سنوات
ذكائه وملكاته القوية، تخلص من سباته الذليل الذي نام
فيه إخوته. لقد جعلهم يفهمون قوة المؤمرات وينهض
معهم ضد مضطهدي بلاده. لقد أراد هؤلاء أن يعارضوا،
بالعنف، صحة عبيدهم السابقين، لكنهم لم ينجحوا. لقد
نجح دي كونينك، بفصاحته، في توسيع مداركهم بشكل
جيد لدرجة أن أي ظلم أصبح لا يطاق بالنسبة لهم. إذا
كانت قوة السلاح قد طغت عليهم على حين غرة، فإنهم
جميعاً أحنوا جباههم بطاعة، وأخفى دي كونينك، الذي
جمع بين المكر والجرأة، نفسه لبعض الوقت، كما لو أنه فقد

الكلام والذكاء. لكن الثعلب لم يغف لفترة طويلة، وعندما أعاد سرًا شجاعة إخوته، ثاروا جميعاً مرة أخرى، وفي الوقت نفسه، ضد طغاتهم، وفي كل مرة تكسر المقاطعة أغلالها الحديدية. كل الاتحادات الدبلوماسية للنبلاء تتطير في الدخان أمام عبقرية دي كوينيك الماهرة والمختربة. وقد رأوا أنفسهم محرومين، دون أن يتمكنوا من معارضة ذلك، من جميع الحقوق التي ينتحلون بها على الناس. سيكون المؤرخ قادراً على القول، لسبب وجيه، أن دي كوينيك كان أحد الرجال الذين ساهموا بقوة في تغيير العلاقات السياسية للنبلاء مع المقاطعات؛ كما أن الحلم الوحيد للمدافع عن الشعب هو تحرير الفلمنكيين وتميئتهم، وهم منحنون لفترة طويلة تحت نير الإقطاع.

عندما عهد أدولف دي نيولاند إليه بما تيلد الصغيرة ووضعها تحت حمايته، أضاءت ابتسامة الرضا على وجهه. كان هذا، في نظره، انتصاراً للشعب، الذي كان يمثله، وفهم على الفور مدى فائدة وجود الابنة اللامعة لجي دي دامبيير في مساعي الخلاص العظيم. أجاب دي كوينيك:

- سيد دي نيولاند، اقترحك يشرفني، وبالتأكيد لن أدر أي شيء قد يضمن سلامة الكونتيسة النبيلة.

ومن أجل الحصول على المزيد من أجل المقاطعة، أضاف

عن قصد:

- ومع ذلك فمن الممكن أن تكون قد رحلت من هنا،
قبل أن أستطيع أن آتي لإنقاذها.

عند سماع هذه الملاحظة من عميد النساجين، اعتقد
أدولف أنه فهم أنه لم يكن ميالاً لتكريس نفسه بصراحة
لقضية الكوتتيسة، فأجاب:

- إذا كنت لا تستطيع أن تقدم لنا مساعدة فعالة، يا
سيدي، أتوسل إليك أن تصحني بأفضل مسار يمكن
اتخاذها من أجل سلامة ابنة سيدنا.
أجاب دي كونينك:

- إن مهنة الناصح قوية بما يكفي لمنع السيدة النبيلة من
الأذى، ويمكنني أن أؤكد لكم أنها تستطيع العيش في بروج
بأمان مثل ألمانيا، إذا سُمح لي أن أكون مستشارها.
تساءل أدولف:

- لكن من الذي يمنعك؟

- أوه! سيدي، لا يجوز لأحد التابعين المتواضعين أن
يعطي الأوامر إلى سلطاته؛ ومع ذلك، إذا وافقت
الكوتتيسة ماتيلد على التصرف وفقاً لرغباتي، فسأكون
جاهزاً فوراً لتحريرها.

- أنا لا أفهم تماماً هدفك يا سيدي. ماذا ستطلب من
الكوتتيسة الشابة؟ أنت لا تريد أن تقودها إلى ملجأ آخر،

أليس كذلك؟

- لا؛ لكنني أود ألا تظهر نفسها في الشارع دون أن يتم تحذيري، وكذلك ألا ترفض الخروج إذا اعتبرت ذلك ضرورياً. إلى جانب ذلك، يا سيدي، ستبقى حراً في حرمانني من القوة التي أدعيها، من اللحظة التي تشك فيها في ولاء مشاعري.

لقد عرف دي كونينك، في فلاندرز، بأنه من أكثر الرجال حكمة ومهارة. لذلك اعتقد أدولف أن طلبه تم إملاؤه بحكمة ووافق على هذا الطلب، بشرط صريح أن يكون عميد النساجين شخصياً هو المسؤول عن الأميرة الصغيرة. بعد ذلك، بعد أن أعلن دي كونينك أنه لم ير الكوتتيسة ماتيلد من قبل، تم إدخال الأخيرة إلى الجناح من قبل ماري.

عند رؤيتها، انحنى دي كونينك بعمق. ونظرت الفتاة الصغيرة بذهول قليلاً إلى هذا الرجل الذي لم تكن تعرفه.

في اللحظة نفسها التي كان فيها عميد النساجين يسجد أمام الكوتتيسة، سمع فجأة ضجيجاً عظيماً في الردهة؛ يبدو أن شخصين يتشاجران.

صرخ أحدهما:

- انتظرا! انتظر حتى أذهب وأسأل ما إذا كان يمكنك

الدخول!

صاح الصوت الآخر بقوة أكبر:

- كيف! أتريد ترك عميد الجزارين عند الباب عند دخول عميد النساجين؟ افسح لي المجال قريباً وإلا سوف تدم!

فُتح الباب ودخل الغرفة شاب مفتول العضلات بوجه بشوش ولطيف. كان يرتدي ثوباً يشبه إلى حد ما ثوب دي كونينك، لكنه مزين بذوق أكثر، وكان هناك خنجر طويل معلق في حزامه. عندما دخل الغرفة، ألقى بشعره الأشقر على كتفيه وتوقف في حيرة عند عتبة الباب. كان يعتقد أنه سيجد عميد النساجين مع عدد قليل من رفاقه، ولكن عندما رأى هذه الأميرة الصغيرة الساحرة ودي كونينك ينحني أمامها، لم يكن يعرف ما يفكر فيه. ومع ذلك، لم يربكه هذا التردد ولا النظرات المتسائلة للسيد روغارت. عاد إلى رشده سريعاً، كشف عن نفسه، وحيا جميع الحاضرين بسرعة وتوجه مباشرة إلى دي كونينك، الذي ضربه ببساطة وبشكل معتاد على كتفه.

- وأخيراً! أجدهك سيد بيبر؛ لقد كنت أبحث عنك لمدة ساعتين تقريباً. لقد بحثت عنك في أنحاء المدينة كافة دون أن أتمكن من مقابلتك.. أنت لا تعرف ماذا حدث، أو ما هي الأخبار التي أحملها؟

تسأل دي كونينك بفارغ الصبر:

- ما الأمر إذا، سيد بريدل؟

صاح بريدل:

- لا تحق بي بثبات شديد بعينك الرمادية هذه عميد النساجين.. أنت تعلم جيداً أنني لا أخاف من النظرة التي تشبه نظرة القطط. لكن لا تهتم بذلك! دعنا نصل إلى النقطة المهمة. حسناً، سيصل الملك فيليب وجين دونافار الملعونة إلى بروج غداً.. وقد طلب هؤلاء السادة المعظمون مئة نساج وأربعين جزاراً ولا أعرف عدد الأشخاص الذين سيبنون أقواساً وعربات ومنصات للنصر!

- متى سيكون ذلك؟ وما الذي تجده مفاجئاً إلى هذه الدرجة لتقلق وتلهث بهذا الشكل؟

- كيف! تسأل ماذا يعني ذلك، عميد النساجين؟ لكن هذا يعني أنه لا يوجد جزار واحد يريد أن يضع يده في العمل، وأن أكثر من ثلاثمئة نساج في انتظارك أمام الباند لمعرفة ما يتعين عليهم القيام به (33). بالنسبة لي، ستمر سنوات عديدة قبل أن أقدم شيئاً لهؤلاء الغرباء. يتم تجهيز الحراب المسنونة (34)، ويتم شحذ السكاكين وباقي المعدات. كما تعلم، عميد النساجين ماذا يعني ذلك في مهنتي؟

استمع الحاضرون بفضول للكلمات الجريئة والصريحة لعميد الجزارين. كان صوته ذا نبرة لطيفة وعذبة، دون لهجة مخنثة. اعتقد دي كونينك من جانبه أن خطة بريدل ليس لها فرصة للنجاح، فأجاب:

- سيد جون، سأخرج معك، وسنتناقش معاً حول الإجراءات التي يجب اتخاذها؛ ولكن أولاً وقبل كل شيء ألقى تحية على هذه السيدة النبيلة: إنها ابنة روبرت دي يثون.

بريدل الذي أصابته الدهشة، انحنى أمام ماتيلد، ورفع عينيه إليها وصاح:

- أيتها الكونتيسة الرائعة، سامحيني على تلك الكلمات الطائشة التي تحدثت بها للتو، دون أن أعرف أنني كنت في حضورك. أتمنى أن تتعاطف الابنة النبيلة لأسد فلاندرز، سيدنا، لتنسها ولا تحمل ضغينة ضد تابع مخلص! أجابت ماتيلد بصوت حنون:

- انهض يا سيدي؛ كلامك لم يجرحني إطلاقاً. إن حب الوطن وكرهية أعدائنا هو الذي ألهمك إياها. إنني أحرص على عدم لومك عليها وأشكرك بالعكس على تفانيك الصريح والمخلص.

رد بريدل بمرح، وهو ينهض:

- كونتسيتنا، لا يمكنك أن تفهمي مدى الكراهية التي أشعر بها تجاه السناكر (35) والليليارد. إذا سمح لي بالانتقام من الشر الذي لحق ببيت فلاندرز، أوه! لو سمح لي! لكن عميد النساجين ما زال يمسك بذراعي. لعله على حق وما يؤجل لا يضيع. لكن الوداعة فضيلة يصعب ممارستها. وهنا أيتها الشابة النبيلة، غداً، ستدخل ملكة دو نافار الزائفة والمنحرفة هذه إلى مدينة بروج، حسناً، الرب يمنحني تغيير مسار أفكاري؛ لأنه دون ذلك لن ترى بلدها مرة أخرى!

قالت ماتيلد:

- سيدي، هل ستمنحني وعداً؟

- أمنحك وعداً يا سيدي؟ أنا؟ آه! ولكن بأي لطف تتحدثين مع عبدك الذي لا يستحق. تكلمي أيتها الكونتيسة النبيلة، وكل كلمة تخرج من فمك ستكون أمراً مقدساً بالنسبة لي!

- حسناً، أتمنى ألا يزعجك غداً هدوء المدينة أثناء إقامة أمرائك الجدد فيها.

أجاب بريدل بحزن:

- أوافق، على الرغم من أنني كنت أفضل أن أسمعك تطلبين مساعدة ذراعي وسكيني. لكن ما لم يتم فعله اليوم

يمكن أن يتم في يوم آخر.

ثم المنحنى مرة أخرى أمام ماتيلد وتابع:

- أرجوك، أتوسل إليك يا ابنة أسد فلاندرز النبيلة، لا تنسي خادمك المخلص بريدل، إذا كنت بحاجة إلى رجال شجعان ومخلصين. سنضع مهنة الجزارين تحت تصرفك بكل حراها وسكاكينها المسنونة جيداً.

كانت الفتاة خائفة إلى حد ما من هذا العرض، وهو نذير لسفك للدماء؛ لكن ملاحظ هذا الأخير أيقظت فيها، وعلى الرغم منها، عطفًا حيًا، فأجابت:

- يا سيدي، سأجعل إخلاصك السخي معروفًا لسيدي وأبي، عندما يرده الرب إليّ. لا يسعني إلا أن أعبرك عن كل امتناني.

نهض عميد الجزارين وانسحب، وأخذ دي كونينك من ذراعه. لقد غادرا الغرفة ونزل نيولاند منذ فترة طويلة حيث الأشخاص الآخرون ما زالوا يتحدثون عن هذه الزيارة غير المتوقعة.

عندما وصل أخيراً عميد النساجين وعميد الجزارين إلى الشارع، توقف دي كونينك وقال:

- السيد جون، أنت تعلم أن أسد فلاندرز كان دائماً صديقاً للشعب؛ هذا هو السبب في أنه من واجبنا الاعتناء

بابنته كما لو كانت وديعة مقدسة.

أجاب بريدل:

- احرس! دع شخصاً غريباً ينظر إليها بطريقة خاطئة أو يأخذها، وسوف يتعرف إلى خنجري. لكن أخبرني، السيد بيبر، ما رأيك في مشروعني؟ ألا توافق على إغلاق الأبواب ومنع الملكة جين من دخول مدينتنا؟ جميع الجزائريين جاهزون: توجد الحراب المسنونة خلف الأبواب، وعند الإشارة الأولى، تسقط الليليارد.

أجاب دي كونينك:

- احذر كل أعمال العنف. من المعتاد، في جميع البلدان، أن يتم استقبال صاحب السمو بخضوع، لذلك لا يمكن لهذا أن يسيء إلى مقاطعة بروج. من الأفضل الاحتفاظ بقواتك للمناسبات الأكثر أهمية. سيد جون، بلادنا تعج بالجنود الأجانب، وربما شاركوا في القتال.

- لكن الأمر قد مضى عليه وقت طويل يا سيدي، وأنا أفضل قطع العقدة بسكين جيد بدلاً من العمل لفترة طويلة لفكها. أنت تفهمني، أليس كذلك؟

- بلا شك، لكنها فكرة سيئة يا بريدل؛ الحكمة خير السكاكين. فهي تقسم ببطء، ولكنها لا تتشقق أو تتكسر. غلق الابواب غداً! ما الفائدة؟ لن نكسب شيئاً. اسمع وتذكر

كلامي. دع العاصفة تحتفي بهدوء، دع بعض القوات الأجنبية تعود إلى فرنسا؛ استسلم قليلاً للفرنسيين والليليارد، حتى تتلاشى يقظتهم..

قال بريدل، مقاطعاً رفاقه:

- لا، لا، هذا مستحيل. يجب أن ينتهي ذلك، ويجب أن ينتهي على الفور. انظر، إنهم في القرى يسلبون الفلاحين، انظر في المدن، فهم يعاملوننا بخشونة كما لو كنا عبيدهم.

- كان ذلك أفضل بكثير! سيد جون، كان ذلك أفضل بكثير! دعهم يفعلون ذلك.

- كان ذلك أفضل بكثير! ماذا تعني؟ تعال هنا أيها السيد، هل كنت ستضع عباءتك من الداخل إلى الخارج، وتستخدم روحك الذكية، مثل روح الثعلب، لتخوننا؟ لا أعلم، لكن يبدو لي أنك بدأت تشم الزنابق جيداً!

- لا، لا، صديقي جون؛ لكنني أعتقد أنه كلما احتدت الأرواح اقترب الخلاص. لأنه إذا كان أعداؤنا أكثر حذراً وحكموا البلاد بمظهر العدالة، فإن الناس سينامون تحت نير، وسينهار صرح حريتنا إلى الأبد. أتعرف؛ سيدي عميد الجزارين، قد يفسس طغيان الحاكم المطلق مثل الأم حرية الشعب!

قال بريدل:

- أفهمك تماماً يا سيدي. أنت على حق دائماً، تماماً كما لو كانت كلماتك مستلقية على الورق. ومع ذلك، فإنهم يثقلون بشكل رهيب على كتفي، هؤلاء الأجنب المتغطرسون! ولكن لا يزال الساراكينوس (36) أفضل. ولكن، كما تقول بفصاحة، كلما زاد تضخم الضفدع، مات أسرع! أعترف بذلك رغماً عني، والحق لا يزال في جانب النساجين.

- نعم، نعم، سيد بريدل، الحق في صفنا؛ ولكن الشجاعة والبطولة في جانب الجزائريين. دعونا نعرف كيف نوحدهاتين الفضيلتين، الحكمة والشجاعة، ولن يكون لدى الفرنسيين الوقت لتوثيق أقدامنا بالحديد.

وقد شهدت الابتسامة المشرقة على الفرح الذي أحدثته هذا الثناء لعميد الجزائريين، فأجاب:

- هذا صحيح، هناك رفقاء شجعان من ضمن شركائي، السيد بيبره. هؤلاء الغرباء اللعينون سيعرفون شيئاً عنها عندما تتضج التفاحة الخضراء. ولكن، بالمناسبة، هل فكرت في وجود الكوتيسة الصغيرة لدينا؟ كيف نخفيها عن الملكة؟

- سأريها لها في وضع النهار!

- في وضع النهار. هل تسمح لجين دي نافار برؤية الكوتيسة ماتيلدا؟ أعتقد أنك تفقد حكمتك ورأسك تصدع وأصابه الجنون!

أجاب دي كونينك:

- إن رأسي سليم وكامل. غداً، عند مدخل الحاكم الأجنبي، سيكون جميع النساجين معهم السلاح، وستحرص على إحضار الجزارين أيضاً. ما الذي يمكن أن يفعله الفرنسيون بعد ذلك؟ أنا أسألك.. وأنا أجيبك: لا شيء، لا شيء، أنت تعرفه جيداً مثلي. حسناً، سأضع في الصف الأول أماننا، بوضوح شديد، الكوتيسة ماتيلدا، حتى تتمكن جين دي نافار من ملاحظتها والتعرف عليها إذا لزم الأمر. سأعرف بعد ذلك ماذا ستعتقد الملكة عندما تراها، وماذا علينا أن نخشاه على ماتيلدا من ذلك.

- أحسنت! سيد بيبر! أحسنت! هذا هو الحديث. في الحقيقة، لقد وضع الرب الصالح عقلاً كبيراً في رأسك؛ نعم، أقسم على ذلك! إنه ليس عقلاً واحداً فقط. بالنسبة لي، سأراقب ابنة أسد فلاندرز، وسنرى ما إذا كان هناك شخص غريب يراقبها عن كثب؛ وإذا فكروا في فعل شيء، ستكون قبضتي أسرع من تفكيرهم. لكن اليوم يجب أن أذهب وأشتري بعض الماشية من صقلية، لذلك تكون حراسة الكوتيسة الشابة من نصيبك اليوم.

- كن هادئاً يا صديقي جون، ولا تجعل دمك ساخناً
إلى هذا الحد.. ها نحن أمام باند النساجين.

وكما قال بريدل، كانت هناك مجموعات كبيرة من
النساجين تقف أمام باب المبنى. كانوا كلهم يرتدون نفس
الثوب والقبعة التي يرتديها عميدهم. كان هناك من ضمن
الرفقاء شاب ذو شعر طويل، وكانت ملابسه أكثر زخرفة،
ولكن الفرق لم يكن كبيراً والترف كان محظوراً عن جميع
من كانوا في المهنة.

تبادل جون بريدل بضع كلمات أخرى بصوت منخفض
مع دي كوينيك، وصاحفه وتركه بتعبير سعيد وراضٍ.

عندما اقترب عميدهم، فتح النساجون صفوفهم وانحنوا
له باحترام. وكلهم تبعوا زعيمهم ودخلوا الباند.

نعم، كان كل شيء يبتسم ومبهجاً في طريقها، مع كل خطوة تمشي على الزهور، تقرأ شعارات جميلة على أقواس النصر، وترى الفرسان يخنون أمامها، ومع ذلك كان الغضب يتلألأ في عينيها. فعلى الرغم من كل هذا الأبهة، حيث يبدو أنه لا يوجد شيء ينقصها، فقد كان هناك شيء واحد مفقود: صوت الشعب.

(جيه. إيه بريدر فورت)

بذل الليليارد جهوداً لا تصدق لتجميل وتزيين المدينة: لقد كانوا يعتمون إرضاء ملكهم الجديد والفوز بنعمه الطيبة. تم توظيف جميع رفاق المهن والحرف في بناء أقواس النصر. لم يدخر المال. كانت أغنى الأقمشة تزين واجهات المنازل. تم قطع الأشجار الصغيرة من الريف ونقلها إلى المدينة لتحويل الشوارع إلى أزقة خضراء. في اليوم التالي، الساعة العاشرة صباحاً، كان كل شيء جاهزاً.

في وسط السوق الكبير، رفع النجارون عرشاً رائعاً مغطى بالمخمل الأزرق. وبجانب هذا العرش كانت هناك مقاعد ووسائد مطرزة بالذهب وعلى الزوايا تماثلان للسلام والقوة، كان من المفترض أن تحمل أيديهما إكليلاً من الغار فوق رأس فيليب دي بيل وجين دي نافار. أحاطت الستائر الرائعة بالعرش والسجاد الغني غطى رصيف الميدان.

عند مدخل شارع دي بيريس، تم طلاء أربع ركائز
بالرخام الأبيض، وعلى كل منها يقف عازف البوق الشهير،
بأجنحة طويلة، يرتدي اللون الأرجواني.

بجانب دكان الجزار الكبير، عند مدخل شارع ديه
فام، تم وضع قوس للنصر رائع مدعوم بأعمدة قوطية. في
الأعلى، عند حجر الزاوية في القبة، علق درع فرنسا، الذي
برز على خلفية أرجوانية، في الأسفل، متكئين على عمودين،
دروع بشعارات فلاندرز وبروج في جميع الخراطيش،
وتم رسم رموز بهدف تملق الملك الأجنبي. هنا كان أسد
فلاندرز الأسود يزحف أمام زنبقة، وقد حلت الزنابق محل
النجوم في السماء، في كل مكان، أخيراً، كانت اللوحات
والشعارات مستوحاة لتدل على الإطراء الشديد.

لو لم يمنع عميد النساجين جوان بريدل من القيام بذلك،
لما كانت هذه الشعارات المهينة قد أثارت غضب المشاعر
الشعبية لفترة طويلة؛ فقد التهم حنقه وفكر في كل شيء
باستسلام قائم. لقد جعله دي كونينك يفهم، بصعوبة
بالغة، أن الوقت لم يحن بعد.

تم تزيين شارع دي كاثلين بطوله بقماش أبيض بياض
الثلج وأكاليل خضراء. كانت بيوت الليليارد تحمل الحروف
الأولى من اسم كل منهم؛ على دعائم رباعية الزوايا؛
وكانت العطور من جميع الأنواع تحترق في مزهريات

غالية الثمن، وكانت الفتيات الصغيرات تثر الأزهار على أرصفة الشوارع. كان باب دي كاثلين المقرر أن يدخل الأمراء من خلاله، مزيناً من الخارج بستارة ثمينة قرمزية اللون مع لوحات شهيرة تشيد بالحكام الأجانب وتهين الأسد، هذا الرمز المجيد لأسلافنا. تم إخفاء ثمانية ملائكة يحملون الأبواق في الخفاء على السور المجاور للبوابة، من أجل الترحيب بالملك وإعلان وصوله. تم تجميع أصحاب المهن والحرف مع رؤسائهم، مسلحين بحراهم الرسمية، في صفوف سميكة على طول منازل السوق الكبيرة. كان دي كوينك، على رأس النساجين، قد استند بجناحه الأيمن إلى جانب سوق الثيران. كان بريدل، مع جماعة الجزارين، بجوار شارع دي بيريس؛ احتلت الحرف الأخرى، الأقل عدداً، الجانب الآخر من الساحة. أما بالنسبة للييلارد والنبلاء والوجهاء في المدينة، فقد تجمعوا عند سفح برج الجرس على منصة رائعة.

في الساعة الحادية عشرة، أعطت الملائكة من أعلى الأسوار الإشارة بوصول الأمراء ودخل الموكب الملكي المدينة عبر باب كاثلين. في المقدمة، كان هناك أربعة منادين مسلحين يركبون على جياد بيضاء رفيعة؛ وكانت راية الملك فيليب لوبيل (37) معلقة على أبواقهم الطويلة، وهي لافتة تتناثر عليها الزنابق في حقل من اللازورد. لقد بدا الموكب كصوت احتفالي تسحر ألسانه وتبهج

نغماته الآذان، كما تقول وقائع ذلك الوقت. خلف هؤلاء
المنادين المسلحين، على مسافة نحو عشرين خطوة؛ تقدم
الملك فيليب على جواد رائع. من بين جميع الفرسان الذين
رافقوه، لم يكن هناك ما يضاهاه ملامحه في جماله. تساقط
الشعر الأسود الناعم المجعد الغزير على كتفيه. أعطت
بشرته، ذات اللون الأسمر قليلاً، لكامل ملامح وجهه تعبيراً
ذكورياً وحيوياً؛ ابتسامة مليئة بالعدوبة أضاءت وجهه،
هيئته كلها كانت ذات طابع نبيل، وقوامه الطويل،
وأطرافه المتناسقة، وسلوكه النبيل والمهيب جعل منه الملك
الفرنسي الفارس الأكثر اكتمالاً في عصره. لذلك كان
معروفاً في جميع أنحاء أوروبا باسم فيليب لو بيل (38).
لم تكن ملابسه المطرزة بالذهب والفضة مليئة بالزخارف،
وكان من السهل رؤية أن الذوق الرفيع وليس الغرور
الأعمى قد قاده في اختيارها. أضواء خوذة فضية على
جبهته، وسقطت ريشة طويلة فوقها، امتدت إلى ظهر
حصانه.

كانت زوجته المتعالية جين دي نافار تسير بجانبه، جالسة
على فرس في ثوب بني؛ كله مغطى بالذهب والأجوار
الكريمة. نزل ثوبها الطويل المصنوع من القماش الذهبي،
الذي كان مربوطاً عند الخصر بحزام فضي، إلى الأرض،
وعزز تألق ألف حلية من رونقها. الخرز والعقد والتطريز
الذي دخلت فيه أثمن المواد جعلت زينا وحزامها وحتى

فرسها يتألق. كانت الأميرة المتعجرفة والمغرورة، يمكن للمرء أن يقرأ على وجهها الفرح الومق الذي أدى به هذا الدخول المنتصر إلى تضخم قلبها. كانت تتجول، بغطرسة نفور، بنظراتها المتعالية على الناس المندهشين الذين اقتحموا النوافذ وحتى الأسطح لرؤية أفضل للموكب الرائع.

على الجانب الآخر من الملك كان يتقدم لويس لو هوتين، ابنه. كان الأمير الشاب قد احتفظ بتواضعه وسط العظمة، ولم تتغير شخصيته الساحرة بفعل ذلك، فقد أظهر وجهه شفقة طيبة على رعاياه الجدد، وكانت نظرتة دائماً تحمل في ملامحه ابتسامة مليئة بالود والعطف. كانت لديه صفات وفضائل والده الحميدة، دون أن يأخذ شيئاً من كبرياء والدته البغيض.

مباشرة بعد الملك يتقدم المسؤولون عن الإسطبلات والغلمان والسيدات النبيلات، ثم موكب كامل من الفرسان يرتدون ملابس رائعة. وكان من بينهم السادة إنجويراند دي ماريني، دي شاتيلون، دي سان بول، دي نيسل، دي نوجاريت، وغيرهم. كانت الرايات والأعلام الملكية ترفرف فوق الموكب النبيل العظيم.

بعد ذلك جاءت مجموعة من الحرس الشخصيين، جميعهم على ظهور الخيل، وعددهم لا يقل عن ثلاثمئة. تمت تغطيتهم بالحديد من الرأس إلى أخصص القدمين مع رماح

طويلة بارزة نحو عشرين قدماً فوق رؤوسهم، كانوا جميعاً يرتدون الخوذات ودروع الصدر والدروع المزودة والحلقات ودروع الفخذ والقفازات الحديدية. وبالمثل كانت خيولهم القوية مغطاة بالدفار الأسود.

الحشد، الذي كان منتشراً في جميع الجهات، كان يحدق في الموكب بصمت محترم. لم يسمع أي تصفيق من الجماعات أو صيحات الفرح. شعرت جين دي نافار بمرح عميق من هذا الترحيب الجليدي. وازداد استياؤها أكثر عندما لاحظت أن العديد من العيون ظلت تحدق بها وأن عدداً كبيراً من المتفرجين قد قرؤوا ابتسامة الازدراء والكراهية في وجهها.

بمجرد وصول الموكب إلى السوق، رفع الشخصان المشهوران - اللذان كانا يقفان على منصة صغيرة - الأبواق إلى أفواههما وأطلقا ضجة الترحيب في الساحة. عند هذه الإشارة، وقف القضاة وعدد قليل من اللييارد على أقدامهم وهم يهتفون: «فرنسا! فرنسا! يحيا الملك! تحيا الملكة!».

نما في قلب جين المتغترسة غضب مكتوم. لقد ظل الشعب وأصحاب المهن والحرف باردين، بلا حراك، صامتين؛ ولم يعط أحد أدنى علامة على الاحترام أو الفرح (39)، وأبدت الملكة استياءها، وأظهرت في

الوقت نفسه السخط العميق الذي شعرت به داخلها.

إلى جانب ذلك، وعلى أي مسافة من العرش، كانت هناك مجموعة من السيدات النبيلات يمتطين أجمل فرس يمكن رؤيته. ولإعطاء الملكة جين استقبلاً أكثر رسمية، ارتدين ملابس غنية للغاية ومجوهرات متألقة لدرجة أن العين المبهرة لا تستطيع تحمل البصر.

ماتيلدا، الابنة الشابة والجميلة لأسد فلاندرز، كانت في الصف الأول وكانت أول من وقعت عليها عيون الملكة. كانت ترتدي ملابس جميلة. غطاء رأس من الحرير الأصفر، مدبب ومزين بشرائط من المخمل الأحمر يعلو رأسها، القماش الأكثر بياضاً والذي كان من أرقى الأنواع التي تصنع في فلاندرز على الإطلاق يحيط بخديها الساحرين، سقطت قلنسوة طويلة فوق غطاء الرأس ونزلت من أعلى الغطاء متصلة بزر من الذهب؛ شفافة مثيرة للإعجاب ومطرزة بآلاف الغرز الذهبية والفضية، تطفو في مهب الريح وتبعب الحركات الحرة للكوتيسة الشابة. من تحت قلنسوتها ذهبية اللون المفتوحة، نرى صدرية من القماش أزرق اللون المزين بأربطة فضية، وغطت بتورة كاملة من الساتان الأخضر مع طيات حريرية جوانب فرسها وكثيراً ما كانت تلامس الأرض. تتلأأ الألوان المتنوعة لهذا الثوب الغني بشكل مثير للإعجاب في الشمس وتخلط بين ظلالها المختلفة عند أدنى حركة للأميرة المكلومة.

في بعض الأحيان كان يتلأأ في العيون بكل بريق الذهب النقي، وأحياناً كان يأخذ صبغات خضراء داكنة، ويبدو أحياناً أنه يعكس زرقة السماء اللازوردية. على صدر الكوتتيسة صفيحة من الذهب المطروق والمتألق انضمت إلى طرفي عقد من اللؤلؤ الرائع، وعلى هذه اللوحة، تم نقش أسد فلاندرز الأسود باستخدام الكهرمان. حزام مزخرف أيضاً بالذهب وينتهي بشراشيب حيث كان الحرير ممزوجاً بالفضة، يحيط بخصرها الصغير ويربط بقفل مزين بقطعتين من الياقوت. كانت أحزمة الفرس مزينة أيضاً بصفايح ذهبية وفضية وريشات متراقصة.

عرضت السيدات اللواتي رافقنها أثواباً فاخرة تكاد تكون غنية وثمينة مثل ثوب الكوتتيسة الشابة.

الملكة دو نافار، التي كانت تتقدم ببطء على رأس الموكب، ثبتت عينيها بفضول مختلط بالدهشة والحسد، على هذه المجموعة من النساء اللواتي يبدو عليهن الثراء بفضل زينتهن. عندما وصلت على بعد عدد خطوات منهن، سارت السيدات النبيلات ببراعة نحوها ورحبن باحترام بالملكة الجديدة. بقيت ماتيلد وحدها صامتة وعلى مسافة ما، مركزة على جين بنظرة مليئة بالجرأة والفخر، فقد كان من المستحيل عليها تكريم هذه الملكة، التي كانت سبباً في الكثير من الألم، وكان وجهها يبدو عليه بصمة الاستياء الذي شعرت به. لم تكن جين مخطئة؛ وثبتت نظرتها

المتعالية على ماتيلد، وكانت تعتقد أنها بهذه النظرة، يمكن أن تجعل الفتاة تخفض عينيها، ولكنها خدعت في توقعها؛ فقد تحدث الأميرة الصغيرة بنظرتها التي تدل على الفخر نظرة الملكة الغاضبة. غير راضية بالفعل عن الفخامة التي أبدتها السيدات الفلمنكيات، لم تستطع جين احتواء نفسها بعد الآن؛ لقد جعلت حصانها يستدير فجأة، ووجهت نفسها إلى اللوردات الذين كانوا بالقرب منها وأظهرت لهم من خلال إدارة رأسها بعيداً عن كل السيدات، وصاحت:

- يا سادة، ظننت أنني الملكة الوحيدة في فرنسا، لكن يبدو لي أن الفلمنكيين الذين يملؤون سجوننا جميعهم أمراء، فأنا أرى زوجاتهم يتزين مثل الملكات والأميرات (40).

تكلت بصوت عالٍ وواضح لجميع الفرسان من حولها، وحتى القليل من الحرفيين، قد سمعوها. ثم سألت الفارس الذي تبعها بغيظ لم تنجح في إخفائه:

- سيد دو شاتيلون، من هذه الفتاة المتعجرفة أمامي؟ إنها ترتدي أسد فلاندرز على صدرها فاذا يعني ذلك؟

اقرب الكونت من الملكة وأجاب:

- هي ابنة السيد روبرت دي ييثون. واسمها ماتيلد.

وبينما كان يخاطبها، كان يضع إصبعه على شفثيه كأنه ينصح الملكة بالكتمان والصمت. أثبتت له الملكة ذلك

بابتسامة، ابتسامة مليئة بالغدر القاسي، والرغبة الشديدة في الانتقام.

المراقب الذي يركز انتباهه في تلك اللحظة، على عميد النساجين، ربما يلاحظ كيف أن عينه كانت ثابتة على جين؛ لم تظهر ثانية على جبين الملكة أو اختفت منها حتى أدركها دي كوينيك ونقشها في ذاكرته. كان قد قرأ غضبها ورغباتها ومشاريعها من بين ملاحظها المتغيرة، وكان يعلم بالفعل أن السيد دي شاتيلون سيكون منفذاً لرغباتها؛ ومنذ تلك اللحظة أيضاً، كان يفكر في الوسائل التي يمكن أن تحبط مكرها أو عنفها.

بعد لحظات قليلة من هذا المشهد الصغير، الذي ظل الملك غريباً تماماً فيه، ترجل الأميران وصعدا العرش الذي نصب لهما في وسط الميدان. تم ترتيب مسؤولي الإسطبلات والغلمان والنساء النبيلات في صفين بالقرب من الدرجات؛ لكن الفرسان بقوا على ظهور الخيل حول المنصة الملكية. عندما أخذ كل منهم المكان المخصص له، تقدم القضاة مع الفتيات الصغيرات المكلفات بتمثيل مدينة بروج، وقدمن إلى الأميرين الفرنسيين مفاتيح المدينة، موضوعة على وسادة مخملية غالية الثمن. في اللحظة نفسها، عزف العازقان المشهوران على أبواقهما، وصاح الليليارد مرة أخرى:

- يحيا الملك! تحيا الملكة!

ساد صمت ممل بين الحشد، فقد بدا الأمر وكأن حرفي مدينة بروج الكبيرة، الذين يطيعون أمراً ما، يريدون أن يظهروا لامبالاتهم أو سخطهم. لقد حققوا هدفهم بالكامل؛ لأنه منذ ذلك الحين، كانت جين، التي تأذت سريعاً من هذا الغضب، تفكر في أفضل وسيلة لمعاقبة هؤلاء الرعايا الوقيين الذين أهانوها.

رحب الملك فيليب لو بيل، الذي يتمتع بشخصية أكثر ودية، بالقضاة بأكبر قدر من اللطف ووعده بإعطاء أكبر قدر من الاهتمام برفاهية فلاندرز. لم يكن هذا الوعد خدعة من جانب فيليب، وربما كان سينجح في إضفاء السعادة على رعاياه، في كل من فرنسا وفلاندرز، لو ترك لنفسه؛ لكنه وقع طوال فترة حكمه فريسة لتأثيرين مؤسفين أصاباه بالشلل وأبطلا نواياه الحسنة. الأول والأسوأ كان هيمنة جين التي لم يستطع التخلص منها أبداً. فعندما كان فيليب لو بيل يخطط لمشروع سخّي أو يأخذ قراراً جيداً، كانت الملكة تأتي كروح شريرة، للإطاحة به وتجبره على الموافقة على مخططاتها الخبيثة. أما السبب الثاني لأخطائه فكان البذخ الذي جعله يلجأ إلى كل الوسائل، سواء كانت عادلة أو غير عادلة، ليحل محل الأموال التي تنفق بجنون بموارد جديدة. في الوقت الذي نتحدث فيه، كان يعرب حقاً عن خالص تمنياته بازدهار فلاندرز؛ ولكن

ما الغرض من هذه الوعود، حيث إن جان دو نافار قد قررت خلاف ذلك بالفعل؟

بعد تسليم المفاتيح، استمع الأميران لبعض الوقت لخطب القضاة، ثم نزلا من على المنصة وامتطيا خيليهما. ثم استأنف الموكب مسيرته متقدماً ببطء، عبر شوارع المدينة المختلفة، نحو قلعة الأمراء (41) حيث كان بانتظارهما وليمة رائعة شارك فيها كبار اللوردات والليليارد. في الوقت نفسه، عاد الناس وأصحاب المهن أو الحرف إلى منازلهم، وانتهى الاحتفال.

في ساعة متأخرة من المساء، وبعد وقت طويل من رحيل الضيوف، انسحبت الملكة جين إلى الغرفة التي كانت ستقضي فيها الليل؛ كانت هناك بمفردها مع كبيرة الخدم. لقد خلعت بالفعل زيتها الاحتفالي الثقيل إلى حد كبير وكانت تبدأ في خلع مجوهراتها. كان الهياج المحموم في يديها والتعبير عن الانزعاج في ملامحها يشهدان على نفاد الصبر بشكل كبير. كانت تتحدث بفضاظة وبحدة، وكان كل تفعله كبيرة الخدم يجذب توييحاً أو لوما: فلابات وأساور وأقراط ألقيت هنا وهناك على أرضية الغرفة كأشياء لا قيمة لها، ومن وقت لآخر، كانت تفلت عبارات التهديد من فم الأميرة.

بعد أن ارتدت ثوباً من الحرير الأبيض، بدأت جين

تجول في الغرفة في جميع الاتجاهات، دون أن تظهر أدنى رغبة في أخذ قسط من الراحة. كانت تنظر حولها بنظرة مشتعلة. اقتربت منها كبيرة الخدم، التي لم تفهم شيئاً من إيماءاتها ومشيتها الغريبة، والتي رأت الليل يقترب، وقالت لها بمنتهى الاحترام:

- هل تبوين جلالتك البقاء مستيقظة لفترة أطول وهل يجب عليّ أن أحضر شمعداناً آخر أفضل من هذا؟
ردت الملكة فجأة:

- لا، هناك ما يكفي من الضوء، أنهي أسئلتك الغبية واتركيني وشأني.. اذهبي إلى غرفة الانتظار لاستقبال خالي، الكونت دو شاتيلون، سوف تدخلينه بمجرد أن سيصل. اذهبي.

بمجرد أن غادرت كبيرة الخدم الغرفة، جلست جين بالقرب من الطاولة وتركت رأسها يقع بين يديها. بقيت في هذا الوضع لبضع دقائق، تفكر في الإهانة التي تعرضت لها. نهضت فجأة، واستأنفت السير في الغرفة وأخذت تقوم بإيماءات عنيفة وتقف أمام الجدران وتهتف بصوت خاتق:

- ماذا! هل سيبنيني مثل هذا الشعب الصغير مع الإفلات من العقاب، أنا ملكة فرنسا؟ هل هذه الفتاة المتكبرة تجعلني أنظر إلى الأسفل؟ لا، لا، ستدفع ثمناً

باهظًا مقابل الإهانة التي تجرأت على إلحاقها بي!

اندفعت دمعة من الغضب على خدها المحترق. فجأة رفعت رأسها وبدأت تضحك وكأن روحا شريرة قد تحدثت في أذنها، وكان هناك شيء جهنمي في تلك الضحكة.. ثم صاحت:

- الفلمنكيون البأسون! أتم لا تعرفون جين دي نافار بعد. أتم لا تعرفون ما هي التجاوزات الرهيبة التي يمكن أن يحملها لكم انتقامها!

فتحت نافذة، ويدها ممدودة على المدينة التي لم يسمع منها صوت:

- واصلوا النوم الليلة بسلام. استريحوا بلا خوف في جراتكم المتغترسة! غداً سوف يلقي النهار الضوء على أشد عذاباتكم. آه، كم هي الدموع التي سأجعلكم تذرّفون! ستكون هناك كفارات مريرة تعدها لكم يدي! عندها ستعرفونني... ستزحفون عند قدمي، وتصلون بأفواههم، ولن أسمع إلى توسلاتكم. سأدوس على جباهكم المتكبرة. البكاء، النحيب، كل شيء سيكون عديم الفائدة، بالنسبة لكم، جان دو نافار لن ترحم!

في تلك اللحظة سمعت خطى كبيرة الخدم العائدة من الخارج. أغلقت جين النافذة وقمت عواطفها وركضت إلى المرأة لإصلاح الفوضى في هندامها؛ وأصبح على وجهها

تعبير أكثر هدوءاً، واختفى كل أثر للعاطفة من ملاحظتها.
كانت ملكة دونافار أستاذة سابقة في فن التظاهر؛ الرذيلة
الأشهر لدى النساء.

سرعان ما دخل الكونت دي شاتيلون جناحها وانحنى
أمامها.

- قالت يا سيدي، وهي تشير إليه أن ينهض، يبدو لي
أنك لا تهتم بإرضائي، ألم أدعك للحضور الساعة العاشرة؟

- هذا صحيح سيدي. لكن الملك سيدي جعلني قريباً
منه رغماً عني. صدقيني، أتوسل إليك، ابنة أختي المهيبة،
صدقيني إنني كنت على جمر ساخن، وأشعر بأنني أجم
عنك، ومنعت من الرضوخ لرغبتك الملكية.

- معروف لي حنانك يا سيدي؛ لذلك فإن لومي لك
ليس جدياً إلى هذا الحد، والدليل على ذلك أنني عقدت
العزم على مكافأة خدماتك الطيبة والمخلصة في هذا اليوم
بالذات.

رد الكونت:

- ملكتي الكريمة، خدمتك هي الخدمة الوحيدة التي
أتمنى الحصول عليها. دعي الآخرين يبحثون عن الثروات
والوظائف والأوسمة. أطلب فقط من جلالتك سعادة
حضورك وحده..

ابتسمت الملكة من إطرائه. لكنها ألقت نظرة ازدراء على رجل البلاط الحقير الذي تعرف مشاعره الحقيقية. ثم استأنفت بنبرة معبرة:

- ماذا لو طلبت منك قبول إقطاعية؟ بلدة فلاندرز؟

دو شاتيلون، الذي لم يحسب، في الوقت الحالي، لمثل هذه الهدية الرائعة، أعرب عن أسفه العميق للكلمات التي أفلتت منه للتو؛ لكنه عاد إلى رشده بسرعة وأجاب:

- إذا كان من دواعي سروري أن تكرمي جلالتك بهذه العلامة بثقة، فلن أجرؤ على مقاومة إرادتك الملكية. سأقبل هذا الجميل بخنوع وامتنان، وأقبل يدك الرحيمة بأكبر قدر من الاحترام.

صاحت الملكة بفارغ الصبر:

- اسمع، سيدي دو شاتيلون، ليس لدي رغبة في اختبار كياستك؛ ضع جملك الرنانة جانباً، وتحدث بصراحة؛ فقط أيضاً، ليس لديك ما تخبرني به فإنني لا أعرف أفضل منك. دعنا نرى ما هو رأيك في دخولنا الملكي إلى مدينة بروج الكبيرة؟ الناس وأصحاب المهن والحرفيين ألم يستقبلوا ملكة دي نافار استقبالاً رائعاً؟

- بدورك، أيتها الملكة المهيبية، أتوسل إليك أن تتركي هذه السخرية المريرة. الإهانة التي تلقيتها جرحت قلبي بعمق.

لقد تحداك شعب فاسد وحقير في وجهك، وتم تجاهل
كرامتك بصفتك صاحب السيادة ؛ لكن لماذا تحزنين
بسبب هذا الموضوع بهذا الشكل؟

صاحت جين:

- أحزن، أشتكى! سيد دي شاتيلون! - وواصلت بعد
دقيقة صمت- هل تعرف ابنة أختك؟ هل تعلم الطموح
الغيور لملكة دي نافار؟

- بلا شك سيدتي: إنه أنبل وأجمل...

- أنت تعلم أيضًا يا سيدي أن القليل من الانتقام لا
يكفي لكي أشفي غليلي، وإنني بحاجة إلى العقاب الصارم
الذي لا يرحم لمن أهانني! أنا ملكة وامرأة، سيدي
الكونت، وهذا يكفي لإخبارك بالسلوك الذي يجب عليك
اتباعه إذا جعلتك حاكمًا لفلاندرز.

- وفي هذه الحال، سيدتي، اطمئني أنني سأنتقم لك
تمامًا. ربما سأذهب أبعد من رغباتك؛ لأنني لن أضطر
فقط إلى الانتقام لإهانتك، ولكن أيضًا للاعتداءات التي
يرتكبها هذا الشعب العنيد والمتمرد كل يوم ضد تاج فرنسا.

استأنفت جين مبتسمة:

- لا غضب، سيدي دي شاتيلون، لا تشد العقدة في
السلسلة فجأة؛ ولكن ارفع عنهم الشجاعة والقوة بالإذلال

البطيء والمستمر. شيئاً فشيئاً، اسلب الأموال التي تدفعهم إلى التمرد؛ اجعلهم يعتادون بلطف على الظلم. ولكن عندما يحين الوقت، قم بإثقاله على رؤوسهم حتى أعتبر عبوديتهم انتصاراً. لا تستعجل يا سيدي. أعرف كيف أتحملي بالصبر، عندما يجب أن يقودني الصبر إلى هدي بشكل أكثر تأكيداً. وقبل كل شيء، أعتقد أنه سيكون من الحكمة حرمان دي كوينك من لقب عميد النساجين، وعدم تكليفه بمناصب تمنح نفوذاً لغير الفرنسيين أو لأصدقائهم.

استمع السيد دو شاتيلون باهتمام إلى نصيحة الملكة وأبدى الإعجاب من جانبه، بالسياسة الماهرة التي تنتهجها هذه المرأة الذكية. كما دفعته روح الانتقام إلى تجاوزات الاستبداد، فقد ابتهج في روحه ليكون قادراً في الوقت نفسه على إشباع غرائزه الشريرة ورغبات ابنة أخته.

فأجاب بفرح ظاهر:

- أقبل بامتنان الشرف الذي منحني إياه جلالة الملكة، ولن أهمل شيئاً لأتبع، نكادم مخلص، نصيحة سيدي. ألا يزال لديك بعض الأوامر لتعطيني إياها؟

كان هذا السؤال يتعلق بالذات بما تيلده. عرف دي شاتيلون أن الكونتيسة الشابة أثارت غضب الملكة عليها، مما جعله يعتقد أنها لن تتركها دون عقاب. أجابت جين:

- ما زلت أعتقد أنه سيكون من الجيد نقل ابنة السيد دي بيثون إلى فرنسا؛ يبدو لي أنها رضعت العناب الفلمنكي مع الحليب. حضورها سيكون ممتعاً بالنسبة لي خلال المحكمة. لكن كفى كلاماً في هذا الموضوع الآن. أنت تفهم نواياي... غداً، سأرحل عن هذا البلد، وسيرافقنا راؤول دي نيسل. ستبقى هنا، أيها الكونت. وسأعينك حاكماً لفلاندرز وأعطيك الصلاحيات الكاملة. ستدير البلد كما تراه مناسباً، وستحافظ عليه في حالة وفاة وإخلاص (42).

قال السيد دي شاتيلون بصوت محب:

- أو بعبارة أفضل، وفقاً لإرادة ابنة أختي الملكة.

- كما تحب أن تسمع - ردت جين - على أي حال، يسعدني أن أراك مخلصاً للغاية بهذا الشكل لخدمتنا. ثمة فرسان عديدون سيقون معك لتقديم يد المساعدة إذا لزم الأمر. والآن، سيدي، اذهب، ودعني أتذوق الراحة التي أنا في أشد الحاجة إليها. أتمنى لك ليلة سعيدة يا خالي العزيز!

قال دي شاتيلون وهو ينحني:

- قد يحمي ملاكك الصالح جلالتك!

وغادر غرفة الملكة.

«من يحتقر العبودية يعرف أيضاً كيف يحتقر الموت».

(بار. فان دوز)

لقد تكبد القضاة، المخولون من قبل الليليارد، نفقات ضخمة لاستقبال الملكين الأجنيين: أقواس النصر، والمنصات الرائعة، والأقمشة الغنية لتزيينها، لم يدخر أي شيء، وكل شيء قد كلف الثمن غالياً. بالإضافة إلى ذلك، حصل كل من حراس الملك الشخصيين على كمية جيدة من أفضل أنواع النبيذ؛ ولكن، بما أن جميع هذه النفقات قد أمر بها القضاة، وبالتالي، كان لا بد من صرفها من خزينة البلدية، لم يكن المواطنون والحرفيون مهتمين بها، وكانوا ينظرون إلى كل هذا الترف بلا مبالاة تامة.

سرعان ما اختفت الزخارف الرئيسة ومعظم الزينة، وسرعان ما تم محو آثار الاحتفال. كان الكونت دي شاتيلون في كورتراي، ودخول الأمير الأجنبي كاد أن ينسى، عندما ظهر في صباح أحد الأيام، نحو الساعة العاشرة صباحاً، رسول من دار البلدية على الدرج (43) واستدعى الناس على صوت البوق؛ بمجرد أن رأى نفسه محاطاً بعدد كافٍ من المستمعين، سحب رقاً من جراب معلق إلى جانبه، وقرأ بصوت عالٍ ما يلي:

«ليعلم كل واحد، حتى لا يتجاهله بعد ذلك، أن القضاة
قرروا ما يلي:

1 - تم فرض ضريبة استثنائية لتغطية تكاليف استقبال
ملكنا الكريم، فيليب، ملك فرنسا.

2- أن يدفع كل ساكن في مدينة بروج وفقاً لذلك؛ ثمانية
جنيهات فلنكية كبيرة (44)، بغض النظر عن العمر
وعلى كل رأس.

3- أن محصلي الضرائب سيذهبون لاستلام هذا المبلغ
في المنزل يوم السبت المقبل، وأن أولئك الذين يرغبون،
عن طريق الاحتيال أو العنف، رفض دفع هذا المبلغ،
سيضطرون إلى القيام بذلك بموجب القانون، من قبل
المأمور».

بدأ السكان من الطبقة المتوسطة والذين يعدون من
المواطنين الصالحين الذين سمعوا هذا الإعلان في النظر إلى
بعضهم البعض في اندهاش. ثم تمتموا ولكن بأصوات
خافتة، ضد هذا القرار التعسفي. وكان من بين هؤلاء
أصحاب حرفة النسيج، وقد سارع هؤلاء إلى إبلاغ عميدهم
بالحقيقة.

سمع دي كونينك الأخبار بانزعاج شديد. وقد جدد
الانتهاك المباشر على امتيازات المقاطعة مخاوفه وزاد من

عدم ثقته. ورأى، بهذا الترتيب، الاستبداد الذي كان النبلاء سيحاولون فرضه مرة أخرى على الناس، وعزم على إفشال هذه المحاولة الأولى، إما بالمكر أو بالقوة. كان يعلم أنه قد يستسلم، ضحية ارتباطه بالبلد؛ لأن الجيش الفرنسي لم يغادر فلاندرز بعد؛ لكن هذا الاحتمال لم يمنعه. لطالما كرس دي كوينك نفسه جسداً وروحاً لمصالح المدينة التي ولد فيها.

وقد اتخذ قراره، ودعا حاجب المهنة، وقال له:

- اذهب على الفور، وابحث عن جميع السادة واطلب منهم، باسمي، الاجتماع في الباند. أخبرهم ألا يتأخروا دقيقة وأن يأتوا جرياً لمقابلتي؛ فالمسألة لا تحتل أي تأخير.

كان الباند أو بيت النساخين عبارة عن صرح واسع بواجهة مستديرة، على جانب الشارع، نافذة واحدة كبيرة يعلوها شعار المهنة، مضاءة في الطابق الأول؛ وفوق الباب العريض يمكن للمرء أن يرى صور السيد القديس جورج والتنين، المنحوتة بشكل فني في الحجر. علاوة على ذلك، كانت الواجهة دون زخرفة، وكان من الصعب، عند رؤيتها، تخمين أنه في هذا المنزل البسيط، يعقد أصحاب أغنى مهنة في فلاندرز اجتماعاتهم، فقد كان للعديد من المنازل المجاورة مظهر أكثر روعة.

على الرغم من أن هذا المبنى تم تقسيمه إلى مجموعة من الغرف الكبيرة والصغيرة، إلا أن أيًا منها لم يكن فارغًا أو دون هدف. في الطابق الثاني، في غرفة كبيرة، يمكن للمرء أن يرى روائع وتحف السادة النساجين ومساعدتهم، بالإضافة إلى عينات من أثمان الأقمشة المصنوعة في المدينة. في جانب آخر، في غرفة أخرى، عُرضت نماذج لجميع الأدوات اللازمة للنساجين، للحرفيين وللصباغين؛ كانت الغرفة الثالثة بمثابة مخزن عام للأزياء الاحتفالية والأسلحة والزخارف التي تستخدم عادة في أعياد واحتفالات أصحاب مهنة النساجين.

كانت غرفة الاجتماعات الكبيرة للسادة تطل على الشارع. كل الاستعدادات التي يقوم بها كل العمال الذين يتعاملون مع مهنة النسيج من الراعي إلى النساج، من الصباغ إلى التاجر الأجنبي الذي جاء من بلدان بعيدة لاستبدال ذهبه بقطعة قماش من أقمشة فلاندرز، تم تمثيلهم على الجدران في شكل ملائكة رائعة الجمال. استقر عدد قليل من طاولات البلوط والمقاعد الضخمة على درجة مصنوعة من الحجر، ستة كراسي بذراعين، منجدة بالمخمل، تشير إلى المكان المحجوز، في الجزء الخلفي من الغرفة، لعميد النساجين والقدامي في المهنة.

بعد وقت قصير من مغادرة الحاجب، كان عدد كبير من النساجين قد تجمعوا بالفعل في الغرفة. كانوا يتحدثون

بأقوى نبرة ممكنة عن الضريبة الجديدة، ويمكن للمرء أن يقرأ في ملاحظهم السخط العميق؛ ووجه معظم تهديدات للقضاة؛ ومع ذلك، بدا أن القليل منهم غير راغبين في المقاومة أكثر من اللازم. في كل لحظة، كان يصل سيد ما. ثم دخل دي كونينك الغرفة وعبر ببطء صفوف رفاقه للوصول إلى المقعد الكبير المخصص له. وقف القدامى بالقرب منه؛ ظل معظم النساجين الآخرين واقفين بجانب مقاعدهم، حتى يقرؤوا أفضل على جبهة عميدهم الصارم التعليق على كلماته البليغة؛ وقد وصل عددهم في هذه اللحظة إلى ستين.

بمجرد أن رأى دي كونينك انتباه الجمهور معلقاً عليه، وقف ومد يده بقوة ثم قال:

- أيها الإخوة، انتبهوا إلى كلامي؛ لأن أعداء حريتنا، وأعداء سعادتنا يقيمون قيوداً لتقييدنا! القضاة والليليارد من أجل تملق السادة الأجانب، عرضوا عند دخولهم رفاهية غير عادية؛ وأجبرونا على رفع العروش وأقواس النصر، وأطعنا؛ لكنهم الآن يريدون أن يجعلونا ندفع ثمن عملنا مقابل إهدارهم الجبان. أيها الإخوة ادعائهم مخالف لامتيازات المدينة والمهنة. هذه أول محاولة، أول فرصة لفرض نير العبيد الذي يريدون أن يفرضوه علينا. لقد سمح الليليارد الملعونون بترك كونتهم، سيدنا الشرعي، يتأوه في سجن أجنبي، حتى يتمكنوا من السيطرة علينا بسهولة

أكبر؛ الليليارد أعداؤنا ومضطهدونا. لقد عمل الناس طويلاً وأرهقوا أنفسهم في العمل مثل الثور في الساقية لكن.. يا سكان بروج، يا رفاقي المواطنين، لقد كتبوا عليكم أن تستقبلوا الشعاع الأول من السماء؛ للمرة الأولى، تكسرون أتم قيودكم، أنسيتم ذلك؟ لا، لم تنسوا ذلك، أيها المواطنون الأبطال، لقد كسرتهم أغلال العبودية ولم تعد جباهكم تنحني بشكل مخجل أمام السادة المستبدين. اليوم، كل شعوب الأرض يحسدون ازدهارنا وعظمتنا. حسناً، أليس من واجبنا الحفاظ على هذه الحرية التي تجعلنا أنبل الشعوب في العالم؟ نعم إن هذا هو واجبنا المقدس.. ومن ينسأه جبان! من ينسأه ينكر كرامته الإنسانية! إنه ليس أكثر من عبد حقير يستحق كل ازدراءنا.

قام نساج يدعى براكلز، كان عميداً للنساجين مرتين من قبل، في هذه اللحظة وقاطع دي كوينيك فجأة صائحاً:

- أنت تتحدث دائماً عن العبودية والحق! من يخبرك أن القضاة يفكرون في جعلنا عبيداً؟ أليس من الأفضل إذاً أن ندفع ثمانية جنيهات كبيرة وأن نبقي في سلام؟ إذا استمعنا إليك وأطعناك، فمن السهل أن نتنبأ بإراقة الدماء وسيضطر الكثير منا إلى دفن أطفاله أو إخوانه وكل ذلك مقابل ثمانية جنيهات كبيرة! نعم، حقاً، إذا كنا نصدقك، فإن النساجين سيتعاملون في كثير من الأحيان مع الحراب المسنونة أكثر من بكرة الخيط، لكنني آمل - من جانبي -

أن يكون هناك، من بين أسيادنا المجتمعين هنا، العديد من الحكماء غير المستعدين لاتباع نصيحتك الحمقاء.

لقد أثار هذا الخطاب اضطراباً شديداً بين النساجين؛ وقد أظهروا من خلال إيماءاتهم أنهم يشاركون عميدهم المشاعر نفسها. كان معظمهم لا يوافقون على كلام براكلز.

ألقي دي كونينك نظرة سريعة على جميع الوجوه، وقد أحصى عدد أتباعه، وقد أسعده أنه استخلص من ذلك بشكل يقيني أن قلة قليلة من الناس هم الذين يشاركون خصمه مخاوفه، فأجاب:

- ينص القانون صراحةً على أنه لا يمكن فرض ضرائب جديدة على الناس دون موافقتهم. ونحن ندفع ثمن هذا الامتياز غالباً بما يكفي بحيث لا يمكن لأي شخص، مهما كان منصبه العالي، التعدي عليه؛ والشخص الذي لا يرى المستقبل بعيداً قد يجد أن ثمانية جنهيات كبيرة، عند دفعها، ليست مبلغاً كبيراً. أنا أول من يوافق على ذلك؛ ولكن ليست ثمانية جنهيات كبيرة هي التي تحثني على المقاومة، وإنما امتيازاتنا التي لا أريد أن يتم إلغاؤها، فهي الدروع الوحيدة التي تحميها من هيمنة الليلارد! لا، الخضوع سيكون حماقة وجبناً في الوقت نفسه؛ لأنه كما تعرفون أيها الإخوة أن الحرية شجرة تذبل وتموت إن كسر أحد أغصانها. فإذا سمحتم اليوم لليلارد بتقليم هذه الشجرة،

فسوف يسرقون منكم قريباً القوة للدفاع عن جذعها الجاف. لذلك لا مزيد من الكلمات الفارغة! من لديه قلب رجل في صدره سيرفض دفع الثمانية جنيهات! من يشعر بالدم الحقيقي للكلاويرتس يتدفق في عروقه سيرفع الحراب المسنونة لإنقاذ حقوق الشعب! وإلى جانب ذلك، أيها الإخوة، فإن التصويت سوف يقرر اقتراحي؛ إنه نصيحة وليس أمراً أدعي أنني أعطيتكم إياه.

النساج الذي تحدث بالفعل، تابع:

- إن نصيحتك هي نصيحة مهلكة، عميد النساجين. إنك تحب الشغب وسفك الدماء؛ وتحب أن تجعل من اسمك نقطة للتجمع في خضم حركات التمرد. أجيّبوني، أيها السادة، أنا أخطبكم جميعاً، أُن يكون من الحكمة أن ندعم، كرعايا مخلصين، هيمنة فرنسا وأن نمد تجارتنا لتشمل هذا البلد الكبير؟ نعم، أوكد ذلك، سيزيد حكم فيليب لو بيل من ازدهارنا، ويجب على أي مواطن يتمتع بحسن التفكير أن يعتبر هذه السيادة بمثابة سعادة للبلاد. قضائنا حكاماً ويستحقون تقديرنا.

استحوذت الدهشة الكبرى على النساجين وهم يسمعون هذه الكلمات الخسيسة. وكان الكثير منهم ينظرون بغضب واحتقار إلى الشخص الذي تحدث بها للتو. كان دي كونينك غاضباً للغاية وقد صاح:

- كيف -متحدثاً مباشرة إلى براكلز- كيف ينطفئ حب الحرية وحب الوطن في قلبك بعد كل ذلك؟ أتريد، مستسلماً للعطش المخزي للذهب، أن نقبل اليد التي تمتد بأغلالنا الحديدية؟ من أجل أن يتحقق الازدهار، على الحرفيين أن يحنوا جباههم للغريب وأن يصبخوا له عبيداً بإرادتهم الحرة! لا، أيها الإخوة، يجب ألا تعانوا من ذلك، ولا تلتطخوا اسمكم بهذا العار! دعوا الليليارد، الأوغاد المخشين، يبيعون حريتهم إلى الغريب مقابل القليل من الذهب والهدوء المخزي؛ لكننا نبقي طاهرين من هذه البقعة وهذا العار! عسى أن تتدفق دماء أبناء مدينة بروج مرة أخرى دفاعاً عن حقوقها! سوف تلعب راياتنا الحمراء مرة أخرى وتصبح أكثر إشراقاً وستصبح حقوق الناس أكثر تقديساً!

لم يمنح السيد براكلز دي كوينيك وقتاً للاستمرار وصاح:
- وأنا أكرر، مهما قلت، فلا عيب في طاعة أمير أجنبي؛ على العكس من ذلك، يجب أن يسعدنا أن نكون جزءاً من هذا البلد العظيم والنبيل، فرنسا. ماذا يهم أمة تجارية تحت أي سيادة أن تغني نفسها! فالذهب التركي ثمين أيضاً مثل ذهبنا!

بعدها، ارتفع الغضب ضد براكلز إلى ذروته ولم يجب أحد على كلماته. تنهد دي كوينيك بعمق وقال:

- يا له من عارا! يا لها من وصمة عار لا تحي! ليليارد، لقيط يتحدث في بيت النساجين!

في هذه اللحظة، ساد هياج شديد وسط الجمهور وألقى عدد كبير منهم على السيد براكلز تهديدات مستوحاة من الغضب. فجأة سيطر صوت على الضجيج وهتف:

- دعونا نطرد الليليارد! لا يجب أن يكون هناك مبعوث للملك الأجنبي بيننا.

وتكررت هذه الصيحة مئات مرات.

كان على دي كوينيك أن يستخدم كل تأثيره على زملائه لتهدئتهم؛ رغب الكثير منهم في اللجوء إلى العنف، وتم تقديم اقتراح على الفور لاستبعاد السيد براكلز أو الحكم عليه بغرامة قدرها 40 رطلاً من الشمع. بينما كان الأمين مشغولاً بجمع الأصوات، وقف براكلز أمام كبير النساجين ولم يظهر أي خوف أو عاطفة. كان يعول على الذين يوافقون على كلماته الأولى؛ لكنه أخطأ في حسابه؛ فلقب الليليارد، الذي اعتبره الجميع علامة سيئة السمعة، لم يترك له مؤيداً واحداً. كانت جميع الأصوات مؤيدة للإقصاء وقبول الحكم بالتصفيق بالإجماع.

ومن ثم اندلع غضب الليليارد: ونشر الإهانات والتهديدات ضد دي كوينيك. لكن عميد النساجين ظل في مقعده غير مبالي لاعتداءات واستفزازات خصمه.

اقترب اثنان من الرفاق الأقوياء، واللذين يؤديان وظيفة الحمالين، من براكلز وأمره بمغادرة الباند على الفور. استسلم للقوة وركض - وقلبه مليء بالرغبة في الانتقام - إلى جون دي جيستل، رئيس محصلي الضرائب، لكي يجعله يعرف بتمرد عميد النساجين.

تحدث بيير دي كونينك لفترة طويلة مع رفاقه، ولم يتوقف عن حثهم على الدفاع عن حقوقهم؛ وقد أعرب دائماً عن رغبته في عدم الدخول في ثورة مفتوحة، ولكن الاكتفاء برفض دفع الثمانية جنيهات، حتى يدعوهم هو نفسه لحمل السلاح.

انفض الاجتماع أخيراً، وسلك كل منهم الطريق إلى منزله. ذهب بيير دي كونينك بمفرده - وكان يفكر بعمق - إلى شارع فيو ساك، حيث ذهب لمقابلة صديقه بريدل. عندما كان على وشك الدخول إلى شارع دي باوتشر، رأى نفسه فجأة محاطاً بعشرات من الرجال المسلحين. اقترب منه المأمور وأمره أن يتبعه دون مقاومة (45). لقد قيدوا يديه مثل اللصوص، وقد سخر الجنود الذين يصطحبونه منه وأهانوه. لقد تحمل كل شيء بصبر ولم ينطق بأي كلمة. لقد ترك نفسه يسير في أربعة أو خمسة شوارع، وسط الرجال المسلحين، وبدأ أنه لم ينتبه إلى صرخات المفاجأة التي أثارها مشاهدته بين عامة الناس. أخيراً تم إدخاله إلى القاعة الرئيسة في الطابق الأول من

البرينسنهوف (46).

كان هناك عدد من الليليارد الذين يشغلون المناصب العليا مع قضاة المدينة. شغل جون دي جيستل، رئيس محصلي الضرائب، مكان الشرف. كان المبعوث الفرنسي الأكثر سخونة في فلاندرز. لذلك، بمجرد أن رأى كوينيك أمامه، قال له بصوت غاضب:

- كيف تجرأت على تجاهل سلطة القضاة؟ إنك، أنت عميد النساجين، الذي تدفع الحرفيين إلى التمرد، لن يمر وقت طويل عليك قبل أن تتعرف إلى المشنقة.

أجاب دي كوينيك بهدوء:

- حرية الناس أعز إليّ من الحياة. سأتحمل الموت بأشنع الطرق ولكن لا تموت الناس.

أجاب دو جيستل:

- إنه حلم مجنون. انتهى عهد الشعب؛ وتحت الهيمنة الفرنسية، يجب على الرعايا طاعة ملكهم. الامتيازات التي انتزعتوها بقوة بسبب ضعف الأمراء سيتم مراجعتها وتقليلها. إنه لأمر عظيم أن تفتخر بالعطايا التي منحت لكم، عليكم أن تحنوا رؤوسكم أيها العبيد الجاحدون والفقراء!

تألق وميض من الغضب في عين دي كوينيك الوحيدة، وصاح:

- عبید حقراء! الرب أعلم بأولئك الموجودين هنا، هل هم من العبيد أو من الحقراء، أو من هذا الشعب الكريم، أو من هؤلاء الليليارد اللقطاء! لم يعد الوطن موجوداً من أجلكم. أتم العبيد الراكعون بتواضع أمام أمير فلاندرز الطاغية! ولماذا؟ لاستعادة قوتكم المكسورة؛ لإرضاء طموحك القاسي؛ لكنكم لن تنجحوا! الناس، الذين تذوقوا ثمار الحرية، يرفضون باشمزاز فضلكم المخزي. من أتم؟ عبید الغريب والملك الأجنبي! وهل تعتقدون أن أهل بروج يوافقون على أن يصبحوا عبيداً للعبيد الآخرين؟ أتم مخطئون كثيراً يا أيها السادة! فلاندرز بالنسبة لنا أصبحت عظيمة وقوية؛ والناس اليوم يعرفون قيمتها، وصولجانكم الحديدي سيتمزق منكم إلى الأبد..

صاح دو جيستل:

- اسكت اسكت! الحرية ليست لك. أنت لم تخلق لها.

أجاب دي كوينيك:

- الحرية! بعرقنا ودمائنا هي لنا، وأتم تودون أن تأخذوها

منا!

ابتسم دو جيستل ساخراً وقال:

- كلماتك وتهديداتك دخان فارغ، عميد النساجين. نحن

سنستخدم أسلحة أجنبية لتقصير أجنحة الوحش. إن

قوانين أخرى تحكم المقاطعات؛ ولقد استمر عنادكم طويلاً،
وقد تم اتخاذ إجراءاتنا بالفعل.. وستحني بروج جبهتها وأنت
لن ترى ضوء الشمس مرة أخرى.

هتف عميد النساجين:

- طاغية! خزي وويل لفلاندرز! أليس قبر والدك تم
حفرة تحت هذه الأرض التي تهينها؟ ألا تتواجد بقاياها
المقدسة في حضنها؟ وأنت تبعها للغريب، يا لك من
وغد لقيط! الأجيال القادمة ستحكم على جنك وعارك،
وأطفالك أنفسهم، سينكرونك، وسيكتبون خزيكم على
صفحات تاريخنا!

قال دو جيستل:

- كفى! ضع حداً لإهاناتك السخيفة. يا حراس! دعوه
يلقى في الزنزانة بانتظار إعدامه.

بناءً على هذا الأمر، تم سحب دي كوينيك من القاعة
ونقله إلى زنزانة تحت الأرض. علق طوق حديدي على
خصره وربطت سلسلة ثقيلة قدمه اليسرى بيده اليمنى. وقد
ضعوا قربه خبزاً وجرة ماء؛ كان الباب مغلقاً وبقي وحده
في الظلام. أوقعته كلبات جامع الضرائب في حزن شديد؛
وقد شعر أن بلده مسقط رأسه مهددة بشكل كبير. ما
الذي لا نجرؤ عليه أثناء غيابه؟ كان بإمكان الليليارد جلب
الجنود إلى المدينة وتدمير المبنى الذي كرس له حياته كلها.

ألم رهيب شعر به هذا الصديق النبيل والكريم للشعب! عندما، في يأسه، حرك أغلاله وسمع صدى صوتها يتردد بشكل حزين، بدا له أنه يرى إخوته مقيدين بالسلاسل مثله ويسلمون إلى أبشع عبودية. ومن ثم، انحدرت دمعة مريرة على خده.

لقد خطط الليليارد منذ فترة طويلة لمؤامرة بغیضة بينهم؛ كان جميع مواطني بروج مسلحين؛ وكان من المستحيل عليهم إجبارهم على تنفيذ الأوامر التي أعطوها، وكانت هيمنتهم من شأنها أن تكون مؤقتة فقط. وبمجرد أن أراد القضاة استخدام القوة ضد الحرفيين، ظهرت الحراب المسنونة الرهيبة، وأصبحت كل الجهود بلا جدوى في مواجهة أصحاب المهن والحرف، وأصبحت قوية للغاية بالنسبة لهذا الوضع؛ ومن أجل التخلص من هذه العقبة الهائلة، اتفق الليليارد مع الكونت دي شاتيلون على أنه في اليوم التالي، في وقت مبكر جداً، سيفاجأ المواطنون بشكل غير متوقع ويتم نزع الأسلحة منهم. يجب أن يكون الكونت دي شاتيلون، في الوقت نفسه، على أبواب المدينة بنخسمئة فارس. كان بإمكان دي كوينك بمفرده اكتشاف هذه المؤامرة، ولكن احتفظ بالسر جيداً؛ لقد كانت لديه وسائل خفية لهذا، سعى أنصار الفرنسيين عبثاً إلى الحصول على مصادرها. كانوا يعرفون عميد النساجين في دهائه وبراعته، لذلك تم إلقاء القبض عليه حتى يتم حرمان الناس

من هذا الحامي الحكيم والمتبصر، وبالتالي إضعاف الناس الذين يريدون اضطهادهم. ما قاله لهم براكلز عن معارضة النساجين كان بمثابة ذريعة لهم. ولكن القرار اتخذ من قبل. وبعد أن قاموا بتوحيد إجراءاتهم لإدخال الجنود الذين جلبهم الحاكم إلى المدينة؛ كان الليليارد على وشك مغادرة القاعة، عندما فتح باب القاعة فجأة، وشق رجل طريقه، وطرح الجنود الذين يحرسون المدخل أرضاً. وقد تقدم بخطوة حازمة وحاسمة نحو القضاة، وصاح:

- يتساءل أصحاب المهن والحرف في بروج عما إذا كنتم تريدون إطلاق سراح عميد النساجين أم لا؟ اتخذوا قراركم بسرعة، إني أنصحكم بذلك.

أجاب دو جيستل:

- السيد بريدل، لا يُسمح لك بعبور عتبة هذه القاعة. اخرج على الفور.

كرر جون بريدل، رافعاً صوته مرة أخرى:

- إنني أتساءل، هل توافقون على إطلاق سراح عميد النساجين؟

تحدث دو جيستل بصوت منخفض في أذن أحد القضاة، ثم هز كتفيه وصاح:

- لقد كان ردنا على تهديدات الحرفي المتمرد بالعقاب

الذي يستحقه. لنعقل هذا الرجل.

كرر بريدل ضاحكًا:

- آه! القبض على هذا الرجل! لكن هذا الرجل هو أنا! ومن سيعتقلني؟ أأحذركم أن أهل المقاطعة موجودون بالأسفل، وأنهم سوف يستولون على المحكمة بالقوة، وأن حياة كل منكم تساوي حياة دي كونينك. آه! اعتقلوا هذا الرجل! حسنًا، أيها السادة، ستشاهدون حفلة أخرى، وسوف تغير أغنيتكم مذهبها، أقسم لكم على ذلك..

في غضون ذلك، اقترب بعض الحرس من عميد الجزارين وأمسكوا به من الياقة؛ وقام آخر بالفعل بفتح الحبال التي ستستخدم لتقييده. وبما أن بريدل كان يتحدث، لم ينتبه لهذه الاستعدادات؛ ولكن بمجرد أن أبعد نظره عن الليليارد، وعندما رأى الحرس والحبل بالقرب منه، خرج صراخ منخفض، مثل زئير الثور، من صدره. وثبت عينيه الناريتين عليهم وهتف:

- هل تعتقدون أن جون بريدل، عميد الجزارين في بروج، يسمح لنفسه أن يساق هكذا مثل العجل؟ لا يا أيها السادة، لن يكون ذلك اليوم!

في تلك اللحظة، ضرب بقبضة يده العنيفة رأس الجندي الذي يمسكه من ثأنيته، لدرجة أن الشيطان المسكين ترنخ وسقط بشدة على رصيف القاعة، مثل عنزة ضربتها هراوة؛

ثم، مثل البرق في وسط الحرس المذهولين، أوقع العديد منهم، وعمل ممرًا واسعًا، ووصل إلى الباب، واستدار وصرخ بصوت مدوّ:

- سوف تدفعون ثمنًا باهظًا، أيها اللوردات النبلاء! أتريدون تقييد جزار في بروج! أتريدون أن تضعوا يديكم عليّ! أوه! ويل لكم أيها الطغاة الملعونون.. اسمعوا! اسمعوا! ها هي طبلة الجزارين تعلن الموت لكم!

ربما كان سيواصل تهديداته، لكنه رأى الحرس يتقدمون معًا نحوه، فاندفع سريعًا باتجاه الدرج وكان لا يزال يتذمر. في هذه اللحظة، على الجانب الآخر من المدينة، سمع صوت مكتوم يدوي مثل صوت الرعد من بعيد. أصبح الليليارد شاحبي اللون، واستولى عليهم الرعب عند اقتراب هذه العاصفة المهددة. ومع ذلك، لم يرغبوا في إطلاق سراح أسيرهم، ووضعا عددًا أكبر من الحرس أمام المحكمة، وذهبوا إلى منازلهم برفقة رجال مسلحين.

بعد ساعة، كانت المدينة بأكلها في حالة تمرد. كان جرس الإنذار يدق، وطبول المهن والحرف تتجول في الشوارع كافة، وكانت أصوات تدوي مثل أصوات نذير العاصفة، تحوم حول المدينة. وأغلقت الأبواب والنوافذ ولم تفتح المنازل إلا لإخراج مواطن مسلح. وأطلقت العديد من الكلاب صيحات حزينة وكأنها قد فهمت صراخ

الغضب الذي يتردد صدها في المدينة، وامتزجت أصواتها الصاخبة بصخب أسياها المتهلفين للانتقام. تركزت مجموعات عديدة من جميع الجهات؛ كانت إحداها تحمل كماً هائلاً من الأسلحة، وتحمل الأخرى الحراب المسنونة والثالثة تحمل الفؤوس. في وسط الحشد، تم التعرف على الجزارين بسهولة من خلال الفؤوس الكبيرة واللامعة والتي تستخدم في سلخ الحيوانات. كما ذهب الحدادون، ومطارقهم الثقيلة على أكتافهم، إلى مكان الاجتماع، أمام بيت النساجين؛ كان هناك بالفعل عدد لا يحصى من أصحاب المهن والحرف، مرتبين في صفوف تزداد كل دقيقة، وكأصدقاء جدد لقضية الشعب جاؤوا ليصطفوا تحت الرايات.

عندما اعتبر أن الحشد كبير بما يكفي، صعد جون بريدل على عربة من العربات التي تجرها الخيول كانت موجودة هناك وبدأ حديثه وهو يضع فأسه فوق رأسه وقد صاح أخيراً:

- شعب بروج، إن حياتنا وحریتنا على المحك. سوف نعلم الليليارد كيف يطاردون سكان بروج، وسنقطع من لحم هؤلاء العبيد الحي كما يقال. السيد دي كوينك في سلاسل حديدية، أصدقائي، يجب أن يتدفق دمننا من أجل تحريره. إن هذا لواجب على كل المهن والحرف، واحتفال للجزارين! إلى العمل! إلى العمل! هيا شمروا عن سواعدكم!

كان هناك صخب عالٍ للغاية علامة على الاستجابة لهذه الكلمات المتحمسة، وبينما أطاعت مجموعة الجزائريين أوامره، قام بريدل بنفسه بكشف ذراعيه العضليتين حتى كتفه، وهبط من العربة إلى الأرض وقد هتف:

- إلى الأمام، هيا بنا ننقذ عميد النساجين!

الناس يهتفون من الجهات كافة:

- هيا بنا ننقذ عميد النساجين، إلى الأمام! إلى الأمام.

اندفع الحشد مثل بحر هائج نحو المحكمة. صرخات الموت وطرقات السلاح رافقت المسيرة الهائلة التي لا تزال في ازدياد، واختلطت همهمات الرجال ونباح الكلاب مع أصوات الأجراس ودق الطبول، كان يمكن للمرء أن يقول إن الغضب الشامل قد استولى على حرفيي مدينة بروج الكبيرة. على مرأى من هذا الجمهور الغاضب، هرب حرس المحكمة في جميع الاتجاهات وتركوا القصر أعزل لكن الجميع لم يتمكنوا من الهروب في الوقت المناسب؛ لأنه في لحظات قليلة؛ تباثرت أكثر من عشر جثث على السلام الأمامية من الدرج.

بريدل، غاضباً، صعد الدرج؛ عند مدخل الدهليز التقى بليليارد كان يحاول الفرار، ولكنه أمسك به وضربه فوق رأسه. استقبلت الضحية البائسة على طرف الحراب

المسنونة، ثم تم تقطيعه إرباً بعدة أسلحة. وسرعان ما غزا الحرفيون المحكمة بأكلها. وقد نادى بريدل بعض الحدادين، واقتحموا أبواب السجون. لحزنهم الشديد، وجدوها جميعاً فارغة، وأقسموا بغضب أكبر إنهم سينتقمون لموت دي كوينك.

ولكن عندما علم النساجون أن جميع عمليات البحث للعثور على عميدهم الذي أحبوه قد ذهبت سدى، كان من المستحيل احتواؤهم أكثر؛ فبدلاً من مواصلة البحث، ركضوا إلى منازل الليليارد الرئيسة، وحطموا ودمروا كل ما تحتويه؛ لكنهم لم يجدوا أي ساكن هناك؛ فلقد توقع الليليارد هذه الزيارة.

في هذه اللحظة، كان بريدل، والذي استولى اليأس والعطش للانتقام على روحه على وشك مغادرة المحكمة، عندما اقترب منه رجل مسن ذو شعر أبيض ممتلئ وقال:

- سيد بريدل، إنك بحثت، ولكن يبدو أنك في الاتجاه الخاطئ؛ فلا يزال هناك سجن على الجانب الآخر من المبنى، زنازة عميقة، حيث قضيت عاماً من حياتي خلال فترة المورليما العظيمة (47). اتبعني إذاً، ربما نجد الشخص الذي تبحث عنه.

سارا في العديد من الممرات المظلمة. وأخيراً، وصلاً إلى باب حديدي صغير. أخذ المسن مطرقة أحد الحدادين،

وفي بضع نقرات، حطم القفل إلى أشلاء؛ لكن الباب لم يفتح. بعد نفاذ صبره، نزع جان بريدل المطرقة من بين يدي مرشده، وطرق الباب بضربة عنيفة فتحطم واندفعت جميع المفصلات من الحائط. وبالفعل، سقط الباب، واستطاعا أن يريا من بداخل الزنزانة.

كان دي كونينك في إحدى زوايا الزنزانة مربوطاً في الجدار بسلاسل حديدية ثقيلة. ركض جون بريدل إليه، شاعراً بالفرح، وألقى بنفسه على رقبة صديقه بنفس الحماس كما لو كان قد وجد أخاً.

صاح بريدل:

- يا سيدي! يا لها من سعادة أشعر بها في هذه اللحظة! لم أكن أعرف أنني أحبك كثيراً بهذا الشكل.

أجاب دي كونينك، وأخذ في عناق الجزار المبتهج:

- شكراً لك، بريدل الشجاع، شكراً لك يا صديقي.. كنت أعلم جيداً أنك لن تسمح لي بالتعفن في هذا الزنزانة، أعرف جيداً مدى شجاعتك النبيلة. أي شخص يشبهك هو فلنكي جيد.

تم توجه بعد ذلك إلى أصحاب المهن الموجودين وهتف بحماسة حركت القلوب بشدة:

- أيها الإخوة، لقد أنقذتموني من الموت! إليكم دمي،

ولحريتكم كل قوة روجي. لا تنظروا إلي اليوم باعتباري عميد النساجين أو نساجاً يعيش بينكم، ولكن كرجل أقسم أمام الرب أن يدافع عن كل حرياتكم ضد العدو الذي يهددها. أتمنى أن تكرر الجدران المظلمة في سبني كلماتي كقسم مهيب لا ينتهك: دمي، حياتي، راحتي، أهدي كل شيء لبلدي!

صيحة «يعيش دي كونينك» خنقت صوته وتردد صداها ووصل ما بين جميع الممرات الطويلة والمظلمة. من قم إلى قم، وصل هذا الصباح إلى الخارج، وسرعان ما سمع في المدينة كلها. حتى الأطفال أنفسهم كانوا يصيحون: «يعيش دي كونينك»!

وسرعان ما كُسرت الدائرة الحديدية التي كانت تمسك بخصر عميد النساجين، وظهر بجانب جان بريدل على درجات المحكمة. لكن حالما لاحظ الناس الذين كانوا ينتظرونه الأغلال التي يحملها في يديه وقدميه، خرجت التهديدات والشتائم من كل الأفواه. دموع الفرح والغضب معاً تبلل عيون الحاضرين، والصياح بـ «يعيش دي كونينك» يدوي بقوة من جديد (48). في الوقت نفسه، ركض حشد من النساجين إلى عميدهم، وأثناء اتقاهم رفعوه على درع مدمى لأحد الجنود الذين تم قتلهم. مهما كانت مقاومة عميد النساجين لهذا الاحتفاء لم يستطع تجنبه، وحمل منتصراً في جميع شوارع المدينة.

موكب غريب وصاخب! كان الآلاف من الرجال،
المسلحين بالسكاكين والفؤوس والحرايب والمطارق
والصولجانات وغيرها من الأسلحة التي تم توفيرها عن
طريق الصدفة، يركضون بحماس نحو السوق؛ فوق رؤوسهم
يمكن رؤية دي كوينيك على الدرع، والحديد لا يزال
مربوطاً بقدميه ويديه؛ جنباً إلى جنب مع السجن المفرج
عنه، سار الجزارون بأذرعهم العارية ومسلحين بفؤوس
لامعة. بعد نحو ساعة من هذا الاحتفال الهزلي والمخيف،
أعرب دي كوينيك عن رغبته في التحدث إلى كبار
ورؤساء المهن والحرف. توقف الموكب، ووقف دي
كوينيك وأعلن لهم أنه يجب أن يتحدث معهم حول مسألة
ذات أهمية قصوى للمدينة. لذلك طلب منهم أن يجتمعوا
في المساء نفسه في منزله للتشاور بشأن الإجراءات التي
يجب اتخاذها.

ثم شكر الناس وتوسل إليهم أن يكونوا مستعدين لحمل
السلاح عند أول إشارة وفي أي وقت. ثم نزل من فوق
درعه، وتم تحرير يديه ورجليه من الأغلال، ورافقه كل
الناس بهتافات جماعية إلى منزله الذي يقع في شارع
لانس.

مثل الصخرة التي ترتفع من أعماق الهاوية وسط الأمواج
الغاضبة تخترق غيوم قمتها الفخورة، نراه يرفع رأسه عالياً
ومفتخراً رغم المصير القاسي.

(ف. دي فوس)

في اليوم التالي، قبل شروق الشمس، اجتمع جون دي
جيستل والليليارد في سوق الأعشاب، وكانوا مسلحين
من الرأس إلى أخمص القدمين وكانوا برفقة نحو ثلاثمائة
فارس ورجال مسلحين. ساد أكبر صمت في القوات
الصغيرة؛ فعلى هذا يعتمد نجاح الهجوم. أرادوا مع أول
شعاع للشمس أن يفاجئوا الناس وينزعوا كل الأسلحة
من البيوت. كان عليهم بعد ذلك أن يعدموا دي كوينيك
وبريدل، كمحرضين على التمرد، وبالتالي يجبرون أصحاب
المهن والحرف على الخضوع. في اليوم نفسه، كان على دي
شاتيلون أن يدخل المدينة غير المسلحة ويفرض إلى الأبد
شكلاً آخر من أشكال الحكم على بروج. لكن هذا السر لم
يفلت من دي كوينيك، لقد استعد للقتال، ففي الوقت
نفسه وفي الصمت نفسه، اجتمع النساجون والجزّارون،
من جانبهم، مع أصحاب بعض الحرف أو المهن الأخرى،
في الشارع الفلمنكي.

سار دي كوينيك وبريدل بمفردهما على بعد مسافة من

القوات واتفقا على المشروع الذي سينفذانه. كان على النساجين والجزارين مهاجمة الليليارد، وخلال هذا الوقت كان على الرفاق الآخرين السيطرة على بوابات المدينة وإبقائها مغلقة، حتى لا يتمكن العدو من تلقي المساعدة من الخارج. وهكذا كان الطرفان موجودين قريبين من بعضهما دون معرفة ذلك، عندما قرع جرس كنيسة القديس دوناتوس صلاة التبشير الملائكي، سمع وقع أقدام خيول جون دي جيستل يتردد صداها على الرصيف؛ وبدأ أصحاب المهن والحرف أيضاً في التحرك فساروا في صمت لمقابلة الليليارد. وهكذا التقت القوتان في السوق، حيث كان أنصار فرنسا يأتون من شارع بريدل، بينما كان أصحاب المهن والحرف ما زالوا في الشارع الفلمنكي. كانت دهشة الليليارد عظيمة للغاية، عندما رأوهم يتقدمون نحوهم. ومع ذلك، نظراً لأنهم كانوا فرساناً ورجالاً في السلاح، لم يتخلوا عن مشروعهم.

وسرعان ما أعطى البوق الإشارة وفاجأ الفرسان الحرفيين الذين لا يزالون محاصرين في الشارع الضيق. تم إنزال رماح الليليارد، الذين كانوا مازالوا ينتظرون في صدمة، فتقابلت مع حراب النساجين. ولكن أياً كانت شجاعة ومهارة أصحاب المهن والحرف، فإنهم لا يستطيعون، بسبب عيب التضاريس، مقاومة عنف الهجوم. تراجع أصحاب المهن والحرف وصاح الليليارد، الذين اعتقدوا بالفعل أنهم سادة

ساحة المعركة، منتصرين:

- موننجوي وسان دينيس! فرنسا! فرنسا!

كانوا يهاجمون ويقتلون في صفوف النساجين، وقد غطوا الأرض بالجنث. دي كونينك، الذي كان في المقدمة، قاتل بشجاعة مستخدماً حراًباً طويلة، ولبعض الوقت قد منع الصفوف الأولى من التفكك. فقد كان لزاماً عليهم بمفردهم أن يدعموا الجهود ضد العدو؛ والآخرون، المحبوسون في الشارع، لم يتمكنوا من المشاركة في النضال. لذا، وعلى الرغم من كلمات العميد ومثاله، لم يكن المصير قد تحدد بعد؛ فقد اندفع الليليارد مرة أخرى على الصفوف الأولى وتسببوا في حالة فوضى مرة أخرى لكل هؤلاء الذين يتبعون هذه الصفوف. كانت يد المساعدة سريعة للغاية لدرجة أن الكثيرين استسلموا بالفعل قبل أن يلاحظ جون بريدل، الذي كان مع أصحاب مهنته في الطرف الآخر من الشارع، أن القتال قد بدأ. فتحت الصفوف مساحة بأمر من دي كونينك وكشفت الوضع لعميد الجزارين، وأوضحت أمامه الخطر الذي يتعرض إليه النساجون. تدمر بصوت أجش يوضع كلمات غير مفهومة، والتفت إلى رجاله وصاح:

- إلى الأمام أيها الجزارون! إلى الأمام!

وسرعة البرق تقدم وتبعه كل رجاله في صفوف

النساجين وسقط على الفرسان، وبضربة أولى بفأسه قام بفتح رأس حصان؛ وبضربة ثانية، أوقع الفارس عند قدميه، وفي لحظة كان هناك أربع جثث أمامه. في تلك اللحظة تعرض هو نفسه لإصابة طفيفة في ذراعه اليسرى. رؤيته لدمه أغضبته بشدة، وقد أزيد فه، وألقى على الفارس الذي آذاه نظرة فظيعة وألقى بفأسه بعيداً عنه. ثم، انحنى تحت ربح عدوه، وقفز بقفزة نمر على الحصان ووجه نفسه إلى جسد الليليارد. لم يستطع الأخير مقاومة قوة بريدل الغاضب؛ ترنح وسقط على الرصيف. خلال هذه المعركة الفريدة، اندفع الجزارون وأصحاب المهن والحرف الأخرى إلى أعدائهم وأسقطوا عدداً كبيراً منهم على الأرض. وهكذا تقاتل الطرفان لفترة طويلة في المكان نفسه، وتراكت جثث الرجال والخيول، ولطخ تدفق الدماء رصيف الشارع باللون الأحمر الداكن.

ومع ذلك، ضاعف أصحاب المهن والحرف من حماسهم واندفاعهم. عبثاً قاوم الليليارد بكل قوتهم؛ لقد أُجبروا على التراجع وأفسحوا المجال لأعدائهم، الذين تمكنوا بالتالي من الانتشار في السوق. منذ ذلك الحين، أصبح مشروعهم واضحاً؛ إنهم يريدون إحاطة جميع الفرسان في دائرة، ولهذا الغرض، قاموا بتمديد جناحهم الأيمن إلى سوق الماشية. لكن سرعان ما عاد الفرسان المهزومون وفروا هرباً من الموت المؤكد. انطلق النساجون والجزارون في مطاردتهم،

وأطلقوا صيحات الانتصار. لكن سرعة خيولهم أنقذتهم ولم يتمكن أصحاب المهن والحرف من الوصول إليهم.

أطلق صوت الأبواق وصوت المعركة الإنذار في أنحاء المدينة كافة. جاء الآلاف من الحرفيين المسلحين من جميع الشوارع لمساعدة إخوانهم؛ ولكن الانتصار كان قد أُعلن بالفعل. لجأ الليليارد إلى بورخت، وكان هذا الميدان محاطاً ومراقباً من جميع الجهات من قبل أصحاب المهن والحرف.

بينما كانت هذه الأحداث تجري في السوق، كان دي شاتيلون يقترب من المدينة بخمسين فارساً. لقد توقع أنه سيتم إغلاق المدينة وسيكون بمقدوره أن يفرض عليها حصاراً حقيقياً. لذلك كان قد أصدر تعليماته لأخيه دي سان بول بإحضار عدد كبير من تعزيزات المشاة مع المعدات اللازمة. أثناء انتظار هذه المساعدة، كان يستعد بالفعل للهجوم ويبحث عن أضعف جانب في المدينة. على الرغم من أنه رأى القليل من الناس على الأسوار، إلا أنه اعتبر أنه من الحكمة عدم القيام بأي شيء بمفرده مع سلاح الفرسان؛ فقد كان يعرف شعب بروج الذي لا يقهر. ولكن بعد نصف ساعة من وصوله، ظهرت فرقة اللورد دي سان بول في الأفق؛ وقد لمعت حواف الرماح والخوذات في أشعة الشمس؛ وأثارت الخيول سحباً كثيفة من الغبار وهي تجر آلات الحرب.

القلة من عدد سكان بروج الذين كانوا يحرسون البوابة والأسوار لم يروا اقتراب هذه القوات دون خوف. وعندما رأوا آلات الحصار الهائلة، استولى عليهم إحساس بالألم الشديد. انتشر هذا الخبر في لحظات قليلة في أنحاء المدينة كافة، واشتعلت قلوب النساء بالخوف والألم. كان أصحاب المهن والحرفيين ما زالوا يخيمون حول ميدان بورخت، عندما علموا بوصول الجيش. لذلك تركوا عدداً منهم حول ميدان بورخت لمنع خروج الليليارد، وركضوا مسرعين إلى الأسوار وانتشروا فوق الجدران المهددة.. كان مصدر خوف سكان بروج على مسقط رأسهم أنهم رأوا القوات الفرنسية مشغولة بالفعل في القيام بجميع الاستعدادات للحصار.

عمل المحاصرون على بعد مسافة كبيرة من الأسوار، بعيداً عن متناول السهام التي كانت ستلقى عليهم من المدينة؛ واصلوا استعداداتهم بهدوء، بينما كان على دي شاتيلون، مع فرسانه، مهمة منع أي خروج للمحاصرين. سرعان ما ارتفعت الأبراج الشاهقة ذات الجسور المتحركة وسط الجيش الفرنسي؛ أوشكت الكباش والمنجنيق على الانتهاء، وكل شيء تنبأ بمصير رهيب لشعب بروج.

ولكن مهما كانت شدة الخطر، لم يكن هناك رعب جبان ولا أقل تردداً في نفوسهم، فقط كانت أنظارهم ثابتة ولا تتحرك على العدو، وقلوبهم تنبض بخفة، وأصبح

تنفسهم قصيراً ولاهناً؛ ولكن بعد فترة وجيزة، ودون أن يحولوا نظرهم عن العدو، كان الدم يتدفق بحرية أكبر في عروقهم؛ وأشعل الحريق الرجولي خديهم، وشعر كل واحد منهم بشوق للانتقام وهدر استياء بطولي في قلبه.

رجل واحد فقط، على الأسوار، بدا سعيداً ومقتنعاً؛ لرؤية احتياج حركاته والابتسامة على شفثيه، كان يمكن للهرء أن يقول إنه رأى فرحة عظيمة تقترب. في بعض الأحيان، تفصل عينه المشتعلة عن العدو لتستقر على الفأس الذي يلعب في يده القوية، والذي كان يداعب حافته القاتلة بلطف. كان هذا الرجل هو جون بريدل الجريء.

كان رؤساء المهن والحرف جميعاً مع دي كونينك، في انتظار نصيحته وأوامره. ووفقاً لعادته، كان عميد النساجين يفكر لفترة طويلة. هذا البطء في اتخاذ القرار جعل بريدل يفقد صبره، وهو الذي صاح أخيراً:

- حسناً، سيد دي كونينك، ماذا تطلب؟ هل نخرج من البوابات ونسقط على أجساد هؤلاء الأوغاد أم نبقى على الأسوار لنقضي عليهم؟

لم يرد عميد النساجين، وظل منغمساً في تأمل عميق، وما زالت عيناه مركّزتين على عمل العدو، ويحصي بدقة آلات الحصار العظيمة التي كانت تتصاعد بأعداد كبيرة.

لا يمكن لأحد أن يقرأ على وجهه علامة تدل على قراره؛ يمكننا فقط رؤية انعكاس بارد. كان في قلب دي كونينك الهدوء ورباطة الجأش، ولكن لا أمل في النجاح، لقد فهم أنه من المستحيل مقاومة هجمات العدو، العدو الذي أعطته هذه المعدات العملاقة وهذه الأبراج الشاهقة ميزة كبيرة. عندما اقتنع تماماً أنه إذا تم الاعتداء على القوات، ستحرق المدينة بالنار والدم، قرر أن يجرب وسيلة حزينة ومؤلمة لمنعه، التفت إلى رؤساء المهن والحرف وقال لهم بصوت بطيء وعميق:

- أيها الرفاق، إن الخطر لعظيم! بيعت مدينتنا اللؤلؤة، مدينة فلاندرز، ولم نكن نعلم ذلك! اليوم، الحذر وحده هو الذي سيساعدنا. إنني أقدر تماماً مشاعركم النبيلة والكريمة وأعرف أن التضحية بها مؤلمة ومفجعة بالنسبة لكم، ولكن أتوسل إليكم أن تفكروا في ذلك، إذا كان تفاني البطل الذي يسفك دمه دفاعاً عن حقوق مواطنيه هو عمل مجيد ولكن من الحماسة للغاية أن رجلاً طائشاً، بسلوكه المتهور، يعرض بلده للخطر. أيها الرفاق، هنا كل النضال لا طائل من ورائه.

صاح جون بريدل:

- كيف؟ أي نضال لا طائل من ورائه؟ من إذاً الذي ألهمك بمثل هذه المقولة؟

أجاب دي كونينك:

- الحذر وحب مدينتي مسقط رأسي، يمكننا كفلنكيين أن نموت، وفي أيدينا الأسلحة، على أنقاض مدينتنا التي تحترق؛ يمكننا أن نستسلم ببسالة وسط الجثث الدامية لإخواننا، نحن الرجال. لكن نساءنا، وأطفالنا، هل نسلهم منزوعين من السلاح ومهجورين، لانتقام أعدائنا؟ لا، لقد أعطيت الشجاعة للإنسان للدفاع عن من هو أضعف منه.. لا بد من إعادة المدينة!

نزلت هذه الكلمات كالصاعقة على المستمعين، وللحظة ظنوا أنهم يسمعون تجديفاً، فصاحوا في الحال:

- إعادة المدينة؟ نحن؟

ظل دي كونينك هادئاً أمام هذا اللوم وأجاب:

- نعم يا رفاق، صحيح أن هذا القرار سيمزق قلوبنا التي تطمح إلى الحرية؛ لكنه المورد الوحيد المتاح لدينا، الحل الوحيد الذي سينقذ بروج من الدمار الشامل.

بينما كان دي كونينك يتحدث، انفجر جون بريدل في صيحات الغضب. عندما لاحظ أن العديد من رؤساء وكبار المهن والحرف يميلون إلى الاستسلام، تقدم بسرعة إلى الصف الأول. صائحاً:

- إن أول من سيتجرأ فيكم ويتحدث عن الاستسلام،

سأدوس عليه بالأقدام باعتباره خائناً، إنني أفضل الموت ما بين جثث الأعداء على أن أحيا حياة أشعر فيها بالخزي. هل تعتقدون أن جزائريّ سيرتجفون أمام الخطر؟ لا. انظروا كيف تنبض قلوبهم، كيف يتوقون إلى النضال! إنهم لا يفهمون لغتكم وهم على استعداد للموت! وإني لأعلنها لكم أننا سندافع عن مدينة آبائنا ومن يخاف فليذهب الى بيته ويختبئ مع النساء والأطفال. لكنني أقسم بهذا الفأس إن اليد التي تفتح الباب لن تستسلم أبداً.

زاد الغضب في قلبه، ركض بعد ذلك إلى الجزائرين وسار بسرعة بين صفوفهم. يكرر مراراً وتكراراً، مع التعبير عن الغضب والازدراء:

- نعيد المدينة؟ نحن إعادة المدينة!

وقد تساءل بعض رؤساء المهن والحرف الذين سمعوا هذا الهمس عما يقصده؟ من ثم فأنفجر بريدل قائلاً:

- لتساعدنا السماء أيها الناس الشجعان! الدم يغلي في عروقي لرؤيتي مسمراً في هذا المكان! النساجون يريدون إعادة المدينة! لكنني أتوسل إليكم يا إخواني، ابقوا معي، ودعونا نموت مثل الفلمنكيين الحقيقيين! انظروا إلى هذه الأرض التي تطأها أقدامكم، حيث مات الجزائريون، آباؤنا! قولوا إنه ستكون هنا أيضاً قبورنا: نعم، ليقول كل منا لنفسه هنا سيكون قبوري أو قبر الغرباء. عسى أن يكون

موتنا أو انتصارنا وصمة عار أبدية على النساجين الجبناء!
من لا يملك قلب جزار حقيقي يعود إلى بيته.. هلموا، من
سيقاتل معي حتى الموت؟

دوى صوت جميع الجزائريين في هتاف كثيب، وصاحوا
ثلاث مرات «حتى الموت!» مثل عويل يرتفع من حضن
الهاوية «حتى الموت!» كان هذا هو الهتاف الذي خرج من
سبعمئة صدر متقد وسط صرير القووس التي سنتها المبراة
الفولاذية.

وبينما كان بريدل وجزاروه يؤدون هذا القسم، قبل
معظم رؤساء وكبار المهن والحرف، بإيعاز من دي
كونينك، بوسائل الخلاص المحزنة التي عرضت عليهم
ووافقوا على إعادة المدينة؛ ولكن هذا الفعل أصبح
مستحيلاً في وجود معارضة بريدل. ومع ذلك، نظراً
لآلات الحرب الهائلة التي استمرت في الارتفاع أمام
أعينهم، فقد عقدوا العزم على الدخول في مفاوضات مع
العدو على الرغم من عميد الجزائريين.

لكن بريدل الذي نفذ صبره قد نحن مشروعهم. ومثل
أسد جريح، أطلق هديراً غاضباً اختلطت فيه كلمات غير
مفهومة واندفع نحو دي كونينك. الجزائريون الذين فهموا
غضب رئيسهم تبعوه في حالة من الفوضى وكانت تملؤهم
الرغبة في الانتقام. صاحوا بغضب:

- إلى الموت! إلى الموت! إلى الموت، أيها الخائن دي
كونينك!

كانت حياة عميد النساجين في خطر كبير؛ ومع أنه قد
رأى حشداً متلهفاً لدمه يندفع نحوه، لم يظهر على وجهه
أدنى عاطفة. مثل رجل يلقي نظرة شفقة على الحمقى، عقد
ذراعيه فوق صدره وألقى نظرة هادئة وغير مبالية تقريباً
على الغاضبين الذين يقتربون. من داخل الجماعات، تخرج
هذه الصرخة الرهيبة بغضب متزايد:

- الموت للخائن!

وكان الفأس يهدد رأس الرجل العظيم بالفعل. لكنه
ظل، مع ذلك، ساكناً، جامداً، لا يتزعزع؛ وهكذا مثل
البلوط العالي الذي يتحدى غضب وجهود الإعصار. وهكذا
من أعلى السور الذي نصب نفسه عليه، استطاع دي
كونينك أن يطل على الحشد مثل القاضي.

في هذه اللحظة، ارتسم تعبير غريب على وجه بريدل.
كان يمكن للمرء أن يقول إنه فقد كل إحساس بجأة؛ وقد
نسي الفأس المعلق بجانبه. لقد أعجب بعظمة الرجل الذي
أراد أن ينشق عن نصائحه. لكن هذا التردد كان سريعاً
كالبرق، فجأة أدرك الخطر الذي يواجهه صديقه. وأوقع
الجزار الذي كان قد رفع فأسه بالفعل على دي كونينك،
عند قدميه، وصاح:

- توقفوا، توقفوا!

فقد هذا الأمر في البداية وسط الاضطرابات. فلا يمكن سماع صوت، بهذه القوة، بين صرخات الموت التي تردت من جميع الجهات. ثم وضع بريدل نفسه مهدداً أمام عميد النساجين وسرعان ما أبعاد الفأس المشؤوم. عند هذا المنظر فقط، أدرك رفاقه أنه يريد حماية دي كونينك؛ لقد أنزلوا أسلحتهم وأصبحوا منتبهين لما كان على وشك الحدوث. لم يسمع سوى عدد قليل من الهمسات المكتومة والمهددة.

وبينما كان بريدل منشغلاً في إعادة الهدوء بينهم، قدم أحد المنادين المسلحين الفرنسيين عند سفح السور الذي حدث فيه هذا المشهد العاصف للتو. تحول انتباه سكان بروج الغاضبين على الفور بعيداً عن دي كونينك، إلى هذا المنادي المسلح. فهتف هذا الأخير مخاطباً المحاصرين:

- باسم حاكمنا العظيم، فيليب، ملك فرنسا، السيد دي شاتيلون يأمركم، بصوتي، أن تعيدوا المدينة تحت رحمتنا. إذا لم تستجيبوا لهذا الإنذار خلال ربع الساعة، فسيتم هدم أسواركم وتدمير منازلكم بالحديد والنار.

أصبحت عيون كل من سمعوا هذا الإنذار مثبتة على دي كونينك في الوقت نفسه؛ بدا أنهم يتوسلون للحصول على النصيحة من الرجل نفسه الذي أرادوا موته قبل لحظة؛

لقد ثبت بريدل بنفسه عيناً متسائلة على دي كونينك، لكن لم يحصل أحد على الإجابة المطلوبة. وقف عميد النساجين صامتاً بينهم وبدأ أنه لا يهتم بما يجري. تساءل بريدل:

- حسناً، الصديق دي كونينك، ما هي نصيحتك؟

أجاب ببرود:

- إعادة المدينة!

بدأ الجزارون في الهمس مرة أخرى، لكن لفترة حازمة من بريدل أسكتتهم.

- هل تعتقد، دي كونينك، أنه بالشجاعة والقرار الجريء لا يمكن للمرء أن يدافع عن المدينة؟ هل ستكون الشجاعة البطولية عاجزة في هذه الساعة القاتلة؟

كان من السهل من ملاح بريدل تخمين المعارك التي كانت تدور في روحه، حيث كانت عيناه ملتهبتين بالرغبة في القتال، في هذه اللحظة، أصبحت قائمة ومكسورة، فالنار التي تئلق في عينيه عادة قد أطفئت فجأة.

رفع دي كونينك صوته ليستمع إليه الحشد من حوله، وقال:

- أدعوكم جميعاً لتشهدوا أن حب الوطن وحده يلهمني.
من أجل بلدي مسقط رأسي، أنا أشجع فيكم غضبكم عليهم،

والأمر لن يكلفني شيئاً، فكل ما سيحدث لي هو الموت على يد العدو، ولكن كل ما يعنيني هو الحفاظ على جوهرة فلاندرز، فهذا أمر مهم ومقدس بالنسبة لي. سددوا لي الإهانات والشتائم، انعتوني بالخائن، ولكنني أعلم الواجب الذي يجب أن أؤديه. مهما كانت المهمة التي أعطيتها لنفسي مؤلمة، فلن يصرفني شيء عن المسار الذي حددته لنفسي. الصبر، أيها الأصدقاء، سيأتي اليوم الذي سأعيد فيه إليكم حريتك، حتى بالرغم منكم! لكن، في هذه اللحظة، أكررها لكم للمرة الأخيرة، فمن واجبنا إعادة المدينة.

أي شخص نظر -خلال هذا الخطاب القصير- إلى وجه بريدل، كان سيشاهد آلاف المشاعر المختلفة التي تتعاقب الواحدة تلو الأخرى، فيظهر كل من الاستياء، الغضب، والحزن على ملامحه كل بدوره، كما أن انقباض قبضتيه يدل على أن ما يحدث كان ضد إرادته. في اللحظة التي دوت فيها عبارة «يجب أن نعيد المدينة» في أذنه مرة أخرى مثل عقوبة الإعدام، أصيب بحزن عميق وبدا للحظة كأنه لا يفكر ولا يشعر.

كان الجزائريون وغيرهم من أصحاب المهن والحرف ينقلون نظرهم من رئيس مهنة أو حرفة إلى آخر وينتظرون في صمت مهيب نتيجة النقاش.

صاح دي كونينك:

- سيد بريدل، إذا كنت لا تريد أن تكون سبباً في دمارنا، أرجو أن تمنحنا موافقتك بسرعة. ها هو النادي يعود ويقول: لقد انقضت المهلة الزمنية.

خرج بريدل من قلقه العميق وأجاب بصوت حزين:

- هل تريد ذلك، يا سيدي؟ لذا يجب أن يكون الأمر كذلك؟ حسناً، أعيدوا المدينة.

عند هذه الكلمات، أمسك بيد دي كونينك وصاحفه بقوة، وسقطت دمعتان من عينيه الزرقاوين وخرجت من فمه تنهيدة مختنقة. تبادل عميد النساجين وعميد الجزارين معاً إحدى تلك النظرات التي تكشف فيها الروح عن نفسها تماماً. فهما بعضهما بعضاً فجأة، واتحدت أذرعهما في حضن أخوي.

هذان الرجلان، أنبل مواطني بروج، اللذان يجسدان البطولة والحكمة، من الصدر مقابل الصدر، كانا يعربان عن الإعجاب المتبادل. صاح دي كونينك:

- يا أخي الباسل، إن روحك لعظيمة! يا له من صراع كان عليك أن تتحمله! ومع ذلك فقد انتصرت.

على مرأى من هذا المشهد المؤثر، خرجت صيحات الفرح من المجموعات كافة، واختفت جميع الخلافات من قلوب الفلمنكيين الذين كانوا يدعون للحرب. بأمر من دي

كونينك، دقت أبواق النساجين صوتاً مدوياً ثلاث مرات
وقد أشاروا بأذرعهم إلى المنادي المسلح الفرنسي:

- هل يمنح زعيمكم جوازاً بالمرور بأمان لأعضاء مجلسنا؟

وقد أجاب المنادي المسلح قائلاً:

- نعم إنه يمنح جوازاً بالمرور بأمان وذلك حسب أعراف
الحرب وبناء على كلمته.

بناءً على هذا التأكيد، ارتفعت البوابة وسقط الجسر
المتحرك لإعطاء المرور لمواطنين. كان أحدهما دي
كونينك أما الآخر فكان المنادي المسلح الخاص بأصحاب
المهن والحرف. عند وصولهما إلى المعسكر الفرنسي، تم
اصطحابهما إلى خيمة السيد دي شاتيلون. وقد اقترب
عميد النساجين من الجنرال وقال له بفخر:

- سيدي الكونت، المواطنون الصالحون في بروج، يعلموك
من خلالي، كسفير لهم، أنه من أجل تجنب إراقة دماء
البشر بشكل غير ضروري، فقد عقدوا العزم على تسليم
المدينة إليكم. ولكن بما أن هذا الشعور بالإنسانية وحده
يدفعهم إلى التسليم، فقد طلبوا مني أن أقدم لكم الشروط
التالية: 1- لن تُفرض تكاليف دخول الملك على الطبقة
العاملة بضرية جديدة. 2- سيتم عزل القضاة الحاليين،
والشرط الثالث لا يمكن مقاضاة أي شخص يتبع زعيم
التمرد. أرجوك يا سيدي، هل ستقبلون هذه الشروط أم

لقد أدى غضب داخلي عنيف إلى تقلص ملامح الكونت، وصاح:

- ماذا تعني هذه اللغة؟ كيف تجرؤ على أن تقدم لي مثل هذه الشروط وخصوصاً عندما تكون لدي القدرة بإشارة واحدة بأن أحول أسواركم إلى أنقاض؟

أجاب دي كونينك:

- سيدي، انتبه جيداً لكلماتي، ستمتلى خنادق بلدنا بجث جنودك قبل أن يتسلق فرنسي واحد أسوارنا. نحن أيضاً ليس لدينا نقص في أدوات الحرب، والسجلات موجودة لتثبت لك أن سكان بروج يعرفون كيف يموتون من أجل الحرية.

أجاب الكونت:

- أعلم، أن العناد لن ينقصكم. لكنني أعرف أيضاً شجاعة قواتي؛ لذا استمعوا لي بدوركم. أريد أن تستسلم المدينة كما نشاء؛ هذا هو جوابي.

لكن ما حدث بعد ذلك، أن السيد دي شاتيلون بعد كلمته هذه لم يستطع أن يرى أصحاب الحرف والمهن الذين لا تعد أعدادهم ولا تحصى وهم يقفون على الأسوار وهئيتهم العسكرية دون شعور مبهم بعدم الارتياح. فلقد

توقع صراعاً دموياً وشرساً؛ ومن ذلك الحين فصاعداً، جعلته الحكمة يرغب في أن تستسلم المدينة. كما أن الوصول السلمي لدي كونينك قد ملأه بالفرح؛ لكن الشروط التي عرضت عليه لا تناسبه. لقد قبل بالشروط بدافع سياسي خفي للغاية ألا وهو التهرب من تحقيقها ببعض اللف والدوران، ولكنه كان لا يثق في عميد النساجين وكان يشكك في وفاء كلماته. لذلك قرر اختبار ما إذا كان سكان بروج مصممين حقاً على الدفاع عن أنفسهم حتى الموت، وأصدر الأمر بصوت عالٍ للتقدم بآلات الحصار.

خلال المقابلة، قام دي كونينك من جانبه بفحص وجه السيد دي شاتيلون بعين ثابتة، وقد قرأ فيه القرار والإحراج؛ وقد كان هذا الفحص القصير كافياً له ليفهم أن الجنرال الفرنسي لا يريد أكثر مما يريده أن يحدث. لذلك استمر في ظل الشروط المقترحة، على الرغم من تحريك القوات وآلات الحصار.

لقد خدعت المثابرة الباردة لدي كونينك الجنرال الفرنسي الذي أصبح مقتنعاً بأن سكان بروج لم يخافوه وأنهم سيدافعون عن مدينتهم حتى أقصى الحدود. في هذا الظرف، لم يرغب في الكشف عن جيشه بالكامل والمخاطرة بفقدان فلاندرز من أجل واقعة واحدة. وبدأ يناقش مع دي كونينك الشروط التي اقترحها. أخيراً، بعد محادثة طويلة، تم الاتفاق بينهما على بقاء القضاة في

أماكنهم والتنازل عن نقاط أخرى لشعب بروج. من جانبه، حصل السيد دي شاتيلون على الحق في احتلال المدينة بعدد الجنود الذي يراه مناسباً.

وبمجرد إبرام المعاهدة وتوقيعها من قبل المفاوضين، عاد دي كونينك إلى المدينة ومعه المنادي المسلح. تم إعلان الشروط التي تم الحصول عليها في جميع الشوارع. بعد نصف ساعة، دخل الجيش الفرنسي منتصراً، ودقت الأبواق، وعلقت الرايات، وعاد أصحاب المهن والحرف إلى منازلهم، وقلوبهم مليئة بالغيظ والحزن. غادر القضاة واللييارد ميدان بورخت واستأنفت المدينة هدوءها المعتاد.

لماذا يا ويرموند، أنت جالس في الغابة، تحلم بعمق، على
طحلب الربيع؟

(دبليو. فيتونين)

عندما أصبحت مدينة بروج بالكامل في أيدي الفرنسيين،
بدأ دي شاتيلون يفكر بجدية في الأمر الذي تلقاه من الملكة
ألا هو اقتياد الأميرة الصغيرة ماتيلد دي بيتون إلى فرنسا.
وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يبدو قادراً على منعه من
تنفيذ هذا الأمر، نظراً لأن جنودها كانوا أسياد المدينة،
فقد أوقف تنفيذ ما يريده بسبب مخطط سياسي؛ فقد
أراد أولاً تعزيز سلطته في بروج، وإضعاف أصحاب المهن
والحرف، وبناء قلعة، قبل القبض على ابنة أسد فلاندرز
وتسليمها للملكة (49).

لقد استحوذ على أدولف دي نيولاند خوف شديد عند
دخول الفرنسيين؛ لأنه رأى ماتيلد بلا أي سلاح ضد
أعدائها. الزيارة اليومية والمراقبة المستمرة لدي كونينك
لم تستطع طمأنته؛ ولكن، بعد مرور عدة أسابيع دون أن
يزعجه الفرنسيون، تخيل أنهم نسوا الآنسة دي بيتون وأنهم
لا يرغبون في فعل أي شيء ضدها. بفضل بنيته القوية
والعناية الجيدة للسيد روغارت، سُفيت جروحه تماماً

وعادت إليه الحياة بألوانها؛ لكنه ما زال يشعر بحزن شديد. فالفارس البأس كان يرى ابنة سيده الذي كان كريماً وعطوفاً معه تزداد شحوباً كل يوم. كانت ماتيلد رقيقة ومريضة، مثل زهرة ذابلة، تعاني من أفكار مؤلمة. وهو، الذي يدين بحياته لرعايتها الكريمة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً لمساعدتها أو مواساتها. لم يكن لكلماته الودية أي تأثير على الطفلة البائسة، التي بكت بلا انقطاع طالبة والدها. غير أنها لم تلتق أي أخبار من أقربائها المسجونين، وكانت تشعر بأنها انفصلت عن عائلتها العزيزة. بذل أدولف قصارى جهده للتخفيف من أحزانها. قام بتأليف القصائد والأغاني لها، وعزف على القيثارة أو احتفى بأفعال روبرت، لكن كل هذا كان عاجزاً عن طرد الآلام المظلمة من قلب الأميرة الصغيرة. كانت لطيفة وممتنة وحنونة، لكنها لم تكن مهمة بأي شيء، حتى أنها قد نسيت وأهملت صقرها.

بعد أسابيع قليلة من شفائه التام، ابتعد أدولف ببطء عن المدينة وتجول وهو يحلم على طول الممرات الضيقة التي تعبر الريف بالقرب من سيفيكوت (50). كانت الشمس منخفضة جداً في الأفق وكان المكان مغطى بالفعل بألوان مبهرة. برأسه المنحني تحت وطأة التأملات المريرة، مشى أدولف بشكل آلي تقريباً دون أن يعرف إلى أين. كانت الدموع تتساقط من عينيه، وبين الحين والآخر كانت تنهيدة تخرج من صدره؛ ولقد سئم عقله بحثاً عن بعض

الراحة في مصير ماتيلد، وقد زاد يأسسه بالفعل؛ لأنه لم يجد أي شيء يواسيها. كان قد رآها وهي تبكي، وهي تدبل من يوم لآخر، وكان عليه أن يتأمل هذا الحزن، وذراعه متصلبتان، عاجزاً عن تبديده.

كان الوضع مؤلماً لفارس شجاع مثله وغالباً ما كان يعرض شفته؛ وماذا في ذلك؟ لم يستطع فعل شيء سوى البكاء عليها والأمل في أيام أفضل.

عندما ابتعد عن المدينة، اقترب العشب وجلس على جانب الطريق، غارقاً تحت وطأة أفكاره المؤلمة. وبينما كان هناك، يفكر بعمق، عيناه مثبتتان على الأرض ورأسه مستلق فوق يديه، اقترب شخص آخر منه بخطوات بطيئة.

يتكون زي هذا الوافد الجديد من ثوب من الصوف البني، مع غطاء كبير سقط على ظهره. كانت لحيته رمادية تغطي صدره وتلمع عيناه السوداء وان تحت قوس حاجبيه العميقين؛ كان وجهه العظمي أسمر اللون ووجهته مجمدة بتجاعيد عميقة. اقترب الراهب ببطء، مثل مسافر منك من التعب، من المكان الذي كان يجلس فيه أدولف وجفأة توقف أمامه. كان بإمكاننا أن نرى أن تعبيراً من الفرح ارتسم على وجهه، كأنه يعرف الشاب؛ ولكن سرعان ما ظهر على وجهه تعبير بارد وجاد.

قام أدولف، في هذه اللحظة التي أحس بها بوجود

الراهب، وانحنى بلطف له؛ وكان صوته لا يزال ينبض بالحزن الذي نتج عن خيالاته، ولم يتمكن من التحدث إلا من خلال إجبار نفسه على ذلك.

قال الراهب:

- سيدي، إن المشي الطويل قد استنفد قوتي. سحر المكان الذي اخترته يدعوني مثلك للراحة؛ أرجو ألا أكون أزعجتك.

جلس على العشب وبإيماءة دعا أدولف لتقليده. عاد الشاب إلى مكانه ووجد نفسه بجانب الغريب. كانت نبرة ذلك الصوت والتي يظن أنه سمعها أكثر من مرة تزججه بشكل غريب؛ لكنه كان غير قادر على تذكر المكان الذي كان يمكن أن يرى فيه مثل هذا الراهب، وقد رفض الفكرة باعتبارها تخميناً مستحيلاً. لبضع لحظات، نظر الراهب إلى الفارس، ثم سأل:

- سيدي، لقد مضى وقت طويل منذ أن غادرت فلاندرز. يسعدني أن أسمع منكم أخبار مدينتنا بروج؛ أرجو ألا تغضبك جراتي.

قال أدولف، الذي لم يشك في أي خديعة:

- أوه! لا، أبي، سأكون سعيداً بأن أخبرك بأن كل شيء سيء في مدينتنا بروج، وقد أصبح الفرنسيون هم السادة

هناك!

- لا يبدو أن هذا يسعدك يا سيدي؟ نعم أستطيع أن أقول ذلك، ولكن، يبدو أن معظم النبلاء قد تخلوا عن كونهم الشرعي واستقبلوا الغرباء بفرح.

- واحسرتاه! كل هذا صحيح جداً يا أبي. تم التخلي عن الكونت جي البأس من قبل عدد كبير من رعاياه، ولا يزال هناك المزيد ممن نسوا شهرتهم السابقة؛ ولكن الدم الفلمنكي لا يزال يتدفق وإن حتى بشكل ضئيل في كل الأوردة، فلا تزال هناك قلوب معادية للأجانب.

ارتسم تعبير من الارتياح الواضح على ملامح الراهب. لو كان أدولف يعرف الرجال بشكل أفضل، لكان قد لاحظ أن صوت المسافر كان مكسوراً ومستعاراً، وأن هناك شيئاً في وجهه يدل على التظاهر والرياء.

أجاب الراهب:

- مشاعرك جديرة بالثناء يا سيدي، وأؤكد لكم تقديري. إنه لمن دواعي سروري الحقيقي أن ألتقي برجل كريم، لم ينطفيء في قلبه حب الكونت البأس جي. جزاك الرب خيراً على إخلاصك!

صاح أدولف:

- يا أبي! فلماذا لا ترى أعماق قلبي وتعرف الحب الذي

أحمله لسيدي وعائلته. أقسم لك إن أجمل لحظة في حياتي ستكون عندما أريق لهم كل قطرة من دمي.

كان الراهب يعرف قلب الإنسان جيداً بما يكفي للتأكد من أن كلمات الفارس الشاب صادقة. بعد التفكير بضع لحظات، أكل:

- إذا أعطيتك الفرصة للوفاء بالقسم الذي قطعته للتو، هل سوف تراجع أم تتحمل كل الأخطار مثل الفرسان الشجعان؟

هتف أدولف بلهجة متوسلة:

- من فضلك أبي! لا تشك في إخلاصي ولا شجاعتي؛ تكلم بسرعة لأن صمتك يؤلني.

- استمع إليّ بهدوء، إنني مدين بقدر كبير من الامتنان لمنزل جي دي فلاندر مقابل المزايا التي حصلنا عليها؛ إن الشعور بالامتنان والحب الذي لطالما غذته من أجل سيادته الكريمة جعلني أقرر أن أساعده في مصائبه. لقد تركت الدير عندما علمت بمحنته وذهبت إلى فرنسا. هناك، بفضل الصلاة والمال، وبفضل زبي الكهنوتي، تمكنت من رؤية جميع الأسرى النبلاء؛ أحضرت إلى الأب كلام أبنائه، وإلى الأبناء بركات أبيهم، وفي زنانات اللوفر، بكيت مع فيلبين وآخرين. وهكذا خففت أحزانهم وقربت للحظة المسافة التي تفصل بينهم. مشيت ليالي كاملة وكدمت

قدمي لدرجة الدم. كثيراً ما تعرضت للرفض والإهانة
والسخرية؛ ولكن ماذا كان يهمني! كان من دواعي
سروري أن أخدم أسيادي الشرعيين في محنتهم. الدموع
التي سقطت بامتنان على خدودهم، أمامي، كانت بالنسبة
لي مكافأة لم أكن لأستبدلها بكل ذهب العالم.

صاح أدولف:

- باركك الرب أيها الراهب الكريم! لقد وجدت مكافأتك
هناك؛ ولكن قل لي كيف حال سيدي بيثون؟

- دعني أأكل، سأخبرك بالمزيد عنه؛ إنه في برج مظلم في
بورج، في بلدة بيرري، قد يكون نصيبه أكثر صعوبة؛ لأنه
خالٍ من جميع القيود وجميع السلاسل. الشخص الملتزم
برعايته هو جندي في سن كبيرة كان يحارب كفارس في
صقلية، وقد حارب تحت راية الأسد الأسود؛ لذلك فهو
بالأحرى صديق للكونت روبرت وليس وصياً.

استمع أدولف بفضول شديد؛ وكادت كلمات الفرح
تطلق على شفثيه عدة مرات. لكنه ضبط نفسه وصمت.
وقد تابع الراهب قائلاً:

- لذلك، لن يكون سجنه إقامة لا تطاق إذا لم ينقله قلبه
إلى مكان آخر، لكنه أب، وتؤلمه آلاف التنبؤات المؤلمة.
بقيت ابنته في فلاندرز، وهو يخشى جين، ملكة دي نافار
الغيورة والقاسية، التي ستضطهد طفلته وربما تقودها إلى

القبر. هذا الفكر الحزين يغلب على الأب المحب، ويصبح أسره لا يطاق بالنسبة له؛ اليأس المرير يملأ روحه، وأيامه أكثر إيلاًماً من أيام الروح المعذبة للغاية.

كانت كلمات الراهب على شفاه أدولف، الذي تحرك برأفة كما كان على وشك التحدث عن ماتيلد. قال الغريب بلهجة رسمية بعد ذلك:

- فكر الآن إذا كنت تجرؤ على المخاطرة بحياتك من أجل الأسد، مولاك. يوافق السيد من بورخس الحارس عليه أن يمنحه الحرية لبعض الوقت وهذا بناء على كلمته، ولكن يجب أن يكون هناك شخص أمين وكريم أسيراً مكانه.

سقط الفارس المسكين على ركبتيه أمام الراهب وقبل يديه بايئاً. صاح أدولف:

- يا ساعة الحظ! هل أحصل على هذا العزاء لماتيلد؟ أستري والدها أيها الرب! وهل سأحقق أنا هذه المهمة المقدسة؟ كم ينبض قلبي بالفرح! أنا أسعد رجل في العالم عند قدميك الآن.. هل تعرف مقدار ما أشعر به من فرح وسلام ونقاء، فإن كلماتك جعلتني أتذوق كل ذلك! نعم، سأقبل السلاسل، سأرتديها بامتنان، مثل عقد ثمين، ستكون هذه الاغلال أكثر قبولاً بالنسبة لي من الذهب! يا ماتيلد، قد تأتيك الرياح بهذه الأخبار السارة!

لم يول الراهب أي اهتمام لمشاعر الفارس ونهض من

مكانه. سار أدولف خلفه على الطريق، وشق الاثنان طريقهما ببطء نحو المدينة. استأنف الراهب:

- سيدي، مشاعرك النبيلة تدهشني بالفعل، ولا أشك في شجاعتك؛ لكن هل فكرت ملياً في الخطر الذي ستواجهه؟ مجرد اكتشاف الحيلة، ستدفع حياتك ثمناً لهذه التضحية.

أجاب أدولف:

- إن الفارس الفلمنكي لا يخشى الموت، فلا شيء يمكن أن يعوقني. إذا كنت تعلم أنه لمدة ستة أشهر كنت أحفر ذهني ليلاً ونهاراً من أجل إيجاد طريقة للمخاطرة بحياتي من أجل منزل دي فلاندرز، فأنت لن تتحدث معي لا عن الخطر ولا عن الخوف. منذ فترة قصيرة، عندما كنت جالساً، محبطاً، على الطريق، طلبت من السماء الإلهام؛ وجئت أنت لتوضحه لي.

- من الضروري أن نغادر الليلة حتى لا يتم اكتشاف السر على الإطلاق.

- كلهما كان ذلك أسرع، كان ذلك أفضل؛ لأن روحي موجودة بالفعل في بورخس مع أسد فلاندرز، مولاي وسيدي.

- إنك صغير السن، سيدي الفارس؛ وملاحك تشبه ملاح السيد روبرت، لكن الفارق العمري كبير جداً،

ولكن لا ينبغي أن يكون ذلك عقبة، لأن معرفتي
سمنحك، في غضون لحظات قليلة، العمر الذي تفتقر إليه.
- ماذا تقصد يا أبي؟ هل يمكنك أن تجعلني أكبر في
السن؟

- نعم يمكنني تغيير وجهك حتى لا تعرف على نفسك.
لتحقيق ذلك، أستخدم تلك النباتات التي تعرف فضائلها؛
لا تعتقد أنني أستخدم أي سر سحري. لكن، سيدي، الآن
بعد أن اقتربنا من المدينة، ألا يمكنك أن تدلني على مكان
إقامة شخص يدعى أدولف دو نيولاند؟
هتف الفارس:

- أدولف دو نيولاند! إنه هو من يرافقك، إنه أنا يا
سيدي.

بدت دهشة الراهب عظيمة؛ لقد توقف في الطريق ونظر
إلى الشاب بمفاجأة منقطعة النظير.

- ماذا، هل أنت أدولف دو نيولاند؟ إذا ماتيلد دي
بيثون في منزلك؟
أجاب أدولف:

- إنه لشرف أنها في بيتي الذي بوصولك يا أبي ستملؤه
فرحاً. إن العزاء الذي أتيت به جاء في وقته المناسب؛ لأن
ماتيلد تضعف وتذبل كأنها تريد أن تموت.

- إليك رسالة من والدها يمكنك أن تسلمها لها لأنني أرى أن في ذلك فرحة كبيرة لك أن تخفف من أحزانها.

كان الراهب قد أخرج بالفعل من جيبه ورقة، مغلقة بخيوط من الحرير ومختومة، وسلمها للفارس. نظر هذا الأخير إلى الورقة دون أن ينطق بأي كلمة وكان يشعر بعاطفة قوية. فقد حمله خياله بالفعل إلى وجه ماتيلدا، وقد شعر بسعادة الأميرة الصغيرة مقدماً. الآن كان الراهب يمشي ببطء شديد كما يحلوه، ولا يزال نفاذ الصبر يدفع الشاب إلى الأمام بخطوة عن رفيقه. عندما أصبحت في المدينة بالقرب من منزل أدولف، نظر الراهب إلى المباني المحيطة كما لو كان يتعرف إليها، وبمكر قال:

- وداعاً سيد دي نيولاند، سأعود هذا المساء، ربما متأخراً قليلاً؛ حتى ذلك الحين، جهز أمتعتك.

- ادخل معي لترى سيدتي ماتيلدا. لقد حل عليك التعب فلتدخل إلى البيت لتسترح. كل شيء في بيتي هو لك. أرجو أن تفعل ذلك.

- شكراً لك سيدي؛ واجباتي الكهنوتية تستدعيني في مكان آخر، في تمام الساعة العاشرة سأراك مرة أخرى. بارك الرب فيك!

ترك الراهب الفارس في قبة الدهشة، وابتعد عن شارع

أولاً، حيث اختفى في منزل دي كوينك.

وبدا الفارس في حال من السعادة غير المتوقعة التي أتت إليه للتو مثل حلم ذهبي، طرق أدولف بابه بفارغ الصبر. كانت رسالة السيد دي بيثون تحرق يديه، وعندما فتح الباب، اندفع كالأحمق في الردهة يتساءل بشكل ملح:

- أين ماتيلدا؟ أين الأميرة الصغيرة؟

أجاب الخادم:

- في غرفة المعيشة التي تطل على الشارع.

صعد الفارس السلم وفتح باب غرفة المعيشة بعنف، وصاح:

- ماتيلدا، الآنسة النبيلة! لتجف دموعك. عسى أن تفيض الأفراح في قلبك، لقد انتهت محنتنا.

كانت الكونتيسة الشابة جالسة بالقرب من النافذة، وكان الإحباط يعتصر قلبها، وقد أخذت تنظر إلى أدولف بتعبير غريب ينم عن الشك والريبة. هتفت أخيراً وهي تنهض وقد وضعت صقرها على المقعد:

- ماذا تقول؟ هل بالفعل انتهت محنتنا؟

- نعم آنستي النبيلة، مصير أفضل في انتظارك. هذه الرسالة المباركة. ألا تخبرك دقائق قلبك بأي يد حبيبة

كتبت هذه...

وقبل أن يتمكن من إنهاء جملته، سارت ماتيلد وهي تلهث وتشعر باللهفة بشكل جنوني نحو الرسالة ونزعتها من يده. احمرت وجنتاها بشدة وسقطت دموع الفرح من عينيها. لقد نزعت الختم وخيوط الحرير التي تغلف الرسالة وقرأت الرسالة ثلاث مرات قبل أن يبدو أنها تفهم شيئاً ما. لقد فهمت جيداً، الفتاة المسكينة! لم تتوقف دموعها عن السقوط، لكنها لم تعد تبكي من الفرح. وقالت بلهجة مؤلمة:

- سيد أدولف، إن فرحتك تدمع قلبي. تقول لي إن محنتنا قد ولت؟ واحسرتاه! اقرأ وابكِ معي على والدي التعيس.

أخذ الفارس الرسالة من بين يدي ماتيلد، وبينما كان يقرأ، انحنى رأسه على صدره. اعتقد في البداية أن الراهب قد خدعه واستغله في نشر الأخبار السيئة. ولكن عندما عرف كل محتويات الرسالة، تلاشى هذا الشك. التزم الصمت وأخذ يفكر في الكلمات المتهورة التي قالها عند دخوله. ماتيلد أشفقت عليه. عندما رآته ينظر بحزن شديد إلى المخطوطة، أعربت عن أسفها للوم الذي وجهته إليه للتو؛ واقتربت منه وقالت له بابتسامة وسط دموعها:

- ساحبني يا سيد أدولف ولا تحزن. لا تظن أنني غاضبة منك لأنك وعدتني بالكثير من السعادة؛ فأنا أعلم أمانيك

الحارة بالخير التي تكنها لي كفتاة مسكينة. صدقني يا أدولف، أنا لست شخصاً ناكراً للجميل، قلبي مليء بالامتنان لتضحيتك السخية.

- يا ماتيلد النبيلة! أستطيع أن أتنبأ بسعادة كبيرة لك. لا، فرحتي لم تنته، لقد عرفت محتوى هذه الرسالة ولكن ليس هذا ما أسعدني. جففي دموعك أيتها الكونتيسة أكرر لك، لا تبتك بعد الآن؛ لأنك قريباً ستمكنين من معانقة والدك بين ذراعيك.

صاحت ماتيلد:

- سعادة! هل سيكون ذلك صحيحاً؟ هل أرى والدي وأتحدث معه؟ لكن لماذا تعذبني يا سيدي. لماذا لا تشرح لي هذا اللغز؟ تحدث وأزل هذه الشكوك من ذهني.

انزعاج طفيف طاف على وجه الفارس الوسيم. كان من دواعي سروره أن يعطي ماتيلد التفسيرات التي طلبتها، ولكن قلبه النبيل رفض الكشف عن الجزء الخاص به، فأجاب بحزن:

- أتوسل إليك أيتها الشابة الكريمة ألا يسيء صمتي إليك. تأكدي من أنك سترين والدك، مولاي، الذي سيحتضن ابنته العزيزة على أرض وطنه؛ للأسف، لا يسمح لي أن أخبرك بالمزيد.

لم تعتبر الكونتيسة الشابة نفسها راضية؛ لقد دفعها شعوران لاختراق هذا اللغز: الفضول الأثوي والشك الذي لا يزال بداخلها.

- سيد أدولف، أوه! قل لي ما تريد إخفائه عني. هل تراني طائشة لهذه الدرجة حتى لا تكشفه لي.

- أميرتي، لا أستطيع حقًا.

- أتوسل إليك، أخبرني، وإلا ستسلبني الفرح الذي كان يجب علي أن أتذوقه.

- أرجو المَعذرة، أيتها الكونتيسة! مرة أخرى، لا أستطيع أن أقول.

زادت كلمات الفارس من فضول ماتيلد، ونفاد صبرها تدريجيًا، وعندما جربت كل التوسلات، بدأت تبكي بانزعاج، مثل الطفلة. عندما رأى أدولف دموعها تتدفق، عقد العزم على إخبارها بكل شيء، مهما كان الأمر. وقد اقتربت منه ماتيلد، وهي تقرأ انتصارها على وجهه، بلهفة مرحة. قال لها:

- أتعرفين يا ماتيلد، كيف وصلتني الرسالة والأخبار السارة. كنت جالسًا قريبًا جدًا من سيفيكوت، منغمسًا بشدة في أحلام اليقظة، أدعو الرب أن يرحم سيدي البأس. وكم اعترتني الدهشة الشديدة عندما رفعت رأسي

ورأيت راهباً يقف أمامي! كان أول ما فكرت به أن
صلاتي قد استُجِبت، وبالفعل تلقيت الرسالة من يديه،
ومن فه سمعت الخبر. لكن يجب على متطوع من الفرسان
أن يحمل السلاسل مكانه.

هتفت ماتيلد:

- يا فرحتي! سأراه، سأحدث معه، والدي، والدي
العزیز! كيف يشاق قلبي ليلتقي بحضنه الودود! أدولف،
كلهاتك الحلوة تعدني بالفرح يا أخي، لكن من سيرغب في
أن يأخذ مكان والدي؟

أجاب الفارس:

- تم العثور على المتطوع.

- تنزل عليه بركة الرب! كرمه يعيدني إلى الحياة. هذا
الفارس المتطوع سوف أحبه وأباركه دائماً! لكن من هو
هذا الفارس العظيم؟

ثني أدولف ركبته أمامها:

- من غير خادمك أدولف، يا ابنة الأسد النبيلة، ابنة
سيدي.

نظرت إليه ماتيلد وقالت هي تنهضه:

- أدولف، أخي الصالح، كيف لي أن أدفع ثمن مثل هذه

التضحية؟ أنا أعرف ما فعلته بالفعل لتخفف من مصيري.
لقد رأيت ذلك، كانت سعادتي همك الوحيد. الآن سوف
تأخذ قيود والدي، ربما تموت لتعطيني لحظة من السعادة!
هل أستحق هذا، أنا، الفتاة الصغيرة الحزينة والضعيفة التي
أنا عليها؟

أشرفت نيران غير عادية، رجولية ومتقدة في عيون
الفرس. متحفزاً بنبل تفانيه، أجاب:

- ألا تسيل دماء كوتتاتي في عروقك أيتها الأميرة النبيلة؟
ألست الابنة الحبيبة لأسد فلاندرز الذي يمثل مجد وطني؟
أوه! لن أتمكن أبداً من معرفة كل هذه المزايا. دمي وحياتي
كرستهما لبيتك طيب الأصل. كل ما يجب أسد فلاندرز
هو مقدس بالنسبة لي.

وبينما تنظر إليه ماتيلد بدهشة، أعلن الخادم عن قدوم
الراهب، الذي أمر أدولف بإدخاله. قال الراهب الزائر
وهو ينحني باحترام ويلقي بقلنسوة ثوبه للخلف:

- السلام عليك يا ابنة الأسد سيدنا!

نظرت ماتيلد إلى الراهب باهتمام بشديد وحاولت أن
تتذكر اسم الشخص الذي أربك صوته روحها. فجأة
أمسكت بيده وصاحت، وعيناها تتألق من الفرح:

-أوه! يا إلهي! إنني أرى صديق والدي المفضل! أوه!

ديديه، لقد اعتقدت أن الجميع باستثناء السيد نيولاند قد تركونا! أشكر السماء لإرسالها لي هذه المساعدة الحامية! وأنا التي تجرأت على اتهامك بعدم الإخلاص في ذهني. اغفر لي هذا الخطأ الذي خرج من قلب مجروح يا سيد ديفوس. اندهش ديديه من قدرة امرأة على اكتشاف حيلته، نفلح لحيته وهو يشعر بالانزعاج. شكره أدولف وصاحفه بصداقة ودية. قال ديديه، متجهًا إلى ماتيلد:

- حقًا سيدتي، لديك نظرة ثاقبة. أجد نفسي مضطربًا الآن لاستخدام صوتي الحقيقي. الأفضل أن أبقى مجهولًا؛ لأن القناع الذي اخترقته نظراتك كان ضروريًا جدًا لخلاص الأسد، سيدي. لذلك أطلب منكم عدم نطق اسمي الحقيقي أمام أي شخص؛ بالتأكيد سيكلفني ذلك حياتي. وجهك، سيدتي، يبين كل أحزانك؛ ولكن إذا تحققت تنبؤاتنا، فلن تستمر طويلًا. ومع ذلك، إذا استمر أسر والدك على عكس آمالنا، فإن الدين يجعل من واجبك أن تضعي ثقتك الكاملة في عدل الرب. لقد رأيت السيد دي بيثون وتحدثت معه. إن حسن معاملة الحارس من بورخس قد خففت من قدره إلى حد ما، وهو يتوسل إليك، من أجله، ألا تبكي بعد الآن.

- أخبرني بما قاله لك يا سيد ديفوس؛ صف لي سجنه وأخبرني ماذا يفعل هناك، حتى يفرح قلبي باسمه العزيز.

قدم ديديه ديفوس وصفاً مفصلاً لبورخس وأخبر الفتاة الصغيرة بكل ما عرفه بنفسه. أجاب على جميع أسئلتها بلطف كبير وواساها بتنبؤاته الإيجابية.

كان أدولف قد خرج ليعلن رحيله لأخته ماري ولتجهيز حصانه وأسلحته. كما أبلغ خادماً مخلصاً عن رحلته، حتى يتمكن من إبلاغ دي كوينك وبريدل، ويوصيهما بالعناية بالكونتيسة الشابة؛ احتياطات غير ضرورية، علاوة على ذلك؛ لأن ديديه ديفوس قد قدم أوامر سرية إلى عميد النساجين.

بمجرد دخول أدولف إلى الغرفة، وقف ديديه وقال:

- سيدي دي نيولاند، لا يمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك. كما أطلب صبرك للسماح لي أن أعطي لوجهك السن المناسب. لا تخف من أن أشوهك ودعني أفعل ذلك.

جلس الفارس على كرسي أمام ديديه وأمال رأسه إلى الورا. ماتيلد، التي لم تستطع تخيل ما يعنيه ذلك، وقفت بالقرب منهما، وفتحت عينيها على مصراعيهما، تابعت بنظرات فضولية أصابع ديديه وهي ترسم حشداً من العلامات السوداء والبقع الرمادية على وجه أدولف. مع كل خط جديد، كانت الأميرة الصغيرة تزداد دهشة؛ لأن وجه الفارس تغير بشكل واضح وأصبحت ملامحه تشبه إلى

حد كبير ملاح أبيها. كان قلب الكوتيسة الشابة ينبض بعنف لرؤية هذه الأعجوبة. بعد الانتهاء من رسم الخطوط، رطب ديديه خديه وجبهته بماء أزرق اللون وأمره بالوقوف.

- لقد انتهى الأمر، أنت تشبه الآن السيد دي بيثون كما لو أن نفس الأب قد أنجبكما، وإذا لم أقم بفعل ذلك بنفسي فسأحييك باسم الأسد اللامع، نعم، أشعر بالاحترام أمام وجهك، صدقني.

كانت ماتيلد صامتة وكأنها تائهة أمام أدولف؛ لم تستطع رفع عينيها عما تراه وأخذت تنظر إلى هذين الفارسين بالتناوب مثل شخص يسأل عن تفسير لحدث غير مفهوم. بدا أدولف تماماً مثل السيد دي بيثون لدرجة أنها كانت تميل إلى الاعتقاد بأن والدها كان حقاً أمامها.

تابع ديديه:

- السيد نيولاند، إذا كنت تريد أن تنجح في خطتك النبيلة، يجب أن نترك هذه الأماكن ونغادر بسرعة؛ لأنه إذا رأنا عدو أو خادم غير مخلص ونحن بهذا الشكل، فسوف تخاطر بحياتك بلا داع.

كان أدولف يدرك تماماً مدى صواب هذه الفكرة. وقد صاح:

- وداعاً أيتها الآنسة النبيلة. مع السلامة! تذكري دائماً
خادمك المخلص أدولف.

كان من المستحيل تخمين مشاعر الفتاة عند هذه
الكلمات. عندما أخبرها الشاب بأنه سيذهب إلى بورخس
ليحل محل السيد دي بيثون في سجنه، لم تكن قد رأت
سوى الجانب الجيد من هذه الرحلة، أي عودة والدها؛
ولكن في اللحظة التي كان فيها الشخص الذي تدعوه بأخيها
على وشك أن يتركها، أصاب قلبها حزن شديد.

قاومت الدموع التي كانت تسطع في عينيها وفكّت
الشريط الذي كان يتدلى من غطاء شعرها. وقالت:

- تفضل، تلقى هذه الهدية من يد أختك الممتنة؛ آمل أن
يذكرك بمن لن ينسى أبداً فعلك النبيل. إنه لوني المفضل.

رغم الفارس على ركبتيه لتلقي الهدية ورفعها إلى شفتيه
بفرح، هتف قائلاً:

- يا ماتيلدا! لم أستحق هذا النعمة، ولكن تأتي اللحظة التي
يمكنني فيها سفك دمي من أجل منزل فلاندرز، وسأعرف
كيف أجعل نفسي جديراً بصدقتك ولطفك.

قاطعته ديديه:

- لقد حان الوقت يا سيدي! كفانا شكراً، من فضلك.

رافقت هذه الكلمات لفتة فسرّها الشاب على أنها أمر لا

رجوع فيه؛ لأنه لم يحاول المقاومة.

- وداعاً، ماتيلدا!

- وداعاً، أدولف!

وسرعان ما خرج الفارس. وصل إلى الدرجات، وركب
السرّج مع ديديه؛ وبعد لحظات قليلة، كان حصانان
يركضان بصخب في شوارع المدينة المنعزلة واختفيا عبر
بوابة غينت.

عصابة القراصنة موجودة هنا، القبطان ينادي من الخارج القزم الذي يحرس القلعة؛ يفتح الباب، ويسقط الجسر المتحرك ويدخل الفرسان. كل من رأى الحشد من الغابة، عندما دخل القراصنة والغنائم، كان سيصدق بالتأكيد أن أحد الآلهة الجهنمية وضع أمام عينيه مكان الاستشهاد الأبدي؛ يمكنك أن ترى، على ضوء المشاعل، كل ما يجعلك ترتجف: القمر الذي يضيء الجياد البيضاء بلون الرغوة، والدروع اللامعة، بالقرب من السيوف البراقة، وفي وسط الموكب الساحر، تلك الفتاة الصغيرة الضعيفة والمجروحة والتي ينسكب من جسدها الدم. هذه الصورة الكئيبة التي فرشت على هذه الجدران الرمادية، في وهج الضوء الخافت، صوت السلاسل، نقر الأذرع، صهيل الفرس، ضجيج النداءات واللعنات، ولكن فوق كل شيء صرخة امرأة مدوية مثل صفير الريح في وسط العاصفة. كل هذا أربع العقل في الوقت نفسه أربع الأذنين والعينين.

(جيه. إيه. دي لوكت)

في عام 1280، حدث حريق مروع، دمر بالكامل الدكاكين والمخازن القديمة، بالقرب من السوق. اختفى البرج الخشبي وسط النيران مع كل وثائق مدينة

بروج (51). بقيت بعض الجدران القديمة على حالها، في الجزء السفلي من المبنى ومعها عدد قليل من الغرف التي كانت تستخدم أحياناً كمساكن لرجال الحراسة. اختار الفرنسيون الغرف المهجورة في هذا المكان القديم لتكون مكاناً لاجتماعهم، وكانوا يقضون أوقات فراغهم هناك في الأكل واللعب.

بعد فترة من رحيل أدولف دي نيولاند، كان ثمانية جنود فرنسيين في واحدة من أكثر الغرف النائية في هذه الأنقاض. أرسل مصباح كبير من الطين بأشعة صفراء على وجوههم وارتفع دخان أسود من اللهب نحو القبو، على الجدران، وبضوء المصباح، لا يزال بإمكان المرء أن يرى بعض الزخارف التالفة من البناء الروماني. كان هناك تمثال لامرأة بلا يدين، وقد تشوه وجهها بمرور الوقت. في مكان ما في نهاية الغرفة جلس أربعة جنود أمام طاولة خشبية ثقيلة يلعبون النرد، ووقف آخرون خلف رفاقهم يتابعون بفضول احتمالات المباراة وضربات الحظ. كان من الواضح أن هؤلاء الرجال لم يأتوا إلى هناك لمجرد إثارة الضجة؛ لأن الخوذات البراقة على رؤوسهم والسيوف العريضة المعلقة في أحزمتهم، تدل على أنهم كما لو كانوا على استعداد للمعركة.

بعد لحظات قليلة، وقف أحد اللاعبين عن الطاولة ورمى النرد بغضب. وصاح:

- لا أعتقد أن بريتون المسن لديه الأيدي النظيفة؛ لأنه سيكون من المدهش أنني لم أفز ولو لمرة واحدة في خمسين مرة. في الحقيقة، أصبحت اللعبة تشعرني بالملل، لقد اكتفيت.

صرخ الفائز بسخرية منتصرة:

- لم يعد يجرؤ على اللعب، يا له من إبليس! أيها الجندي جيهان، جيبيك لم يجف بعد. هل تهرب من العدو مثل هذا؟

قال آخر:

- خاطر بضربة أخرى؛ ربما سيتحول الحظ هذه المرة.

كان الجندي الذي يُدعى جيهان متردداً لفترة طويلة ما إذا كان سيجرب حظه مرة أخرى أم لا. أخيراً وضع يده تحت درعه وأخرج جوهرة متلألئة؛ كانت عبارة عن عقد من اللؤلؤ الفاخر، مزين بدبايس ذهبية. وقال:

- ها أنا، سألعب بهذه الآلى مقابل كل ما ربحتموه، أجمل جوهرة يمكن أن تزين صدر امرأة فلنكية! إذا خسرت هذه المرة، فلم يتبق معي سوى شعر امرأة كغنيمة.

أخذ بريتون الجوهرة في يده وفحصها باهتمام. قال:

- حسنًا، لا بأس، في كم ضربة؟

- في اثنين، ارم الضربة الأولى.

وضعت كومة من العملات الذهبية على المنضدة بجانب الجوهرة. انجذبت كل العيون بشغف قلق على النرد المتداول، بينما كانت قلوب اللاعبين تنبض بقوة. عند الضربة الأولى، بدا المصير وكأنه يعلن عن نفسه بجانب الجندي جيهان؛ لأنه أحرز عشرة ورفيقه خمسة. بينما كان ينغمس في فرحة استعادة ما فقده، رأى بريتون بمكر يجلب النرد إلى فمه ويبلله من جانب واحد. غضب عنيف ورغبة في الانتقام لونا وجنتيه احمراراً نارياً، حيث اكتشف الحيلة الخبيثة التي جعلته يخسر. لكنه تظاهر بأنه لم ير شيئاً وقال:

- ارم إذًا؛ ماذا تنتظر؟ هل الخوف من الخسارة يسيطر عليك؟

صاح بريتون، وترك النرد يتدحرج بمهارة بيديه:

- لا لا! يمكن أن يتحول الحظ. هل ترى: اثنا عشر!

ألقى الجندي جيهان بدوره النرد على الطاولة بلا مبالاة. لسوء الحظ، أحرز ستة فقط. وبالتالي، التقط بريتون الجوهرة من الطاولة مع هتافات الآخرين المبهجة وأخفاها تحت درعه. وهناك جيهان على حظه في المباراة ولم يبد

منزعجاً من الخسارة؛ غضب باهت احترق في صدره ولم يبد عليه إلا حزن شديد. وبينما كان الفائز السعيد يتحدث مع رفيق آخر، قال جيهان خلسة بضع كلمات في آذان من حوله، وبدا أن عينيه قد ثبتتا بانتباه على بريتون. فهتف:

- بما أنك ربحت كل شيء كان معي، أيها الرفيق، ألا ترفض إغراء القدر مرة أخرى؟ أنا ألعب معك مرة أخرى بالمال الذي يجب أن نكسبه الليلة مقابل هذا المبلغ، هل هذا مناسب لك؟

- نعم، بالطبع، أنا لا أراجع أبداً.

أخذ جيهان النرد وأحرز ثمانية عشر في ضربتين. بينما حمله الآخر من على المنضدة بدوره وبدأ، أثناء الدردشة، أنه يمسكه بيده دون نية، كان الجنود الذين بالقرب من جيهان يراقبون تحركاته باهتمام. لقد رأوا بوضوح أن بريتون يحضر النرد إلى فمه عدة مرات ويجلب بهذه الخدعة عشرة واثنتي عشرة. قال:

- لقد خسرت يا صديقي جيهان.

كانت لكلمة مخيفة ردة الفعل التي تلقته هذه الكلمات، وسال الدم من فمه، تسمر للحظة؛ لأن الضربة أصابته بعنف في صدغه. صاح جيهان:

- أنت سيء النية، لص! ألم أر أنك بللت النرد وأنتك بذلك

تسرق مالي؟ سوف تعطيني كل شيء أو..

لم يمنحه بريتون الوقت للمتابعة؛ استل سيفه العريض من الغمد وتقدم للأمام، ونطق بلعنات وإهانات وحقّة للغاية. استعد جيهان أيضاً للمعركة وأقسم إنه سينتقم بالدم؛ لكن الأمر لم يذهب إلى أبعد من ذلك. كانت الشفرات تومض بالفعل في ضوء المصابيح، وبدأ أن كل شيء يتنبأ بإراقة الدماء عندما دخل جندي جديد إلى الغرفة.

جعلتنا النظرات الفخورة والمتعالية التي ألقاها على الخصوم تتعرف إليه للوهلة الأولى على أنه قائدهم أو رئيس لهم. حالما رآه الجنود، اختفت الشتائم واللعنات من فوق شفاههم وتراجعت السيوف إلى أعمادها. نظر جيهان وبريتون إلى بعضهما كما لو كانا سيتحديان بعضهما بعضاً في لحظة أخرى واقتربا مع الآخرين من القائد الذي تحدث إليهم قائلاً:

- هل أنتم مستعدون أيها الجنود؟

- نحن مستعدون، سيد دي كرسنس. كانت هذه الإجابة.

تابع القائد:

- الصمت المطلق! تذكروا أن المنزل الذي يقودنا فيه هذا الحرفي يقع تحت حماية المارشال دي شاتيلون. أول من

يلبس شيئاً ما سوف يندم على ذلك بمرارة. اتبعوني!

لم يكن الحرفي الذي كان من المقرر أن يعمل كمرشد لهؤلاء الجنود سوى السيد براكلز، الذي طرد من اتحاد النساجين. عندما وصل الجنود إلى الشارع مع قائدهم، سار براكلز بصمت إلى الأمام وقادهم، أثناء الليل، في شارع إسبانيا، إلى منزل السيد دي نيولاند. وهناك وقف الجنود على طول الجدار وحبسوا أنفاسهم حتى لا يلاحظ وجودهم. وقد بدأ السيد براكلز الدق على مطرقة الباب. بعد لحظات قليلة، دخلت خادمة الردهة وسألت بارتياح من الذي يطرق الباب في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أجاب براكلز:

- افتحي بسرعة، لقد جئت من طرف السيد دي كوينك، برسالة سريعة إلى السيدة ماتيلد دي بيثون. لا تتأخري، فالكوتيسة في خطر كبير.

الخادمة، التي كانت بعيدة عن الشك في الخيانة، سحبت الأقفال وفتحت الباب بسرعة أكبر مما كانت تفعل عادة. ولكنها أصيبت بدهشة شديدة، عندما رأت ثمانية فرنسيين يدخلون خلف الفلنكي. وقد صرخت صرخة مدوية داخل المنزل، وكانت تريد أن تهرب ولكن السيد دي كرسنس قد أوقفها وجعلها تصمت. سأل السيد دي كرسنس بهدوء جليدي:

- أين سيدتك ماتيلد دي بيثون؟

أجابت الخادمة بتلعثم وخوف:

- لقد مرت ساعتان منذ استسلمت سيدتي للراحة، وهي الآن نائمة.

قال الضابط:

- اذهبي إليها وقولي لها أن ترتدي ثيابها. لأنها يجب أن تغادر هذا المنزل على الفور وتذهب معنا.

شعرت الخادمة بالقلق، سارعت إلى صعود الدرج وأيقظت أخت أدولف، صائحة:

- يا سيدتي، قومي بسرعة، بيتك مليء بالجنود.

- أيتها السماء! ماذا تقولين! جنود في بيتنا! ماذا يريدون؟

- يريدون أخذ الكوتيسة دي بيثون على الفور. من فضلك يا سيدتي، قومي، فهي لا تزال نائمة، أخشى أن يدخل الجنود غرفتها.

لم تجب ماري، ولكن لقت نفسها على عجل في عباءة واسعة ونزلت مع الخادمة إلى السيد دي كريسنس. ووقف خادمان، كانا قد جاءا يركضان إثر صرخة الخادمة، بطريقة يرثى لها في وسط الجنود.

سألت ماري الضابط:

- سيدي، هل ستخبرني لماذا تدخلون منزلي هكذا في الليل؟

رد دي كرسينس:

- نعم، بلا شك، سيدي النبيلة، إن هذا يحدث بأمر من الحاكم. الكوتيسة ماتيلد دي بيثون، التي تعيش هنا، يجب أن تتبعنا على الفور. لا تخافوا أن تساء معاملتها. إنني أعطيك كلمتي بأنها لن تتعرض لأي كلمة سيئة.

صاحت ماري:

- يا سيدي! إذا كنت تعرف مصير الفتاة، فبرجاء الرحيل من هنا؛ لأنني أرى فيك فارسًا مخلصًا.

- وكما قلت يا سيدي، ليس من دأج أن أقوم بمثل هذه الأعمال؛ ولكنني سأنفذ بأمانة أوامر جنرالي. لذا، برجاء أن تضيي الأميرة الصغيرة بين أيدينا؛ لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك، برجاء أن تجنبيني استخدام كلمات مهينة.

رأت ماري بوضوح أنها لا تستطيع رد هذه الضربة؛ لذلك أخفت حزنها الشديد على هؤلاء الجنود الأعداء ولم تذرف دموعا. وقد ألقّت نظرة ازدراء وغضب على الفلمنكي في الزاوية، وبدا من تلك النظرة وكأنها تلومه على خيائه. السيد براكلز لم يكن شجاعا بشكل كاف ليجرؤ على النظر للفتاة في وجهها. كان يرتجف لأنه توقع الانتقام الذي

سيلحق به؛ وبالفعل تراجع بضع خطوات للوراء، كما لو كان يحاول الوصول إلى الباب.

صاح دو كرسينس في رجاله:

- احتجزوا هذا الفلمنكي! امنعوه من الرحيل؛ لأن من خان أصدقاءه مثله قادر على فعل أي شيء..

تم أخذ السيد براكلز من ذراعه وسحب بعنف إلى وسط الجنود. كان اسمه الخائن، وازدراء من يخدمهم كان مكافأته. غادرت ماري الردهة ودخلت، بقلب مثقل، غرفة ماتيلد الصغيرة؛ توقفت كما لو أنها مصعوقة أمام السرير ونظرت إلى الأميرة التعيسة التي بدت نائمة بسلام. كانت لؤلؤة متلائة تتألق تحت كل من جفניה وكان تنفسها مؤلماً وساخنًا. فجأة سحبت يدها من تحت البطانية ورفعتها بقلق أمام سريرها، وكأنها تريد دفع شيء يخيفها. اختلطت كلمات غير مفهومة من فيها وكانت من ضمن هذه الكلمات اسم أدولف، وقد كررت هذا الاسم مرارًا وتكرارًا، مثل شخص يطلب المساعدة.

أغرقت الدموع عيني ماري؛ لأن المنظر أصاب قلبها بشكل مؤلم؛ زادت شفقتها عندما فكرت في الآلام التي إذا كان لا يزال يتعين على الكونتيسة الشابة أن تتحملها. ولأن الأخبار التي ستنقلها إلى صديقتها كانت قاسية، فلم تتردد؛ لأن الجنود كان بإمكانهم دخول الغرفة في أي وقت؛ ويا

له من عار على ماتيلد النبيلة! أمسكت ماري بيد صديقتها وأيقظتها قائلة:

- استيقظي يا سيدتي الشابة. لدي شيء عاجل لأخبرك

به.

أخافت لمسة ماري الفتاة بشدة؛ وقد فتحت عينيها وبدأت ترتجف عندما نظرت إليها صديقتها بتردد. سألت وهي تفرك يديها خديها المبللين:

- هل أنت حقًا يا ماري من تتحدث معي هكذا؟ ما الذي أتى بك إليّ في هذه الساعة؟

- أيتها الصديقة التعيسة، انهضي وأنا سأساعدك في ارتداء ملابسك! أوه! استيقظي بسرعة! مصيبة كبيرة في انتظارك.

ماتيلد، مندهشة، قفزت من السرير ونظرت بقلق إلى ماري في عينيها؛ اللتين كاتتا تبكيان بمرارة وهي تلبس ماتيلد، ولم تجب عن أسئلة الفتاة، إلا فقط عندما قدمت لها فستان الحداد، قالت بتنهيدة مؤلمة:

- أنت ذاهبة في رحلة، أيتها الكونتيسة! عسى أن يحميك

السيد القديس جورج!

- ولماذا فستان الحداد هذا يا عزيزتي ماري؟ الآن

أستطيع أن أرى ما ينتظرنى من مصير مؤلم! حلبي المرير لم يكذب. لأنك توقظيني الآن، ليم نقلي إلى فرنسا بالقرب

من جين دي نافار، أوه! ربي، لقد ضاع كل أمل الآن!
لن أرى بلدي فلاندرز الجميلة مرة أخرى.. وأنت، يا أسد،
يا أبي، قد لا تجد طفلك مرة أخرى على وجه الأرض.

جلست ماري، التي شعرت بشفقة عميقة، على مقعد
وبكت بصمت. لم تكن لديها القوة لتؤكد بكلماتها خوف
صديقتها. وبعد لحظات ألقت الفتاة الصغيرة نفسها على
رقبتها خائفة وقالت:

- لا تبكي هكذا من أجلي يا صديقتي اللطيفة. لقد عرفت
المحن والشدائد منذ فترة طويلة، بالنسبة لمنزل فلاندرز، لم
تعد هناك راحة، ولا مزيد من الفرح!

تهدت ماري:

- أيتها الطفلة التعيسة والنبيلة! أنت لا تعلمين أن الجنود
الفرنسيين ينتظرونك في الطابق السفلي وأنه يجب أن يتم
اصطحابك على الفور!

شجبت الفتاة وارتعدت عندما سمعت ما قالته. وقالت:

- جنود؟ هل يجب أن أتعرض لوقاحة المرتزقة البؤساء؟
عزيزتي ماري، ليحميني.. الرب، إذا كنت أستطيع أن
أموت! يا روبرت لو عرفت فقط ما هي الجريمة التي
ترتك بحق دمك!

- لا ترتجفي هكذا يا سيدتي، أنت بينهم فارسة وأميرة.

- ها قد أتت الساعة الحتمية! يجب أن أتركك يا ماري،
وسوف تسجنني ملكة نافار الشريرة مثل والدي. يا للهول
ليكن! ثمة قاض في السماء لن يتركني..

- سريعاً، سيدتي، ارتدي فستان الحداد الخاص بك؛
أسمع خطى الجنود.

بينما كانت ماتيلد ترتدي الفستان، فتح باب غرفة
النوم، ودخلت الخادمة وقالت:

- سيدتي، يسألك الرجل الفرنسي عما إذا كانت النبيلة
ماتيلد دي بيثون جاهزة، وما إذا كان مسموحاً له بالمشول
أمامها.

- دعيه يأتي!

كان السيد دو كريسينس قد تابع الخادمة على الدرج وقد
دخل الغرفة على الفور. انحنى بأدب للكونتيسة وشهدت
نظراته الرحيمة أنه كان يقوم بهذه المهمة ضد إرادته:

- سيدتي، لا تأخذي الأمر على محمل سيء، إنني أطلب
من سيادتك أن تتبعيني على الفور؛ لا أستطيع التأخير أكثر
من ذلك.

أجابت ماتيلد محتجزة دموعها:

- سأتبعك بطاعة، أتمنى يا سيدي أن تخميني من كل
الإهانات مثل فارس شهم.

قال دو كريسيس، متأثراً بخضوع الأميرة الصغيرة:

- أوكد لك يا سيدتي، أنك ستنالين القدر الكافي من الاحترام وأنك ستكونين تحت حمايتي.

- جنودك يا سيدي؟

- جنودي، سيدتي، لن يوجهوا لك كلمة واحدة. قد يكون هذا التأكيد كافياً بالنسبة لك. لنذهب.

قبلت الفتاتان بعضهما بعضاً بحنان وقلق وانهمرت الدموع بغزارة على وجنتيهما. وبعد كلمات الوداع عدة مرات، تبعتا الفارس أخيراً إلى الردهة. صاحت ماري:

- يا سيدي، أخبرني إلى أين تقود صديقتي التعيسة؟

أجاب دو كريسيس:

- إلى فرنسا.

ثم التفت إلى الجنود قائلاً:

- انتبهوا إلى كلماتي: من يجرؤ على المخاطرة بكلمة غير لائقة أمام هذه السيدة سيعاقب بشدة؛ أريدها أن تعامل وفقاً للتعامل النبيل الذي تلقته منذ ولادتها. دعونا نذهب ونجد الخيول في شارع دي لا هال.

كانت ماتيلد بالقرب من الجنود، وانهمرت دموعها بصمت تحت الحجاب الذي غطى وجهها. ظلت إحدى

يديها في يد ماري، وقد وقفنا بلا حراك كالتماثيل. لم تكف الكلمات للتعبير عن المشاعر المؤلمة التي حركت قلبيهما عند هذا الفراق المرير.

وصلت الخيول إلى الباب. تم وضع الفتاة الصغيرة على جواد صغير بمساعدة السيد دي كريسينس. تم إطلاق سراح السيد براكلز والخدم، وسرعان ما غادرت القوات عبر شوارع بروج. بعد لحظات قليلة، كانت في وسط حملة الجنود وقد سارت معهم في الممرات التي لم تتعرف عليها في وسط الليل المظلم وقد خيم صمت مهيب على الطبيعة النائمة. لم يترك السيد دي كريسينس جانب ماتيلد، ولكنه لم يكن يسري عن الفتاة الصغيرة حزنها، فكان لا يتحدث معها، وربما طول وقت السفر، لن ينطق بأي كلمة معها لولا أن ماتيلد قد سألته في أول الرحلة:

- هل يجوز لي يا سيدي أن أعرف شيئاً من المصير الذي ينتظرني، وأسأل من أين أتى الأمر الذي نزعني من مسكني؟

رد دو كريسينس:

- جاء من قبل السيد دي شاتيلون؛ ربما تم إرساله إليه من قبل يد أقوى؛ لأن رحلتك تنتهي في كومبيين.

تهددت الأميرة الصغيرة الحزينة:

- نعم، جين دي نافر تنتظرنى. لم يكن والدي وكل أقربائي كافين لها. كان ينقصها أنا. الآن انتقامها قد اكتمل. أوه يا سيدي، لديك ملكة شريرة للغاية.

- لم يستطع رجل أن يقول ذلك أمامي، هذا صحيح، سيدتي، تتصرف ملكتنا بشدة تجاه الفلنكيين، وأشعر بالتعاطف الشديد مع سيد يثون الباسل.

- ساحني يا سيدي، إخلاصك كفارس يستحق تقديري. لن أشكو من ملكتك وسأعتبر نفسي سعيدة لأن حتى في محنتي كان حظي، أن يكون فارس شهيم مثل سيدي مرشداً لي.

- إنه لمن دواعي سروري أن أصطحب سيادتكم إلى كومبيين؛ ولكن هذا الشرف لم يُمنح لي. في غضون ربع ساعة سيكون هناك موكب آخر يرافقتك. لكن هذا لن يغير موقفك؛ لا ينسى الفرسان الفرنسيون أبداً الطريقة التي يتعاملون بها مع أميرة مثلك.

- هذا صحيح يا سيدي، الفرسان الفرنسيون مهذبون ولطاف معنأ؛ لكن من يستطيع أن يؤكد لي أنه سيكون لدي دائماً موكب يناسب رتبتي؟

- أوه! سيكون ذلك يا سيدي. عليّ أن آخذك إلى قلعة ماليه ويجب أن أسلمك إلى سيد دي سان بول. هذه نهاية مهمتي.

استمرا في الحديث على هذا النحو حتى وصلا أخيراً إلى
جسر قلعة مالميه.

عندما اقتربا من البوابة، نادى حراس البوابة جنود
الحراسة وتم رفع البوابة. وبعد لحظة، نزل الجسر المتحرك
ودخلت القوات بأكملها إلى القلعة.

كان جسدها ضامراً، ورأسها منحنيًا، ولم يعد الحماس يلمع في عينيها اللتين اتسعتا بسبب المعاناة وبسبب الوقت. حمل وجهها اللطيف آثار صراع داخلي.

(جيه. إيه. دي لوكت)

مرت شهر على استسلام مدينة بروج. عين دي شاتيلون السيد دي مورتماي حاكمًا للمدينة، وعاد إلى كورتراي؛ لأنه لم يكن يثق في سكان بروج بما يكفي للبقاء داخل أسوارهم. كان الجنود الذين تركهم في المدينة المستسلمة يرتكبون جميع أنواع الآثام ويعاملون الحرفيين بطريقة سيئة، متعبين من هذا الاستبداد، عاد معظم التجار الأجانب إلى وطنهم، وأصبحت تجارة بروج أصغر وأصغر كل يوم. عاش أصحاب المهن والحرف في حزن شديد ورغبة قوية في الانتقام بسبب تردي ثروتهم؛ لكن الإجراءات التي اتخذها الفرنسيون منذ ذلك الوقت كانت قاسية بما يكفي لاحتواء غضبهم.

هُدم الكثير من الأسوار وبنيت قلعة محصنة للسيطرة على المدينة. لدهشة رفاقه المواطنين، ترك دي كونينك كل شيء دون ملاحظة وسار بهدوء وبلا مبالاة في الشوارع. في تجمعات النساجين، تنبأ بإنقاذ الوطن وأدفاً لقلوب إخوته من خلال منحهم آمالاً نبيلة.

لم يعد يمكن التعرف إلى بريدل؛ كان القلق المظلم قد
أشاح وجهه الشاب، وسقط حاجباه المجددان على عينيه.
انحنى رأس الفلمنكي الشجاع الفخور كما لو أن حملاً ثقيلاً
هيمن عليه. خضوع الكل ورؤية الفرنسيين المتغترسين
كان ينهش في قلبه بقسوة.. لم يعد يفرحه أو يريحه شيء؛
نادراً ما كان يغادر منزله؛ لأن بروج المهزومة الآن كانت
زنانة تخنقه بهوائها. هذا الحزن النبيل الكريم لم يتركه
لحظة، ولم يستطع إخوته مواساته أو التأثير عليه. في عيون
الفرنسيين، كان يعتقد أنه يقرأ هذه الكلمة المهينة تلقى عليه
كلم:

- عبد!

ذات صباح، في وقت مبكر جداً، كان في دكانه،
مستغرقاً في أحلام اليقظة، واضعاً يده اليسرى على
الأرومة؛ يتجول ببصره بين قطع اللحم المتدلية على الحائط؛
لكنه لم يرها لأن عقله كان منغمساً في أفكار أخرى. بقي
هكذا لبعض الوقت بلا حراك. كانت يده اليمنى، دون أن
يعرف ذلك، قد اتخذت فأساً أكبر من الفؤوس الأخرى
بمجرد أن سقط الحديد اللامع تحت نظره، عبرت ابتسامة
غير محسوسة ملامحه الغاضبة، وظل يحرق لفترة طويلة في
الحديد القاتل. وبقية أصبح وجهه كئيباً وحزيناً. نظر حوله
في المحل متلهفًا، وسقطت هذه الشكوى رويداً رويداً من

شفتيه:

- انتهى الأمر. لا مزيد من الأمل في الخلاص!
يجب أن نحني رؤوسنا ونبكي على وطننا المهجور. يركض
الفرنسيون المنتصرون يوماً عبر المدينة، ويهينون الجميع،
ويحتقرون الجميع.. ونحن، نحن الفلمنكيين، علينا أن نعاني
منهم، ونحملهم. يا إلهي! ما قسوة أفعى اليأس التي تقضم
قلبي!

قبض على الفأس في يده بغضب وتابع، وهو ينظر إليه:

- وأنت، سلاحي المخلص، ما الذي يمكنك فيه خدمتي
من الآن فصاعداً؟ لا يوجد بلد ينتقم بعد الآن، ولا دماء
أجنبية تسفك.. دموع العار هي التي تسقيك الآن.. بريدل
بيكي كامرأة.

فجأة انكمش وجهه بغضب مظلم. ألقى السلاح على
الأرض وداس عليه، وقال له:

- اذهب! العبد لا يحتاج إلى أسلحة!

واستند مرة أخرى إلى الأرومة.

في هذه اللحظة، فتح باب الدكان، قال بريدل متفاجئاً
عندما رأى دي كوينيك:

- ما هي الأخبار السيئة التي أتت بك إليّ في هذا الوقت

الباكر؟

أجاب دي كونينك:

- صديقي جون، أنا لا أسألك عن سبب حزنك، أنا أعرف روحك الكريمة. يقتلك التفكير في العبودية. أستطيع أن أرى ذلك جيداً.

- اصمت، يا سيدي، اصمت؛ لأنه يبدو لي أن جدران بيتي تكرر هذه الكلمة المهينة. صديقي، لو كنت قد قتلت على أسوار مدينتنا، لكنت أنقذت نفسي من هذا الألم المرير! كم عدد الأعداء الذين كانوا سيدفنون في قبورهم جوارى! لكن تلك الأيام المجيدة قد ولت...

نظر دي كونينك بعطف إلى عميد الجزارين، وكان يدرك من خلال معاناته، كيف يكون هذا الحزن قاتلاً لروح مثل روح بريدل، ولهذا أجابه:

- أرح بالك يا صديقي الكريم، وفكر أن النار التي لا تمانح تحت الرماد لن تطفىء. الأوقات ستعود يوماً ما، وستضيء سماء العبودية الغامضة، وقد أرسلت شمس الحرية بعضاً من أشعتها علينا. أنت لا تفهم هذا. لكن يمكنك أن تصدقني، تقترب ساعة النجاة. اليوم لم نعد مضطهدين بما يكفي بعد، ويجب أن تصبح سلاسل العبودية أكثر ثقلاً حتى يفكر الجبناء بأنفسهم أن يكسروا أغلالهم. وبعد ذلك، أخي الباسل، وبعد ذلك، وطننا العزيز سيرفع مرة أخرى فوق سحب أسد فلاندرز الأسود.

نظر بريدل إلى عميد النساجين بتعبير غريب؛ ابتسامة من السعادة والأمل أضاءت وجهه، وكأن قلبه لم يعد مقهوراً، وتهد تنهيدة طويلة. وأمسك بيد دي كونينك ووضعها بالقرب من قلبه وقال:

- أنت وحدك يا صديقي تعرفني؛ أنت فقط تستطيع أن تلمس روحي وتواسيها.
أجاب دي كونينك:

- لكن، السيد جون، لزيارتي غرض آخر، أنت تعلم أننا وعدنا بالحفاظ على ماتيلد الصغيرة.
صاح بريدل بانفعال:

- يا إلهي!

أشعل نذير قلق نار الغضب على خديه، فتنهد:

- يا صديقي، أي أخبار مريعة، أي أخبار مخزية؟

- اختطف الفرنسيون ابنة سيدنا!

تقدم الجزار إلى الأمام، حاملاً فأسه ولوح بها في يده بغضب رهيب. مع أن شفتيه كانتا تتحركان لم تخرج أي كلمات من فمه؛ وأخيراً دمعتان ساختان تدرجتا على خديه، دموع الغضب والتعطش للانتقام. وصاح:

- يا أسد فلاندرز! هكذا يعاملون أولادك. وسأعاني من

ذلك مرة أخرى؟ لا لا. انتهى الأمر، دي كونينك،
انتهى الأمر. أنا لا أستمع إلى أي شيء آخر اليوم. إنني
أريد أن أرى إراقة دماء كثيرة أو أموت!

رد دي كونينك:

- اهدأ يا صديقي، اهدأ واستخدم العقل، فأنت مدين
بحياتك لبلدك، ويجب ألا تخاطر بها دون داع.

استأنف جون بريدل:

- لا أريد أن أسمع أي شيء، أشكرك على نصيحتك
الحكيمة، لكنني لن أتبعها؛ احتفظ بكلماتك فهي غير مجدية
بالنسبة لي.

- لكن، السيد جون، لا تكن مضطرباً بهذا الشكل.
فأنت لا يمكنك طرد الفرنسيين وحدك.

- لا يهم. توقعاتي لا تذهب إلى هذا الحد. أنتقم لابنة
الأسد ثم الموت. أوه! الآن أنا سعيد، عقلي حر، قلبي كف
عن الانكسار! لكنني أريد أن أهدأ، استمر في إخباري بما
تعرفه عن هذا الحدث.

- ليس كثيراً! استيقظت هذا الصباح مبكراً جداً
لاستقبال خادم السيد نيولاند. علمت منه أن النبيلة ماتيلد
اختطفت ليلاً وأن الخائن براكلز كان بمثابة مرشد.

صاح بريدل:

- براكلز، واحد آخر تحت فأسي. إنه لن يخدم الفرنسيين بعد الآن.

- لا أعرف إلى أين تم أخذ الكوتتيسة؛ فقط يمكن أن تكون في قلعة ماليه؛ لأن الخادم كان قد سمع مرتين هذا الاسم الذي نطق به الجنود. كما ترى، بريدل، سيكون من الأفضل انتظار معلومات أفضل من التصرف بهور؛ إذا جاز التعبير، فمن المؤكد أن الكوتتيسة موجودة بالفعل في فرنسا تقريباً.

قال بريدل:

- إنك تدق على باب شخص أصم يا صديقي؛ أقول لا شيء يمكن أن يغير تصميمي. أريد أن أخرج وسوف أخرج. ساحمني إذا تركتك الآن.

وأخفى الفأس تحت عباءته وسار بسرعة نحو الباب، لكن دي كوينيك تحرك أمامه بحركة أسرع، وبالتالي سد عليه الطريق.

مثل نمر محاصر، نظر بريدل حوله، وبدأ كأنه يبحث عن مخرج. انحنى جسده إلى الأمام، وشد عضلاته، وكأنه على وشك أن يسقط الشخص الذي يمنعه من الهروب. قال له دي كوينيك:

- أوقف هذه الجهود غير المجدية. أوكد لك أنك لن تخرج

بهذه الفأس. أنت صديق عزيز علي وأنا أجعل من واجبي
أن أمنعك من أي مصيبة.

صرخ عميد الجزائريين:

- اسمح لي بالمرور، أيها السيد بيبر! أتوسل إليك، دعني
أخرج. أنت تعذبني بلا رحمة.

- لا يمكنك المخاطرة بحياتك. أوه يا سيدي، لقد وهبك
الرب نفساً أعظم، وقد غذى الوطن فيك أعضاء أقوى،
ليجعلك حصناً من الحرية المشتركة. ضع في اعتبارك
هذه المهمة السامية ولا تضع هذه الهدايا في انتقام غير
ضروري.

بينما كان دي كوينك يتحدث بهذه الطريقة، هدأ
غضب الجزائري. وأصبح سلوكه أكثر صبراً، وكان من
الممكن أن يظن المرء أنه سمح لنفسه بالاعتناء بالأسباب
الحكيمة لصديقه. ولكن هذا لم يكن خداعاً؛ لقد كان
التعبير الحقيقي عن مشاعره. كان يسبح بين الرغبة في
الانتقام والهدوء، دون أن يتمكن من تهدئة نفسه من
الداخل. وقال:

- أنت محق يا صديقي، لقد انجرفت بعيداً بسهولة؛ لكن،
كما تعلم، هناك مشاعر لا يمكن مقاومتها. سأعلق سلاحني
مرة أخرى على الحائط؛ الآن ستدعونني أخرج؛ لأنني
اليوم يجب أن أذهب إلى سوق الماشية في ثوروت.

- لا أريد أن أحتجزك أكثر من ذلك، رغم أنني أعلم أنك لن تذهب إلى ثوروت اليوم.

- على العكس من ذلك، سيدي. ليس لدي المزيد من الماشية في إسطبلاقي ولا بد لي من الحصول على بعضها قبل حلول الظلام.

- لا يمكنك أن تخدعني، سيد جون؛ لقد عرفتك منذ فترة طويلة. وقد قرأت أعماق روحك في عينيك أنك ستذهب مباشرة إلى ماليه.

- أنت ساحر، سيد بيبر؛ لأنك تعرف أفكارني أفضل مني. نعم، أنا ذاهب إلى ماليه، لكنني أؤكد لك أنه ليس للحصول على معلومات عن اختطاف ابنة سيدنا المؤسف، أعدك بتأجيل الانتقام إلى يوم آخر.

غادر عميد النساجين وعميد الجزارين المحل معاً وقد تركا بعضهما بعضاً بعد الدردشة لبضع لحظات أخرى في الشارع. وصل بريدل إلى قرية ماليه بعد نصف ساعة من المشي.

ولاية ماليه هي على بعد ثلاث أميال من بروج (52). في نفس العام الذي تحدث فيه قصتنا، كانت ماليه تتألف من نحو ثلاثين كوخاً من القش منتشرة هنا وهناك داخل الحدود الإقطاعية. بين الغابات التي لا يمكن اختراقها والتي

كانت تحيط بالقرية، أعطى عمل الرجال للأرض خصوبة رائعة. ونظراً لأن الأرض في هذا البلد بدت ممتنة للسكان وكافاتهم بحصاد غني، كان المرء يعتقد أن السكان يجب أن يعيشوا في حال من الرفاهية. ومع ذلك، فإن ملابسهم وجميع علاماتهم الخارجية كانت تحمل علامات الحاجة. كانت العبودية والسيطرة العنيفة من أسباب بؤسهم: فغرق جبينهم لم يتدفق عليهم ولا على عائلاتهم؛ كان كل شيء للسيد الإقطاعي، وكانوا يعتبرون أنفسهم سعداء، بعد أن يدفعوا المستحقات الإقطاعية، وأنه لا يزال لديهم ما يكفيهم لإعطاء أنفسهم القوة اللازمة للعمل الشاق في الأرض.

على بعد مسافة قصيرة من القرية كان هناك ميدان مربع الشكل، تم بناء عدد قليل من البيوت الحجرية بجانب بعضها حوله؛ في المنتصف كان هناك عمود حجري، مستقيم مثل الإبرة، مربوط بسلسلة حديدية؛ كان ذلك بمثابة علامة على عدالة الكونت والأغلال العادية التي يعاقب بها المجرمون.

إلى جانب ذلك، كان هناك منزل مرتفع نوعاً ما، الملهي أو الحانة الوحيدة في ماليه، حيث تباع البيرة والنبيذ. تم نحت اسم هذه الحانة فوق الباب، لكنه قد نحت بهمجية لدرجة أنه كان من الصعب التعرف إلى سان مارتن في هذه الصورة الحجرية. احتل الدهليز والطابق الأرضي

المساحة الكاملة بين الجدران الخارجية.

ملأت مدفأة عملاقة الجزء الخلفي من الغرفة ولم تترك أي مكان آخر سوى ركن صغير على كل جانب حيث تم وضع البذور والنباتات لتجف. أما الجدران الأخرى فقد تم تبييضها وتحميلها بجميع أنواع أواني المطبخ الخشبية أو المصنوعة من القصدير: فأس ومجموعة من السكاكين الكبيرة في أغمادها الجلدية معلقة في المكان المخصص لها على وجه التحديد. كان الدخان المتسرب باستمرار من المدفأة في الغرفة قد غطى عوارض السقف بلون داكن مما جعل هذه الغرفة تبدو حزينة وباردة. ومهما كانت الشمس مشرقة، إلا أن الشعور بالنهار كان مشكوكاً فيه، حيث كانت النوافذ والتي كان طرازها نصف روماني نصف قوطي ترتفع سبعة أقدام فوق الأرض وتشكل من ألواح صغيرة خضراء اللون. توجد مقاعد ثقيلة وحتى طاوولات أثقل هنا وهناك في الغرفة.

كانت المضيئة تركض من اليمين إلى اليسار لتقديم الطعام والمشروبات لضيوفها بأعدادهم الكبيرة. لم تكن أكواب القصدير ترتاح أبداً، وقد اختلطت النداءات المرحة لشاربي الخمر مع همسات منخفضة الصوت لا يمكن فهمها. كان من السهل التعرف إلى اللهجات الذكورية والرنانة التي تردد صداها بالقرب من المدفأة، على أننا نتحدث اللغة الفلمنكية، بينما في منتصف الغرفة، كانت هناك أصوات

أكثر أنوثة ونعومة تتحدث الفرنسية. من بين الذين يتحدثون بهذه اللغة الأجنبية والذين ينتمون إلى حامية القلعة، كان هناك واحد اسمه ليرو، كان يتحدث بغيرسة مع رفاقه، مثل الضابط؛ ومع ذلك، لم يكن سوى جندي مثلهم، وكان جسده الذي يشبه جسد هرقل البطل الإغريقي وقوته المعروفة هما اللذين أكسباه هذا التفوق.

بينما كان المحاربون الفرنسيون يفرغون أكوابهم بهتافات مبهجة، دخل جندي آخر الحانة وقال لهم:

-هأنذا، أيها الرفاق، قد أتيت لكم بأخبار سارة. سوف نترك هذا البلد فلاندرز الملعون وغدا لربما نعود إلى فرنسا الجميلة.

ألقى الجنود المندهبون بنظرات فضولية على هذا الوافد الجديد. تابع هذا الأخير:

- نعم، غداً سنرحل مع السيدة الجميلة التي جاءت لزيارتنا بالمصادفة هذه الليلة.

تساءل ليرو:

- هل تقول الحقيقة؟

- إنها الحقيقة بالتأكيد! لقد أرسلني سيدنا سان دو بول لأخبركم بذلك.

صاح ليرو:

- أنا لا أصدقك؛ لأنك دائماً رسول المصائب!

- مهلاً، لماذا يزعجك هذا الخبر؟ ألا تريد العودة إلى فرنسا؟

- لا على الإطلاق! هنا تتذوق ثمار النصر ولا أريد أن أتخلى عنها بالفعل.

- لا تغضب بهذا الشكل، سنعود في غضون أيام قليلة. يجب علينا فقط مرافقة سيدنا سان دي بول حتى ليل.

عندما كان ليرو على وشك الرد، فتح الباب ودخل فلنكي آخر إلى الملهى. كان ينظر إلى الفرنسيين بجرأة، وجلس على الطاولة وصاح:

- مهلاً! يا صاحب الحانة، كوب من البيرة! بسرعة؛ لأنني في عجلة من أمري!
أجاب المضيف:

- على الفور يا سيد بريدل.

همس أحد الجنود في أذن ليرو:

- ها هو فلنكي وسيم، إنه ليس طويل القامة مثلك، لكن يا له من جسم عضلي ويا له من صوت! إنه ليس فلاحاً.

أجاب ليرو:

- حقًا، إنه رجل جميل؛ لديه عيون مثل الأسد. أشعر بالصدقة تجاهه.

صاح بريدل وهو ينهض:

- يا صاحب الحانة، أين أنت؟ حلقي يحترق بشدة.

تساءل ليرو:

- أخبرني، أيها الفلمنكي، هل تعرف الفرنسية؟

أجاب بريدل بنفس اللغة:

- أكثر مما أريد.

- حسنًا، بما أنني أرى أنك متعطش وقد نفذ صبرك، فأنا أدعوك للشرب من كأس. حسنًا، أتمنى أن يكون ذلك أمرًا جيدًا بالنسبة لك.

أخذ بريدل الكأس من يدي الجندي في إشارة تم عن الامتثال وقال، وهو يضعها على شفثيه:

- لنخبك ولحظك في الحرب!

ولكن بمجرد أن بللت بضع قطرات من النبيذ شفثيه، وضع الكأس مرة أخرى على الطاولة في اشمزاز.

صاح ليرو ضاحكًا:

- ما هذا؟ هل تخاف من المشروب النبيل؟ إن

الفلمنكيين لم يعتادوا ذلك.

رد بريدل بلا مبالاة كما لو كان الاشمئزاز طبيعياً:

- إنه نبئذ فرنسي!

نظر الجنود إلى بعضهم بدهشة واضحة، واندفعت الدماء إلى خدي ليرو. كان المظهر الخارجي البارد قد ترك انطباعاً ملحوظاً بشأنه حتى إن الجنود قد تركوه يجلس مرة أخرى دون أن يقولوا له أي شيء. ومع ذلك، أحضر المضيف الجعة المطلوبة وأخذ عميد الجزارين عدة رشقات دون الالتفات إلى الفرنسيين.

هتف ليرو، وهو يرفع كأسه:

- الآن، أيها الرفاق، دعونا نتناول مشروباً أخيراً حتى لا يُقال إننا نغادر بقم جاف. إلى نخب السيدة النبيلة، بينما ننتظر النار تحرقها.

كبح بريدل جماح نفسه وهو يقول هذه الكلمات، فقد أحدثت فيه حركة مفاجئة، وقد ثبت عينيه بازداراً على الجنود الفرنسيين على الرغم من أنهم لم يلحظوا ذلك.

قال ليرو بانزعاج:

- آمل ألا يحدث شيء أثناء غيابنا، بدأ سكان بروج في التمرد والهمس، كل ما علينا فعله هو نهب مدينتهم بينما نحن في فرنسا.

صر بريدل على أسنانه بغضب؛ لكنه لم ينس بعد وعده
وكلمات دي كوينيك. لقد استمع باهتمام أكبر عندما قال
ليرو الكلمات التالية:

- يجب أن نلوم السيدة الجميلة على هذه الخسارة.. ولكن
من تكون؟ بالنسبة لي، أعتقد أنها ابنة أحد المتمردين
الأقوياء، وأنها ستقاد إلى الآخرين في فرنسا. سوف تأكل
المزيد من الخبز المر.

نهض عميد الجزارين من على كرسيه، وبينما كان يسير
في أرجاء الغرفة دون اكتراث لإخفاء هياجه، غنى
بصوت ناعم هذه الأغنية الشعبية:

في حقل الذهب الذي ينتشر فيه الهواء
جميل ونفوري يقف أسد أسود،

تموج لبدته في الريح،

مخالبه كبيرة لدرجة تخيف عندما نراها:

ضد ضرباته لا أحد يستطيع أن يدافع عن نفسه.

عينه الدامية تشع بالبرق.

هذا الأسد الأسود هو أسد فلاندرز.

راحته الوحيدة تجعل الكون يرتجف (53).

بمجرد أن سمع الفرنسيون هذه الكلمات، رفعوا رؤوسهم في الوقت نفسه وبدوا مندهشين.

قال أحدهم:

- اسمعوا هذه أغنية الكلوارتس! تهورا! هل يجرؤ هذا الفلمنكي على غنائها في حضورنا؟

على الرغم من أن جون بريدل قد سمع ذلك، إلا أنه واصل أغنيته. حتى إنه رفع صوته كأنه يتحدى الفرنسيين:

في الشرق يمد مخالفه

ويفر الشرق مرعوباً

نظرته وحدها كانت تشتت الحلفاء

وكان الهلال هو علامته التي تخيف

وقد غادر شواطئ آسيا بعد ذلك

وعلى الفلمنكيين دفع الثمن،

إلى البواسل من أبناء الوطن.

وقد قدم صولجانته إلى الإمبراطور هدية (54).

سأل ليرو فلمنكيًا من القصر كان جالسًا بالقرب منه:

- لكن ماذا تعني هذه الأغنية في أفواههم إلى الأبد؟

- حسنًا، يقول إن أسد فلاندرز الأسود ضرب نصف الرجال المسلمين بمخالبه، وإنه جعل من الكونت بودوان إمبراطورًا.

قال ليرولبريدل:

- اسمع أيها الفلمنكي! يجب أن تعترف بأن الأسود الرهيب لا بد أنه هرب أمام راية زنابق ملكنا العظيم فيليب لو بيل، وهو الآن ميت بالتأكيد.

ابتسم السيد جون بازدرء ساخر وأجاب:

- يوجد مقطع آخر من الأغنية، اسمعوا:

حيث ينام بعيدًا عن المدن الفلمنكية

وقد قيده الملك الفرنسي بالسلاسل

فك سيفك بمنتهى الحرية قيوده كافة

في المرج حيث ولد الأسد

ولكن، إذا استيقظ الأسد

ارتجفوا، أيها الفرنسيون، ارتجفوا من أجل الزنبقة البيضاء

في أعلامكم، البياض الذي لا مثيل له

سوف يتلطح بالطين والدم!

اسأل الآن ماذا يعني ذلك؟

بعد أن تم توضيح معاني الكلمات لليرو، ألقى مقعده بغضب، وملاً كأسه حتى حافتها وقال:

- قد أكون جباناً طوال حياتي، إذا لم أكسر عنقك، إذا قلت كلمة أخرى.

ضحك جون بريدل على هذا التهديد وأجاب:

- لا تقسم؛ لأنك لا تحسب أي حساب لأحد. هل تعتقد أنني سأبقى صامتاً من أجلك؟ بالنسبة لجميع الوالونيين في العالم، لن أحتفظ بكلمة في قلبي. وانظر، لتوضيح ذلك لك، سأشرب على شرف الأسد وأتحدى الفرنسيين، هل تسمع؟

قال ليرو غاضباً:

- أيها الرفاق، دعوني أتصرف وحدي مع هذا الفلنكي، لن يموت إلا على يدي.

قال هذه الكلمات وهو يتجه نحو بريدل ثم صاح:

- أنت تكذب وتحيا الزنابق!

أجاب بريدل:

- أنت تكذب أيضاً، والتحية لأسد فلاندرز!

أجاب الفرنسي:

- تعال، أنت قوي، وأريد أن أوضح لك أن الزنابق يجب

ألا تستسلم أمام الأسد، فلنقاتل حتى الموت.

أجاب جون بريدل:

- هذا واضح، فقط، دعنا نسارع. يسعدني أن أجد عدوًا شجاعاً؛ فالأمر يستحق المحاولة.

سرعان ما خرجا من الحانة وكانا يمشيان ويتهاوسان تحت الأشجار. عندما وجدا مكاناً مناسباً، تراجعاً بضع خطوات واستعدا للصراع الرهيب. ألقى بريدل سكينه وشمراً أكامه حتى كتفيه، أذهلت ذراعه العضليتان الجنود الذين وقفوا حولهما لمشاهدة القتال. ونظراً لأن بريدل لم يكن لديه أي سلاح آخر غير السكين، ألقى ليرو سيفه والتفت إلى رفاقه، قائلاً:

- أوه حسناً! مهما كان الأمر، لا أريد المساعدة. يجب أن تكون المعركة عادلة؛ لأن عدوي فلمنكي شجاع.

هتف بريدل:

- هل أنت مستعد؟

- أنا مستعد.

أحنى الخصمان رأسيهما بين أكفاهما، وتوهجت أعينهما تحت أجفانهما المنخفضة، وشدت أسنانهما وشفاهما بقوة؛ واندفعا بعضهما نحو بعض مثل ثورين غاضبين. سقطت لكبات ثقيلة على أضلاع كل منهما، مثل المطرقة

على السندان، وانحنى المصارعان على أعقابيهما؛ ولكن زاد غضبهما أكثر. كان يخرج زئير مكتوم من حناجرهما، وأذرعهما ملفوفة حول أجسادهما مثل حزامين من الحديد؛ بدت أذرعهما وأرجلهما ملتحمتين بقوة غير عادية؛ كانت كل أطرافهما ملتوية بعضها ضد بعض بشكل رهيب، والمعانقات الرهيبة تنفث عنهما تنهدات من الألم. اشتعلت نيران الغضب في وجهيهما المتوهجين وكان بياض أعينهما مخططاً بخطوط حمراء. ومع ذلك، لا يمكن لأي منهما أن يفلت الآخر؛ كان يمكن للمرء أن يقول إن أقدامهما كانت متجذرة في الأرض، حيث كانا ينغرسان في الأرض. كانت عروق بريدل ملتوية مثل الحبال على ذراعيه المتوترتين. كان العروق المشتعلة تندفق في خدود المقاتلين، وأصبحت معاناتهما شديدة وصعبة. يمكنك أن ترى بسهولة صدورهما ترتفع وتخفض بسرعة؛ ومع ذلك، لم يسمع سوى عدد قليل من اللعنات المكتومة بين التنهدات الخانقة.

بعد أن قبضا على بعضهما بهذه الطريقة لبعض الوقت، ترجل الفرنسي على ساق واحدة، وألقى بذراعيه حول جسد بريدل، وضرب رأسه بقوة لا تقاوم لدرجة أن الفلنكي ترنح وانحنى إلى الأمام. دون منحه الوقت الكافي للنهوض وقد تشجع بفضل هذه الميزة، ضاعف ليرو جهوده واضطر بريدل إلى ثني ركبتيه تحت هذه الصدمة العنيفة. صاح ليرو، بينما ضرب خصمه ضربة مروعة لدرجة أن

الدم تدفق من فمه:

- ها هو الأسد الذي ينحني على ركبتيه.

لكن تلك الضربة ذاتها أجبرت الفرنسي على ترك إحدى يدي بريدل. عندما رفع ليرو ذراعه لينتهي من الفلمنكي، قام الأخير وتراجع ثلاث خطوات. وسريعاً مثل البرق، سارع وهو يصرخ في وجه الفرنسي ولف ذراعيه حوله بغضب شديد حتى إن ضلوعه طقطقت في صدره؛ لكن الأخير، الذي يتميز بالرشاقة والمرونة مثل الثعبان، احتضن جسد بريدل بأطرافه بقوة زادت بحكم العادة وبفضل التدريب بمهارة على اللكمات. شعر الشاب الفلمنكي بساقيه، الممسكتين بإحكام بركبتي الرجل الفرنسي، تنحني وتفسح المجال تحته. هذه المعركة الطويلة، التي رأى فيها لأول مرة في حياته تخاذل شجاعته، بدت له أكثر قسوة من عذاب الجحيم. وصلت رغبة دموية إلى شفثيه جعلته غاضباً إلى درجة الجنون. وهكذا ترك الفرنسي فجأة واندفع نحوه ورأسه منحني، مثل كبش يضرب الجدار أصاب جبين بريدل خصمه في صدره. كانت الصدمة عنيفة لدرجة أن ليرو ترنح إلى الوراء واندفع الدم من أنفه وفمه. دون إعطائه الوقت للوقوف على رجليه، سقطت قبضة الفلمنكي على رأسه مثل الحجر وسقط على الأرض، وأطلق صرخة من

الأم. (55)

تدمر بريدل:

- هل شعرت بمخالب الأسد!

كان الجنود المتفرجون على هذا النضال قد شجعوا رفيقهم بالكلمات والتهاتفات، لكنهم لم يتورطوا بطريقة أخرى. وبينما كانوا يرفعون ليرو المحتضر، غادر بريدل مكان القتال ببطء ودخل الحانة مرة أخرى؛ وطلب قدرًا آخر من البيرة وشرب منه عدة مرات للتخلص من العطش الذي كان يفترسه.

لقد كان موجودًا بالفعل منذ بعض الوقت وبدأ تعبته يتضاءل عندما انفتح الباب خلفه. قبل أن يتاح له الوقت للالتفاف ليرى من يدخل، قبض عليه أربعة رجال أقوياء وألقوا به أرضًا؛ في غمضة عين، أصبحت الحانة مليئة بالفرنسيين المسلحين. لفترة طويلة، استنفد بريدل ضدهم مقاومة لا طائل من ورائها. أخيرًا، وهويلهث ودون قوة، بقي ساكنًا وأعطى الفرنسيين إحدى تلك النظرات المسمومة التي هي نذير الموت. ارتجف معظم الجنود عند رؤيتهم للفلسكي الممدد على الأرض؛ لأنه بينما كان جسده ساكنًا، ألقَت عيناه الملتهبان حوله بنظرات مهددة ومرعبة لدرجة أن الخوف طغى على قلوب المهاجمين.

اقرب الفارس، الذي كان من السهل التعرف عليه كقائد من زيّه، من بريدل، وبعد أن أصدر الأمر بجعل

كل حركة مستحيلة، قال للفلمنكي:

- لقد عرفنا بعضنا بعضاً منذ فترة طويلة، أيها الفلاح المتهورا! أنت من قتل غلام السيد دي شاتيلون في وينينديل، حين تجرأت على تهديدنا بسكينك، نحن الفرسان.. والآن ما زلت تجرؤ على الهجيء واغتيال أحد أفضل رجالي المسلحين على أرضي! ستُعامل كما تستحق؛ في هذا اليوم بالذات، سنعلقك على مشنقة على أسوار ماليه، بحيث تكون عبرة لسكان بروج المتمردين.

بكي بريدل:

- أنت مُفترٍ! لقد دافعت عن نفسي بإخلاص في القتال، وإذا لم يمنعني عنفك الجبان، فسأثبت لك أنني لا أشعر بأي ندم.

- لقد تجرأت على إهانة راية فرنسا.

- لقد انتقمت للأسد الأسود رمز وطني، وسأفعل ذلك مرة أخرى. لكن لا تبقيني مستلقياً على الأرض بعد الآن مثل الثور المذبوح، أو اقتلني على الفور؛ لن أدافع عن نفسي.

بأمر من سان دي بول، رفع الجنود بريدل دون إطلاق سراحه وقادوه بحذر إلى الباب. كان السجين الفلمنكي يسير ببطء بين الرجال المسلحين. اثنان من الأقوياء يمسكان

بذراعيه؛ وسار أربعة آخرون في الأمام وفي الخلف؛ حتى يستحيل عليه الهروب. فضلاً عن ذلك فإن هذه ليست نيته؛ ولم يقم بأي مقاومة.

ومع تقدمهم بهذه الطريقة مع السجين، بدأ الجنود في السخرية منه بوقاحة. شعر بريدل بغضب لا يوصف يغلي فيه من كلماتهم الساخرة وتمنى الموت داخلياً؛ لكنه أخفى غضبه حتى اللحظة التي تم التحدث فيها إليه على النحو التالي:

- أيها الفلنكي الجميل، إذا رقصت جيداً غداً على الجبال، فسوف نظرد الغربان من على جثتك.

ألقى عميد الجزارين نظرة ازدراء على الجندي الذي سخر منه في محنته. تابع هذا الأخير:

- لا تنظر إليّ هكذا، أيها الكلوارتس الملعون، أو سأضربك على وجهك!

صاح بريدل:

- أوه! فرنسي جبان! أنتم كلكم سواسية، أنت تهين عدواً سجيناً، كلكم خدم بأسون لسيد حقيير.

لكن الصفعة التي ضربها له الجندي قاطعته. فجأة صمت وأحنى رأسه وكأنه فقد شجاعته. لكن غضباً نارياً أثار روحه، ومثل النار الجوفية التي تحترق في حوض بركان،

اشتعلت الرغبة الشديدة في الانتقام في قلب الفلنكي. استمر الجنود في شتمه وصمته جعلهم أكثر مرارة. بالقرب من جسر القلعة، توقفوا فجأة عن الضحك، وشجبت وجوههم من القلق والخوف. جمع بريدل، في هذه اللحظة، كل القوة التي منحها الطبيعة بسخاء ونزع ذراعيه من أيدي معتقليه من جنود الحراسة. واندفع مثل النمر نحو الجنديين اللذين كانا يضايقانه أكثر من غيرهما، وأمسكت يديه، مثل الكباشنة، بحلقهما. صائحاً:

- أريد أن أموت من أجلك يا أسد فلاندرز! ولكن ليس على المشنقة وليس دون انتقام!

عندما كان يجب الحماسة لنفسه بهذه الكلمات، ضغط على حناجر الجنديين بشدة لدرجة أن وجنتيهما أصبحتا شاحبتين. ثم بذراعه القوية، وهو يهز جسد عدويه، ضرب رأسيهما المترنحين بعنف شديد. مصابين بالشلل بسبب الخنق، لم يحاولا المقاومة، وكانت أذرعهما معلقة بطول أجسادهما. حدث كل هذا في وقت أقل مما يتطلبه الأمر (56).

على مرأى الخطر الذي يواجهه رفيقاهما، ركض الفرنسيان الآخران وهما يقسمان ويلعنان، لكن بريدل أسقطهما أرضاً، وبعدما تخلص من أعدائه الجدد، هرب بأقصى سرعة.

لاحقه الجنود حتى وصلوا إلى خندق طويل. بريدل، الذي كان معتاداً على العيش في البراري، قفز مثل الغزال على الجانب الآخر واستمر في ركضه حتى وصل إلى سانت كروا. الجنديان، اللذان حاولا أيضاً القفز إلى الخندق، سقطا على رقابهما واضطرا إلى التخلي عن أي مطاردة.

عاد العميد إلى بروج وهو لا يزال غاضباً وتوجه مباشرة إلى منزله؛ لم يجد سوى صبي صغير كان على وشك الخروج. هتف بريدل بنفاد صبر:

- أين عمالي؟

أجاب المبتدئ:

- سيدي، إنهم في الباند، حيث تم استدعاء الجزارين للتو على عجل.

- ما هي الأخبار الجديدة؟

- لا أعرف يا سيدي. لكن مأمور المدينة قرأ على درج المحكمة مرسوماً ينص على أنه يجب على كل الحرفيين الذين يكسبون قوتهم من عمل أيديهم، أن يدفعوا، يوم السبت من كل أسبوع، عملة فضية لمحصل الضرائب (57). هذا هو، حسب الصيحة العامة، سبب استدعاء أصحاب المهن والحرف الذي أمر به عميد النساجين.

قال بريدل:

- ابق هنا وأغلق الدكان. أخبر والدتي أنني لن أعود إلى المنزل الليلة؛ وعليها ألا تخاف شيئاً.

أخذ فأسه المعلق على الحائط، وبعد أن أخفاه تحت عباته، غادر منزله وذهب إلى اجتماع أصحاب المهن والحرف. بمجرد دخوله القاعة، سرت بهجة من الفرح بين الجمهور، وصرخ رفاقه:

- ها هو بريدل، عميدنا!

قام الشخص الذي أخذ مكانه مؤقتاً وعرض عليه الكرسي؛ لكن بريدل، بدلاً من الجلوس فيه كالمعتاد، أخذ كرسيًا منخفضاً وغرق فيه بابتسامة مريرة.

- يا إخواني! مدوا أيديكم إلي، أنا بحاجة إلى صداقتكم كثيراً؛ لقد تلقيت أنا ومهنتنا الشريفة إهانة لا يمكن محوها! احتشد السادة والرفاق معاً حول مقعد بريدل. لم يروه قط حزيناً ومكتئباً إلى هذا الحد. كانت كل العيون معلقة عليه بفضول. بعد تنهيدة طويلة، تابع:

-أتم، أبناء بروج الحقيقيون، قد عانيم معي من الخزي لفترة طويلة جداً؛ ولا يمكنكم تحمل العبودية أيضاً. لكن إذا عرفتم ما حدث لي اليوم، فستكون مثل الأطفال. أوه! إهانة قاتلة! لا أجرؤ على قول ذلك، فالخزي يعذبني!

كل هذه الوجوه الذكورية والسمرء التي لفحتها الشمس

قد اشتعلت بالفعل بنار الغضب؛ كانوا لا يعرفون حتى الآن ما الذي يغضبون منه، ومع ذلك قاموا بقبض قبضتهم بشكل متشنج وخرجت اللعنات من أفواههم.

رد بريدل:

- اسمعوا ولا تستسلموا تحت وطأة العار يا إخوتي أنصتوا جيداً.. الفرنسيون ضربوا عميدكم في وجهه. وهذا الخلد، هذا، ملطخ بصفعة مهينة.

لا يمكن وصف الغضب الذي سيطر على الجزائريين من هذه الكلمات. وقد ارتفعت صيحات الموت إلى قبة القاعة، وأقسم كل منهم اليمين للانتقام من هذه الإهانة.

تساءل بريدل:

- بماذا تمسح هذه البقعة؟

كانت الصيحة العامة:

- بالدم!

استأنف العميد:

- أتم تفهموني، يا إخواني، نعم، الدم وحده وموت الجناة يمكن أن يغسلني. أتعلمون أن حامية ماليه هي التي عاملتني بهذه الطريقة. لكن، قولوها معي، لن نجد شمس الغد القلعة في ماليه بعد الآن!

كرر الجزائريون المفعمون بالرغبة في الانتقام:

- لن تجدها مرة أخرى!

قال بريدل:

- هيا ارحلوا! أسمح للجميع بالعودة إلى منازلهم، والاستعداد في صمت وكذلك الحصول على أفضل القنوس. يمكنكم الحصول على أسلحة أخرى، إن أمكن، وكذلك أدوات لقطع الأسلاك؛ لأنه يتعين علينا تسلق القلعة. في الساعة الحادية عشرة، سنلتقي في غابة لا باي، خلف سانت كروا.

بعد إعطاء بعض التفسيرات للقدامى، خرج من الباند، وخرج الرفاق من بعده. في الليل، قبل وقت قصير من ضرب برج الكنيسة في سانت كروا بقليل، تسلل عدد كبير من الرجال خلصة إلى المسارات المحيطة بالقرية. ساروا جميعاً في نفس الاتجاه واختفوا واحداً تلو الآخر في غابة لا باي. بعضهم يحمل أقواساً ونشاباً وآخرون يحملون هراوات. كان جان بريدل في قاع الغابة وتداول مع أسياد الحرفة- على أي جانب من القلعة يمكن أن يخاطر بالهجوم. أخيراً، تقرر أنهم سيملئون الخندق المجاور للجسر بالخشب ويحاولون تسلق السور. سار العميد بين رفاقه بفارغ الصبر، منشغلاً بتقطيع الشجيرات والأشجار الصغيرة وصنع حزمًا منها. حالما تأكد من عدم وجود نقص في

الجمالين، أصدر الأمر بالرحيل، وترك الجزائريون الغابة ليذهبوا لتدمير قلعة ماليه.

وفقاً للشهادة الواردة في أخبار الحوليات، بلغ عددهم سبعمئة رجل، ومع ذلك كانوا راغبين جداً في الانتقام لدرجة أنه لم يرتفع ضجيج طائش من صفوفهم. كل ما كان يمكن سماعه هو فرك الأغصان المتساقطة ونباح الكلاب التي أخافها هذا الضجيج الغريب. توقفوا داخل امتداد قوس من القلعة، وتقدم بريدل مع عدد قليل من الرجال لمراقبة الأسوار. وكان الحارس الذي كان يراقب البوابة قد سمع صوت خطواتهم. ومع ذلك، ما زال متشككاً، استمع باهتمام أكبر وصعد إلى السور.

قال أحد رفاق بريدل:

- انتظروا، دعوني أتخلص من هذا الحارس المزعج.

عند هذه الكلمات، ثنى قوسه ووجهه نحو الحارس.

لقد أصاب هدفه؛ لأن سهمه تحطم إلى أشلاء على درع الرجل الفرنسي. هذا الأخير، خائفاً من الضربة، نزل من الأسوار وصرخ بكل قوته:

- فرنسا! العدو! إلى السلاح! إلى السلاح!

هتف بريدل:

- إلى الأمام أيها الرفاق! إلى الأمام! هنا مع حزم الأشجار!

جاء الجزارون، واحداً تلو الآخر، لزرع الأغصان والشجيرات في الخندق؛ وسرعان ما امتلأ بما يكفي بحيث يمكن للمرء أن يمشي هناك على جسر، حتى الحائط. تم وضع السلام وتسلق جزء من الفلمنكيين الأسوار دون أي مقاومة. عندما صرخ الحارس، قفز الجنود من السرير وفي غمضة عين كان هناك أكثر من خمسين منهم مرتدين ملابسهم ومسلحين. زاد عددهم بسرعة؛ لقد أيقظتهم صرخات الفلمنكيين الأعداء أفضل بكثير من نداء الحارس.

كان جون بريدل في القلعة بالكاد مع ثلاثين من رفاقه، عندما سقط عليهم حشد من السادة والجنود. في البداية سقط العديد من الجزارين لأنهم لم تكن لديهم دروع، ودخلت سهام الفرنسيين أجسادهم دون مقاومة. لكن ذلك لم يدم طويلاً. بعد لحظات، كان جميع الفلمنكيين داخل الأسوار.

صاح بريدل:

- انظروا، يا إخوتي، سأبدأ القتال. اتبعوني!

مثل المحراث الذي يحفر أخدوده في الأرض، شق بريدل طريقه عبر الفرنسيين. كل ضربة بفأسه أودت بحياة عدو، وتماثرت دماء ضحاياه على صدره. الفلمنكيون الآخرون، بغضب مثله، سقطوا من جميع الجوانب على

الجنود، وسرعان ما خنقت صرخات انتصارهم صرخات
ألم الفرنسيين المحتضرين (58).

بينما كانوا يقاتلون هكذا في الفناء وعلى الأسوار، أطلق
صاحب القصر، السيد سان دو بول، بضعة خيول على
عجل. وحالما قيل له إنه لم يعد هناك أمل وإن معظم الجنود
قتلوا، فتح الباب الخلفي الصغير. ثم جروا بعنف بسيدة
كانت تبكي، وعندما وضعوها بين ذراعي جندي على أحد
الخيول، عبر الفرسان الخندق واختفوا بين أشجار الغابة.

كان من المستحيل على الفرنسيين مقاومة هجوم الجزائريين،
الذين كانوا، علاوة على ذلك، أكبر عدداً من خصومهم.
لذلك، بعد ساعة، لم يبق في ماله رجل واحد، باستثناء
أولئك الذين ولدوا في الإقليم الفلمنكي. قتلوا لأكثر من
ساعتين بالمصايح في الغرف وفي أقبية القصر؛ ومع ذلك،
لم يتم العثور على المزيد من الأعداء؛ لأن أولئك الذين فروا
من المذبحة قد فروا عبر الباب الخلفي. بعد أن عرض
خادم على بريدل جميع غرف القصر بوجه دقيق، اعتقد
بحق أن الكوتيسة ماتيلد قد نُقلت بعيداً. ومن ثم استسلم
لغضبه وأشعل النيران في الزوايا الأربع للقلعة الإقطاعية.
بينما ارتفعت ألسنة اللهب إلى السماء وسقطت الجدران
العظيمة بالفعل بفرقة مروعة، قطع الجزائريون كل ما
يمكن تدميره، الأشجار والجسور، حتى قدمت القلعة الصورة
الأفضل للدمار الكامل.

دقت أجراس القرى المجاورة ناقوس الخطر، وترك
الفلاحون أكواخهم لإنقاذ النيران؛ ولكن كان ذلك بعد
فوات الأوان. سمع صوت بريدل المبهر وهو يصيح:

- نعم، نعم، ستبحث شمس الغد عبثاً عن قصر ماليه!

لقد انتهى الانتقام، فتجمع الجزارون وتركوا ماليه وهم
يغنون أغنية سعيدة. كانوا يغنون أغنية الأسد الأسود.

في حرب عام 1296، عندما استولى الفرنسيون على فلاندرز الغربية، عارضتهم قلعة نيوينهوف بمقاومة عنيدة. تم حبس عدد كبير من الفرسان الفلمنكيين هناك، تحت قيادة روبرت دي بيثون، ولم يرغبوا في إعادتها طالما كان بإمكان أحدهم الدفاع عن نفسه. ولكن العدد الكبير لأعدائهم جعل هذه الشجاعة البطولية عديمة الفائدة؛ وقد هلك جميعهم تقريباً على الجدران المحيطة (59). عند دخولهم القلعة عبر الأسوار المهدومة، وجد الفرنسيون الجثث فقط؛ ولأنهم لم يتمكنوا من إنزال غضبهم على الأعداء، فقد أحرقوا القلعة وهدموا الجدران وملئوا الخنادق بالرماد.

تقع بقايا نيوينهوف على فرسخين من بروج في اتجاه كورتراي، في وسط غابة كثيفة وبعيداً عن منازل السكان المحليين؛ كان من النادر جداً أن تطأ أقدام رجل على كومة الخراب هذه؛ كان النعيق المستمر ليوم الليل قد جعل القرويين المؤمنين بالخرافات يعتقدون بأن أرواح الفلمنكيين الذين قتلوا هناك تطالب بالانتقام والخلاص.

على الرغم من أن الحريق قد وصل إلى القلعة بأكملها، ولكن لم يتم تدميرها بالكامل فقط لم تعد الجدران تظهر شكلها الأصلي للناظرين؛ وكان المبنى لا يزال قائماً، ولكن

مع عدد لا نهائي من الشقوق كانت الأسقف قد سقطت بجانب الجدران التي تدعمها، ومن النوافذ التي لا تحتوي على ألواح لم يبق سوى الأطر الحجرية. كل شيء يحمل علامة التدمير المتسارع، فبعض الأجزاء بقيت على حالها، بينما انقلبت أجزاء أخرى بصعوبة بالغة؛ في الفناء الكبير، الذي كان محاطًا بأسوار نصف منهارة، يمكن أيضا رؤية أكوام من الأنقاض هنا وهناك.

كانت نيوينهوف على هذه الحال لمدة ست سنوات عندما اخترنا تقديم هذا الوصف. وكانت النباتات، التي زرعتها الرياح بين الأحجار المتناثرة، قد تضاعفت إلى درجة لا نهاية لها: فقد نما عشب رائع في كل مكان بأجزائه الخضراء، وعلى غرار أطفال الطبيعة المدللين، لوحث أزهار الحقول بأشواكها الفضية من فوق كومة الأنقاض. على طول الجدران السوداء، كان يتسلق اللبلاب المرن الذي ترسخ في شقوق الحجارة المتفحمة؛ وظهرت نباتات أخرى، مثل العنب البكر والعليق، من جدار إلى آخر، وشكلت، فوق الثقوب العميقة، قوسًا من أكثر المساحات الخضراء روعة.

كانت الرابعة صباحًا؛ وقد لون شفق خافت الشرق بلون أصفر باهت، وظهرت هالة من الأشعة الذهبية خلف الأفق، مثل مقدمة للشمس. ومع ذلك، كانت أطلال نيوينهوف لا تزال مغطاة بظلال رمادية، وكانت الطبيعة

النائمة مغطاة بتلك الصبغات غير الحاسمة التي لم تعد ألواناً بعد، بينما انعكس ضوء مشرق الشمس بالفعل في كثافة السماء الزرقاء. هنا وهناك، طار بعض البوم الفضي المتأخر نحو أوكاره، وهو يطلق صيحات استهجان وحزن بسبب الضوء الذي طرده بعيداً.

في هذه اللحظة كان رجل جالس على إحدى أكوام الأنقاض وسط الأطلال. تم تثبيت خوذة من دون ريش على رأسه بحزامين، وطوقت صدرية حديدية جسمه الرياضي، وغطت صفائح فولاذية ساقيه. كانت يده، المغطاة بقفاز حديدي، تتركز على درع كان يمكن للمرء أن يبحث عنه عبثاً؛ لأنه لا يمكن رؤية سوى خط بني مائل. أسلحته، وكذلك الرمح الطويل الموضوع بجانبه، كانت مطلية باللون الأسود، ربما كعلامة على الحداد. على بعد مسافة قصيرة وقف حصان أشد قتامة من الفارس؛ وبما أنه كان مغطى بالكامل بنطاقات حديدية، فإن الحيوان لا يكاد ينحني برأسه إلى الأرض وبالتالي يأكل من رؤوس النباتات الرطبة. كان السيف المتدلي من جانب السرج كبيراً بشكل مدهش ويبدو أنه مخصص ليد عملاق.

بينما كان يسود صمت مميت في الأنقاض، تنهد الفارس من اليأس ولوح بيديه كما لو كان يتحدث إلى شخص ما. من وقت لآخر كان يدير رأسه بشكل مريب نحو الأسوار والمسارات المحيطة؛ وعندما تأكد من أنه وحيد، رفع

قناع خوذته وكشف وجهه، كان رجلاً في منتصف العمر
بخطين مجعدين وشعر أشيب. على الرغم من أن ملامحه
كانت تحمل علامة حزن طويل، إلا أنه لا يزال لديه ما
يكفي من النار في قلبه لينح عينيه حيوية غير عادية. بعد
التأمل للحظات في أسوار نيويهورف التي لا تزال قائمة،
ارتسمت ابتسامة مريرة على شفثيه؛ أحنى رأسه وبدأ
وكأنه ينظر إلى شيء ما على العشب، وتسلت دمعتان تحت
جفنيه وتدرجتا على الأرض. ومن ثم قال:

- يا أبطال يا إخواني! دماؤكم النبيلة قد سفكت على هذه
الحجارة، وجثثكم ترقد تحتي في نوم الموت الأبدي، والزهور
الفريدة قد ترسخت مثل تيجان الاستشهاد المقدسة فوق
عظامكم. أنتم سعداء الآن، لقد فقدتم هذه الحياة المؤلمة
من أجل الوطن؛ إنكم لم تروا عبودية فلاندرز. أنتم ميتون
الآن، أحرار ومنتصرون، ولا تحمل أرواحكم البقعة المدنسة
التي حملها الغريب على رؤوس الفلمنكيين. إن دماء من
أطلقتم عليه اسم الأسد الرائع قد سقطت على هذه الأرض
واختلطت بدمائكم، من كان سيفه براقاً ودرعه سوراً، يا
للعار، يجلس الآن على قبوركم المنعزلة، يتنهد مثل الرجل
المنبوذ، وتذرف عيناه الدموع مثل المرأة الضعيفة.

نهض الفارس فجأة، وأنزل على عجل قناع خوذته،
واستدار نحو الطريق، وبدأ كأنه يستمع باهتمام. سمع صوتاً
يشبه خطى الجياد من بعيد. عندما أقنع نفسه أن أذنه لا

تخذه، التقط رمح وركض بسرعة نحو جواده، وجلس على السرج وسار حتى يختفي خلف أحد الجدران. بالكاد، وصل إلى مخبئه، وصل المزيد من الأصوات إلى أذنيه، ما بين صرير الأسلحة وصهيل الخيول، اعتقد أنه سمع أنين فتاة صغيرة. عند سماع هذه الصرخات، أصبح الفارس شاحباً تحت قناعه، ليس بسبب الخوف، فهو لا يعرف الخوف، ولكن الشرف وواجبات الفروسية كانت تملي عليه أن يطير لمساعدة هذه الفتاة الصغيرة؛ كان قلبه الرحيم يحترق بالفعل لإنقاذ امرأة تعيسة، على الرغم من أن الأسباب الأكثر أهمية والوعد المقدس يمنعانه من تعريف نفسه لأي شخص؛ كان هذا الصراع الداخلي هو الذي جعل خديه شاحبين. بعد لحظة، اقترب الموكب وأصبح كلام الفتاة مفهوماً للفارس. كانت تصيح بنبرة يرثى لها:

- أوه يا أبي! يا أبي!

بسبب هذه اللهجة، رفض الفارس كل تأملاته. كان هناك شيء غريب في هذا الصوت أثار بعمق أحشاءه. وقد دفع جواده في بطنه، وقفز بسرعة فوق أكوام الركام على الطريق. هناك رأى القوات تصل على مسافة قصيرة: ستة من الفرسان الفرنسيين، من دون رماح، ولكن مسلحين بأسلحة أخرى، يسرون بهوداة بجيادهم، وكان واحد منهم قد حمل أمامه على سرجه امرأة قد قيدها بشدة بين ذراعيه. كانت تكافح بيأس وكانت تملأ الهواء

بصرخات الألم. توقف الفارس الأسود في منتصف الطريق ورمى رماحه في انتظار الخاطفين. مندهشين من هذه العقبة غير المتوقعة، قام الفرسان بإبطاء خطى خيولهم، ونظروا إلى هذا الحامي، ولكن ليس دون خوف سري. جاء الشخص الذي بدا وكأنه قائدهم وصاح:

- ابتعد عن الطريق، سيدي الفارس! ابتعد عن الطريق! أو سوف نمر على جسدك.

- أدعوكم أيها الفرسان الأشرار والخائون أن تتركوا هذه السيدة، وإلا سأعلن نفسي حامياً لها.

صرخ القائد في رجاله:

- إلى الأمام! إلى الأمام!

لم يمنحهم الفارس الأسود وقتاً للاقتراب، انحنى على رقبة حصانه وبفأة سقط في وسط الفرنسيين المذهولين. بالضربة الأولى من الرمح، اخترق خوذة ورأس رجل فرنسي وألقاه من على سرجه، مصاباً بجروح قاتلة؛ لكن بينما نجح في قهر أحد أعدائه، رفع الآخرون سيوفهم إلى رأسه، وقد قام الفارس سان دي بول بالفعل، بضربة قوية من سيفه، بإسقاط درع الكتف المعدني للفارس الأسود. هذا الأخير، على مرأى من العديد من الأعداء المهتدين، ألقى رمحه وسحب سيفه العملاق من الغمد؛ أمسك بالمقبض بكلتا يديه وقام بتدويره بسرعة كبيرة بحيث لم يجرؤ أي

فرنسي على الاقتراب؛ لأن كل ضربة من سلاحه الرهيب سقطت مثل ضربة ثقيلة من المطرقة على درع أعدائه. الفارس الذي حمل الفتاة دافع عن نفسه بسيف طويل، وشد حملة المرتعش على صدره. الفتاة الصغيرة التي استسلمت لمشاعر متناوبة ما بين الخوف والأمل لم تعد لديها القوة للتحدث أو الشكوى؛ ثبتت عينيها بشكل مرعب، وشحوب وجنتيها أصبح قاتلاً. أحياناً كانت ترفع يديها متوسلةً إلى محررها المجهول؛ لكنها سرعان ما تفقد وعيها على رقبة جوادها. ترددت أصداء الصدمات الرهيبة للسيوف على الخوذات والدروع في الغابات المجاورة، وتدفق الدم في خطوط حمراء تحت الصدريات الحديدية؛ لكن يبدو أن المقاتلين - في حماسهم للانتقام - لم يشعروا بجراحهم واستمروا في النضال يلهثون. تم كسر الصفائح الحديدية، إذا جاز التعبير، إلى ألف قطعة وفي أماكن عدة، وأصيب حصان القائد سان دي بول بجرح كبير في الرقبة؛ واجه سيده صعوبة كبيرة في قيادته لتجنب ضربات الفارس الأسود. سان دو بول، الذي رأى أن القتال كان يأخذ منعطفاً غير مواتٍ للغاية للفرنسيين، أعطى إشارة للجندي الذي يحتجز السيدة. لقد فهم الجندي وحاول الفرار من ساحة المعركة لكن الفارس الأسود نحن نيته، وقام بدفع المهماز إلى جانب جواده، وسد الممر أمام الجندي وصرخ في وجهه، بينما كان يتفادى بتوجيه رائع الضربات من

المهاجمين الآخرين:

- لجسدك وحياتك، أسقط هذه المرأة على الأرض!

متجاهلاً هذه الكلمات، أدار الجندي حصانه وحاول القفز بعيداً عن الطريق؛ لكن سيف الفارس الأسود سقط على خوذته بعنف رهيب وفتح رأسه حتى كتفيه. تدفق خطان كبيران من الدم من الجرح العميق وسقطا كالطر الدافئ على رأس المرأة وثوبها الأبيض، وشعرها الأشقر والناعم أصبح كله مغطى بلون أحمر غامق. سقط الفارس المقتول من سرجه، وعلى الرغم من أن الحياة قد ماتت فيه، إلا أن التشنجات الأخيرة في عضلاته لا تزال تشد الفتاة الصغيرة على صدره بيبغض وعداوة ولكن، بعد بضع دقائق، تراخت ذراعا الجثة وتدحرجت المرأة على الأرض مع الميت. في غضون ذلك، قام الفارس الأسود بذبح فرنسي آخر ولم يبق سوى ثلاثة أعداء؛ ولكن مع تناقص عدد المحاربين، أصبح القتال أكثر شراسة؛ لأن مشهد الدم الساخن قد أشعل الغضب الشديد لدى هؤلاء الرجال المعتادين على الحرب. كانت الخيول تصهل وهي تترنح يميناً ويساراً، مع كل ضربة تسقط على دورعها الحديدية. كانت الفتاة مستلقية تحت أقدامهم مغنى عليها؛ لأنها كانت أول من سقط من السرج، غطاها جسد الجندي المقتول بالكامل. بفضل العناية الإلهية، لم تلمسها الخيول التي دارت حولها؛ كان وجهها فقط مغطى

بالطين الدموي الذي أطارته أقدامهم عن الطريق. توقف
المقاتلون، الذين أضعفتهم الصدمات القاتلة أو نزيف الدم،
للحظة لاستعادة أنفاسهم، متعهدين بالقتال حتى الموت.
ابتهج الفرنسيون داخلياً عندما رأوا الحركة التراجعية
لعدوهم؛ فلقد تخيلوا أنه بحاجة إلى الراحة وأنه سوف
يستسلم قريباً. لكن خطأهم الفادح لم يدم طويلاً، فقد
سقط عليهم بأقصى سرعة، وكان قد حسب مكان ضربته
جيداً لدرجة أن رأس الجندي الأول تدحرج إلى حافة
الطريق وهو لا يزال يرتدي خوذته. متفاجئاً ومدعوراً من
هذا العمل البطولي، فرسان دو بول على عجل من ساحة
المعركة مع الناجين من رفاقه؛ وقد دفعوا خيولهم كالسهم
وتركوا الفارس الأسود مع إيمان راسخ بأن لديه بعض
القوة الشيطانية في خدمته.

استمرت هذه المعركة بضع لحظات فقط؛ لأن الضربات
كانت تتعاقب بلا توقف. لم تكن الشمس قد ظهرت في
الأفق بعد أو أضاءت الحقول بأشعتها؛ لكن أبخرة الصباح
كانت تتصاعد بالفعل فوق الغابة، وكانت قمم الأشجار
ملونة باللون الأخضر الساحر. عندما رأى الفارس نفسه
سيد ساحة المعركة ولم يرَ أعداءً، نزل عن حصانه وربطه
بشجرة واقترب من الفتاة الهامدة: كانت ممددة تحت
جسد الجندي ولم تعد تعطي أي علامة على الحياة؛ كانت
الأرض مجروفة من حولها بأقدام الخيول وممتلئة بالطين.

كان من المستحيل على الفارس الأسود التعرف إلى ملاحظها؛ كان دم الرجل الفرنسي يتدفق على خديها وتجلط هناك مع الطين. كانت الخيول قد داست على خصلات شعرها الطويل الحريري وساوتها بالأرض. دون مزيد من الفحص، رفع الفارس الضحية البائسة وحملها بين ذراعيه إلى أنقاض نيويهورف. وهناك، جعلها تستلقي برفق على عشب الفناء ودخل الجزء الآخر من المبنى. من بين جميع الجدران القائمة، وجد غرفة لم تسقط قبتها بعد ويمكن أن تكون بمثابة ملجأ. اندلعت النيران في زجاج النوافذ، لكن الأجزاء الأخرى كانت لا تزال سليمة؛ كانت قطع طويلة من السجاد الممزق تتدلى من الحائط، وبقايا الأثاث والأسرة المحطمة ملقاة في حال من الفوضى على الأرض. التقط الفارس بعضاً من هذا الحطام، وبمساعدة الألواح الخشبية التي لم تصلها النيران، صنع ما يشبه السرير الصغير؛ ثم نزع السجاد عن الحائط وبسطه على الألواح التي رتبها.

مسروراً باكتشافه، عاد إلى الفتاة فاقدة الوعي وحملها إلى الغرفة. وقد وضعها برعاية أبوية على السرير الذي صنعه وقد لف قطعة من السجاد تحت رأسها. للتأكد من أنها لم تصب بأذى، فحص ملابسها بعناية، واكتشفت بفرح أن الدم يلطخ عباءتها فقط وأن قلبها لا يزال ينبض. لم يسمح له الاحترام الذي ألهته به هذه المرأة بمواصلة فحصه؛ فبعد أن مسح فيها وعينيها ترك الأنقاض وعاد إلى الطريق

حيث كانت جثث أعدائه؛ وقد أخذ خوذة أحد الفرنسيين وملاًها من الجدول الذي كان يتدفق بالقرب من ساحة المعركة؛ ثم أخذ حصانه من اللجام وأعاده إلى ركن من أركان القلعة. عندما عاد إلى الفتاة الصغيرة، مزق قطعة من الثوب الذي يرتديه تحت درع صدره، واستخدمها لغسل وجه الفتاة. على الرغم من اقتراب النهار، إلا أنه كان لا يزال ظلاماً تحت قبة هذه الغرفة؛ ولم يستطع الفارس أن يرى ما إذا كان قد أزال الطين الذي غطى وجنتي الفتاة بالكامل أم لا. غسل رأسها ورقبتها ويديها وغطاها بقطعة سجاد كبيرة نزعها من الحائط لحمايتها من البرد.

ثم مقتنعاً بأن المرأة التعيسة كانت على قيد الحياة، تركها للراحة وترك للطبيعة عناية تقويتها وعاد إلى جواده؛ نظف درعه بالعشب الطويل الذي نما في الفناء من أجل إزالة أكبر قدر ممكن من الآثار الدموية للمعركة. استغرق هذا العمل منه بعض الوقت، وقد استخدم يده النبيلة باستسلام؛ أخيراً أحضر لحصانه كمية كبيرة من العلف الطازج. كانت الشمس قد أشرقت في الأفق وأضاءت الريف بألوان مبهرة؛ من خلال نافذة الغرفة كان هناك ما يكفي من الضوء تمييز كل الأشياء على الأرض. وقد عاد الفارس إلى هناك. كانت الفتاة تجلس على السرير وتحقق بدهشة في الجدران السوداء لمنزلها الرهيب؛ وقد فتحت

عينها بدرجة كبيرة للغاية وبدت في حيرة من أمرها؛ لأن جفونها لم تسقط وبقيت مرتفعة بعناد. بمجرد أن نظر إليها الفارس عن كثب، مرت رجفة مفاجئة في جسده؛ أصبح شاحباً وشعر بالبرد والخوف ولم يعد لديه القدرة على الكلام، ولم يخرج من فمه سوى أصوات غير مفهومة. بهذا الانفعال، اندفع نحو الفتاة الصغيرة يقبلها ويضغط على قلبها بلطف. صاح يأساً:

- طفلي! ماتيلد المسكينة! هل اضطرتت إلى مغادرة سجنني من أجل هذا؟ من أجل أن أجدك بين أحضان الموت؟

قالت:

- خائن! كيف تجرؤ على إساءة معاملة ابنة كونت فلاندرز بهذه الطريقة؟ ألا تحمر نجلاً من اختطافك لفتاة عاجزة، ولكن الرب يرعاني. وبرقه لا ينطفىء، هل تسمع؟ عقابك يقترب. اسمع كيف هدير الرعد، أيها الوغد!

تدفق سيلان من الدموع من عيني الفارس، وقد نزع الخوذة من على رأسه، ومن ثم رأت الدموع تتلألأ على خديه. فصاح هو:

- حبيبي ماتيلد، تعرفني علي! أنا روبرت، والدك الذي تحبينه، والذي بكى كثيراً من أجلك في الأسر. أيتها السماء! أنت تدفعيني بعيداً عن قلبك.

ظهرت على ملاح الفتاة ابتسامة تتم عن الكراهية،
وواصلت:

- الآن أنت ترتجف أيها الخاطف الخائن! الآن، قلبك
ممتلئ بالخوف كالأوغادا! لكن لا رحمة لك. الأسد،
والدي، سينتقم لي، فأنت لن تهين دماء كونت فلاندرز
وتفلت من العقاب.. الصمت! إني أسمع زئير الأسد..
والدي يقترب. هنا، ترتجف الأرض تحت قدميه. بالنسبة
لي تكفيني قبلة قبل أن أموت، يا لها من فرحة عظيمة!

دخلت كل كلمة كسهم مسموم في قلب الفارس.
كانت كل عذابات الجحيم تشتعل في قلبه؛ انهمرت الدموع
الساخنة على تجاعيد خديه العميقة، وقد ضرب صدره في
حال من اليأس. هاتفاً:

- تعرفي علي يا ابنتي المسكينة! لا تقتليني، لا تضحكي
بمرارة؛ نظراتك تلقي الموت في قلبي. أنا هذا الأسد الذي
تحبينه، هذا الأب الذي تهادينه.

أجابت ماتيلد بازدراء:

- أنت الأسد؟ أنت الأسد؟ يا كذاب! لا، الأسد يتكلم
الفهلنكية.. أنا لا أسمع من فك سوى لغة الملكة جين؟
هذه اللغة التي تملق وتخون. لقد ذهب الأسد أيضاً، مقيداً
بالسلاسل في ززانة ومات بسم وقدره من الذهب.. أوه

فرنسا! دمه! وأنا أيضاً، أنا ابنته؛ لكن ألا تعلم أن القبر هو ملجأ؟ فلا يمكن إهانة الروح القريبة من الرب في السماء! لم يستطع الفارس احتواء يأسه؛ قبل ابنته مرة أخرى وقال:

- لكن ألا تسمعين يا طفلي أنني أتحدث لغة آبائنا؟ ما المعاناة المريرة التي تحملتها، ربما أضلت عقلك؟ تذكرني أن صديقنا، السيد أدولف دي نيولاند، كان عليه أن يحررني، ولا تتاديني مطلقاً بالخائن أو بالوغد، فهذه الكلمات تخترق قلبي.

عند ذكر اسم أدولف، ارتخت وجنتا الفتاة اللتان كاتتا منقبضتين. خفت ابتسامة لطيفة من الألم الذي يرسم على وجهها، ودون أن تدفع الفارس بعيداً، قالت بنبرة هادئة:

- أدولف، هل قلت؟ لقد ذهب أدولف للبحث عن الأسد. هل رأيته؟ هل أخبرك عن ماتيلد التعيسة، أليس كذلك؟ أوه، نعم إنه أخي! لقد صنع لي أعياد الميلاد.. صه! أسمع أوتار قيثارته.. يا لها من أغنية جميلة! ولكن ما هذا؟ نعم والدي قادم! لقد رأيت بالفعل شعاعاً.. ضوءاً مقدساً.. ابتعد أيها الوغد!

أنهت كلماتها بأصوات مكتومة وأصبحت غير مفهومة. وقد أظلم وجهها بتعبير من الغضب. الفارس الخائف لم يعرف ماذا يفعل وشعر بالشجاعة تتخلى عنه. وقد أمسك

يد الفتاة وأغرقها بدموع الحب والألم. سحبت يدها
وصاحت:

- هذه اليد ليست لفرنسي! فارس مجرم خائن مثلك لا
يمكنه لمسها. دموعك هي بقع يمسحها الأسد بالدم. أخشاه
أيها الثعبان! ارتجف! لأن اللحظة تقترب. هل ترى هذا
الدم على ثوبي؟ وهو أيضاً دم فرنسي. كم هو أسود اللون!

لم يعد الفارس قادراً على مقاومة محنته، فوقع على ركبتيه
أمام الكونتيسة، ووجهه متوسلاً وقد تنهد:

- من أجل حب الرب، يا ماتيلد التعيسة، لا ترفضني
حب والدك بعد الآن. لا تجعلي رحلتي المؤلمة غير مفيدة.
هل يمكنك أن تنظري إلى دموعي بمثل هذه اللامبالاة
ولا يتكلم صوتك الحبيب بكلمة عزاء؟ هل تدعينني أموت
من الحزن عند قدميك؟ أوه، أتوسل إليك، يا من أعطيت
الحياة، قبلة. أوه! قبلة من فمك!

نظرت إليه الفتاة في اشمئزاز. قال الفارس:

- كلمة واحدة! سمّني والدك، لا ترفضيني هكذا! إذا كنت
تعرفين فقط، يا طفلي التعيسة، ما مدى الألم الذي أشعر
به بسبب مقاومتك لي، إذا كنت تعرفين خوف والدك.
لكن لا، أنت ضائعة. يبدو أن ملاحقات الفرنسيين قد
أصابت عقلك. يا له من شعور باليأس الذي أصابني.

أراد أن يعاقب طفلة بين ذراعيه؛ لكنها كانت خائفة
وصرخت بصوت حاد:

- ابتعد، ارحل! ابعد ذراعيك عني! أنت من الثعابين
الذين يحملون معهم العار لا تلمسني، اتركني، أيها الوغد!
النجدة! النجدة!

في خطوة يأسية، هربت من بين ذراعي الفارس وقفزت
من فوق السرير وهي تصرخ. في حيرتها، ركضت نحو
مدخل الغرفة وأرادت الفرار. اندفع الفارس المرتجف
إلى الأمام لإيقافها. أحاط بالفتاة المسكينة برعاية خائفة
وحاول إعادتها إلى الفراش؛ لكنها، في ضلالها، رآته
كعدو، وقد كالتت بعنف ضد والدها في حال من
اليأس. بجهود خارقة، نزعت نفسها من يده عدة مرات
وجعلته يلاحقها عبر الغرفة؛ صرخت بشدة وضربته بقوة.
لمنعها من الخروج، كان عليه أن يحتجزها بالقوة، وبقيدتها
بشدة بين ذراعيه. أخيراً، حشد كل قوته، رفعها ووضعها
على السرير. نظرت إليه بتعبير ينم عن اللوم وأخذت تبكي
بمرارة. وقالت وهي تن:

- لقد انتصرت على فتاة صغيرة، أيها الفارس الخائن! لماذا
أنت متردد الآن لا أحد يرى جريمتك سوى الرب! لكن
هذا الإله وضع الموت بيننا. القبر مفتوح بيننا.

كان الأب التعس غارقاً في الحزن لدرجة أنه لم يسمع

هذه الكلمات. جالساً على الحجر، ينظر إلى ابنته الباكية
بعيون زائغة، لقد تخلت عنه الشجاعة وسقط رأسه بلا
حول ولا قوة على صدره. كانت ماتيلدا قد أغلقت عينيها
وبدا أنها نائمة. أضاء بصيص أمل طفيف قلب الأب؛
هذه الراحة يمكن أن تخفف من معاناة ابنته وأفكارها.
مع هذه الفكرة، بقي بلا حراك حتى لا يزجج نوم المسكينة
التائهة، فقط تأملها بعيون ممتلئة بالحب، فيها هو يتذوق
لحظة راحة في وسط كل أحزانه.

بعد لحظات قليلة من مغادرة بريدل قلعة ماليه، وصل مع الجزائريين إلى سانت كروا. وبالفعل، في الطريق، التقى ببعض سكان بروج الذين أخبروه أن الحامية الفرنسية في المدينة مسلحة. كان ما زال عقله مسلوباً بفعل انتصاره، ولم يستمع إلى النصائح وقد اعتقد أنه قوي بما يكفي لدخول بروج ضد إرادة الفرنسيين؛ ولكن تمت إعاقته مع الجزائريين بأمر طارئ. كانت الطريق المؤدية إلى بوابة المدينة مزدحمة للغاية لدرجة أنه كان من المستحيل المرور عبر هذا الحشد الكثيف. وعلى الرغم من حلول الليل المظلم، إلا أنه يمكن للمرء أن يدرك من خلال آلاف الأصوات التي اختلقت في همهمة مرتبكة أن عدداً لا يحصى من الناس غادروا المدينة: نظر بريدل مندهشاً إلى هذا الشعب الذي تقدم مثل بحر غضب ووقف مع جزائره على جانب الطريق. لم يكن الهاربون يركضون بلا نظام، بل شكلت كل عائلة مجموعة مميزة ولم تختلط بالآخرين. وسط كل مجموعة امرأة تبكي؛ على كتفها استراح والد مسن من ذوي الظهر المقوسة؛ تعلق رضيع على صدرها، ويتبعها أطفال آخرون، متشبثين بتورتها ويمسكون بيديها. وخلفها سار الأبناء الأكبر سناً، مترنحين تحت وطأة الأثاث والفراش. كان هناك عدد لا نهائي من هذه المجموعات الصغيرة؛ بعضها تلتها عربات محملة بالبضائع، والبعض الآخر

على ظهور الخيل؛ لكن عدد أولئك الذين يمكنهم استخدام
الدواب صغير للغاية.

بدافع الفضول لمعرفة سبب هذا الهروب العجيب، سأل
بريدل العديد من الهاربين عن وجهتهم ولماذا يغادرون
مدينتهم؛ لم تستطع هتافات النساء الحزينة تفسير هذا اللغز
له. صاح واحد منهم:

- أوه يا سيدي، لقد أراد الفرنسيون حرقنا أحياء! نحن
نفر من موت قاس!

قال آخر بمزيد من الألم:

- يا سيد بريدل، من أجل حياتك، لا تدخل إلى بروج
لأن هناك مشنقة مقامة لك أمام باب الحدادين!

عندما أراد العميد طرح سؤال ثان، ليستفسر عن الأمر
أكثر، ارتفع صوت أقوى، مثل عواء الذئب، فوق الحشد
وصاح:

- إلى الأمام! إلى الأمام أيها التعساء! الفرسان الفرنسيون
يلحقون بنا!

فاندفع الجميع إلى الأمام في يأس، ومرت رؤوس الجموع
بسرعة لا تُصدق في الظلام. وبفجأة سُمعت أصوات حزينة
تهتف: يا للويل! يا للويل! إنهم يحرقون مدينتنا. انظروا،
أسنة اللهب تتصاعد فوق أسطح منازلنا. يا للويل! يا

للويل!

استدار بريدل، الذي كان قد توقف، نحو المدينة ورأى دوامات من اللهب والدخان الأحمر فوق الأسوار. مزق الألم والغضب قلبه؛ صرخ مشيراً إلى المدينة:

- أيها الرجال! هل يوجد بينكم من جبان بما يكفي للسماح لمدينته بأن تدمر بهذه الطريقة؟ لا! لن يفرحوا بهذه النار! انهضوا! انهضوا! أطيحوا بكل شيء في طريقكم! يجب أن نمر.

متبوعاً برفاقه، اندفع بقوة لا تقاوم بين الحشود وفرق العائلات الخائفة. هب عواء رهيب في الهواء وسرعان ما فتح هؤلاء الهاربون صفوفهم؛ لأنهم اعتقدوا أن الفرسان الفرنسيين كانوا بالفعل وراء ظهورهم. لذلك كان من السهل على جان بريدل أن يمر بسرعة عبر هؤلاء النساء والأطفال التائهين. بينما كان مندهشاً من عدم رؤية رجال أصحاب في وضع يسمح لهم بالقتال، وقد بحث عبثاً عن أصحاب المهن والحرف، تم إيقافه فجأة في مساره من قبل مجموعة منتظمة.

قد تألفت إلى حد كبير من رجال حرفة النسيج، كانوا جميعاً مسلحين، ولكن بطريقة مختلفة. حمل بعض منهم الأقواس، والبعض الآخر سكاكين أو فؤوساً أو أسلحة أخرى. كان هناك عميد أو قائد للفريق يسير بيضاء أمام

هؤلاء الرجال وبالتالي سد الطريق مثل الحاجز. خرج عدد كبير من هذه القوات من المدينة بدوره، وبلغ عدد المسلحين من سكان بروج خمسة آلاف رجل. كان يريدل على وشك الاقتراب من قائد الفريق، عندما سمع صوتاً آخر يسيطر على صوت الأسلحة. تعرف على صوت كوينك من الكلمات التالية:

- كونوا هادئين وشجعان يا رفاقي! لا أحد يترك صفه! ولا تسرعوا كثيراً حتى لا تنتشر الفوضى بيننا. إلى الأمام؛ الكتيبة الثالثة! أغلقوا الصفوف! القائد ليندينز، أغلق جناحك الأيسر!

هتف يريدل، عندما أصبح بالقرب من دي كوينك:

- ولكن ماذا يعني هذا؟ أتم تستمتعون بتمارين جميلة! هل ستتركونهم يحرقون مدينتكم؟ هل ستتبعون أبناءكم مثل الجبناء؟ أيها الجبناء المساكين!

أجاب دي كوينك:

- طائش دائماً ومنفعل دائماً! أي حريق تحدث عنه؟ تأكد من أن الفرنسيين لن يحرقوا أي شيء.

- لكن، سيد بيير، هل أنت أعمى؟ ألا تستطيع أن ترى السنة اللهب تتصاعد فوق جدراننا؟

- حسناً، لقد أشعلنا القش لإخراج أمتعتنا عبر الباب

دون صعوبة. المدينة ليس بها ضرر يا صديقي. تعال معي إلى سانت كروا، لدي بعض الأسرار المهمة لأخبرك بها؛ الآن حان الوقت! أنت تعلم أنني أحكم على الأمور بدم بارد، وبسبب ذلك، فأنا على حق في أغلب الأحيان؛ لذا اتبع رغبتى ورتب جزاريك. هل تود ذلك؟

- لا بد لي أن أفعل ذلك، فإنني لا أعرف شيئاً مما حدث. من فضلك أوقف نساكليك للحظة.

أمر دي كوينيك الزعماء بإيقاف رجالهم للحظة، ومن ثم ارتفع صوت جان بريدل؛ وكان يصيح:

- أيها الجزائريون، لتصطفوا على رأس القوات. كل منكم في فريق، هيا اسرعوا!

في الوقت نفسه، ركض إلى الجزائريين وحدد لهم أماكنهم. وعندما تم ذلك، عاد ثانية بالقرب من دي كوينيك، قائلاً:

- نحن جاهزون يا سيدي، يمكنك أن تقودنا الآن.

أجاب عميد النساكليك:

- لا، بريدل، اترك لك القيادة الرئيسة للقوات؛ أنت تبدو كجنرال أكثر مني.

هتف بريدل، نخوراً بهذا التكريم، بصوت مدوّ:

- الجزائريون والنساجون بالخطوة العادية. إلى الأمام!

عند هذا الأمر، تحركت الصفوف، وتقدم الجيش الصغير ببطء على الطريق. بعد فترة وجيزة، وصلوا إلى سانت كروا، بالقرب من النساء والأطفال، الذين توقفوا هناك بأثاثهم. كان مخيمًا غريبًا: كان عدد لا يحصى من العائلات جالسًا على الأرض. وكانت الليلة مظلمة للغاية لدرجة أنه كان من المستحيل أن نرى على بعد خطوات قليلة لو لم تظهر الحرائق المضاعفة، التي أُضيت للتو، حشد الهاربين الجالسين في دائرة متوهجة. أضاء اللهب بتوهج ضارب إلى الحمرة الوجوه المنقبضة للأمهات، وهن يعانقن أطفالهن الرضع الخائفين على صدورهن، ويضعن الأطفال الأكبر سنًا على ركبهن، وهم يبكون من العطش والجوع. صرخات الأطفال، وشكاوى النساء المكتومة، كانت مفاجئة مثل الصلاة الأخيرة التي تملوها على قبر أحد الأصدقاء.

دخل دي كوينيك إلى منزل بجانب الطريق مع بريدل وطلب من السكان إعطائه غرفة. وضع القرويون، المليونين بالاحترام لعميد النساجين، منزلهم بالكامل تحت تصرفه وقادوا الاثني عشر في بروج إلى غرفة صغيرة تحت الأرض. أخذ دي كوينيك المصباح من يدي المرأة التي قادتهما وأغلق الباب حتى لا يتمكن أحد من التجسس عليهما أو مفاجأتهما؛ أظهر لبريدل مقعدًا، وجلس بجانبه

وقال للجزار الذي كان ينظر إليه بفضول:

- يجب أن أشرح لك أولاً سبب مغادرتنا للمدينة ليلاً مثل الهاربين. إنه خطأك. إنه بسبب تعطشك للانتقام الذي قت بإشباعه ضد حامية قلعة ماليه. النيران التي انطلقت في سماء الغابة، قرعت جميع أجراس الإنذار في مدينتنا، وقد اجتمع جميع السكان بقلق، في هذه الأوقات الحزينة، دائماً ما يكون الموت أمام أعينهم. السيد دي مورتاي، مع عدم وجود نية أخرى سوى الحفاظ على سلامته الشخصية، رتب جنوده في الميدان: لم يكن أحد يعرف ما يجري؛ ولكن، عندما ركض بعض ضحاياك من ماليه وصرخوا مطالبين بالانتقام من شعب بروج، كان من المستحيل كبح جماح الفرنسيين، فقد أرادوا حرق كل شيء وذبح كل شخص. اضطر السيد دي مورتاي إلى تهديدهم بالموت ليعوق مشروعهم. قد تعتقد جيداً أنني في هذه المناسبة جمعت النساء وأعددت نفسي لمقاومة عنيدة. ربما كنا سننجح حتى في طرد الفرنسيين؛ لكن هذا الانتصار كان سيكلفنا عزيزاً، أو سيكون غير مواتٍ لنا، كما سأوضح لك. لذلك ذهبت بجواز للعبور الآمن إلى السيد دي مورتاي، ونلت تعهداً منه؛ أنه لن يلحق أي ضرر بالمدينة، طالما غادرنا على الفور. عند غروب الشمس، سيشتق كل الكوارتس الذين سيقون في المدينة.

شعر بريدل بالمرارة عندما سمع هذه الشروط التي يرويها

عميد النساجين ببرودة شديدة.

- هل هذا ممكن؟ لماذا قبلتها هذا بمنتهى الجبن؟ لماذا تركتم أنفسكم لتكونوا مثل قطع الحملان الغبية؟ لو كنت هناك لما كنت قد غادرت بروج.

- أوه! إذا كنت هناك. هل تعرف ماذا كان سيحدث؟ كانت شوارع بروج ستمتلئ بالجنث وكانت النيران ستحول منازلنا إلى رماد. لكن صديقي المتهور جون، دعني أشرح لك الوضع بمزيد من التفصيل، وبعد ذلك ستري أنني على صواب، وأنا أعلم ذلك. من المؤكد أن مدينة بروج لا يمكن أن تظل حرة ومستقلة ما دامت المدن الأخرى في البلاد تعيش تحت نير الأجانب؛ لأن أعداءنا سيكونون دائماً عند أسوارنا. تفهم كلمة وطن أيضاً في أصغر قرية كما تفهم في مدينتنا بروج. لا يمكننا كسر أغلال الهيمنة الفرنسية إلا بمساعدة مدن أخرى في فلاندرز، حيث يوجد أعداء في كل مكان يكون من المرغوب فيه استعادة الحرية. من المؤكد أنك فكرت أيضاً في هذا؛ ولكن، في حماسك الرجولي، تخطيت العقبات كافة، دون إزالتها من طريقك. كما أنه فاتك شيء أكثر أهمية؛ أرجو أن تجيبني على هذا السؤال: من أعطى لك الحق في الاغتيال والحرق؟ من الذي شرع فينا هذه الجرائم التي - في الأرض - يعاقب عليها بالموت وفي العالم الآخر باللعة؟

نظر بريدل إلى عميد النساجين بنظرة ساخطة ثم أجاب:

- لكن، سيدي، أعتقد أنك تحاول أن تضللي بخطاباتك الجميلة. من يعطينا الحق في القتل والحرق؟ من يعطي هذا الحق للفرنسيين، قل لي؟

- من؟ ملكهم فيليب لو بيل وقائدهم العام دو شاتيلون. كما أن الملوك يحملون على رؤوسهم المتوجة الثواب على خيرهم أو العقاب على أوامرهم الظالمة. بالإخلاص والطاعة، لا يمكن لأحد من الرعايا أن يخطئ. الدم المسفوك يشهد على السيد الذي أمر به. لكننا نحن الذين نتصرف دون أوامر، مسؤولون أيضاً عن أفعالنا أمام الرب وأمام الناس؛ الدم الذي سفك من قبلنا يقع على رؤوسنا. أثار غضب ناري عميد الجزارين. لقد أثر خطاب دي كوينك على قلبه بشدة. فقال:

- ولكن، يا سيدي، يبدو أنك تشعر بالندم؛ وسيكون ذلك مؤسفاً. ألم ندافع عن أجسادنا وممتلكاتنا، وكان حب سيدنا الشرعي الأسد هو ملهمنا في هذه الطريق؟ وأعلن نفسي نقياً من كل جريمة؛ وآمل أن فأسي لم يرَ ضحيته الأخيرة. إذا كنت أميل أحياناً إلى إلقاء اللوم على سلوكك غير المفهوم، فأنا مع ذلك لا أجرؤ على القيام بذلك؛ لأن طرقتك سرّ أكثر من مصير الروح التي تخرج من هذا العالم.

- يمكنك أن تتخيل أن هناك شيئاً ما يختبئ هناك، وهذه هي العقدة التي سأفكها من أجلك. لطالما اعتقدت، سيد جون، أنني كنت صبوراً جداً وبطيئاً جداً؛ لكن استمع إلى ما كنت أفعله، بينما، انت في انتقامك، تسفك دماء أعدائنا دون جدوى. لقد أبلغت الكونت جي سراً بجهودنا من أجل حرية الوطن، وقد أقرها بموافقة السيادة. الآن لم نعد متمردين يا صديقي. الآن، نحن ملازمون شرعيون لسيدنا.

صاح بريدل في نشوة:

- شكراً لك يا سيدي، الآن أفهمك. كم يدق قلبي لهذا الاسم الجليل! نعم كنت متمرداً وعرفت ذلك. لكن، الآن، أنا محارب حقيقي.. الفرنسيون سيلاحظون الفرق!

- وقد استخدمت هذه الموافقة لدعوة جميع أصدقاء الوطن سراً إلى انتفاضة عامة، وقد نجحت في دعوتي الأولى، ففي مدن فلاندرز كافة، سيخرج جميع الكوارتس الشجعان من الأرض.

صاح عميد النساجين يد بريدل وتابع:

- وهكذا، يا صديقي البطل بريدل، آه لن تشرق شمس الحرية في فرنسا بعد الآن لأي فرنسي! وخوفاً من انتقامنا سيرجعون لنا الأسود. بالنسبة لنا، أبناء بروج، ستدين لنا فلاندرز بمخلصها! ألا يمتلئ ذهنك بأنبل نخر من هذه

قبل بريدل دي كونينك بسعادة بالغة. وصاح:

- يا صديقي يا صديقي! تلمس كهاتك قلبي، ينتابني شعور مجهول؛ أنا أسعد رجل على وجه الأرض! يا وطن! كم تجعلهم عظماء، النفوس التي تحبك. انظر، سيد بيبر، في هذه اللحظة، لن أعطي اسمي الفلمنكي لتاج فيليب لو بيل.

- أنت لا تعرف كل شيء حتى الآن. لقد تحالف جي دو فلاندرز وجون، كونت نامور معنا؛ وسيحضر السيد جون بورلوت سكان غينت؛ وفي أودينارد، لدينا أيضًا السيد أرنولد؛ وفي آلت، لدينا السيد بودوان دي باينرود. وقد وعدنا السيد جون دي رينيبي بجميع أتباعه في زيلاند والعديد من اللوردات الأقوياء الآخرين سيكونون معنا. ماذا تقول الآن عن صبري؟

- أوه! أنا معجب بك يا صديقي، وأشكر الرب في قلبي أنه منحك مثل هذه العبقرية العظيمة. انتهى الأمر بالنسبة للفرنسيين. سأقاتل حتى آخر رجل فيهم.

- اليوم، الساعة التاسعة، يجب أن يجتمع اللوردات الفلمنكيون لتحديد يوم الانتقام. يبقى جي الشاب هنا كقائد عام؛ ويعود الآخرون على الفور إلى أراضيهم لإعداد رجالهم. سيكون من المناسب لك أن تأتي معي. لن تجهض الإجراءات المتخذة إذا كنت لا تعرفها. هل تود

أن تأتي معي إلى بولس بلانك بالقرب من فال؟

- فليتم ذلك وفقاً لرغبتك يا سيدي؛ ولكن ماذا سيقول
رفقاؤنا عن غيابنا؟

- كل شيء مخطط له بالفعل في هذا الجانب؛ أبلغتهم
بمغادرتي، وأعطيت الأمر إلى العميد ليندينز، سيذهب مع
رجاله إلى دام لانتظارنا هناك. تعال، نحن نغادر الآن؛
لأننا بدأنا بالفعل نكون في وضع النهار.

ربما حصانين على عجل، وبعد أن أعطى بريدل الأوامر
اللازمة لجزائريه، غادر العميدان قرية سانت كروا. خلال
هذه الرحلة السريعة، لم يكن من الممكن لهما التحدث
كثيراً، ومع ذلك، أجاب كونينك على أسئلة بريدل لفترة
وجيزة، وكشف أمامه الخطة الجريئة للخلاص العام. بعد
الركض بأقصى سرعة لبعض الوقت، رأيا الأشجار المزروعة
فوق أبراج نيوينهوف. تساءل بريدل:

- هل هذه نيوينهوف، حيث قتل الأسد الكثير من
الفرنسيين؟

- نعم نصف فرسخ آخر ونصل إلى بوا بلان.

- عليك أن تعترف أنه لا يمكننا أن نسمي سيدنا روبرت
بشكل أفضل؛ لأنه أسد حقيقي عندما يحمل السيف في
يده.

قبل أن ينهي بريدل هذه الكلمات، كانا في المكان الذي حارب فيه الفارس الأسود خاطفي الأميرة الصغيرة؛ وقد رأيا الجثث المملطخة بالدماء ملقاة على الأرض.

تمم دي كونينك:

- إنهم فرنسيون، على حافة الطريق، دعنا نتقدم يا سيدي، لا يمكننا أن نتوقف.

شاهد بريدل هذا المشهد الرهيب بفرح بغيض؛ وقد دفع حصانه فوق الجثث الممتدة على الأرض. وأجبره على سحقها. دون الالتفات إلى صرخات دي كونينك، داس الجثث واحدة تلو الأخرى بدقة قاسية. اضطر عميد النساجين إلى العودة رغماً عنه، صائحاً:

- لكن يا سيد بريدل، ماذا تفعل؟ توقف! من أجل الرب! هذا انتقام غير عادل!

- دعني أفعل ذلك، فأنت لا تعلم أن هؤلاء الجنود هم من ضربوني على وجهي.. لكن ماذا أسمع؟ ألا تسمع هناك، في أنقاض نيوينهوف، صوتاً يشبه أنين امرأة؟ أوه! يا لها من فكرة! لقد أخذوا الكوتيسة الصغيرة ماتيلد هناك.

قفز من على حصانه دون أن يربطه وركض بأقصى سرعة نحو الأنقاض. تبعه صديقه؛ لكن بريدل كان بالفعل في فناء القلعة قبل أن ينزل دي كونينك من على حصانه؛

وقد استغرق بضع لحظات لربط الجوادين على الطريق. كلما تقدم بريدل في الأنقاض، كان يسمع أنين الفتاة بشكل أفضل، لكنه لم يعرف بالسرعة الكافية في أي غرفة تتواجد هي، ومن ثم قفز على كومة من الحجارة ونظر من إحدى النوافذ. تعرف على ماتيلد للوهلة الأولى. لكن الفارس الأسود الذي أراد أن يحتضنها، والذي تدفعه بشدة عن نفسها، لا يمكن أن يكون في عينيه سوى عدو. عند هذه الفكرة، سحب فأسه من تحت عباءته، وتساق النافذة، وسقط مثل الحجر على الأرض. صائحاً في الفارس الأسود:

- خاطف جبان! أيها الفرنسي الخائن! لقد عشت طويلاً بما فيه الكفاية. لن تضع يديك على ابنة الأسد دون عقاب يا سيدي!

الفارس الذي صُدم من هذا الظهور المفاجئ استمع بدهشة لتهديدات العميد. ولكن بعد أن رفع عينيه عن الجزائر إلى النافذة، عاد إلى رشده وأجاب:

- أنت مخطئ، سيد بريدل، أنا واحد من أبناء فلاندرز. اهدأ! لقد تم الانتقام بالفعل لابنة الأسد.

لم يكن بريدل يعرف ماذا يصدق، كان لا يزال يغلي من الغضب، لكن كلمات الفارس، الذي أجاب بالفلمنكية وكان يعرفه بالاسم، أوقفت ذراعه المهددة. لم تكن ماتيلد خائفة على الإطلاق من هذا الظهور؛ مقتنعة في حيرتها أن

الفارس الأسود كان أحد خاطفيها، وقد قالت بانفعال:

- اقتله! لقد سجن والدي ويريد أن يأخذني إلى جين دي نافر الشريرة، المنافق! لماذا لا تنتقم لدمك أيها الفلمنكي؟

نظر الفارس إلى الأميرة الصغيرة برأفة مؤلمة، وانهمرت دموع غزيرة من عينيه:

- طفلة تعيسة.

قال بريدل وهو يصاح الفارس:

- أنت تحب وتشفق على ابنة الأسد، ساحني يا سيدي، لم أعرفك.

في هذه اللحظة ظهر دي كونينك عند مدخل القاعة. رفع يديه بدهشة إلى السماء وانحنى على ركبتيه أمام الفارس، وهتف:

- أيتها السماء، الأسد، سيدنا!

كرر بريدل وجثا على ركبتيه بجانب عميد النساجين:

- الأسد سيدنا! يا رب ماذا فعلت؟

ظلا صامتين، ممتلئين بالاحترام، ومنحنين بشدة أمام الفارس. قال لهما روبرت دي بيثون:

- قوما أيها المواطنين المخلصان، أعرف ما فعلتماه من أجل ملوككما. انظرا إلى ابنة كوتكما لعلكما تفهمان كيف

يجب أن ينكسر قلب الأب عند هذا المشهد. ولا شيء
يساعدها، حتى لو شربة ماء أخرى من الجدول.. أترياً،
يختبرني الرب بضربات صعبة!

تساءل بريدل:

- إنه من دواعي سروري، أيها الكونت اللامع، أن
تأمرني بتدبير كل هذا من أجلك؟ هل يستطيع خادم
متواضع أن يخدمك في هذا؟

كان عند الباب بالفعل، لكن لفتة من الكونت أوقفته.

- اذهب وابحث عن طبيب، لكن ليكن من أحد الرعايا
المخلصين. وطالبه بأن يقسم ألا يكشف ما يراه أو يسمعه.

قال بريدل بسعادة:

- سيدي الكونت، أعرف واحداً من أفضل الأصدقاء،
ومن أكثر الكلوارتس في فلاندرز. يعيش في وردامي؛
سأحضره قريباً.

- أرجو منك ألا تذكر له أسد فلاندرز، وآمرك أن يظل
هذا سراً أبدياً. هيا اذهب.

غادر بريدل الغرفة. وبعدها سأل روبرت مطولاً عميد
النساجين عن شؤون البلاد، تابع الكونت:

- نعم، سيد دي كونينك، لقد علمت، خلال فترة

أسري، من السيدين ديفوس وأدولف دي نيولاند، عن جهودك غير المثمرة. إنه لمن دواعي سروري العظيم أن يظل لدي مثل هؤلاء الرعايا المخلصين، بينما تخلى عني معظم النبلاء.

أجاب العميد:

- هذا صحيح، أيها الكونت اللامع، أعلن العديد من اللوردات أنفسهم ضد البلاد؛ ومع ذلك، فإن عدد الذين بقوا مخلصين أكبر حتى من هؤلاء الأوغاد. كما أن جهودي لم تفشل، كما تعتقد سيادتكم، إن فلاندرز لم تكن أقرب من خلاصها أكثر من الآن، في الوقت الحاضر، يجتمع السيدان جي وجون دو نامور، مع عدد كبير من النبلاء الآخرين، في بوا بلان، في فال، لإقامة تحالف قوي؛ إنهم ينتظرونني (60).

- ماذا تقول أيها العميد قريب جداً من هذه الأنقاض؟
أخوأي؟

- نعم يا سيدي، شقيقك المرموقان، وأيضاً صديقك المخلص، جون دي رينيسي.

- يا إلهي! ولا يمكنني احتضانهم. هل أخبرك السيد ديفوس في ظل أي ظروف غادرت سجنني؛ وأنا لا أريد تعريض حياة أولئك الذين منحوني الحرية مؤقتاً للخطر. ومع

ذلك، أريد أن أرى إخوتي، سأذهب معكم، لكن سأضع القناع على وجهي. إذا رأيت أنه من الضروري الكشف عن نفسي، فسأعطيك علامة، وستطلب من اللوردات تقديم كلماتهم للحفاظ على سر اسمي، وإذا رفضوا ذلك، فلن يتعرفوا علي. أنا أيضاً لا أريد أن أتكلم.

- سوف يتم تنفيذ إرادتك يا سيدي، تأكد من أنك ستكون سعيداً معي، أنا أفهم نيتك جيداً.. تبدو المريضة نائمة، قد تكون الراحة مواتية لها.

- هي لا تنام، الطفلة المسكينة، إنها تغفو من التعب، لكن يبدو أنني أسمع خطى الرجال. الآن، بعدما أضع خوذتي، لن تتعرفوا علي، لا تنس ذلك.

دخل الطبيب مع بريدل: حيا الفارس الأسود باحترام ودون أن ينطق بأي كلمة، ذهب مباشرة إلى المريضة الشابة. بعد الفحص العادي، أعلن أن الفتاة يجب أن تنزف في أسرع وقت ممكن، وأنه سيجعلها تنزف من ذراعها اليسرى، بينما أبقاها العميدان بلا حراك فوق السرير؛ تهد الكونت متأماً وأدار رأسه بعيداً. بدا له أن الدم الذي اندفع، على شكل تيار قوي، من ذراع الفتاة الصغيرة، يجلب له المرارة وجعله يرتجف من الألم، ومع ذلك، التفت نحوها، ولكن دون أن ينظر إليها.

لم يوقف الطبيب الدم حتى أصبحت منهكة تماماً. تمفست

عدة مرات بجهد وسقطت في نوبة متشنجة. ثم تم ربط ذراعها وبدا أنها نائمة. قال الطبيب ملتفتاً إلى روبرت:

- يا سيدي، أوكد لك أن الشابة ليست في خطر. والراحة تعيد لها حواسها وحسها السليم.

عند هذه الكلمات الموسية، التفت الكونت إلى العميد و غادر الغرفة معهما؛ وبمجرد أن أصبح بالخارج، قال لبريدل:

- سيدي، أنا أكلفك برعاية طفلي. ارجع إليها وحافظ عليها حتى عودتي.

- السيد بيبر، سرحل متجهين إلى بوا بلان.

ثم ذهب لإحضار حصانه وخرج من الأنقاض. رافقه عميد النساجين سيراً على الأقدام وترك جواده على الطريق، على الرغم من أنه مر من هناك مع الكونت؛ لكنه كان يعلم أنه ليس من المستحب أن يركب جواداً إلى جانب سيده. على بعد مسافة قصيرة من بوا بلان، جاء عشرات اللوردات لمقابلة ثلاثهم؛ هؤلاء الذين كانوا يتعرفون على دي كوينيك، كانوا يعودون معه إلى الغابة. وكان من أهم هؤلاء جون كونت نامور، والشاب جي، وكلاهما أخوان لروبرت دي بيثون؛ جيوم دي جوليرز، ابن عمهما، راهب وعميد إيكس لا شايل، جان دي رينيسي، الزيلاندي الشجاع، جان بورلوت، بطل وريجن،

أرنولد داوديناردي وبودوان دي باينرود. كان وجود فارس مجهول بالنسبة لهم مصدرًا كبيرًا للريبة؛ لذلك نظروا إلى دي كونينك كما لو أنهم يطالبون بتفسير سريع. فتقدم بينهم عميد النساجين وقال:

- أيها السادة، أقدم لكم أعظم عدو لفرنسا وأنبئ فرسان فلاندرز. سبب مهم، يرتبط بحياة الرجل الأكثر كرمًا، يمنعه من أن يترككم تتعرفون إليه في هذا الوقت؛ لذلك، لا تأخذوا على محمل سيئ أنه سيبقي قناعه منخفضًا وأيضًا أنه لن يتكلم؛ لأن صوته معروف لديكم جميعًا مثل صوت أمهاتكم. وإخلاصي المثبت هو ضمان لكم بأنني لم أجلب لكم أخًا زائفًا.

اندهش الفرسان من هذا التفسير وبحثوا في ذاكرتهم عن اسم المجهول؛ ومع ذلك، نظرًا لأن وجود الأسد الأسير لم يكن ممكنًا بالنسبة لهم، فإن افتراضاتهم كانت عبثًا. ومع ذلك، كانت لديهم ثقة كاملة في حكمة عميد النساجين وأرسلوا خدامهم في اتجاهات مختلفة، لحمايتهم من أي مفاجأة. وقد بدأ دي كونينك هكذا:

- أيها السادة، كان أسر ملوكنا المرموقين أمرًا قاسيًا للغاية على شعب بروج. صحيح أننا كثيرًا ما تمردنا؛ لأننا أردنا ألا تنتهك مبادئنا، ربما تعتقدون أننا تحالفنا مع الفرنسيين، ولكن ضعوا في اعتباركم أن شعبًا حرًا وكريمًا

لا يمكن أن يعاني من أسياذ أجانب؛ ونحن أيضا، منذ
نغ الملك فليب لو بيل، كثيرا ما تعرضت حياتنا وممتلكاتنا
للخطر؛ وقد دفع العديد من الفرنسيين حياتهم مقابل جريمة
ملكهم، وقد تدفقت دماء الفلمنكيين في بروج أنهارا. في
هذا الوضع، أخذت على عاتقي أن أفهم سيادتكم بوجود
إمكانية للخلاص المشترك؛ لأنني أعتقد أن سلاسلنا
الحديدية أصبحت بالية ويمكننا ببعض من المجهود الكبير
أن نكسرهما. وهناك حدث سعيد من شأنه أن يخدمنا
بشكل رائع: فقد قام عميد الجزارين بتدمير قلعة ماليه، وقام
السيد دو مورتماي بإخراج كل الكلوارتس من بروج،
والآن يتواجد أصحاب المهن والحرف في دام، وعددهم
خمسة آلاف رجل. انضم إلينا سبعمئة جزار، ويمكنني أن
أؤكد لسيادتكم أن هؤلاء الجزارين، مع عميدهم بريدل، لن
يتراجعوا وإن كان أمامهم ضعف عددهم من الفرنسيين؛
فهم فرقة أسود حقيقية. لذلك، لدينا جيش هائل، ويمكننا
أن ندخل على الفور في حملة ضد الفرنسيين، ويتم إرسال
المساعدة اللازمة إلينا بواسطةكم من المدن الأخرى. هذا ما
كنت أود أن أخبركم به؛ والآن ما يسعدني هو أن تبدووا
سيادتكم في اتخاذ الإجراءات اللازمة، في الوقت المناسب،
وأنا في انتظار أوامركم للامثال لها كمواطن متواضع.

أجاب جون بورلوت:

- يبدو لي أن العجلة الزائدة يمكن أن تضر بنا. على الرغم

من أن سكان بروج مستعدون للمعركة، إلا أننا لم نصل بعد إلى المدن الأخرى. سيكون من المستحسن تأخير الانتقام قليلاً، لجمع المزيد من الموارد، تأكدوا أن الجيش الفرنسي سيتم تعزيزه بعدد كبير من الخونة الفلمنكيين والليليارد. دعونا نتذكر بأننا نحارب من أجل حرية الوطن، فإذا هزمنا، سينتهي الأمر إلى الأبد، ويمكننا تعليق سيوفنا على الحائط.

ونظراً لأن بولوت النبيل اشتهر في جميع أنحاء فلاندرز بأنه محارب ماهر وحكيم، فقد تمت الموافقة على رأيه من قبل جميع الفرسان الحاضرين، بما في ذلك جون دي نامور. لكن الشاب جي تقدم إلى الأمام وقال بحماسة:

- ولكن يا سادة، أرجو أن تأخذوا في الاعتبار أن كل ساعة تمر هي ساعة معاناة لأبي الكهل وأقربائي التعساء؛ فكروا فيما يجب أن يعاني منه أخي الموقر. هو الذي كان مجرد التفكير في الإهانة يحزنه، تركاه لمدة عامين في أيدي أعدائه! لقد تركنا سيوفنا تصدأ في راحة مخزية! إذا كان بإمكان إخواننا الأسرى التحدث معنا من أعماق سجنهم، كانوا سيسألونا: «ماذا صنعنا بسيوفنا، كيف أتمنا واجباتنا كفرسان؟» بماذا نجيب؟ لا شيء؛ يرتفع أحمر العار إلى جباهنا ونحني رؤوسنا في وجه هذا اللوم. لا، لا أريد الانتظار أكثر؛ سيُسحب السيف ولن يستقبله الغمد إلا مصبوغاً بدماء العدو! آمل أن يدعم ابن عمي جيوم هذا

القرار.

صاح جيوم دو جوليرز:

- كلما كان ذلك أسرع كان أفضل؛ لقد كنا نتأمل في معاناة أقربائنا لفترة طويلة. لقد حانت أخيراً، ساعة الانتقام المنشودة؛ سأرتدي درعي وسأرتديه إلى يوم الخلاص. سأحارب مع ابن عمي جي ولا أريد أن أسمع مطلقاً شيئاً عن التأخير.

استأنف جون بورلوت:

- لكن، أيها السادة، اسمحوا لي أن أوضح لكم أننا بحاجة إلى وقت لتجميع رجالنا سرّاً، وأنكم ستفقدون المساعدة إذا خرجتم من دوننا؛ لقد أعرب السيد دي رينيبي بالفعل عن نفس الشعور.

قال جون دي رينيبي:

- لا يمكنني حقاً تسليح التابعين لي في أقل من أسبوعين، وأنصح جيوم بالاستماع إلى تجربة بورلوت النبيل، من المستحيل إحضار المرتزقة الألمان في مثل هذا الوقت القصير، ما رأي السيد دي كونينك؟

- إذا كان لكلمة مواطن متواضع أي وزن عند أسياده، فإنني أنصحهم أيضاً بتوخي الحذر، على الرغم من ذلك قد يكون ضد مشروعني. في هذه الحال، يمكننا أن نستغل هذه

المهلة لتجنيد بعض إخوتنا من بروج، ويمكن لهؤلاء السادة
تجميع وتجهيز أتباعهم أثناء انتظار السيد جوليرز ليأتي مع
المرتزقة الألمان.

أعرب الفارس الأسود مراراً وتكراراً عن استيائه بإيحاء
رأسه؛ كان من الواضح أنه يريد التحدث؛ ومع ذلك فقد
ضبط نفسه. أخيراً، اضطر جي وجيوم على الموافقة على
إرادة اللوردات الآخرين لأن كل هؤلاء عارضوا مشروع
ابني العم. ثم تقرر بعد ذلك أن يذهب دي كوينيك
ليحشد أتباعه في دام وأردنبورج؛ وأن يذهب جيوم دي
جوليرز بحثاً عن أتباعه في ألمانيا؛ أن يذهب الشاب جي
ليحضر عدداً من جنود أخيه؛ وأن يذهب السيد دي
رينيسي إلى زيبلاند، والآخرين كل في منطقتهم، من أجل
الاستعداد للتمرد العام.

وبينما كانوا يتصاحفون لتركوا بعضهم بعضاً، أوقفهم
الفارس الأسود بإشارة وصاح:

- أيها السادة.

عند سماع صوته، ارتسم الذهول على وجه الفرسان،
وأخذوا ينظرون لبعضهم بنظرة عابرة لقراءة الانطباعات
على الوجوه؛ لكن الشاب جي اندفع إلى الأمام وقال:

- يا ساعة الحظ! أخي، أخي العزيز، صوتك يخترق أعماق

قلبي.

وبإيماء سريعة، نزع الخوذة عن رأس الفارس الأسود وألقى بنفسه برقة على رقبتة. متابعاً:

- أخي التعيس، لقد عانيت كثيراً؛ لقد تأسفت لأسرك كثيراً! ولكن، الآن، يا لها من فرحة! أستطيع أن أقبلك كثيراً؛ إذا لقد كسرت قيودك وعاد الملك إلى فلاندرز! اغفر لي دموعي؛ إنها تندفق من حبي لك، وللذكرى المؤلمة لأحزانك. حمداً للرب على هذه السعادة غير المتوقعة!

عائق روبرت الشاب جي برقة بالقرب من قلبه؛ ثم التفت إلى أخيه جون دي نامور، وبعد أن احتضنته أيضاً قال:

- أيها السادة، ما كنت لأعلن عن نفسي لأسباب مهمة؛ ولكن من واجبي أن أقول لكم شيئاً من شأنه أن يغير قراركم. علمت أن ملك فرنسا استدعى جميع أتباعه مع شعوبهم للذهاب إلى الحرب ضد البربر؛ ونظراً لأنه خاض هذه الحرب فقط لإعادة ملك مايوركا إلى مملكته، فمن المؤكد أنهم يفضلون استخدام هذا الجيش القوي للحفاظ على فلاندرز(61). ومن المقرر عقد الاجتماع في نهاية شهر يونيو. وهكذا، في غضون شهر، سيكون فيليب لو بيل على رأس سبعين ألف رجل. فكروا فيما إذا كان الأفضل تحديد وقت الخلاص قبل هذا الوقت.. في وقت لاحق، يمكن أن يصبح ذلك مستحيلاً. أنا لا آمرم أن تفعلوا شيئاً؛ لأنني غداً يجب أن أعود إلى الأسر.

فهم الفرسان الأساس الذي يستند إليه هذا السبب وأدركوا أنه لا يجب إضاعة الوقت. وقد غير هذا من خطتهم بمعنى أنهم لن ينتظروا أكثر من ذلك وأنهم سيعودون على عجل، مع كل المساعدة الممكنة، إلى دي كونينك في دام. تم تعيين الشاب جي، بصفته أقرب قريب لروبرت، رئيساً عاماً للجيش؛ لأن جيوم دي جوليرز لم يرغب في قبول هذا اللقب، بسبب صفته كراهب. لم يستطع جون دي نامور شخصياً مساعدة الفلمنكيين؛ لأنه في ظل الاضطرابات التي كانت على وشك الحدوث، كان لا يزال لديه ما يكفي ليقوم به للحفاظ على دولته؛ لكنه وعد بإرسال قوات جيدة من فرسان نامور.

شيئاً فشيئاً، غادر اللوردات، كل واحد ليذهب إلى منطقته الخاصة. وقد تركوا روبرت بمفرده مع شقيقه، وابن عمه جيوم وعميد النساجين.

قال روبرت بألم:

- أوه جي، أوه جيوم، إنني أحمل لكما خبراً سيئاً للغاية لدرجة أن في لا يجرؤ على النطق به، كما أن عيني تذرغان الدموع كلها فكرت بالأمر. أنتما تعرفان كيف أخذت الملكة الشريرة جين أختنا فيلبين المسكينة؛ لقد عاشت التعيسة لمدة ست سنوات طويلة في زناينة في اللوفر، وخلال هذا الوقت لم تستطع رؤية والدها أو إختوتها. إنكم

تؤمنون بأنها لا تزال موجودة لأنكم تدعون الرب لخلاصها.
ولكن للأسف! صلواتنا لا طائل منها: ماتت أختنا
مسمومة وألقي بجسدها في نهر السين (62).

عندما يصيب الألم قلب الرجل فجأة، فإنه يجرمه مؤقتاً
من الشعور؛ هكذا كانت الحال مع جي وجيوم اللذين
شجبت وجنتاهما، أصبحتا معقودي اللسان، يشعران بالذعر
ويحدقان في الأرض. كان جي أول من استيقظ من هذا
الدهول متدمراً:

- إذا هذا صحيح، فيلبين ماتت! يا روح أختي المباركة!
يمكنكم أن تقرؤوا في قلبي ما يعتريني من ألم، كما أتحرق
شوقاً للانتقام. سوف يتم الانتقام لك! سأريق في ذكراك
سيلاً من الدماء!

قال جيوم دي جوليرز:

- ابن عمي الجميل، لا تدع الألم ينحرف بك بهذا الشكل؛
أسفك على أختك، صلّ من أجل روحها وحارب من
أجل حرية الوطن: القبر الغيور لا يعيد موته بالدم.

قاطعهما روبرت:

- أخوأي، من فضلكم اتبعاني. سوف نذهب لرؤية ابنه
أخيكم ماتيلد، إنها ليست بعيدة عن هنا. سوف أخبركم،
على طول الطريق، أشياء أخرى محزنة. اجعلوا خدمكم

ينتظرون هنا.

أخبرهما روبرت على التوالي كيف أنقذ طفله بأعجوبة من أيدي الفرنسيين، وما عانى منه في أنقاض نيوينهوف. لكن آلامه خفت؛ لأنه كان يؤمن بنبوءة الطبيب. كان الأمل في أن تتعرف إليه ماتيلد أخيراً يواسي قلبه، وقد منحها عادة المصائب القوة لتحمل أحزانه.

وسرعان ما وصلوا إلى الغرفة حيث بدت ماتيلد نائمة بسلام، وكان خذاها بيضاوين مثل المرمر وتمسها ضعيفاً لدرجة أنها بدت بلا حراك. كانت الدهشة العظيمة قد اتتبت الفرسان من منظر الدم الممزوج بالطين الذي يلوث ثيابها؛ لقد قاموا بشد أيديهم برأفة؛ لأن الطبيب جعلهم يفهمون، بوضع إصبعه فوق فمه، بأن قدراً من الصمت الكبير مطلوب. قبل الشاب جي شقيقه روبرت وذرف الدموع المريرة على صدره. وتذمر:

- اللعنة! ها هي ابنة الأسد!

قاد الطبيب الفرسان إلى خارج القاعة وقال لهم:

- استعادت الأميرة الصغيرة وعيها، لكنها تعاني من ضعف كبير. أثناء غيابكم، استيقظت وتعرفت إلى السيد بريدل؛ وطلبت منه الكثير من الأشياء لجمع ذكرياتها. لقد واساها بإخبارها أن السيد دي بيثون سيأتي لرؤيتها؛ وخذاعها بهذا الأمل الكاذب ليس بأمر جيد. لذلك

أنصحكم بعدم تركها. ومن الضروري أيضاً تزويدها بملابس أخرى ومكان آخر للراحة.

نظراً لأن روبرت لم يستطع الكشف عن نفسه لعدد أكبر من الناس، فإنه لم يتبع تعليمات الطبيب في الوقت الحالي؛ وقد عاد مع أخويه إلى ماتيلد وحدق بألم صامت في ملاحظها الشاحبة. كانت شفتا الفتاة الصغيرة تتحركان، ومن وقت لآخر، كان يصدر منهما صوت غير محسوس كأنه كلمة «أب» وقد تكرر ذلك مرتين مثل صوت القيثارة الناعم في أذني روبرت؛ مما جعله يمسح بشفتيه على فم ابنته؛ هذه القبلة، التي جعلت قلب الطفلة الصغيرة يشعر مرة أخرى بروح أبيها، ومنحت دم الفتاة مزيداً من الانسابية ومزيداً من الحياة، وقد صبغت وجنتيها بلون وردي، وقد فتحت عينيها بابتسامة هادئة، ولكن مليئة بالبهجة.

كان لا يمكن وصف تعبير ملامح الفتاة الصغيرة، فقد نظرت بصمت إلى عيني والدها وبدأت منغمسة في متعة حلوة. من المؤكد أن الملائكة في السماء يكون لديها هذا الشكل عندما ينظرون إلى وجه الرب. وسرعان ما مدت ذراعيها، وانحنى روبرت نحوها للسماح لها بتقبيله؛ لكن هذا لم يكن ما تريده الفتاة الصغيرة. وجهت يديها إلى وجه والدها ولمست خديه بأصابعها الحانية. اختبر كلاهما إحساساً لذيذاً: لم يندم الأب على أحزانه وشكر الرب الذي

يعطي البأسين القوة لتحمل الفرح.

ولم يكن الحاضرون أقل تأثراً بمشهد الحب الأبوي هذا؛ لم يجرؤوا على كسر هذا الصمت المهيب ومسحوا عيونهم خلسة. لكن مواقفهم كانت مختلفة جداً: جون دي نامور، الذي كان يسيطر على عواطفه بشكل أفضل، وقف منتصباً، وبصره ثابت ورأسه مرفوع، كان الره جيوم دي جوليرز راکعاً يصلي ويده مضموتان، مزج الشاب جي وجون بريدل مع إشفقاهما رغبة شديدة في الانتقام، وكان هذا واضحاً في التعبير فوق شفاههما وفي إيحاء التهديد بقبضاتهما المشدودة، دي كوينك، الذي بدا بارداً جداً في ظروف أخرى، كان الأكثر تأثراً على الإطلاق؛ تدفقت دموعه بغزارة تحت يده التي غطى وجهه بها. ما من رجل في فلاندرز يحب ملكه روبرت أكثر من عميد النساجين؛ كل ما يمكن أن يجعل الوطن مجيداً كان مقدساً بالنسبة للحرفي وصاحب المهنة النبيل من بروج.

أخيراً، عادت الشابة ماتيلد من خدرها اللطيف؛ وقد ضغطت رأس والدها بذراعيها على صدرها الذي يلهث، وقالت بحب شديد بصوت ضعيف:

- يا أبي.. أبي الحبيب! أنت الآن على صدر طفلك السعيدة! أسمع قلبك ينبض على قلبي. الحمد لله الذي بعث البهجة للناس وكل هذه السعادة! ابق: هكذا ملتصقاً بقلبي يا

أبي العزيز؛ لأن قبلاتك تأخذني إلى السماء.

صاح روبرت:

- حبك يا طفلي! يحجي كل الآلام التي عانيت منها. لا يمكنك أن تفهمي كم كانت نكستك مؤلمة بالنسبة لي؛ لكن الرب وحده يعلم ما يغمر قلبي من فرح في هذه اللحظة. أريد أن أضعف قبلا تي على خديك لأنها بلمس على جروح روحي؛ عزيزتي ماتيلد، كم كان مصيرك قاسياً!

كان الشاب جي قد اقترب وهو يفتح ذراعيه أمام السرير، وبدا أيضاً أنه يريد قبلة. بمجرد أن تعرفت إليه ماتيلد، قالت له دون أن تترك والدها:

- آه! صديقي الحبيب، أنت هناك أيضاً! هل تبكي علي؟ والسيد جيوم الذي يصلي هناك والسيد جون دي نامور؛ هل نحن إذاً في وينينديل؟

- ابنة أخي المسكينة، آلامك تحطم قلبي! أوه! دعيني أعانقك؛ لأن روحي بحاجة إلى الراحة.

تركت ماتيلد والدها وتركت عمها جي يقبلها، ثم ارتفع صوتها وصاحت:

- السيد دي جوليرز، تعال وقبلني أيضاً، وأنت أيضاً، عمي الجميل جون، خذني إلى قلبك أيضاً؛ أنت تحبني بحنان شديد!

قاموا بتقبيل ماتيلد الواحد تلو الآخر، وجعلتها هذه اللمسات اللطيفة تنسى كل مصائبها. عندما اقترب جيوم دي جوليرز بدوره، نظرت إليه بدهشة من رأسه إلى أخمص قدميه، وتساءلت:

- ما هذا، السيد جيوم؟ لماذا تلبس هذه الصدرية فوق درعك، ولماذا يصاحب هذا السيف الطويل خادم الرب؟
رد جيوم:

- الراهب الذي يدافع عن البلاد يحارب أيضًا من أجل مذابح إلهه!

وقف دي كونينك وبردل ورأسهما مكشوفان، على مسافة قصيرة من السرير الصغير وتقاسما حال من النشوة العامة. نظرت إليهما ماتيلد بامتنان عميق؛ سحبت رأس والدها إلى صدرها مرة أخرى وسألت بصوت خفيض:

- هل ستعدني بشيء يا والدي الحبيب؟

- بكل شيء يا طفلي. رغباتك ستسعدني.

- أتوسل إليك يا أبي، أن تكافئ هذين المواطنين بما يستحقانه، لقد خاطرا بحياتهما كل يوم من أجل الوطن.

- لتتحقق رغبتك، ماتيلد! سوف أتأكد من أنه يمكنهما تقبيلك مرة أخرى أيضًا، عندما يستحقان ذلك مثل الآن؛ ارخ ذراعيك من فوق رقبتني؛ لأنني يجب أن أتحدث إلى

جي.

اقترب من شقيقه وأخرجه من الغرفة. وقال:

- أخي، إنه من المناسب ألا يترك المرء دون مقابل تفانٍ مثل تفاني عميدي مدينتنا الطيبة بروج؛ لذلك، فإنني أمنحك القوة اللازمة لتحقيق هذه الرغبة: عندما تكون في ساحة المعركة، في وسط أصحاب المهن والحرف، فإن إرادتي هي أن تجعل دي كونينك وبريدل فارسين، في حضور جميع رفاقهم؛ حتى يعلو فيهم حب الوطن. اجعل هذا الأمر سرّاً في قلبك حتى يحين الوقت؛ الآن دعنا نعود لأنني يجب أن أترككم جميعاً. اقترب روبرت من ابنته، وأخذ يدها في يده وقال:

- طفلي، أنتي تعرفين كيف غادرت سيجني، فارس كريم يقضي أيامه بدلاً مني في الزازانة. لا تحزني ماتيلد؛ استسلمي معي لقسوة القدر..

قاطعته ماتيلد:

-أوه! أعلم يا لها من كلمة مؤلمة على شفيتك: أنت! يجب أن تتركني.

- لقد قلتها، يا طفلي النبيلة، يجب أن أعود إلى زوزانتي؛ لقد وعدت بشرفي أنني سأبقى ليوم واحد فقط في فلاندرز. لا تبكي! لن يطاردنا الموت المحقق لفترة طويلة.

- لن أبكي، سيكون ذلك نكراناً للجميل. أشكر الرب الذي قدم لي الكثير من المواساة، وسأثبت أنني أستحق ذلك بالصبر والصلوات. تعال يا أبي. أعطني قبة أخرى، ولترافقك ملائكة السماء.

قال روبرت:

-أيها العميدان، أمتحكما قيادة رجالي في بروج؛ سيد كونينك، لتكن القائد العام. أتوسل إليكما الآن أن تحضرا امرأة طيبة لابنتي وأن تحضرا لها ملابس أخرى، وتأخذها من هنا وتحفظها من أي إهانة؛ لقد وضعتها في عهدتكما، حتى تعامل حسب رتبتهما. سيد بريدل، من فضلك حرك حصاني للأمام.

بعد أن ودع روبرت شقيقه، عانق ابنته بين ذراعيه، ونظر إليها باهتمام بالغ، ربما قال أحدهم إنه يرغب في نقش ملامحها العزيزة في ذاكرته. قبلته الفتاة عدة مرات وعانقته بشدة.

تابع روبرت:

- الآن، ابنتي، ابتهجي قليلاً، سأعود قريباً إلى الأبد. قريباً سيعود أخوك أدولف.

- أوه، قل له إنني أرجوه أن يسرع! اذهب الآن في رعاية الرب يا أبي العزيز لن أبكي في وداعك!

أخيراً ترك روبرت ابنته وامتنى حصانه؛ الفرسان الآخرون فعلوا الشيء نفسه. بمجرد أن سمعت ماتيلد خطى الجياد، سالت الدموع على خديها رغم وعدها؛ إلا أن هذا لم يضايقها، فقد بقي معها شعور لطيف ومريح.

نفذ دي كونينك وريدل أوامر الأسد، سيدهما؛ بحثا عن امرأة توفر لماتيلد ملابس نظيفة وقد حصلت عليها. قرب المساء، كانوا جميعاً في دام، في معسكر شعب بروج.

لكن ما فائدة مقاومتهم للقتلة القساة؟ ما الذي يمكن أن تفعله يد المرأة الضعيفة في مثل هذا الصراع غير المتكافئ؟

(م. دوزينبرغ)

خلال الأيام الثمانية التي أعقبت الأحداث التي ذكرناها للتو، غادر أكثر من ثلاثة آلاف حربي من مدينة بروج وذهبوا للانضمام إلى كونينك في أردنبورج، أو عميد الجزارين في دام. شعر الفرنسيون بالجرأة بسبب غياب كل هؤلاء الرجال الشجعان، فتركوا أنفسهم لكل التجاوزات والمخالفات وعاملوا السكان الذين بقوا في المدينة كعبيد (63). ومع ذلك، كان هناك العديد من سكان بروج الذين لم يتعرضوا للمضايقات من قبل الفرنسيين، والذين على عكس ذلك، كانوا يحضرون اجتماعاتهم ويفرحون معهم، مثلما يفعلوا مع الإخوة، لقد كانوا الفلمنكيين الذين تخلوا عن بلادهم وسعوا، بالطرق غير المشروعة، إلى الحصول على النعم الطيبة التي يقدمها الظالمون؛ وكانوا يتباهون باسم الليليارد كلقب شرف. أما الكلوارتس، فكانوا الأبناء الحقيقيين والشرعيين لفلاندرز، الذين حملوا الظلم بفارغ الصبر، لكنهم تشبثوا بعرق جبينهم ولم يتركوه دون دفاع في أيدي المخربين الأجانب.

لقد مارس الأعداء مضايقاتهم المخزية على هؤلاء الكلوارتس وعلى النساء والأطفال المنبوذين. لا شيء يمكن أن يوقفهم الآن في ثأرهم الجبان؛ استولوا دون مقاومة، على كل ما يرضيهم، بالقوة من طعام وسلع من المحلات وبدلاً من أن يدفعوا مآلاً دفعوا الإهانات واللعنات. أثار هذا السلوك سخط الحرفيين الذين كانوا ضحاياهم لدرجة أنهم لم يعودوا يعرضون أي شيء للبيع في متاجرهم، ورفضوا بشكل جماعي، أن يبيعوا من الآن فصاعداً للفرنسيين قطعة لحم أو حتى كسرة خبز. وقد دفنوا مؤنهم في الأرض لحمايتها من بحث العدو: في نهاية أربعة أيام، كان رجال الحماية جائعين لدرجة أنهم شوهوا ويحتازون الحقول بحثاً عن بعض الطعام (64). لحسن الحظ بالنسبة لهم أن رعاية الليليارد عاجت هذه الحال جزئياً، لكن المجاعة القاسية استمرت في السيطرة على المدينة. أغلقت منازل الكلوارتس؛ لم تكن هناك أي تجارة، وكل شيء باستثناء الجنود الغاضبين والليليارد الجبناء، كل شيء في بروج، بدا وكأنه نائم في سبات أبدي. أصحاب المهن والحرف، الذين وجدوا أنفسهم بلا عمل، لم يتمكنوا من دفع الضريبة وأجبروا على الاختباء هرباً من ملاحقات السيد دي جيستل. عندما قام محصلو الضرائب بجولاتهم أيام السبت لتلقي العملة الفضية، لم يعثروا على أي شخص في المنازل، وبدا الأمر وكأن كل سكان بروج قد هجروا المدينة.

اشتكى العديد من التجار إلى جون دي جيستل، زاعمين أنهم لا يستطيعون دفع الضريبة لأنهم لا يكسبون شيئاً؛ لكن الفلمنكي الوغد لم يستمع إلى هذا العذر المشروع وأراد اللجوء إلى القوة لجلب الضريبة؛ ومن ثم تم إلقاء عدد كبير من الأشخاص في السجن، أو حتى إعدام آخرين.

السيد دي مورتاي، الحاكم الفرنسي للمدينة وقائد الحامية، وهو أقل قسوة من محصل الضرائب، أراد في هذه الحالة القسوى أن يخفف الضرائب، ولهذا الغرض، أرسل إلى كورتراي رسوياً مكلفاً بإبلاغ السيد دي شاتيلون عن المجاعة التي سادت في بروج والحال المؤسفة التي تعاني منها الحامية، وطلب الإذن بإلغاء ضريبة العملة الفضية. جون دو جيستل، الذي كان ملعوناً ومكروهاً من قبل مواطنيه، كفلنكي منشق، انتهز هذه الفرصة لحث السيد دي شاتيلون على اتخاذ تدابير تقشفية. رسم، بألوان داكنة، الروح المتمردة لشعب بروج، وطالب بالانتقام من عنادهم، بحجة عدم رغبتهم في العمل، حتى يتمكنوا من رفض دفع ضريبة العملة الفضية لأسباب معقولة.

عند استلام هذه الرسالة، غضب السيد دي شاتيلون غضباً شديداً؛ فقد رأى، أنه على الرغم من ذلك، جميع جهوده لتنفيذ أوامر الملك لم تكن مثمرة؛ لأن الشعب الفلمنكي شعب لا يقهر. في كل المدن كانت هناك أعمال شغب كل يوم؛ اندلعت الكراهية ضد الفرنسيين من جميع

الجهات؛ وفي بعض الأماكن، في بروج، على سبيل المثال، غالباً ما يقع موظفو الملك فيليب ضحية لكمين أو اعتداء في وضع النهار. كما أن أنقاض الأبراج المنهارة لقلعة ماليه لم تبرد بعد، كما أن دماء الفرنسيين الذين قُتلوا هناك لم تختف بعد.

لقد بدأ كل شيء من بروج، كما أنها كانت المصدر لكل ما حدث في مدن فلاندرز الأخرى، بدأت روح التمرد التي تسببت في مثل هذا الإحراج الشديد لفرنسا من بروج، بدأت نيران الثورة لأول مرة من بروج. كان بريدل ودي كونينك هما رأس هذا التنين الذي رفض الانحناء تحت صولجان فيليب لو بيل. بهذه القناعة، قرر دي شاتيون توجيه ضربة قوية وخنق الحرية الفلمنكية في دماء المتمردين؛ لقد أراد استخدام هذه العقوبة المروعة كوسيلة تخويف رهيبه. سارع إلى تجميع سبعمئة من الفرسان القادمين من هاينو، وبيكاردي، وفلاندرز الفرنسية؛ وانضم إليهم عدد كبير من المشاة، ومليئاً بالغضب سار إلى بروج على رأس هذا الجيش. من بين المؤن والأمتعة التي رافقت القوة الاستكشافية، تم العثور على عدد قليل من البراميل الكبيرة المليئة بالحبال التي خصص لها دي شاتيلون وجهة قاسية ومروعة. كان من المقرر استخدامها لشنق كونينك وريدل والمتواطئين معهما (65).

حتى لا يكون لدى الكوارتس وقت للقيام بأعمال

شغب، كما حدث سابقاً، كان الجنرال الفرنسي قد أبلغ سراً وصوله إلى السيد دي مورتماي؛ وبالتالي، لم يكن أحد سوى حاكم المدينة يعرف بالانتقام المروع الذي كان على وشك الحدوث.

في 18 مايو 1302، في تمام الساعة التاسعة صباحاً، دخل الجيش الفرنسي مدينة بروج، وانتشرت الرايات. سار دو شاتيلون على رأس سبعمئة فارس؛ كانت نظرتة مليئة بالتهديد والقسوة؛ وكان ذلك بمثابة نذير شؤم مؤلم على السكان الذين أخذوا يفكرون في المصائب التي حلت بهم. يمكننا أن نتعرف إلى الكلوارتس من خلال التعبيرات المرترسة على وجوههم؛ فقد حنوا رؤوسهم وكان الحزن العميق يبدو على ملامحهم؛ ومع ذلك، كانوا يعتقدون أنه ستفرض عليهم أكثر من ضريبة العملة الفضية وحكومة أكثر صرامة وتشدداً.

تجمع الليليارد بالقرب من الحامية في سوق الجمعة. كان وصول حاكم فلاندرز سعيداً للغاية بالنسبة لهم؛ لأنه كان سينتقم لهم من ازدراء الكلوارتس. بمجرد أن اقترب منهم السيد دي شاتيلون، صاح هؤلاء الخونة لبلدهم عدة مرات:

- تحيا فرنسا! يحيا الحاكم!

مدفوعين بالفضول، توافد الناس حشوداً وتجمعوا بالقرب

من سوق الجمعة. على كل وجه كان هناك تعبير لا يوصف من الخوف والقلق؛ ضغطت النساء أطفالهن على صدورهن بصمت، ونزلت دموع الكثيرات منهن دون أن يدركن ذلك. ومع ذلك، يا للقلق الذي ألهمه انتقام الحاكم في هذا الحشد، لم يدوّ صوت: «تحيا فرنسا!» على الرغم من أن الكراهية الشديدة لمضطهدي فلاندرز قد تحولت إلى عجز، فقد اشتعلت في قلوبهم، وعلى الرغم من حزنهم وثببتهم، كانت في بعض الأحيان نظرة مهددة تلمع في عيونهم مثل البرق الهارب؛ ومن ثم يفكرون في دي كونينك ويريدون ويتذكرون الأعمال الانتقامية الدموية.

بينما تابع الناس، بعيون قائمة، تطورات الجيش الفرنسي، وضع دي شاتيلون رجاله في الميدان: احتل طابور طويل من سلاح الفرسان كلا الجانبين، وتجمع في نهاية السوق فرقتان من المشاة، جاءتا لدعم سلاح الفرسان، بحيث يتم إغلاق أي مخرج من جانب؛ ثم ترك الجانب الآخر حراً عن قصد، حتى يتمكن الناس من مشاهدة ما سيحدث. عندما تم إجراء هذه الترتيبات وتنفيذها، تم إرسال ما تبقى من سلاح الفرسان والمشاة سراً لإغلاق بوابات المدينة وحراستها.

وقف السيد دو شاتيلون مع عدد قليل من القادة وسط فرسانه. كان المستشار بيير فلوت، حاكم المدينة، السيد دي مورتي، وجون دي جيستل، الليلارد، يتحدثون معه في

موضوع يبدو مهمًا للغاية، بحكم إيماءاتهم، التي بدت أكثر نشاطًا عن ذي قبل. على الرغم من أنهم كانوا يتحدثون بصوت منخفض بما يكفي لعدم سماعهم من قبل شعب بروج، كان بإمكان القادة الفرنسيين، من وقت لآخر، التقاط بضع كلمات؛ ألقى أكثر من فارس شجاع نظرة شفقة على الناس القلقين ونظرة ازدراء على الخائن دي جيستل؛ لأنه قد قال للسيد دي شاتيلون:

- صدقني يا سيدي، أعرف أبناء بلدي العنيد، إن تساهلك سيزيد من جرأتهم الوحقة؛ لا تحم أشخاصًا لا يستحقون فإنهم كالثعابين الذين سيلدغونك لاحقًا. أعلم من التجربة أن سكان بروج لن يحنوا رؤوسهم طالما كانت سكاكين الجزارين الكبيرة بينهم؛ يجب علينا القضاء على هؤلاء الأوباش، إذا أردنا أن نصبح أسيادًا حتى النهاية.

قال المستشار مبتسمًا:

- يبدو لي أن السيد دي جيستل لا يجب مواطنيه كثيرًا؛ لأنه إذا صدقناه صباح الغد، فلن تكون هناك روح حية في بروج.

أجاب دو جيستل:

- أؤكد لكم أيها السادة أن حب ملكي هو ما يلهمني بهذه الكلمات. أكرر: موت الزعماء هو وحده القادر على إخماد نار الفتنة في مدينتنا. إنني أفكر بقائمة الكلوارتس

الأكثر عناداً؛ طالما أن هؤلاء المحرضين على الفتنة أحرار في القدوم والذهاب في بروج، فإن استعادة الهدوء ستكون مستحيلة.

- وكم يبلغ عدد الأشخاص في هذه القائمة؟

أجاب دو جيستل ببرود:

- نحو أربعين.

صاح دي موريماي ساخطاً:

- ما هذا؟ هل تشنق أربعين من هؤلاء الرجال؟ هؤلاء ليسوا من يستحقون مثل هذه العقوبة القاسية، لكن المنفيين الموجودين في دام. دي كوينك وبريدل، مع أنصارهما، هؤلاء هم الذين يستحقون الموت؛ لكن ليس هؤلاء المواطنين العزل الذين تريد رؤيتهم مشنوقين لغرض الانتقام فقط.

أشار دو شاتيلون:

- سيد دي موريماي، لقد أخبرتني أنهم رفضوا بيع الطعام لجنودك، أليس هذا كافياً؟

- صحيح يا سيدي إنهم مخطئون في الرفض؛ كرعايا كان من واجبهم أن يطيعوا؛ لكن جنودي لم يتلقوا أي أجر لمدة ستة أشهر، ولا يريد الفلمنكيون بيع أي شيء إلا نقداً. سأكون آسفاً جداً إذا كانت رسالتي الموجهة إليك لها مثل

هذه العواقب الوخيمة.

يقول دو جيستل:

- إن هذا الخوف يمكن أن يكون ضارًا جدًا بتاج فرنسا.
إنني مندهش من رؤية السيد دي مورتماي يدعم سكان
بروج المتمردين.

عند هذا اللوم، استولى على دي مورتماي غضب شديد؛
لأن دي جيستل أعطى كلماته نعمة مهينة. ألقى الحاكم
الكريم على الليليارد نظرة ملك محتقر وأجاب:

- إذا كنت تحب بلدك، فلن تطلب موت إخوانك
التعساء، وأنا، كفرنسي، لن أضطر للدفاع عنهم. استمع
جيدًا إلى ما سأقوله، وما أريد أن يسمعه السيد دي
شاتيلون، لم يكن شعب بروج يرفض إطعامنا أبدًا إذا لم
تطالبهم بدفع ضريبة العملة الفضية بشكل ظالم واستبدادي.
يجب أن نعزي لك السبب في الاضطرابات وأعمال الشغب
هذه؛ لأنك تسعى فقط إلى قمع مواطنيك وإلحاقهم، من
خلال مضايقاتك لهم، بكرهية عميقة ضدنا.

يقول دو جيستل:

- أتم جميعًا شهود علي أنني نفذت بأمانة أوامر السيد دي
شاتيلون.

أجاب دو مورتماي:

- إن ذلك لم يكن نيتك بأي حال من الأحوال؛ لكن كان عليك أن تنتقم لنفسك من الازدراء الذي يظهره لك شعب بروج. لقد ارتكب الملك، سيدنا، خطأ فادحاً عندما كلف رجلاً يكرهه الجميع بتحصيل الضرائب في فلاندرز.

صاح دو جيستل بغضب:

- السيد دو مورتماي، سوف تحاسب على هذه الكلمات!

قال دو شاتيلون:

- إنني أمتنعاً من أن توجهها كلمة أخرى لبعضكما في وجودي، إن سيوفكما هي التي ستحكم بينكما. وأنا أعلن لك، سيد دي مورتماي، أن ما قلته للتو يضايقني كثيراً وأن السيد دي جيستل كان يتصرف وفقاً لإرادتي؛ يجب أن ينتقم لتاج فرنسا، وإذا لم يغادر المحرضون على الثورة المدينة، لكان عدد المشائق في بروج أكثر من الطرق. وحتى أذهب لمعاقبة أصحاب المهن والحرف هناك، سأجعل من هذه المدينة مثلاً صارخاً.. السيد دو جيستل، أرجو أن تحدد لي الثمانية كلوارتس الأكثر عناداً، حتى تتحقق العدالة في أسرع وقت ممكن.

حتى لا يفوت انتقامه، نظر دي جيستل إلى الشعب المذهول واختار ثمانية رجال كانوا في الحشد، وأشار بهم إلى السيد دي شاتيلون. ثم تقدم منادٍ مسلح نحو الشعب، وبعد الأمر بالصمت، صاح المنادي:

- باسم الملك فيليب المعظم، مولانا وسيدنا، يستدعي ويحضر في الحال أمام السيد دي شاتيلون، أولئك الذين سأعلن أسماءهم؛ أولئك الذين لا يحضرون سيعاقبون بالموت بلا رحمة أو تأخير!

نجحت الحيلة تماماً؛ لأنه بمجرد أن تم النطق بأسمائهم، خرج الكلوارتس المدعوون من الحشد في الحال أمام السيد دي شاتيلون؛ كانوا يعرفون أنه ليس لديهم شيء جيد ينتظرونه وربما كانوا سيسعون للخلاص بالهروب، إذا كان ذلك ممكناً. وكان معظمهم من الرجال في الثلاثينيات من العمر؛ سار بينهم فقط رجل مسن إلى الأمام ببطء، ورأسه منحني. كان استسلامه هادئاً مرسوماً على ملامحه، حيث لا يمكن للمرء أن يلاحظ أدنى تعبير عن الخوف. وقد توقف أمام السيد دي شاتيلون وحدق به بعين متسائلة كأنه يقول:

- ماذا تريد مني؟

بمجرد وصول آخر مستدعٍ، أعطى الحاكم إشارة، وتم تقييد الثمانية كلوارتس، على الرغم من مقاومتهم. ارتفعت الصيحات المكتومة والحزينة في صفوف الشعب؛ لكن قوة من سلاح الفرسان تقدمت بشكل مهدد نحو الحشد سرعان ما أسكتت علامات التعاطف هذه. في لحظات قليلة، أقيمت مشنقة الكبيرة في السوق وتم إحضار

راهب إلى الميدان. عند رؤية أداة التعذيب البشعة، بدأت نساء وإخوة الكلوارتس التعساء بالبكاء طلباً للرحمة، واندفع الناس إلى الأمام بضجيج وصخب. همهمة نشطة، حيث اندمجت اللعنات مع صرخات الانتقام، ارتفعت إلى السماء وعبرت السوق بأكملها، مثل مقدمة لأعمال الشغب. سرعان ما جاء عازف البوق إلى الحشد وهتف:

- استمعوا إليّ جيداً، حتى لا يجهل هذه الحقيقة أحد! إن المتمرد الذي يتجرأ، بالصراخ أو بأي طريقة أخرى، على الإخلال بسير عدالة اللورد حاكم فلاندرز، سيتم شنقه علماً ويعلق إلى نفس المشنقة مثل هؤلاء المتمردين!

قتل هذا الإعلان الشكاوى والاحتجاجات على شفاه الجميع، وخيم صمت دامس على الناس في قبضة القلق الرهيب. بكت النساء، ورفعن أعينهن إلى السماء، واشتكين لمن يفهم وحده، ولا يزال يستمع إلى الرجال، عندما يمنعهم الطاغية من الكلام؛ لعن الرجال عجزهم وحرقتهم الغضب المحموم. تم ربط سبعة كلوارتس على التوالي بالمشنقة وماتوا أمام أعين مواطنيهم. تحول حزن هؤلاء إلى اليأس؛ في كل مرة كان أحد الضحايا يلقي من أعلى السلم، تنحني الرؤوس نحو الأرض وتتنظر العيون بعيداً عن هذا المشهد المروع. كثيرون، بلا شك، كانوا سيغادرون المكان لو تجرؤوا على الانتقال؛ لكن ذلك كان ممنوعاً عليهم، وفي أدنى حركة حدثت في الحشد، جاء

الجنود بسيف مسلولة لإجبارهم على البقاء بلا حراك.

كان لا يزال هناك كلوارتس واحد أمام السيد دي شاتيلون، جاء دوره؛ لقد اعترف، وكان مستعداً للموت، لكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم لتنفيذ إعدامه: لم يكن السيد دي شاتيلون قد أصدر الأمر بعد. خلال هذا الوقت، توسل السيد دو مورتاي بالعفو عن الفلنكي الكهل؛ لكن دي جيستل، الذي كان يكن كراهية خاصة لهذا الكهل، ادعى أنه كان أحد المحرضين على التمرد وأنه هو أحد أكبر المعارضين للهيمنة الفرنسية. بأمر السيد دي شاتيلون، خاطب إياه بهذه الكلمات:

- لقد رأيت كيف عوقب رفاقك بسبب عصيانهم؛ أنت مدان مثلهم. لكن حاكم فلاندرز، مراعاة لشعرك الأبيض، يريد أن يعاملك برفق. إنه يمنحك الحياة على شرط أن تخضع من الآن فصاعداً كمواطن مخلص لفرنسا. يمكنك أن تتخذ نفسك بأن تصيح: «تحيا فرنسا!».

ألقى الرجل الكهل نظرة مليئة بالازدراء والغضب على الخائن وأجاب بابتسامة مريرة:

- كنت سأصيح بذلك، إذا كنت أشبهك، وإذا أردت تلطيف شعري الأبيض بالجبن. لكن لا، كشهيد أنا أحتقرك وأتحداك حتى الموت. أيها الخائن تشبه الحية التي تمزق أحشاء أمها؛ لأنك تسلم للأجانب الأرض التي

ولدتك. ارتجف! لأن لي بنين ينتقمون لي. وأنت لن تموت
في سريرك أيضاً! أنت تعلم أن الرجل لا يستطيع أن يكذب
في ساعته الأخيرة.

أصبح جان دي جيستل شاحباً عند سماعه هذه النبوءة
الجليلة من الرجل الكهل. لقد امتنع في هذه اللحظة من
الرجبة في الانتقام، وانقبض قلبه تحت وطأة نذير شؤم
مظلم؛ فالخائن يخشى الموت، باعتباره رسول انتقام الرب.
كان السيد دو شاتيلون قادراً على القراءة على ملامح
الكلوارتس إنه ما زال قوياً لا يتزعزع. فسأل:

- حسناً، ماذا يقول هذا المتمرد؟

أجاب دي جيستل:

- سيدي، إنه يهينني ويحتقر رحمتك.

قال الحاكم:

- اشنقوه.

الجندي الذي شغل منصب الجلاد، أمسك الرجل
الকেهه من ذراعه، وتبعه الأخير مطيعاً إلى درجات السلم؛
مرت بضع لحظات قبل أن تلتف العقدة حول رقبته.
حصل على البركة الأخيرة من الراهب ووضع قدمه أخيراً
على السلم ليصعد إلى حبل المشنقة.

لكن فجأة، على الرغم من جنود الحراسة، كانت هناك

حركة كبيرة في الحشد. بدفع ضغط لا يقاوم، تراجع البعض حتى جدران المنازل، وتم دفع البعض الآخر للخلف، إلى الأمام: شاب ذو ذراعين مكشوفتين اندفع بين الحشد، وتسلسل حتى المساحة الخالية في السوق؛ أظهر وجهه أعمق المشاعر، والغضب الشديد، والخوف الأكثر حيوية. بمجرد أن أفلت من حضن الجماهير، تجول في السوق بنظرة شاردة، اندفع إلى الأمام مثل السهم وصاح:

-أبي! يا أبي لن تموت!

قال هذه الكلمات، وهو يصعد إلى منصة الإعدام، وسحب خنجره من الغمد ودفعه إلى القبض في صدر الجلاد. اندفع الأخير إلى أسفل السلم، وأطلق صرخة من الألم وسقط في دمه. في هذه الأثناء، عانق الشاب الكلوارتس والده، ورفعته عن الأرض واختفى وسط الحشد مع هذا العبء المقدس. ظل الفرنسيون، المصدومون، يتفرجون ساكنين في هذا المشهد؛ لكن ذلك لم يدم طويلاً. فسرعان ما أيقظهم السيد دو شاتيلون من حالة ذهولهم. قبل أن يسير الشاب عشر خطوات، تم إيقافه عن طريق مجموعة من الجنود؛ وضع والده على الرصيف وهدد أعداءه بسكينه الذي لا يزال ساخنًا. وكان أمامه نحو خمسين فلنكيًا آخر. لأنه، كما قلنا، كان وسط الناس، لذلك اضطر الجنود لاقتحام الحشد للوصول إليه. وقد غضب الفرنسيون غضباً شديداً عندما رأوا رفاقهم العشرين يسقطون الواحد تلو

الآخر على الأرض. ظهرت السكاكين فجأة في أيدي الكوارتس؛ تم قتل الجنود بلا رحمة وفقد أكثر من فلسكي حياته في الاشتباك.

وجأة انطلق كل سلاح الفرسان نحو الناس، الذين حاولوا الهروب؛ سرعان ما فرقت سيوف المعركة العظيمة الحشد، وداست الخيول المتمردين بالأقدام في لحظة. لكنهم لم يموتوا دون انتقام؛ لأنهم صنعوا طبقات من جثث الأعداء. الأب والابن ممددان فوق بعضهما، وقد اخترقهما السيف نفسه، ولم تفصل أرواحهما في السفر الأعلى.. اندفع الناس مثل سيل في جميع الشوارع، وصاحوا صيحات للاستغاثة؛ عاد كل واحد على عجل إلى منزله: تم إغلاق الأبواب والنوافذ، وبعد لحظات قليلة، كان المرء يعتقد أن المدينة لم يعد بها سكان.

غاضبين من مقتل رفاقهم كما أنهم ميالون بطبيعة الحال إلى العنف، بدأ الجنود يتجولون في الشوارع على شكل مجموعات، ويدهم السيف، وقد تم توجيههم إلى منازل الكوارتس من قبل الليليارد. لقد ركلوا الأبواب والنوافذ، وسرقوا الأموال وأي شيء ذي قيمة، وحطموا أي شيء يعتقدون أنه ذو قيمة أو ثقيل للغاية بحيث لا يمكن حمله. تعرضت الفتيات الصغيريات الباقيات، اللاتي يمكن العثور عليهن في الأقبية وغيرها من المنازل، لسوء المعاملة؛ الرجال، الذين أرادوا الدفاع عن زوجاتهم

أو أخواتهم، سرعان ما غمرهم العدد وقتلوا تحت وطأة
المجانين المسلحين. هنا وهناك، أمام أبواب المنازل المنهوبة،
كانت الجثث مشوهة بين حطام الأثاث: لم يسمع المرء
إلا صرخات غضب الجنود وأنين النساء اليائسات. خرج
للصوص ضاحكين من المنازل المنكوبة، وأيديهم مليئة
بالذهب المسروق ومغطة بالدماء الفلنكية! ابتعد البعض
منهم بعدما شبعوا من القتل والنهب، تم استبدالهم بآخرين
أكثر قسوة؛ استمر هذا العمل الشائن لفترة طويلة، وتم
تنفيذ جميع الجرائم التي يمكن أن يرتكبها أي جندي
مسعود (66).

في منزل بيير دي كوينك لم يبق شيء على حاله؛ حتى
الجدران ما كانت لتظل قائمة لولا أن اللصوص لم يخصصوا
وقتهم لجرائم أخرى. ركضت عصابة أخرى مباشرة إلى
منزل العميد بريدل. بعد لحظات أُلقي الباب أرضاً ودخل
عشرون جندياً إلى الدكان يشتمون ويتدمرون. لم يقابلوا
أحداً، رغم أنهم مروا بجميع غرف المنزل. تم تحطيم
الخزائن، ونهب الذهب والفضة، وتمزيق جميع الأثاث،
وبينما سئم الجنود من أعمال التدمير، نظروا برضا شديد
إلى الأنقاض المتناثرة من حولهم، نزل أحد رفاقهم السلم
سريعاً قائلاً:

- سمعت شيئاً في العلية، هناك بالطبع أكثر من فلنكي
مختبئ تحت السقف؛ أعتقد أننا سنجد غنائم أفضل من

هنا، حيث من المحتمل أنهم أخذوا أموالهم معهم.

أسرع الجنود باتجاه الدرج؛ أراد كل منهم وضع يده على الغنيمة المعلنة أولاً؛ لكن صوت أحد رفاقهم منعهم من التقدم:

- انتظروا!! انتظروا!! لا يمكنكم فعل ذلك، ففتحة العلية يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام وقد تم إخراج السلم منها ولكن هذا لا شيء، فقد رأيت سلماً في الفناء. انتظروا لحظة، سأحضره.

سرعان ما عاد حاملاً السلم، الذي وُضع تحت الباب المسحور الذي حاولوا رفعه، لكن دون جدوى: فقد منعه قفل صلب من الحركة.

- حسناً، صاح أحد الجنود وهو ممسك بقطعة خشب قوية كانت فوق الأرض، طالما لم يفتحوا عن طيب خاطر، سنلجأ إلى وسيلة أخرى.

في هذه اللحظات، ضرب الباب المسحور بعنف، لكنه ظل ثابتاً لا يتزعزع كما كان من قبل. أنين مؤلم، تنهيدة متحشجة كالتى تطير معها الحياة، تردد صداها في العلية. تصايح الجنود:

- أوه، حسناً، إنهم فوق الباب المسحور.

قال صوت آخر:

- انتظروا، سأخرجهم قريباً، إذا كنتم تريدون مساعدتي قليلاً.

أخذوا عريضة خشبية أثقل ووجدوا جهودهم لرفعها؛ ثم ألقوا بها بقوة على الباب المسحور حتى انكسرت الألواح وسقطت. رن الهتاف المحموم، تم وضع السلم على الفتحة واندفع الجميع. عندما وصلوا إلى مدخل العلية، توقفوا فجأة، كان يمكن للمرء أن يقول إن مشهداً نادراً ومهيباً قد أصاب قلوبهم حتى إن الشتائم واللعنات قد توقفت على شفاههم وأخذوا ينظرون إلى بعضهم بتردد.

في الجزء الخلفي من العلية، كان يقف شاب، طفل، لم يكن عمره أكثر من أربعة عشر عاماً، بيده فأس، شاحب ومرتجف، يصوبه نحو المهاجمين دون أن تفلت من صدره أي كلمة؛ وقد أشرق اليأس البطولي في عينيه الزرقاوين. يمكنك أن ترى أن عاطفة عميقة حركته؛ لأن عضلات خديه الرقيقتين تقلصت بشكل متشنج وأعطت وجهه تعبيراً مخيفاً: إنه يشبه الرخام اليوناني. خلف الجزار الصغير كانت هناك امرأتان راكعتان، أم عجوز بشعر أبيض، ويدها مشبوكان وعيناها مرفوعتان إلى السماء، وفتاة صغيرة مضطربة بشعر أشعث. أخفت الأخيرة، التي أصيبت بالرعب، وجهها في ملابس والدتها، التي عانقتها في عناق محموم؛ في هذا الموقف، بقيت بلا حراك وكأنها جامدة؛ ولم تنهد ولا تن.

عندما تعافى الجنود من دهشتهم الأولى، اقتربوا بوحشية من هاتين التعيستين وسددوا لهما الشتائم؛ وكانوا في طريقهم لوضع أيديهم عليهما؛ لأن الطفل الذي عمل كمدافع عنهما لم يلهمهما بأي خوف. ولكنهم قد شعروا بغضب شديد عندما وضع الجزار الشاب قدمه إلى الورا، وبهذا الموقف الأكثر حزمًا، أدار بفأسه وجعلهم يرتدون في رعب! للحظة أوقفوا عدوانهم الإجرامي، حتى اندفع أحدهم إلى الطفل ليصيبه بسيفه، لكن الجزار أبعد سلاح عدوه وضرب كتفه بالفأس بقوة يأسه. ترنح المهاجم وسقط بين أذرع رفاقه. وكأن الضربة استنفدت قوة الشاب، سقط على الأرض وظل ساكنًا بجانب النساء. تجتمع الجنود على الفور حول رفيقهم الجريح وجردوه من ملابسه، وأطلقوا تهديدات شنيعة وشتائم مروعة. خلال هذا الوقت كانت المرأة العجوز تبكي بمرارة، وفي قبضة القلق الشديد، طلبت الرحمة بالفرنسية.

صاحت وهي تمد ذراعها نحو الجلادين: أشفقوا علينا نحن امرأتان مسكينتان! بحق الرب لا تقتلونا! انظروا إلى دموعي وتعاطفوا مع آلامنا! ماذا يفعل لكم موت امرأتين مسكينتين عاجزتين؟

هتف أحد الجنود:

- إنها والدة الجزار الذي قتل الكثير منا في ماليه، يجب

أن تموت.

صاحت المرأة العجوز:

- لا أيها السادة! لا تغمسوا أيديكم في دمي! أتوسل إليكم،
من أجل آلام الرب المقدسة، دعونا نعيش! خذوا كل ما
لدينا؛ كله لكم!

هتف صوت:

- مالكم! ذهبكم!

عند هذه الكلمات، أخذت المرأة علبة من خلفها وألقته
على الجنود. وقالت:

- أيها السادة، هذا كل ما تبقى لنا في العالم؛ أتركه لكم
عن طيب خاطر.

فتحت العلبة وتناثر على الأرض عدد كبير من العملات
الذهبية وأثنى المجوهرات. تحرك الجنود جانباً لجمع هذه
الغنيمة غير المتوقعة، وأمسك أحدهم الفتاة الصغيرة من
ذراعيها وسحبها بوحشية فوق الأرض. هتفت الفتاة بصوت
يحتضر:

- أمي يا أمي ساعديني!

مشدودة بحب طفلتها، وشاعرة في الوقت نفسه بيأس لا
يوصف؛ تحركت عيناها في محجرتها واشتعلت فيهما

النار مثل عيون الذئب في الظلام؛ ارتعدت شفتاها بشكل متشنج وتركت أسنانها مكشوفة، كما لو أن الأم قد تلتقت في هذه اللحظة الفائقة غريزة النمر. هرعت بشدة نحو الجندي وعقدت ذراعيها حول رقبته؛ ثم أمسكت خده بيدها كما لو كانت مخلباً، وضغطت بأظفارها بقوة، ونزلت قطرات من الدم على ذقن الرجل المسلح. صاحت هي:

- طفلي! أعد إليّ طفلي أيها الوغد!

تسبب عناق الأم الغاضبة في معاناة لا توصف للجندي؛ وقد ظهر ذلك على وجهه بوضوح، حتى إن عينيه كادت أن تخرجاً من رأسه. وبما أنه كان لا يريد أن يتخلى عن الفتاة، استل سيفه واخترق قلب الأم بلا رحمة. تخلت المرأة التعيسة عن عدوها القاسي واستندت مترنحة إلى السقف، تدفقت أنهار من الدم على ملابسها؛ انطفأت عيناها؛ ظهرت على وجهها آثار الموت؛ وكانت يداها متشنجتين تطلبان الدعم. قام الجندي بنزع الأقراط الذهبية من أذن الفتاة التي كانت تطلق صرخات استغاثة ورعب، ثم نزع عقد اللؤلؤ من رقبتها والخواتم من أصابعها. ثم غرس السيف في صدرها، وقال ساخراً للأم المحتضرة:

- يمكنك القيام معاً بالرحلة الطويلة، أيتها الفلمنكية الحقيرة!

أطلقت الأم صرخة أخيرة من الألم، وانطلقت إلى

الأمام وسقطت بقوة على جسد ابنتها.

استمر هذا المشهد المفجع وقتاً أقل مما استغرقناه للحكي عنه. حدث كل هذا في بضع لحظات، ففي الوقت الذي ما زال الجنود منشغلين في التقاط الجواهر المتناثرة، كانت الأم والابنة قد تركتا بالفعل هذه الأرض وذهبتا إلى العالم الأفضل.

وبجرد أن أخذ الناهيون الأجانب من العلية كل ما له قيمة، غادروا المنزل للذهاب واستئناف أعمال التخريب في مكان آخر. السكان التعساء، الذين طردوا من منازلهم أو لم يعودوا يجرؤون على البقاء فيها، تجولوا في الشوارع، كما لو كانوا تائهين، ووجدوا أنفسهم يتعرضون لأكثر الإهانات وحشية من الغرباء. كم يجب أن يكون هذا اليأس وهذا العجز مؤلمين للقلوب الفلمنكية! بأي مرارة وبأي حقد لعنوا الاسم الفرنسي!

في وقت الظهيرة، جاب عدد كبير من الفرسان الشوارع لاستدعاء الجنود؛ لأن السيد دي شاتيلون قد رأى أن تاج فرنسا كان قد تم الانتقام له بشكل كافٍ. وأعلن أنه ينبغي دفن الجثث وأن يعود الجميع إلى منازلهم.

أخذ عدد قليل من الكلوراس الذين ذهبوا إلى منزل بريدل، جثة الأم والابنة ونقلوهما على النقالة حتى باب دام. هناك، مرة أخرى، حدث مشهد حزين وفريد من

نوعه يثير الشفقة في كل القلوب. الآلاف من النساء اللواتي يبكين، والأطفال الذين ينتحبون، والرجال الطاعنون في السن، يتوسلون على ركبهم للسماح لهم بمغادرة المدينة؛ لكن الجنود، الذين أمروا بإغلاق الأبواب، ظلوا آثمين أمام كل التوسلات، وردّوا بنكات قاسية على دموع من توسلن إليهم. بعد التوسل لوقت طويل دون جدوى، أتت لأمرأة فكرة سعيدة بتقديم مجوهراتها لجنود الحراسة. تم تقليدها من قبل كثيرات أخريات، وسرعان ما كان أمام الباب كومة من العقود والدبابيس والأقراط باهظة الثمن وغيرها من القلادات الثرية.

استولى عليها الجنود بجشع ووعدوا بفتح الأبواب إذا أعطتهن الهاربات مجوهراتهن. سارعت النساء إلى رمي كل ما في حوزتهن ذي قيمة من نقود ومجوهرات وفتح الباب. استقبلت صرخات الفرحة هذا الخلاص المبارك: حملت الأمهات أطفالهن بين أيديهن، وتبع الابن خطى والده الكهل، واندفع الجميع مثل سيل عبر الباب. الرجال الذين حملوا جثث والدة جون بريدل وأختها تبعوا الآخرين في هروبهم. وتم غلق بوابة المدينة خلفهم.

أرى، في زهرة شبابي، السعادة والأمل يهربان مني وأنا أعاني من القلق في مقابل الهموم والأحزان. فهل مقدر لي أن أئن بلا انقطاع، يا إلهي، ولن تستمع إلى توسلاتي.

(ماري دولاتشي)

كان جون بريدل يعسكر مع سبعمئة جزار بالقرب من مدينة دام؛ وجاء ثلاثة آلاف من أصحاب المهن والحرف ليصطفوا تحت أوامره. وهكذا وجد نفسه على رأس جيش صغير العدد، لكنه قوي بفضل الشجاعة والبسالة التي حركها أولئك الذين شكلوه؛ فقلوب هؤلاء الرجال الأقوياء كانت مشتاقة إلى الحرية والانتقام. في الغابة التي اختارها العميد لمكان معسكره، كانت الأرض مغطاة بأكواخ على مسافة ربع فرسخ.

في صباح يوم 18 مايو، قبل وقت قصير من دخول دي شاتيون إلى بروج، اندلعت حرائق لا حصر لها حدد دخانها الخطوط المعتادة للمعسكر؛ ومع ذلك، ما زلنا نرى قلة من الناس حول الخيام؛ كان هناك عدد غير قليل من النساء والأطفال، ولكن كان من النادر رؤية رجل، ولو حتى حارس. على مسافة ما من المعسكر، خلف الأشجار التي تنتشر أغصانها فوق الخيام، كانت هناك فسحة خالية من النباتات، ولا يمكن رؤية الخيام فيها. اختلط هناك ألف

صوت وصوت في طنين مستمر، كانت رتابة هذا الصوت يسيطر عليها من حين لآخر صدى يتردد لضربات منتظمة. تأوه السندان تحت مطرقة الحدادين، وسقطت الأشجار الكبيرة بصخب كبير تحت فؤوس الجزارين. تم تقريب قطع الخشب الطويلة وتسويتها وتزيينها بريح حديدي. تراكت بالفعل أكوام كبيرة من الحراب المسنونة الطويلة. قام رفقاء آخرون بتضفير أغصان الصفصاف على شكل دروع، ثم قاموا بتسليمها بعد ذلك إلى الدباغين الذين كانت مهمتهم تغطيتها بجلد البقر. قام النجارون ببناء جميع أنواع آلات الحصار، وخاصة العرادات والمنجنيق لإلقاء الحجارة بجانب الآلات الحربية الأخرى.

كان جون بريدل يجري هنا وهناك، مشجعاً رفاقه؛ وغالباً ما كان يأخذ الفأس من يد أحد الجزارين، ويقطع شجرة في دقائق معدودة وبقوة خارقة، وسط دهشة رفاقه العميقة. على يسار الغابة، أقيمت خيمة رائعة من القماش الأزرق السماوي، مزينة بالفضة، كان في أعلاها شعار مطرز عليه أسد رملي في حقل من ذهب؛ يشير شعار النبالة هذا إلى أن الخيمة كانت مأهولة بشخص من دماء كوتتات فلاندرز. كانت الكوتتيسة ماتيلد هي التي وضعت نفسها تحت حماية أصحاب المهن والحرف وكانت تخيم بينهم. جاءت سيدتان من أحد منازل رينيسي الشهيرة في زيلاند لتكونا لها بمثابة الرفيقتين والصديقتين: لم يكن

شيء ينقصها؛ أرسل لها سيد زيلاند النبيل أروع الأثاث وأثمن الملابس. كانت هناك قوتان من الجزائريين المسلحين بالفؤوس الالامعة على جانبي الخيمة كحراسة شخصية للكوتيسة الشابة.

كان عميد النساجين يسير ذهاباً وإياباً أمام باب الخيمة؛ بدا وكأنه غارق في التأمل العميق؛ لأن عينيه لم تنفصلا عن الأرض. نظر إليه جنود الحراسة في صمت ولم يجرؤوا على الكلام، فقد كانوا يحترمون كثيراً تأمل الرجل الذي ظهر لهم عظيماً ونبيلاً. في هذه اللحظة كان يفكر في كيفية تشكيل معسكر عام. وحتى لا ينقص الطعام، قام هو نفسه بتقسيم الجيش إلى ثلاث فيالق؛ كان قد نصب في دام الجزائريين ورفاق المهن والحرف الأخرى تحت قيادة بريدل؛ وقد ذهب ليدينز إلى فلوي مع ألفي نساج، وبقي دي كوينيك نفسه مع ألفين آخرين في أردنبورج. لكن هذا التقسيم في الجيش، الذي فرض بحكم الضرورة، أثقل كاهله بشدة، وكان يود أن يتمكن من شمل جميع الفرق قبل عودة السيد جي. كان هذا هو سبب قدومه إلى دام وقد تحدث بالفعل مع جون بريدل حول هذا الموضوع. وقد كان ينتظر حتى سُمح له برؤية ابنة سيده وتقديم التحيات لها.

بينما كان يحاول تطوير خطته وهو يتجول، تم رفع باب الخيمة، وسارت الأميرة الصغيرة ماتيلد ببطء على السجادة

عند المدخل. كانت شاحبة ومتألمة. كانت ساقها الملتوية تسندها بالكاد، وكانت تترنح في كل خطوة وتتكئ بشدة على ذراع الشابة أديلاید دي رينيسي، التي كانت ترافقها. كان زيها ثرياً ولكنه غير جذاب؛ كانت قد تخلت عن جميع الحلي والزينة ولم تكن ترتدي سوى الصفيحة الذهبية التي برز عليها الأسد الأسود رمز فلاندرز.

أظهر دي كونينك نفسه عند رؤية سيدته، ووقف أمامها في موقف محترم. ابتسمت ماتيلد بتعبير ينطلق من الروح؛ في ملاحظتها اختلقت المعاناة العميقة والرضا الحلوى، إذ كانت سعيدة برؤية العميد. قالت بصوت ضعيف:

-مرحباً، سيد دي كونينك! مرحباً صديقنا الطيب والمخلص! أترى، أنا أتألم، أتنفس بصعوبة، لكن لا يمكنني البقاء دائماً في خيمتي؛ يغمرني الحزن في هذا المسكن الضيق: أريد أن أرى رعايا والدي المخلصين في العمل، إذا كان بوسع قدمي أن تقوداني إلى هناك. تعال معي، من فضلك، سيدي، وأجب عن أسئلتني؛ لأن تفسيراتك ستريح ذهني المريض؛ لا أريد أن يتبعنا جنود الحراسة. كم ينعشني هواء الصباح النقي!

تابع دي كونينك الكوتيسة وبدأ يتحدث معها عن مجموعة من الموضوعات المختلفة؛ بفضل براعته المعتادة وبلاغته، عرف كيف يجد الكلمات التي تعزيها، ويبدد،

للحظة الهواجس المظلمة التي تحزن روحها. عندما وصلت بين أصحاب المهن والحرف، استقبلتها هتافات حماسية من جميع الجهات. وسرعان ما تردد صدى الصيحة العامة: «عاشت الابنة النبيلة لأسد فلاندرز!» في كل أرجاء الغابة، وشعرت ماتيلد على أثر هذه الكلمات بالمودة الحية والصادقة. اقتربت من عميد الجزارين وقالت له بصوت عطوف:

- رأيتك من بعيد يا سيد بريدل؛ أنت تعمل بجهد وحماسة أكثر من آخر رفيق لك يتوقف عن العمل؛ يبدو أن هذه المهمة تعجبك.

أجاب بريدل:

- سيدتي، نحن نصنع الحراب المسنونة التي من شأنها تحرير الوطن وتحرير أسد فلاندرز، سيدنا ومولانا، وأنا أحب هذا العمل كثيراً؛ لأنني أعتقد أنني أرى الأعداء على الرأس الحاد لكل رمح نكل صنعه. ولا تدهشي أيها الكونتيسة النبيلة برويتي أقطع هذه الأشجار بحماسة شديدة، يبدو لي أنني أضرب العدو، وهذا الانتقام المخادع يجعل قلبي يقفز بإعطائه دفعة جريئة.

أعجبت ماتيلد بالرجل الشاب والذي تبدو في نظره البطولية النيران التي تشتعل في قلبه، وشبهه وجهه أحد الآلهة اليونانية والتي تحمل علامات تدل على اللطف

والسخاء وفي الوقت نفسه تحمل العواطف المتقدمة. حدثت الكوتيسة بسرور في تلك العيون حيث أشرق نخر رجولي تحت رموشه الطويلة، وتلك الملامح الدقيقة التي يحركها التعبير عن التفاني المطلق وحب الوطن. قالت للسيد بريدل بابتسامة لطيفة:

- ستكون صحبتك ممتعة بالنسبة لي، إذا كنت تفضل متابعتنا.

ألقى جان بريدل بفأسه، وألقى بضفائر شعره الأشقر خلف أذنيه، ووضع غطاء رأسه بشكل أكثر أناقة، وبفخر، تبع الأميرة الصغيرة. همست ماتيلد بصوت منخفض، مخاطبة دي كونينك:

- إذا كان والدي لديه ألف رجل مخلص وجريء مثله في خدمته، فلن يبقى الفرنسيون في فلاندرز لفترة طويلة. أجباب دي كونينك:

- لا يوجد فلنكي مثل بريدل. من النادر أن تضع الطبيعة مثل هذه النفس الملتهبة في مثل هذا الجسد القوي، وهذا تصرف حكيم من الرب؛ خلاف ذلك، سيصبح الرجال، بمجرد إدراكهم لقوتهم، متكبرين للغاية، مثل العمالقة الذين أرادوا، في العصور القديمة، تساق السماء...

كان على وشك مواصلة حديثه، لكن حارساً مسلحاً

بالسيف والدرع جاء يجري وكان متقطع الأنفاس وقد قال
لبريدل، عميده:

- سيدي، أرسلني رفاقي في المعسكر لإخبارك أننا نرى،
أمام بوابة مدينة بروج، سحابة كثيفة من الغبار تتصاعد
وضوضاء مكتومة، تشبه إلى حد ما لصوت مسيرة جيش
من الجنود كما لو كان قادماً من المدينة ويتقدم نحو
معسكرنا.

صاح بريدل بقوة حتى سمعه الجميع:

- إلى السلاح! إلى السلاح! كل شخص في مكانه!
أسرعوا!

سرعان ما استولى العمال على أسلحتهم وركضوا في حالة
من الفوضى والاضطراب، لكن ذلك لم يستمر سوى
لحظة؛ تشكلت المراكز فجأة، وسرعان ما أصبح الرفاق بلا
حراك، في صفوف ضيقة. وضع بريدل خمسمئة رجل
من النخبة حول خيمة ماتيلد، التي سارعت بالعودة إلى
ملجأها. تم إحضار عربة وعدد قليل من الخيول الجيدة
أمام الخيمة، وتم تجهيز كل شيء للهروب. في الوقت
نفسه، خرج بريدل مسرعاً من الغابة مع بقية الرجال
وجعلهم يصطفون في أرض المعركة لاستقبال العدو.

سرعان ما أدركوا أنهم كانوا مخطئين، فالحشد الذي كان
ييعثر غبار الطريق كان يهرب في حال من الفوضى،

وكان هناك الكثير من النساء والأطفال. كانت النساء تئن وتنتحب وتطلق صرخات من الألم حول نقالة يحملها الرجال. على الرغم من اختفاء سبب حمل السلاح، إلا أن أصحاب المهن والحرف ظلوا في الرتب؛ متكئين على أسلحتهم ومنتظرين بفضول شرح ما يحدث. وأخيراً وصل الموكب أمام مقدمة الجيش، وبينما دخل العديد من النساء والأطفال الصفوف لاحتضان أزواجهن أو آبائهم، حدث مشهد مروع وسط الحشد.

قام أربعة رجال بإحضار نقالة على مسافة من عميد الجزارين ووضعوا جثتي امرأتين على الأرض؛ كانت ملبسهما متسخة ببقع كبيرة من الدم؛ لم يكن من الممكن رؤية ملامحهما؛ لأن حجاباً أسود غطى رأسيهما. وبينما كانت الجثث تُرفع عن النقالة، ملأت النساء الهواء بصرخات الألم؛ في البداية لم يسمع سوى الهتافات الحزينة. أخيراً، صاح صوت:

- قتلها الأجاناب!

أثار هذا التوضيح غضباً وعطشاً للانتقام بين أصحاب المهن والحرف الذين انتظروا حتى ذلك الحين في حال من الدهشة، لكن العميد بريدل التفت إليهم وهتف:

- أول من يترك صفه، سيعاقب بشدة.

كان هو نفسه في قبضة الاضطراب والقلق؛ يمكن للمرء

أن يقول إن الشعور بالصدمة الذي أصابه قد استحوذ على قلبه مسبقاً؛ اندفع بقوة نحو الجثتين ومزق الملاءة التي كانت تغطي وجهيهما.

يا له من منظر فظيع أصاب عينيه يا إلهي! لم يفلت من صدره أنين، ولم تحدث حركة في جسده كله، كان كأنه مصعوق. أصبح شاحباً أكثر من الجثث الممتدة أمامه، وقد انتصب شعره فوق رأسه، وأصبحت نظرتة الثابتة متشبثة بعناد بعيون الموتى الزجاجية؛ وقد تحركت شفتاه بشكل متشنج، وبدا أنه سيموت.

بقي على هذه الحال بضع لحظات؛ سرعان ما مزقت تنهيدة جوفاء حلقه. اندفع إلى الأمام في يأس في اتجاه رفاقه، ورفع ذراعيه إلى السماء، وصاح بصوت مكسور:

- أوه! وامصيبته! مصيبته! والدتي العجوز المسكينة!
وأختي البائسة!

ثم ألقى بنفسه بين ذراعي دي كوينيك، خائر القوة، اتكأ على صدر صديقه. تجول حوله بعينين تائهتين وجعل كل المتفرجين يرتجفون من الألم والشفقة. في غضبه القائم أحضر الفأس في يده إلى فمه، ومثل المجنون، عض المقبض بقوة لدرجة أن قطعة من الخشب بقيت بين أسنانه؛ وقد سارعوا إلى أخذ هذا السلاح الخطير منه. أمر دي كوينيك رفاقه بالعودة إلى عملهم بالترتيب حتى

يتم استدعاؤهم للحرب. على الرغم من أنهم كانوا يفضلون الانتقام السريع للجريمة، إلا أنهم لم يجرؤوا على مقاومة الأمر الصادر لهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أن الشاب الكونت جي قد جعل من عميد النساجين القائد الأعلى؛ وهكذا شقوا طريقهم إلى الغابة، وهم يتمنون ويشرعون على مفض في العمل.

عندما وصل العميدان إلى خيمة بريدل، سقط عميد الجزائرين على كرسي شاعرًا باليأس وقد أحنى رأسه المثقل؛ كان لا يتكلم وينظر إلى دي كونينك بتعبير غريب: شبح ابتسامة بالكاد ظهر على ملامحه؛ كان يمكن للمرء أن يقول إنه كان يسخر من محنته. قال دي كونينك:

- صديقي المسكين، اهدأ من أجل الرب!

كرر بريدل:

- أهدأ! أهدأ! أهدأ! أأست هادئاً؟ هل سبق لك أن رأيتني وأنا

هادئ إلى هذا الحد؟

أجاب عميد النساجين:

- يا صديقي! يا له من ألم مروع يملأ روحك! رأيت الموت

يرتسم على وجهك. لا أستطيع مواساتك؛ فمحتك عظيمة

للغاية؛ لا أعرف أي بلسم يمكنه أن يشفي هذه الجروح.

قال بريدل:

- أنا أعرف البلم الذي يمكن أن يشفيني، لكنني أفقر
إلى الطاقة. يا أمي المسكينة! لقد غسلوا أيديهم بدمك لأن
ابنك فلمنكي وهذا الابن يا ويلي! هذا الابن عاجز عن
الانتقام لك!

بذكرة لأمه، تغيرت تعابير وجهه؛ كانت أسنانه تصر،
وقبضت يده على أرجل الطاولة كما لو كان يريد كسرها؛
لكن لم يمض وقت طويل قبل أن يهدأ وأظهرت ملامحه
حزناً وأسفاً أعمق.

قال دي كونينك:

- يا سيدي، تصرف كرجل، وحاول التغلب على اليأس،
عدو الروح؛ تحمل بشجاعة الآلام المريرة التي أصابتك
اليوم، سوف ننتقم لدم أمك!

عادت الابتسامة الرهيبة التي كانت تصلب شفاهه بريدل
للتو إلى الظهور. وبمرارة قال:

- هذا الدم سينتقم له! كيف يمكنك أن تعد باستخفاف
بما لا يمكنك تحقيقه؟ من يستطيع الانتقام لي؟ إنه ليس
أنت. هل تصدق أن سيلاً من الدماء الأجنبية يمكن أن
يفدي حياة أمي؟ هل دماء الطاغية تعيد الحياة لضحاياها؟
لا، لقد ماتوا، وإلى الأبد، إلى الأبد، يا صديقي! سوف
أعاني في صمت ودون شكوى، لا شيء يمكن أن يواسيني،
نحن ضعفاء للغاية وأعداؤنا أقوياء للغاية.

لم يجب دي كونينك على شكاوى بريدل؛ بدا أنه مستغرق في قلق شديد؛ في بعض الأحيان، يظهر تعبير على وجهه يبين مدى الجهد الذي كان يبذله لإخفاء غضب داخلي. نظر إليه عميد الجزارين بفضول وكان يفكر أن شيئاً غير عادي كان يحدث في روح صديقه الحكيم. اختفى تعبير الغضب الذي ارتسم على ملامح دي كونينك؛ وقد نهض ببطء وقال بجديّة:

- أنت تقول إن أعداءنا أقوياء للغاية؟ غداً لن تقول ذلك بعد الآن؛ لقد لجؤوا إلى الخيانة والغدر، لم يخشوا إراقة دماء بريئة، كأنما لم يعد هناك ملاك منتقم أمام عرش الرب، إنهم لا يعرفون أن حياة كل منهم في يدي وأني أستطيع تدميرهم، كما لو أن الرب قد فوضني بقدرته المطلقة؛ إنهم يسعون إلى الانتصار من خلال الخيانة والقسوة الغاشمة. يقال إن سيفهم سيبيدهم!

بدا دي كونينك مثل النبي يلقي لعنة الرب على أورشليم المذنبة؛ كان لصوته نبرة مهيمنة لدرجة أن بريدل استمع باحترام ديني إلى اللعنة التي يتم نطقها ضد أعداء فلاندرز. أكمل دي كونينك:

- انتظر، سأرسل في طلب أحد الوافدين الجدد، حتى نعرف كل ما حدث؛ لا تنجرف بسماع قصته، أعدك بالانتقام الذي لن تجرؤ على طرحه بنفسك، لقد وصلت

الأمر إلى درجة أن الاستسلام والصبر سيكونان عاراً.

غضب ناري ألهب وجنتيه. هو، الذي كان عادة هادئاً ومسيطرًا على نفسه، كان أكثر غضباً من بريدل، على الرغم من أن هذا الانطباع لم يظهر تماماً على وجهه. غادر الخيمة لبضع لحظات وعاد إلى الظهور مع أحد أصحاب المهن والحرف الذي قدم لهم سرداً مفصلاً لجميع الأحداث التي وقعت في بروج في ذلك اليوم. علم العميدان منه عدد جيش شاتيلون الجديد، وموت المواطنين الذين تم إرسالهم إلى المشنقة ونهب المدينة المروع. استمع بريدل إلى هذه القصة بفتور؛ لأن كل هذه الجرائم لم تمسه بشدة مثل جريمة القتل التي أصابته في أعز مشاعره. على العكس من ذلك، ازداد غضب دي كونينك أكثر فأكثر كأن المشهد الرهيب كان يحدث أمامه. كانت التفاصيل التي كشفت له مؤلمة للغاية؛ ولكنه كان لا يفكر في الحدث نفسه: كان حب الوطن والحرية هما الشعوران اللذان يلهمانه غضبه. وقد رأى أن الوقت قد حان وأنه من الضروري العمل دون تأخير؛ إلى جانب ذلك، فإن الإعدام الوحشي الذي حدث للتو يمكن أن يرعب الفلمنكيين ويحرمهم من كل شجاعة. أما ما قد فعله دي كونينك بعد ذلك هو أن دعا هذا الرفيق مغادرة الخيمة وقد ربت بأصبعه على جبهته، بينما كان بريدل ينتظر بفارغ الصبر ما سيقوله صديقه.

جأة اندفع دي كونينك نحو بريدل، صائحاً:

- صديقي، اشخذ فأسك وأبعد كل حزن من قلبك.
سنكسر قيود الوطن!

تساءل بريدل:

- ماذا تعني؟

- اسمع. ينتظر الفلاح حتى يجمع برد الصباح كل اليرقات
في العش. ثم يفصل العش عن الشجرة ويضعه تحت قدمه
وليسحق الحشرات الموجودة هناك. هل تفهم هذا؟

هتف بريدل:

- أكل نبوءتك. يا صديقي، يسطع شعاع مبهج في خضم
اليأس، أكل، أكل!

- حسنًا، مثل اليرقات، اتخذ الأجنب بلدنا عشًا لهم؛
هم أيضًا سوف يسحقون كما لو أن جبلًا ينهار عليهم. افرح
يا سيد جون، فقد حكم عليهم بالفناء. موت أمك سيدفع
ثمنه بالربا، وستخرج البلاد حرة من حمام الدم هذا.

نظر بريدل حول الخيمة سريعًا باحثًا عن فأسه، وتذكر أنه
نزع منه؛ أمسك بيد دي كوينيك بانفعال صائحًا:

- صديقي، لقد أنقذتني عدة مرات، لكنك بعد ذلك
أعطيتني الحياة فقط؛ اليوم بفضلك أجد السعادة والفرح.
أخبرني بسرعة كبيرة كيف سنحقق هذا الانتقام، حتى لا

أشك في ذلك بعد الآن.

- تحلّ بالصبر، ستعرف كل شيء في لحظة، أريد تطوير مشروعى بحضور جميع العمداء. سأذهب لاستدعائهم.

غادر الخيمة فجأة، واستدعى حارساً وأرسله إلى الغابة لدعوة جميع الرؤساء للحضور ومقابلته. بعد ذلك بقليل شكلوا دائرة خارج الخيمة وكان عددهم يبلغ الثلاثين. تحدث إليهم دي كونينك:

- أيها الرفاق، لقد حانت الساعة الحاسمة، ونحن ليس أمامنا سوى طريقين طريق الحرية أو طريق الموت. منذ فترة طويلة، نحن نحمل علامات العار على جباهنا؛ لقد حان الوقت لكي نجعل حياة أعدائنا ثمناً لدماء إخواننا، وإذا كان علينا أن نموت من أجل الوطن، فكروا أيها الأصدقاء، أن قيود العبودية تحطمت على حافة القبر وأتينا سننام، أحراراً وخالين من العيوب إلى جانب آبائنا. لا، سوف نغلب، أنا متأكد من ذلك، لا يمكن لأسد فلاندرز أن يموت، كما أن الحق إلى جانبنا نحن! الأجنبي نهبوا بلادنا؛ ألقوا بكونتنا وأتباعه المخلصين في السجن؛ سمموا الكوتتيسة فيلبين؛ دمروا مدينتنا الطيبة بروج وعلقوا على المشنقة، على أرضنا، أكثر إخوتنا كرمًا. ترقد الجثث الدامية كأم وأخت صديقنا بريدل في وسطنا. هذه الجثث وجميع سكان بروج الذين ماتوا على أيدي المضطهدين

الأجانب ترفع أصواتها وتصرخ من أجل الانتقام في قلوبكم! الآن، احبسوا في قلوبكم، كما هي الحال في القبر، ما سأقوله لكم. الأجانب سموا اليوم من القيام بعملهم البغيض وينامون جيداً. لكن هذا النوم، بالنسبة لمعظمهم، سوف يستمر حتى يوم الدينونة الأخيرة. لا تقولوا أي شيء لرجالكم؛ لكن قودوهم غداً، قبل ساعتين من شروق الشمس خلف سانت كروا، في أكستيربوش (67). سأغادر على الفور إلى أردنبورج، حيث سأقوم بإعداد رجالي وإبلاغ القائد ليندينز؛ لأنني يجب أن أعود إلى بروج اليوم، مرة أخرى. إن هذا من شأنه أن يدهشكم، ولكن يجب أن تعترفوا معي بوجود فرنسي في بروج لا يمكننا قتله، وإن دمه سوف يتساقط فوق رؤوسنا.

تصايحت أصوات كثيرة:

-السيد دي مورتاي!

أجاب دي كونينك:

- كان هذا الفارس، يعاملنا دائماً بلطف؛ ويظهر في كل مناسبة أن مصائب بلدنا تمسه شخصياً. في كثير من الأحيان أوقف جان دي جيستل المقيت في اضطهاده القاسي وحصل على العفو لكثير من المدانين. يجب ألا نلوث أسلحتنا بهذا الدم النبيل؛ لمنع هذا من الحدوث، أريد أن أذهب إلى بروج اليوم، مهما كانت مسيرتي محفوفة بالمخاطر.

قال أحد العمداء:

- لكن، كيف سندخل إلى المدينة غدًا، حيث إن
البوابات مغلقة قبل شروق الشمس؟

أجاب دي كونينك:

- إن الأبواب ستفتح لنا؛ لن أعود من المدينة حتى
أتأكد من أن الانتقام قد تم وأنه ليس هناك مجال لأي
خطأ. لقد أخبرتكم ما يكفي الآن: غدًا، في المكان المحدد
للاجتماع، سأعطيكم أوامر أخرى: اجعلوا رجالكم
مستعدين. سأذهب مع الكونتيسة ماتيلد؛ يجب ألا تكون
شاهدة على هذا المشهد الدموي.

خلال خطابه، لم يكن يريدل قد أعطى أدنى إشارة
بالموافقة؛ لكن فرحة وحشية أشرفت على وجهه. حالما
انسحب العمداء، ألقى بنفسه على رقبة دي كونينك،
وبينما كانت دمعتان تخدران على خديه قال:

- انتزعتني من اليأس يا صديقي الرائع؛ الآن سأكون
قادرًا على الحداد بهدوء على جثتي والدتي وأختي ودفنهما
بمراسم في الأرض. ولكن بعد ذلك، عندما يغلق القبر
فوقهما، ما الذي سيبقى لي لأحبه فوق الأرض؟

أجاب دي كونينك:

- وطنك واسترداده!

- نعم، نعم، الوطن، الحرية.. والانتقام! في الوقت الحالي، كما ترى، يا صديقي، كنت سأبكي بغضب إذا غادر الأجانب أرضنا.. ولم يعد باستطاعتي قطع رؤوسهم أو أن أدوس على جثثهم، كما فعلت خيولهم مع جثث إخواننا. لم أعد أريد الحرية وحدها، أنا أرفضها؛ أنا أريد أن أرى تيارات من الدم بعد أن ثقبوا صدر المرأة التي وهبتي الحياة. أسرع بالذهاب، وليرافقك الرب، حتى ينجح كل شيء؛ فأنا متعطش للانتقام الذي وعدتني به.

- الكتمان والحذر، يا صديقي!

ابتعد دي كوينيك عن بريدل. قبل أن يترك المعسكر، كان قد أعد كل شيء لرحيل الأميرة الصغيرة، وبعد التحدث معها لبضع لحظات، امتطى حصانه واختفى في اتجاه أردنبورج.

في غضون ذلك، تلقت جثتا والدة بريدل وأخته الرعاية الأخيرة وتم تكفينهما من قبل النساء، التي علقت داخل خيمة قماشاً أسود اللون، وتم وضع الجثتين على سرير صغير. كانت تغطيهما ملاءة جنائزية؛ وكان الوجه وحده مرئياً. حول هذه الطبقة العليا أحرقت ثماني شموع من الشمع الأصفر؛ وُضع صليب، وقاعدة فضية، وبضع أغصان من خشب الشمشير، حيث كانت النساء الباقيات يصلين بأصوات خافتة.

مباشرة بعد رحيل دي كوينيك، ذهب بريدل إلى الغابة وأمر بوقف العمل؛ أرسل أصحاب المهن والحرف للراحة في الخيام وأخبرهم أنه يتعين عليهم الرحيل في اليوم التالي قبل الفجر. بعد اتخاذ بعض الخطوات الأخرى لإبقاء النساء والأطفال في المعسكر، ذهب إلى الخيمة حيث يرقد جسد والدته. عندما وصل إلى هناك، أخرج النساء الموجودات من الخيمة وأغلق الباب بعناية.

جاء العديد من الرؤساء إلى خيمة العميد لطلب التعليمات أو الأوامر؛ لكن، مهما كانت ضرباتهم قوية، لم يتلقوا أي إجابة. لقد احترموا أولاً الألم الذي لحق بقائدهم في تلك اللحظة بلا شك؛ لكن بعد مرور أربع ساعات دون سماع أدنى صوت في الخيمة الجنائزية، شعروا بالقلق ولم يجرؤوا على التعبير عن أفكارهم: هل بريدل مات؟ هل أنهى الفأس أو الألم حياته؟

بجأة انفتح الباب وظهر بريدل أمامهم دون أن يلاحظ وجودهم على ما يبدو. لم يتحدث أحد؛ لأن ملاح العميد كان لها تعبير يجمد القلب ويمنع عن الكلام. كان شاحباً بشدة، وكانت عيناه تتجولان حوله في حيرة، ولاحظ العديد من الشهود أن إصبعين من يده اليمنى ملطختان بالدماء. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه؛ كانت عيناه تنطقان بالموت، واخترقت نظراته كسهم في نفوس من حوله. الدم الذي كان يلوث أصابعه جعل على وجه الخصوص المتفرجين

يرتجفون؛ جعلهم في شك رهيب يخمنون أصله. هذا الدم جاء بلا شك من جرح أمه؛ ربما كان يخرج من ذلك القلب الذي أحبه كثيراً، وقد استمد بريدل من هذه اللمسة المروعة الغضب الذي كان يمنحه المزيد من القوة والمزيد من الحماس للانتقام. وقد تجول بصمت في الغابة حتى المساء الذي غلف المعسكر بحجاب من الظل وأخفى العميد عن أعين رفاقه.

عند وصوله إلى أردنبورج، وضع دي كوينك ألفي نساج تحت قيادة أحد القادة الرئيسيين وأرسل رسوياً مع تعليمات إلى القائد ليندينز. عندما اتخذ جميع التدابير اللازمة لتركيز الفرق الثلاث للجيش في سانت كروا، ركب حصانه مرة أخرى وذهب مباشرة إلى بروج. ترك دابته في نزل بالقرب من البوابة ودخل المدينة سيراً على الأقدام دون عوائق، حيث كان المساء قد قدم بالفعل؛ وكانت البوابات مفتوحة ولا يمكن رؤية أي جندي آخر غير حارس السور. ساد صمت كثيب وهدوء مخيف في الشوارع التي كان عليه عبورها. سرعان ما توقف أمام منزل متواضع خلف كنيسة القديس دوناتوس، وكان على وشك الاستئذان عندما رأى أن المنزل ليس له باب وأن المدخل مغلق بقطعة طويلة من القماش. لا بد أن هذا المنزل وتصميمه الداخلي كانا معروفين له جيداً؛ لأنه رفع قطعة قماش، ودخل الدكان بخطوات واثقة، وسار باتجاه

غرفة خلفية صغيرة مضاءة بوجه ضعيف للغاية لمصباح. كانت تبكي امرأة جالسة بالقرب من طاولة، وسط حطام الأثاث المتناثر على الأرض، وكانت تضغط طفلين صغيرين على صدرها، وتغدق عليهما قبلا ت تخللها تنهدات، وكأنها تعتبر نفسها سعيدة أن هذه الثروة بقيت معها؛ بعيداً في الزاوية، حيث بالكاد اخترقت أشعة المصباح الشاحبة، جلس رجل، ورأسه مخفي بين يديه، وبدا أنه نائم.

عند الظهور غير المتوقع لدي كوينيك، أصبحت المرأة خائفة للغاية لدرجة أنها عانقت طفلها بشدة وأطلقت صرخة من الرعب. وضع الرجل يده بسرعة على خنجره؛ ولكن بعد التعرف إلى عميده نهض وقال:

- أيها السيد، يا له من عبء مؤلم فرضته عليّ عندما أمرتني بالبقاء في المدينة؛ لقد أنقذتنا نعمة الرب وحدها من موت رهيب. نهبت بيوتنا وشنق وذبح إخوتنا والرب أعلم ما سيحدث غداً! أوه! اسمح لي بالذهاب والانضمام إليك في أردنبورج، أتوسل إليك.

لم يجب دي كوينيك على هذا التوسل؛ وقد أشار إلى زميله النساج وخرج معه إلى الدكان حيث ساد الظلام الدامس. ثم قال بصوت خفيض:

- جيرار، عندما غادرت المدينة، جعلتك تبقى هنا مع ثلاثين رفيقاً آخر، حتى تتمكن من اكتشاف خطط العدو

وجرائمه. لقد اخترتك لهذه المهمة؛ لأنني أعرف شجاعتك
وتفانيك الصادق للوطن.

أجاب جيران:

- يا سيدي، كلماتك تحزنني، فأنا لا أخاف من الموت.
لكن زوجتي، أطفال المساكين معرضون هنا لكل
المصائب. إنهم مرضى من الرعب والقلق؛ يقضون النهار
كله في البكاء والصلاة وفي الليل لا يستعيدون قوتهم. إذا
كنت تستطيع أن ترى مدى شعوبهم! وعلى مرأى من
كل هذه المعاناة، كل هذه الهموم، ألا تختلط دموعي
بدموعهم؟ أأست أنا والدهم وحاميمهم الطبيعي؟ أو ليس
مني وحدي يناشدون العزاء الذي لا أستطيع أن أعطيهم
إياه؟ صدقتي أيها السيد، الأب يعاني أكثر مما تعانيه
زوجته وأولاده؛ ومع ذلك، فأنا على استعداد لنسيان كل
شيء من أجل الوطن، كل شيء، حتى دمي، وإذا كان
بإمكانك توظيفي في أي مناسبة، فيمكنك الاعتماد علي.
لذلك تحدث؛ لأنني أشعر أنه يجب أن تعطيني أوامر مهمة.
أمسك دي كونينك بيد جيران الشجاع وضغط عليها
بعاطفة، مفكراً: ها هي روح أخرى مثل روح بريدل! ثم
قال:

- جيران، أنت رفيق عظيم، شكراً لتفانيك السخي؛ استمع؛
لأن لدي القليل من الوقت. ستجد على الفور رفاقك

وتحذّره؛ هذه الليلة، ستذهبون سرّاً إلى شارع دي بوافر، أنت وحدك ستتسلق السور الذي يفصل باب دام عن باب دي كروا، وتستلقي على الأرض وتثبت عينيك في اتجاه سانت كروا. بمجرد أن ترى حريقاً في الريف، تقضي مع رجالك على حارس البوابة، وتفتح هذه البوابة، وسيكون هناك سبعة آلاف فلنكي.

أجاب جيرار ببرود:

- سيتم فتح الباب في الوقت المحدد.

- هل هذا واضح؟

- واضح.

- ليلة سعيدة يا صديقي العزيز. ليكن الرب معك!

- وليرافقك يا سيدي!

ترك دي كوينك النساج ينضم إلى زوجته وغادر المنزل. وسرعان ما وصل إلى شارع السوق القديم أمام مسكن رائع؛ طرق وفتح الباب، تساءل الخادم:

- ماذا تريد أيها الفلنكي؟

- أرغب في التحدث إلى السيد دي مورتاي.

- نعم؛ لكن ليس لديك أي أسلحة؟ لأنه لا يمكن

الوثوق بك.

قال العميد بلهجة حاسمة:

- ماذا يهمك؟ اذهب وأخبر سيدك أن دي كونينك يريد
التحدث معه.

- يا رب يا إلهي! هل اسمك دي كونينك؟ إذا بكل
تأكيد، إن نواياك سيئة.

أسرع الخادم إلى الطابق العلوي وعاد بعد لحظات قليلة.
وبعدها قاد دي كونينك إلى أعلى الدرج أمام باب
غرفة؛ كان دي مورتماي جالساً هناك أمام طاولة صغيرة
وضع عليها خوذته وسيفه وقفازاته الحديدية. تأمل دي
مورتماي باندهاش العميد؛ فأنحنى هذا الأخير إلى حاكم
المدينة قائلاً:

- السيد دي مورتماي، جئت إلى هنا، واثقاً من ولائك
وأعلم أنني لن أضطر إلى الندم على هذه الجرأة.
أجاب دي مورتماي:

- لقد أحسنت صنعاً. سوف تغادر كما أتيت.

تابع دي كونينك:

- لقد أصبح كرمك يضرب به المثل بيننا، ولأجل هذا
نوضح لك أننا نحن الفلمنكيين نعرف كيف نقدر عدواً
مخلصاً، جئت لمقابلتك. لقد سلم دي شاتيون مدينتنا اليوم

لغضب جنوده؛ شفق ثمانية من إخوتنا الأبرياء؛ اعترف
معي، السيد دي مورتماي، أنه من واجبنا الانتقام لموتهم؛
حيث لم يكن يلومهم حاكم البلاد إن لم يكونوا قد رفضوا
الانصياع لأوامره الاستبدادية!

- يجب أن يطيع المواطن الصالح سيده، مهما كانت
العقوبة قاسية، لا يُسمح له بإدانة أفعال سيده.

- أنت محق، السيد دي مورتماي، هكذا يتحدثون في
فرنسا، وبما أنك بطبيعة الحال من الرعايا الصالحين للملك
فيليب لو بيل، فيجب عليك تنفيذ أوامره؛ لكننا فلمنكيون
وأحرار، ولم نعد قادرين على تحمل هذه القيود المخزية. الآن
بعد أن دفعنا بسبب حاكم بلادنا الثمن إلى أقصى حد لها،
أؤكد لكم أنه بعد قليل سوف يتدفق الدماء أنهاراً، وإذا لم
يكن القدر موافقاً لنا، وإذا انتصر الفرنسيون، فسيتبقى عدد
قليل جداً من العبيد؛ لأننا نريد استعادة حريتنا أو الموت.
ومع ذلك، وهذا هو سبب زيارتي، مهما حدث فلن يمس
شعرة من رأسك؛ سيكون المنزل الذي تجد نفسك فيه
مقدساً بالنسبة لنا، ولن تطأ قدم فلمنكي عتبة منزلك، أضمن
لك ذلك بشرفي.

أجاب دي مورتماي:

- أشكر الفلمنكيين على محبتهم لي. لكنني أرفض الحماية
التي تقدمها لي، فلن أستفيد منها أبداً. فإذا حدث ما

تحدث عنه بالفعل، فسأكون تحت راية الحاكم وليس في منزلي، وإذا مت، فسيكون ذلك والسيف في يدي. لكنني لا أعتقد أن الأمر سيصل إلى هذا الحد؛ لأن أعمال الشغب ستخمد قريباً. أما أنت أيها العميد. أسرع لمغادرة البلد، أوصيك بذلك كصديق.

- لا يا سيدي، لن أغادر بلدي، عظام آبائي ترقد تحت هذه الأرض. أتوسل إليك مرة أخرى، تذكر أن كل شيء ممكن وأن الدم الفرنسي يمكن أن يسفك بواسطتنا؛ ومن ثم سوف نتذكر كلامي. هذا كل ما كان علي أن أقوله لسيادتك. الوداع يا سيدي. الرب يحميك!

وزن دي مورتماي بعناية كلمات عميد النساجين واكتشف، لحزنه الشديد، أن هناك سرًا مخبأ؛ لذلك قرر إشراك السيد دي شاتيلون في اليوم التالي لمضاعفة يقظته ولكي يأمر بنفسه باتخاذ إجراءات معينة من أجل سلامة المدينة؛ دون أن يدرك أن ما يخافه كان سيتحقق في وقت قريب، ثم بعد ذلك، خلد إلى السرير ونام نومًا عميقًا وهادئًا.

هذا هو الأسد الذي ينهض ويظهر بفخر مخالبه وأسنانه للعدو.

(بار. فان دوز)

خلف قرية سانت كروا، على بعد بضعة أبواب وأقواس من بروج، توجد غابة صغيرة تسمى بوا دي باي، تحت الأشجار الظليلة التي كان سكان المدينة يذهبون إليها عادة للاسترخاء في أيام الأحد. كانت جذوع الأشجار متباعدة تمامًا، وكان العشب الناعم يغطي الأرض مثل سجادة من الزهور. في الساعة الثانية صباحًا، كان بریدل موجودًا بالفعل. كان الظلام لا يمكن اختراقه؛ كان القمر مختبئًا خلف السحب الداكنة، وتهدت الرياح برفق في الأشجار، وزاد حفيف الأوراق الرتيب من رعب هذه الليلة القائمة.

للهولة الأولى، لا يمكنك رؤية أي شيء في بوا دي باي؛ ولكن، مع مزيد من الانتباه، يمكن للمرء أن يميز بين العديد من الأشكال البشرية الممددة على الأرض. وبجانب كل من هذه الأجسام التي لا تتحرك، أضواء نجم لامع، بحيث بدا العشب متحولًا إلى قبة سماوية: رصت ألف نقطة من الضوء في جميع النواحي؛ لم تكن هذه النجوم سوى فؤوس، يعكس الفولاذ المصقول منها ضوء الليل النادر. رقد أكثر من ألفي جزار على الأرض في صفوف

وبنفس الوضعية؛ كانت قلوبهم تنبض بقوة والدم يتدفق في عروقهم بسرعة؛ فساعة الانتقام والتحرير التي طال انتظارها أصبحت قريبة جدًا. ساد صمت كبير بين هؤلاء الرجال وحل غموض مخيف مثل الحجاب السحري فوق المعسكر الصامت.

كان بريدل في أقصى نقطة في الغابة؛ كان أحد رفاقه، الذي كان يحبه بشكل خاص بسبب جرأته، بجانبه على الأرض؛ وكانا يتحدثان بصوت منخفض ومكتوم. قال بريدل:

- لا يتوقع الأجنب مثل هذه الصحوة الغريبة؛ إنهم ينامون جيدًا، فضميرهم قاسٍ وميت، الأوغاد! أشعر بالفضول لرؤية ملاح وجوهم التي ستبدو عليهم عندما يرون فآسي وموتي في الوقت نفسه.

قال رفيقه:

- إن فآسي تقطع مثل شفرة الخلاقة، لقد شخّذتها كثيرًا لدرجة أنها تقص الشعر إلى نصفين، وآمل أنه إذا كانت الليلة ستكون حادة جدًا، وإلا فلن أشخّذها مرة أخرى!

- الأمور وصلت إلى أبعد من اللازم، مارتن؛ يعاملنا الفرنسيون مثل قطع من الثيران السخيفة، ويعتقدون أننا سوف نتعثر تحت قهرهم الاستبدادي؛ لكن، الرب أعلم، إنهم لا يعرفوننا ويخطئون في الحكم علينا وفقًا لسلوك

الليليارد الملعونين.

- نعم، هؤلاء اللقطاء يصيحون: تحيا فرنسا! إنهم يتلقون
الغريب، لكن شيئاً ما ينتظرهم أيضاً؛ لأنني، في تعبي
لشحد فآسي، لم أنسهم!

- لا، مارتن، لا! يجب ألا تسفك دماء مواطنيك، نهى
دي كونينك عن ذلك.

- وجان دو جيستل، هذا الخائن سيئ السمعة، هل
يسمح له بالعيش؟

- سيموت جان دو جيستل، وعليه أن يكفر عن وفاة
أصدقاء دي كونينك القدامى؛ لكن فليكن الوحيد.

- والمرتدون الآخرون سيفلتون من العقاب؟ كما ترى، يا
سيدي، هذا الفكر يثقل كاهلي، ولا يمكنني التعود عليه.

- سيكون عقابهم كبيراً بما فيه الكفاية: العار والازدراء
سيكون نصيبهم؛ سوف ننزع عنهم شرفهم وسنهبهم
بازدراثاء. أخبرني يا مارتن، ألا ترتجف من فكرة أن الجميع
قد يبصقون في وجهك مرددين: «أنت مرتد، جان، خائن
لبلدك!» هذا ما سيحدث لهم.

- أوه! نعم يا سيدي، كلماتك تجعلني أرتجف! يا له من
عقاب مروع! في الحقيقة، إنه أسوأ من الموت بآلاف
المرات. يا له من عذاب جهنمي بالنسبة لهم، إذا كان

لديهم قلب فلمنكي!

صمتا للحظة، يسمعان خطي الرجال على بعد؛ لكن سرعان ما تلاشى هذا الضجيج، واستأنف بريدل:

- لقد قتلوا أمي العجوز! رأيت ذلك، اخترق سيف لا هوادة فيه هذا القلب الذي أحبني كثيراً. رفضوا أن يشفقوا عليها؛ لأنها أنجبت الفلمنكي الذي لا يقهر؛ وبدوري، لن أشفق عليهم، وسأنتقم لي ولبلدي في الوقت نفسه!

- هل نمنحهم الحياة، سيدنا، أم سنأخذهم أسرى؟

- ويل لي إذا أخذت منهم أي أسير أو منحت أيًا منهم الحياة! لن أتركهم أحياء! إنهم يجدون الشجاعة في القتل، ويدوسون جثث إخواننا تحت أقدام خيولهم. وبعد ذلك، هل تؤمن، مارتن، أنه الآن، وبعد أن تطفو الصورة الدامية لأمي إلى ما لا نهاية أمام عيني، يمكنني رؤية أحد مضطهدي دون أن يجرفني الغضب الأعمى بعيداً؟ أوه! إذا انكسر فأسّي، الذي سُم من التسبب في وقوع ضحايا، فسأمزقه بأسناني! لكن هذا مستحيل، لقد كان سلاحه رفيقي المخلص لفترة طويلة.

- اسمع، سيدي، الضوضاء تتزايد على الطريق إلى دام.

انتظر!

وضع أذنه على الأرض، ونهض وقال:

- سيدي، النساجون ليسوا بعيدين.. على بعد أربع ياردات منا. تعال، لنهض! امش بين الصفوف بهدوء وتأكد من عدم تحرك أحد. سأذهب لمقابلة دي كونينك، لأريه الطرق التي يمكنه من خلالها نشر رجاله.

بعدها بفترة وجيزة، دخل أربعة آلاف نساج الغابة من جوانب مختلفة؛ تمددوا على الأرض، حسب الأمر الذي تلقوه، والتزموا الصمت العميق. بالكاد انزعج صفو الهدوء الذي ساد في الغابة بوصولهم، ولكن سرعان ما لم يسمع أي شيء آخر. يمكن رؤية عدد قليل من الرجال ينتقلون من مجموعة إلى أخرى. وقد نقلوا الأمر إلى القادة بالذهاب إلى الطرف الشرقي للغابة.

عندما أصبحوا بأعداد كبيرة، اصطفوا حول دي كونينك لتلقي تعليماته. بدأ عميد النساجين مخاطبتهم:

- أيها الإخوة، يجب أن تميز شمس اليوم حريتنا أو موتنا. تحلوا إذا بكل الشجاعة التي يمكن أن يلهمها فيكم حب الوطن؛ ضعوا في اعتباركم أنكم ستقاتلون من أجل المدينة التي ترقد فيها عظام آبائكم، وحيث كان مهدكم. لا تعفوا عن حياة أي شخص: اقتلوا كل الغرباء الذين يأتون في طريقكم وحطموا بلا رحمة حتى آخر جذر الحفنة المتعجرفة التي تضطهدنا. الموت لهم أو لنا! هل من بينكم من لا يزال

يشعر ببعض التعاطف مع أولئك الذين شنقوا بقسوة وقتلوا
إخواننا، مع أولئك الاخوة الذين ألقوا بكونتنا المحبوب في
السجن وسمموا ابنته؟

ظهر همس مكتوم، مليء بروح الانتقام ويحمل المعنى
المشؤوم الذي يسيطر على القلب، تحت الأشجار للحظة.
أجاب القادة:

- سيموتون.

تابع دي كونينك:

-حسناً، بدءاً من اليوم سنكون أحراراً! لكننا سنحتاج
إلى المزيد من الشجاعة والطاقة للحفاظ على حريتنا لأن
ملك فرنسا سيصل بلا شك إلى فلاندرز على رأس جيش
جديد.

صاح بريدل:

- سيكون ذلك أفضل بكثير، سيكون هناك الكثير من
الأطفال الذين سيكون على آباءهم، كما أنا أبكي على أمي،
فليستقبل الرب روحها!

قاطع عميد الجزائريين حديث دي كونينك. سارع هذا
الأخير خوفاً من نفاذ الوقت إلى إعطاء التعليمات اللازمة،
قائلاً:

- إليكم ما عليكم القيام به، بمجرد أن تدق الساعة الثالثة

صباحاً في كنيسة سانت- كروا، ستنهضون رجالكم،
تنظمونهم في صفوف وتقودونهم إلى حافة الطريق.
سوف أتقدم مع بعض الرفاق إلى أسوار المدينة؛ بعد
لحظات قليلة، عندما يفتح الباب من قبل الكلوراتس
الذين تركتهم في المدينة، سوف تدخلون منه، وأنتم
ملتزمون بالصمت الشديد، وكل منكم سيتخذ الاتجاه الذي
سأحدده له: سيد بريدل، مع الجزارين، سيستولون على
بوابة سبائي، يضع حراسة هناك، ثم ينشر رجاله في جميع
الشوارع المجاورة لجسر سناجارتس (68)؛ سيحتل السيد
ليندينز بوابة كاتلين وسيضع رجاله في جميع الشوارع حتى
كنيسة السيدة العذراء؛ سوف يشغل أصحاب مهنة الدباغة
وصنع الأحذية بوابة غانديا المؤدية إلى ستين وبورغ،
المهن الأخرى؛ تحت قيادة عميد البنائين، سوف تستولي
على باب دام وتتخذ موقعاً حول كنيسة سانت دونات؛
سأذهب مع ألفي رجل إلى بوابة لا بوفيري؛ سيحيط
رفاقي بالمنطقة بأكملها التي تمتد من هناك، إلى بوابة أنيس
والساحة الرئيسة (69). عندما تفاجئونهم وتطردون حرس
البوابة، يجب أن نكون هادئين قدر الإمكان في الشوارع؛
لأنه يجب ألا نوقظ العدو حتى يصبح كل شيء جاهزاً.
استمعوا جيداً: بمجرد أن تسمعوا الصيحة الوطنية: «فلاندرز
للأسد!» كروها، فستكون الإشارة، وستساعدكم على
التعرف على بعضكم. ومن ثم، تدهمون أبواب البيوت التي

يسكنها الأجانب وتذبجون الجميع.

قال أحد القادة:

- يا سيدي، لن نتمكن من تمييز الأجانب عن مواطنينا؛
لأننا سنجد معظم السكان في الفراش ومجردين من
ملابسهم.

- هناك طريقة سهلة لتجنب الأخطاء. إليك ما يجب
القيام به. إذا لم تستطع أن تعرف للوهلة الأولى ما إذا كان
الشخص الذي تتعامل معه أجنبياً أم فلهنكياً، اطلب منه
أن يصيح: درع وصدیق (70)! كل من لا يستطيع نطق
هذه الكلمات هو فرنسي ويجب قتله بلا رحمة (71).

دق جرس سانت-كروا ثلاث مرات في أعماق الغابة.
قال دي كوينك على عجل:

- كلمة أخرى! تذكروا أنني وضعت منزل السيد دي
مورتاي تحت حمايتي، عليكم أن تحترموا ذلك، ولا أحد
منكم يطأ بقدميه على عتبة هذا العدو الكريم. الآن، أسرعوا
للاضمام إلى رجالكم، وأبلغوا أوامري لهم وافعلوا ما
أخبرتكم به. أسرعوا وبلا ضوضاء، من فضلكم!

انضم كل قائد إلى فرقة وقادها إلى جانب الطريق. رتب
دي كوينك عدداً كبيراً من النساجين على طول الطريق
حتى مسافة قصيرة من المدينة: هو وحده اقترب

من السور وسعى لاختراق الظلام بنظراته. الفتيل، الذي أخفى نهايته المشتعلة، أشرق فجأة في يديه؛ وقد رأى رأساً يلوح في الأفق فوق سور المدينة: كان النساج الذي زاره. سحب العميد حزمة من الكنان من تحت عباءته ووضعها على الأرض ونفخ بشدة في الفتيل؛ وسرعان ما اندلعت شعلة متألقة واختفى رأس النساج خلف السور. بالكاد أعطيت الإشارة عندما سقط الحارس وهو يصرخ وألقي به من فوق السور؛ ثم سمع خلف الباب قعقعة أسلحة وأنين بعض الأشخاص الذين يحتضرون. ولكن هذا الضجيج أعقبه على الفور صمت ميت.

دخل جميع أصحاب المهن والحرف إلى بروج بأكبر قدر من الحذر؛ وذهب كل قائد مع رجاله إلى الحي الذي حدده له دي كونينك. بعد ربع ساعة، تم إعدام جنود حراسة جميع البوابات وشغل أصحاب المهن والحرف مواقعهم. أمام باب كل منزل يسكنه الفرنسيون، كان هناك ثمانية من الكلوراتس على استعداد لشق طريقهم عبر المطارق والنفوس. لم يكن هناك شارع لم يكن مأهولاً، فقد امتلأت جميع أنحاء المدينة بالكلوراتس الذين كانوا ينتظرون فقط الإشارة لبدء عملهم في الانتقام والإبادة.

كان دي كونينك في قلب سوق الجمعة. بعد فترة قصيرة، أعلن أمر إعدام الغرباء، قائلاً:

- فلاندرز للأسد! حتى الموت! الكل حتى الموت!

هذا النداء، هذه الإدانة لمضطهدي البلاد، تكررت بخمسة آلاف فم. وهكذا من السهل علينا أن نفهم الاضطرابات المروعة والفوضى الرهيبة التي أحدثتها صيحات الموت هذه. في الوقت نفسه، تم ركل جميع الأبواب أو كسرها. ركض الكلوراتس، المتحمسون للانتقام، إلى أسرة الغرباء وذبحوا أي شخص لا يستطيع أن ينطق: درع وصديق! كما في بعض المنازل التي كان يسكنها أكثر من فرنسي، فلا يمكن قتلهم في مثل هذا الوقت القصير، كان العديد منهم قادرين على ارتداء الملابس وحمل السلاح؛ حدث هذا على وجه الخصوص في المنطقة التي كان يعيش فيها السيد دو شاتيلون مع كثرة حرسه (72). تمكن نحو ستمئة فرنسي من الهروب من غضب بريدل ورجاله. العديد من الأشخاص الآخرين، الذين فروا من المذبحة، بالرغم من إصابتهم بجروح، ساروا في شوارع أخرى إلى جسر سناجارتس، وجاءوا لزيادة عدد الهاربين لدرجة أنهم وجدوا أنفسهم قرابة الألف، ففروا بيع حياتهم غالياً.

كانوا يتكثرون على البيوت في صفوف ضيقة ويدافعون بشدة عن أنفسهم ضد الجزائريين. كان العديد منهم مسلحين بأقواس ونشاب وأسقطوا العديد من الكلوراتس؛ لكن هذا زاد من غضب أولئك الذين رأوا أصحابهم يسقطون. كما

نسمع صوت دي شاتيلون الذي شجع أتباعه على المقاومة؛ كما يلاحظ المرء أيضاً السيد دي مورتماي، الذي كان سيفه الهائل يتلأأ مثل البرق في الظلام.

بريدل، في براثن الغضب المجنون، كان يضرب يمينا ويساراً بضربات مضاعفة بفأسه في صفوف الفرنسيين؛ لذلك كان بالفعل على بعد بضعة أقدام من الأرض، وكان عدد الأعداء الذين أسقطهم عند قدميه كبيراً جداً. سألت سيول من الدماء تحت الجثث، والصبحاح: «فلاندرز للأسد! حتى الموت! حتى الموت!» اختلط بشكل مروع مع آخر أنين للمحتضرين. كان السيد دو جيستل متواجداً أيضاً بين الفرنسيين. ولأنه كان يعلم أن موته سيحدث لا محالة إذا كان للفلمنكيين اليد العليا، ظل يصيح: «تحيا فرنسا، تحيا فرنسا»، مؤمناً أنه بذلك يشجع الجنود الذين يحيطون به. لكن جون بريدل تعرف على صوته، وصاح بشراسة:

- أنا يا رجالي! لا بد لي من حياة هذا الخائن والمجرم! إلى الأمام! لقد استمر هذا لفترة طويلة بما فيه الكفاية.. من يجبني يتبعني!

اندفع إلى الأمام، بفأس في يده، في وسط الفرنسيين وفي لحظة ذبح كل من حوله؛ عند هذا المنظر، سقط رفاقه على العدو بشراسة، ودفعوه إلى الخلف باتجاه الحائط، حتى إنهم قتلوا أكثر من خمسمئة رجل. في هذه اللحظة الفائقة، في

هذه الساعة للموت، تذكر دو مورتماي كلمات ووعد دي كوينيك؛ كان سعيداً لأنه كان قادراً، على الأقل، على إنقاذ حاكم فلاندرز فهتف:

- أنا السيد دي مورتماي، دعوني أمراً!

تركة الكلوراتس يمر باحترام ولم يبدوا أي مقاومة. فصاح في الفرنسيين الذين بقوا على قيد الحياة:

- من هنا، من هنا! اتبعوني! كان يعتقد أنه يمكن أن ينقذهم بهذه الطريقة؛ لكن الفلمنكيين وجهوا العديد من الضربات الفظيعة بالفأس حتى إن القليل منهم تمكنوا من الفرار. كان العدد صغيراً جداً لدرجة أنه مع دي شاتيلون، لم يكن هناك أكثر من ثلاثين شخصاً تمكنوا من الوصول إلى مقر إقامة دي مورتماي؛ كان الجميع موتى أو يكافون بشكل متشنج في دمائهم. أوقف بريدل رجاله أمام نزل حاكم المدينة ومنعهم من الدخول؛ حاصر الحي، حتى لا يتمكن أحد من الهرب، وتعهد بحراسة مدخل مسكن السيد دي مورتماي.

أثناء حدوث هذه المعركة، كان دي كوينيك يبحث عن آخر فرنسي في شارع دي بيريس، بالقرب من سان سوفور. فعلت المهن الأخرى الشيء نفسه في الأحياء المخصصة لها. ألقيت الجثث في الشوارع التي كانت مزدهمة بها لدرجة أنك بالكاد تستطيع المشي في الظلام. تكرر عدد

كبير من جنود الحراسة على أمل أن يتمكنوا من الهرب من أحد البوابات. لكنهم لم ينجحوا؛ لأنهم أمروا أن ينطقوا: درع وصديق. من جميع أرجاء المدينة، دوت الصيحات: «فلاندرز للأسد! حتى الموت! حتى الموت!» من هنا وهناك يهرب شخص أجنبي، يلحقه واحد من الكلورانس؛ لكنه سرعان ما يواجه عدواً آخر ويسقط على مسافة أبعد.

استمرت أعمال الانتقام حتى أشرقت الشمس فوق الأفق، وأضأت خمسة آلاف جثة، وأتت لتجفيف الدم المراق. تم التضحية بخمسة آلاف أجنبي، خلال تلك الليلة، مقابل أرواح الفلمنكيين الذين تم إعدامهم: إنها صفحة دامية من سجلات فلاندرز، حيث تم تسجيل هذا الرقم الرهيب بعناية (73).

أمام منزل السيد دي مورتماي، حدث مشهد غريب وفظيع. ألف جزار ممدد على الرصيف؛ الفأس في اليد، وعيون ممتلئة بالتهديد والانتقام مثبتة على الباب. كانت أذرعهم العارية وعباءاتهم مغطاة بالدماء، وفي وسطهم كانت الجثث ممددة مثلهم على الأرض. كان يمر عدد قليل من الرفاق، المنتمين إلى من أخرى، من وقت لآخر فوق الجزارين المستلقين، وكانوا يبحثون عن جثث الفلمنكيين الذين لقوا حتفهم لدفعهم.

على الرغم من أنهم بدوا وكأنهم في قبضة هياج شديد، لم

تأت أي سبة من شفاه الجزائريين. حسب الكلمة المعطاة، كان منزل السيد مورتماي مقدساً بالنسبة لهم؛ ولم يرغبوا في النكث بالوعد الذي قدمه دي كوينيك؛ وبعد كل ذلك كان لديهم الكثير من التقدير لحاكم المدينة، ولهذا السبب كانوا راضين عن احتلال الحي ومراقبته.

كان السيد دي شاتيلون وجون دي جيستل، من الليليارد، قد لجأ إلى منزل السيد مورتماي؛ وكانا في قبضة القلق الكبير؛ لأنهما كانا على وشك الموت المحتوم. كان دي شاتيلون فارساً شجاعاً، وكان ينتظر بهدوء المصير الذي ينتظره؛ على العكس من ذلك، كان جان دي جيستل شاحباً ومرتعداً. على الرغم من العنف الذي كان يفعله، لم يستطع إخفاء قلقه، وأثار شفقة الفرنسيين الحاضرين، حتى شفقة السيد دي شاتيلون، الذي كان يواجه نفس الخطر. اجتمع هؤلاء اللوردات في غرفة في الطابق العلوي تطل على الشارع. ومن وقت لآخر، كانوا يقتربون من النافذة ويلقون نظرة رعب على الجزائريين، الذين كانوا متربصين أمام الباب، مثل عصابة من الذئاب تنتظر فريستها. ذهب جون دي جيستل أيضاً إلى النافذة. رآه جون بريدل وهدده بفأسه. حدثت حركة مفاجئة وجماعية بين الجزائريين، ورفعوا أسلحتهم ضد الخائن الذي أرادوا موته. ويا له من انقباض شعر به الليليارد في قلبه عندما رأى تلك الآلاف من الفؤوس تلمع مثل حكم الإعدام! التفت

إلى الفرسان الآخرين وقال بصوت حزين:

- يجب أن نموت يا سيدي، لا يوجد عفو لنا؛ لأنهم يتوقون إلى دمائنا مثل الكلاب المسعورة. لن يغادروا! يا إلهي! ماذا علينا ان نفعل؟

أجاب السيد دو شاتيلون:

- ليس من الشرف أن نهلك على يد هؤلاء الأوغاد. أود أن أموت، وسيف في يدي، مثل فارس شجاع؛ ولكن، بما أن الأمر كذلك، فليكن.

استسلام دي شاتيلون البارد أحزن دي جيستل أكثر.

فكر:

- فليكن! يا إلهي يا لها من لحظة مرعبة! كيف يعذبوننا بهذا الشكل! لكن، سيد دي مورتماي، أتوسل إليك، من أجل حب الرب، أنت لك تأثير كبير عليهم، أسألكم عما إذا كانوا يوافقون على تركنا نعيش، مقابل فدية باهظة. لا أريد أن أموت بأيديهم، وسأعطيهم كل ما يطلبونه، مهما كان المبلغ كبيراً.

أجاب دي مورتماي:

- سأسألكم، لكن لا تدعهم يرونك؛ لأنهم سيخرجونك من المنزل.

وقد فتح النافذة وصاح:

- السيد بريدل، يسألك السيد دو جيستل عما إذا كنت تريد منحه جوازاً بالمرور مقابل فدية جيدة. اسأل ما تريد؛ حدد المبلغ بنفسك. من فضلك لا ترفض.

قال بريدل لرفاقه بضحكة ساخرة:

- هل تسمعون يا رفاق؟ يقدمون لنا المال! إنهم يعتقدون أن انتقام الشعب يمكن تعويضه بالمال. هل نقبل؟

تصايح الجزارون:

- نحن بحاجة إلى هذا الليلياردا! يجب أن يموت هذا الخائن، هذا الفلنكي المنشق!

ضربت هذه المطالبات الصاخبة آذان دي جيستل، الذي كان مذعوراً، وقد شعر أن الجزارين المخيفين قد وجهوا له بالفعل الضربة القاتلة. سمح اللورد مورتماي بمرور هذا الانفجار العاصف من الانتقام، وصاح مرة أخرى:

- لقد أخبرتموني أن منزلي سيكون مكاناً آمناً، فلماذا الآن تريدون أن تحنوا بالكلمة التي أعطيت لي؟

أجاب بريدل:

- سوف نحترم منزلك، لكنني أؤكد لك أنه لن يترك دي شاتيلون ولا جيستل جدران بروج وهما حيان؛ سوف تكفر دماؤهما عن دماء إخوتنا، ولن يغادرا من هنا حتى

تسد لهما فؤوسنا الضربة الأخيرة.

- وهل أنا حر في مغادرة المدينة؟

- أنت، أيها السيد مورتماي، أنت وخدامك، يمكنكم الذهاب أينما تريدون؛ لن نلص شعرة من رأسك، لكن لا تحاول خداعنا؛ لأننا نعرف جيداً الرجلين اللذين نبحث عنهما.

- حسناً، إنني أخبركم بأنني أريد أن أغادر إلى كورتراي بعد ساعة.

- ليحميك الرب!

- ألم تشفقوا أبداً على الفرسان غير المسلحين؟

- لم يشفقوا على إخواننا، نحن بحاجة إلى دمائهم. المشنقة التي نصبوها لا تزال قائمة.

أغلق دو مورتماي النافذة وأخبر الفارسين المهددين:

- أيها السادة، إنني أشفق عليكم، إنهم يريدون إراقة دمائكم. أوه! أنتم في خطر كبير، لكنني آمل، بمساعدة الرب، أنه لا يزال بإمكانني أن أنقذكم. يوجد مخرج خلف الحديقة يمكننا من خلاله الهروب بنجاح من أعدائكم المتعطشين للدماء. تتكروا واربجا الخيول؛ ثم سأمر عبر البوابة مع خدامي، وبينما سألفت انتباه الجزارين إليّ، ستتمكنان من الوصول إلى الأسوار على عجل. بالقرب من بوابة

الحدادين، هناك فجوة في السور، ولهذا من السهل عليكما الوصول إلى الريف؛ فهم لا يستطيعون إيقاف خيولكما.

قبل دي شاتيلون ودي جيستل هذه الطريقة بفرح. أخذ الحاكم ملابس راعي كنسيته وجيستل ملابس خادمه البسيط؛ وكان هناك نحو ثلاثين فرنسياً نجوا من المذبحة وقد أخذوا خيولاً من الإسطبلات واستعدوا للفرار مع قائدهم. عندما أصبح كل شيء جاهزاً، ظهر دو مورتاي مع خدامه في الشارع حيث يتواجد الجزائريون؛ الذين لم يتوقعوا أنه يمكن تشتيت يقظتهم في نقطة أخرى، قاموا وفحصوا باهتمام أولئك الذين رافقوا حاكم المدينة؛ ولكن فجأة دوت الصيحة: «فلاندرز للأسد! حتى الموت! حتى الموت!» في شارع آخر، وعند منعطف الفندق سمعت خطى الخيول الراكضة. اندفع الجزائريون بسرعة في حالة من الفوضى وأطلقوا صيحات عالية نحو المكان الذي سمع فيه الضجيج. لكن الوقت كان قد فات: فقد هرب دو شاتيلون ودو جيستل. من الثلاثين رجلاً الذين رافقوهم مات عشرون. فأينما كانوا يمرون كانوا يواجهون أعداء فلمنكيين يعتدون عليهم، ولكن الحظ أراد هروب الفارسين من الخطر. وقد هربا باتجاه الأسوار، وقد مرا خلف سانت-كلير، ووصلا بذلك إلى بوابة الحدادين، ومن هناك هرعا مع الخيول إلى الخندق وعبرا من خلاله، ليس دون التعرض لخطر كبير؛ لأن السيد دو شاتيلون قد غاص مع

الحصان الذي كان يركبه (74).

كان الجزائريون قد طاردوا الهاربين حتى الباب: وعندما رأوا عدواهما اللدودين يختفيان في مسافة بعيدة بين الأشجار، شعروا بالاستياء والغضب؛ وبدأ لهم الانتقام غير مكتمل. بدوا كالأحجار بلا حراك؛ أخيراً، بعد أن حدقوا لمدة طويلة في المكان الذي اختفى فيه دي شاتيلون، تركوا السور وتوجهوا، مستائين، نحو سوق الجمعة. فجأة أثار ضجيج آخر انتباههم: من وسط المدينة ارتفع حشد من الأصوات المشوشة التي ملأت الهواء، على فترات متقطعة، بهتافات طويلة وصاخبة، كما لو أن أميراً قد دخل البلاد فرحاً. لم يستطع الجزائريون فهم أي شيء من صرخات الانتصار والفرح هذه. كانت الأصوات لا تزال بعيدة جداً. تدريجياً، اقترب الحشد المتحمس، وسرعان ما أصبحت الهتافات مفهومة. كانت تصبح:

- يحيا الأسد.. يحيا عميدنا.. فلاندرز حرة.. حرة..

فلتحيا.

اندفع حشد كبير من سكان بروج في الشوارع مثل السيل. كانت هتافات الفلمنكيين، الذين استعادوا حريتهم لتوهم، تضرب واجهات المنازل وتحوم مثل هدير الرعد فوق المدينة، وركضت النساء والأطفال وسط أصحاب المهن والحرف، واختلط التصفيق الحار مع الصيحات

المتواصلة:

- يحيا الأسد.. يحيا عميدنا.. فلاندرز حرة.. حرة..
فلتحيا.

في وسط الجموع، تطايرت راية بيضاء اللون على ثياها
المتوجة، تم تطريز أسد أزرق سماوي. كانت الـراية
العظيمة لمدينة بروج والتي، لفترة طويلة، كان عليها أن
تستسلم أمام الزنابق. كانوا قد أخرجوها للتو من خزانتها،
واستقبل ظهور هذا الشعار المقدس بآلاف الصرخات
الفرحة.

حمل رجل قصير العلم المشهود، وذراعه متقاطعتان على
صدره، وقد حمله بقوة بالقرب من قلبه، وكأن هذه اللمسة
قد ألهمته حماساً شديداً. وانهمرت دموع غزيرة على خديه،
دموع جعلها حب الوطن والسعادة برؤية هذا البلد حراً
تذرف؛ حيث كان تعبير لا يوصف عن السعادة يشع على
وجهه. هو من لم يبك قط في وجود أعظم الكوارث، بكى
بعد أن ظهر الأسد على مذبح الحرية، شعار مدينته الأم.

كانت عيون المتفرجين الذين لا حصر لهم تحديق باستمرار
في هذا الرجل، وقد تكررت صيحات «يـحيا دي كوينك،
يـحيا الأسد!» بقوة أكبر. ما إن اقترب عميد النساجين من
سوق الجمعة حاملاً الـراية، حتى استولى جنون الفرحة على
قلوب الجزائريين؛ وقد كرروا أيضاً صيحات الانتصار عدة

مرات وضغطوا على أيدي بعضهم بعضاً في انفعال شديد.
يا لها من عواطف نبيلة توقد حب الوطن الأم في القلوب!
اندفع بريدل إلى الأمام مثل الأحق، وركض تحت الراية
ومد يديه بفارغ صبر واضح تجاه الأسد. قدم دي كونينك
العلم إلى عميد الجزارين قائلاً:

- تفضل يا صديقي، هذا ما ربخناه اليوم؛ إنه رمز حرية
آباءنا.

لم يرد بريدل، كان قلبه مفعماً للغاية، يرتجف من
العاطفة، وقد عانق العلم بين ذراعيه وقبل الأسد المنتصر.
خبأ رأسه في ثيابه الحريري وبكى لحظات دون أن يتحرك. بعد
ذلك، في قمة الحماس الأكثر حيوية، ترك العلم وألقى بنفسه
في حضن دي كونينك.

بينما احتضن العميدان بعضهما بعضاً في عناق دافئ، لم
يتوقف الناس عن هتافاتهم التي كانت تحوم مثل حفل
موسيقى فوق عدة آلاف من الرؤوس. لم يكن سوق الجمعة
كبيراً بما يكفي لاستيعاب جميع المواطنين، رغم ازدحام
الناس هناك حتى اختناقهم. أغلق شارع دي بيرس من
قبل الحشد حتى كنيسة سان سوفور؛ امتلأت شوارع
فورجيرون وبوفيري أيضاً، إلى مسافة معينة، بالنساء
والأطفال الأقل حماساً.

مشى عميد النساجين إلى وسط الميدان واقترب من

المشقة التي لا تزال قائمة. وكانت جث الضحايا قد انحلت منها ودُفنت بالفعل؛ لكن الجبال كرمز لذكريات الاستبداد قد تركت هناك عمداً. تم وضع الراية التي تحمل أسد بروج بجانب أداة التعذيب، وتم الترحيب بها مجدداً بهتافات جديدة. دي كونينك، بعد أن رفع عينيه مرة أخرى إلى العلم المسترد، ركع ببطء، وأحنى رأسه وبدأ بالصلاة، ويده مضمومتان.

عندما ترمي حجراً في الماء الراكد، تمتد الحركة في دوائر مرتجفة على السطح بأكمله. وعلى نحو مماثل، امتد فكر ونية دي كونينك إلى العديد من المواطنين من حوله، رغم أن معظمهم لم يتمكنوا من رؤيته. ركع المقربون منه في البداية في صمت ونقلوا الدافع إلى الآخرين، بحيث انحنت كل الرؤوس بدورها في النهاية. صمت الأصوات في وسط الدائرة الهائلة، وأخذت تتضاءل في جميع الأرجاء، حتى ساد الصمت المطلق في الحشد. لمست آلاف الركب هذه الأرض التي لا تزال دامية، وانحنت آلاف الرؤوس أمام الرب الذي خلق الإنسان من أجل الحرية. يا لها من حفلة متناغمة لا بد أن تردد صداها في تلك اللحظة أمام عرش الرب! ما مدى قبول قدس الأقداس بهذه الصلاة الجليلة التي ارتفعت له مثل همس لطيف وإجلال مقدس!

سرعان ما نهض دي كونينك على قدميه، وبينما استمر هذا الصمت، قال بصوت عالٍ، حتى يسمعه الكثيرون:

- أيها الإخوة، الشمس اليوم ترسل لنا نوراً جديداً، والهواء نقي في مدينتنا: لم تعد أنفاس الأجانب تفسده بعد الآن! اعتقد هؤلاء الطغاة المتعجرفون أننا سنكون وسنظل عبيداً لهم. لكنهم تعلموا، على حساب حياتهم، أن أسدنا الشجاع يمكن أن ينام ولكن لا يموت. لقد استرددنا إرث آبائنا وغسلنا آثار الأجانب بالدماء. لكن لم يمت كل أعدائنا، وسترسل فرنسا بكل تأكيد ضدنا أكثر من جيش للمرتزقة؛ لأن الدم يقتضي المزيد من الدم! ولكن لا يهم ذلك! الآن، نحن لا نقهر. ومع ذلك، لا يجب أن تاملوا مطمئنين بهذا الانتصار؛ لتظل قلوبكم نبيلة ونخورة وشجاعة؛ لا تدعوا اللهب السخي ينطفئ وهو يدفئ صدوركم في هذه اللحظة. أتمنى أن يعود كل واحد الآن إلى منزله ويبتهج مع عائلته للخلاص السعيد الذي تم للوطن. نعم! اهتفوا بفرح واشربوا من نحر الفرح، فإن هذا اليوم هو أجمل يوم في حياتكم. دع أولئك الذين ليس لديهم نبيذ يذهبون إلى قاعة المدينة، حيث سيتم توزيع معيار واحد لكل رجل.

الصخب الذي نما أكثر فأكثر لم يسمح لدي كونينك بإطالة حديثه؛ ومن ثم قام بإعطاء إشارة إلى العمداء الذين أحاطوا به وسار معهم باتجاه شارع دي بيريس. فتح الحشد الطريق أمامه باحترام؛ وفي كل مكان استقبلهم المواطنون بهتافات حماسية. ثم اندفع الجميع إلى الراية، التي تم وضعها بجانب المشنقة، كل واحد بدوره جاء ليتأمل

بكل نخر أسد بروج وينظر بعين متأثرة شعار المدينة، كما لو كان المرء ينظر إلى وجه صديق عاد بعد رحلة طويلة من الخارج بين إخوته. امتدت كل الأيدي نحو العلم واستقبلته من بعيد بإيماءات حماسية كانت ستبدو حمقاء لرجل هادئ وغير مبال بما حدث للتو. سرعان ما وصل الرفاق، الذين ذهبوا بالفعل لجلب النبيذ، إلى السوق مع أباريقهم ونشروا الأخبار السارة التي مفادها أنهم في قاعة المدينة كانوا يوزعون معياراً واحداً لكل رجل. بعد ساعة، كان الجميع يحملون الكئوس في أيديهم. وهكذا انتهى هذا اليوم السعيد دون اضطرابات أو مشاجرات. لم يكن هناك سوى شعور واحد في كل القلوب: الشعور الذي يغمر روح الأسير بعاطفة لذيذة، عندما يرى الشمس تشرق مرة أخرى فوق رأسه ويفهم أنه لديه في العالم أكثر من السجن.

ألم تضع أفضل فترة في حياته في صراع مستمر؟ ما الذي واجهه إن لم تكن خيبات الأمل المريرة لقلبه الطاهر؟ ألم يأخذ كل يوم معه أحد أوهامه، ومع الوهم أخذ مصدر السعادة؟

(ج. أ. دي لات)

لقد انقضت سنتان منذ أن صاح الغريب، وهو يضع قدمه على تراب الوطن: «أحنوا رؤوسكم أيها الفلمنكيين، يا أبناء الشمال أطيعوا أبناء الجنوب أو موتوا!».

ولكن، بينما كان يتحدث هكذا، لم يكن الغريب يعرف أنه في بروج ولد رجل يتمتع بعبقريّة وذكاء وبطولة في القلب. رجل كان عليه أن يلعب مثل المنارة في وسط معاصريه، والذي قال له الرب كما قال لموسى:

- اذهب وحرر إخوتك من عبودية فرعون!

بمجرد أن غزت المحافل الأجنبية الأراضي الفلمنكية وجب الغبار الذي أثير على خطاهم الأفق، دوى صوت غامض في روح دي كونينك، قائلاً:

- احترس! هؤلاء الناس يبحثون عن عبيد!

عند هذه الصيحة، ارتجف المواطن النبيل من الألم

والسخط: عبيدا! نحن عبيدا! يا ربي يا إلهي لا تسمح
بحدوث ذلك! سالت دماء آبائنا الأحرار على مذابحك،
ماتوا في رمال شبه الجزيرة العربية واسمك المقدس على
شفاههم. أوه! لا تدعوا أبناءهم يهينون أنفسهم تحت
ظلم الأجنبي حتى لا تمتلئ المعابد التي أقاموها لك بالعبيد
الوضيعين!

قال دي كونينك هذه الصلاة للرب في أعماق روحه،
لكن الرب يقرأ ما في قلب الإنسان. لقد وجد في البطل
الفلمنكي كل الكرم والذكاء الذي وهبه له، وقد ترك يسقط
على دي كونينك شعاع ينبع منه. فجأة امتلأ الفلمنكي
بطاقة غامضة، وشعر أن قوته تتضاعف فصاح في حماس
شديد:

- يا رب شعرت بيدك اليمنى القديرة تلمس جبتي. نعم
سأنقذ بلدي! لن أسمح للأجانب أن يدوسوا بأقدامهم قبور
آبائي.. تباركت يا إلهي؛ لأنك دعوتني لمثل هذه الرسالة
المقدسة!

منذ تلك اللحظة لم يكن في قلب دي كونينك سوى شعور
واحد، تطلع واحد؛ كل أفكاره وعواطفه ارتبطت بهذه
الكلمة العظيمة: الوطن! المصالح، الأسرة، الراحة، أكثر
المخاوف المشروعة تم إبعادها من روحه السخية لتفسح
المجال فقط لحب الأرض التي يحكمها أسد فلاندرز. لذا،

من يعد أكثر شهامة وإخلاصاً، من ذلك الرجل الفنلندي الذي عرض حياته وحرية له للخطر مئات المرات من أجل حرية بلده؟ أي رجل يحظى بعقوبة أكبر وأنبيل؟ فوحده، على الرغم من المرتدين والليليارد الذين أرادوا بيع فلاندرز، أحبط كل الجهود، كل محاولات ملك فرنسا، هو وحده حافظ لإخوته على قلب أسد وهو مقيد بالسلاسل، وأعد كل شيء ببطء لساعة الخلاص.

كان الفرنسيون يعرفونه جيداً؛ كانوا يعرفون الشخص الذي كان يكسر باستمرار عجالات عربتهم المظفرة؛ كانوا يرغبون في إبعاد هذا المراقب الخيف؛ لكن هذا كان يمتلك حكمة الحية. كان قد صنع درعاً لإخوانه، ولم يجرؤ الأجنبي على لمسه؛ لأن ذلك كان سيؤدي إلى إيقاظ الشعب النائم الذي كان سيحاول الانتقام بكل الطرق. بينما أجبر الفرنسيون جميع سكان فلاندرز على الانحناء تحت صولجان الاستبداد، احتفظ دي كوينك بكل حريته وسط رفاقه المواطنين المستعبدين؛ لقد كان سيداً على الدوام، وكانوا يخشون من بطشه.

سبعة آلاف أجنبي دفعوا حياتهم للتو من أجل الاضطهاد الذي استمر عامين. لم يبقَ أجنبي يتنفس الهواء في مدينة بروج التي استعادت حريتها؛ ابتهج الناس بتحريرها، ودوت المدينة بأغانٍ مبهجة من تأليف المنشدين لهذه المناسبة، والراية البيضاء جعلت الأسد اللازوردي

يطفو في ثياياه المتموجة فوق أعلى الأبراج. هذه الراية، التي كان تلمع في السابق منتصرة على جدران القدس والتي ستحضر مثل هذه الوقائع المجيدة، ملأت قلوب المواطنين بالفخر؛ في ذلك اليوم كان استعباد فلاندرز مستحيلًا؛ لأن سكان بروج تذكروا مقدار الدماء التي أراقها آباؤهم من أجل الحرية. تبلل الدموع عيونهم من حين لآخر، تلك الدموع التي تهدئ الروح عندما تؤججها العواطف السخية وتفيض بالحماسة.

ربما يعتقد المرء أن عميد النساجين اعتبر أن عمل الخلاص قد تحقق وشغل نفسه بترميم منزله الذي دمره النهب. لا، لم يفكر في منزله ولا بالثروات التي فقدها؛ كانت سعادة إخوته وراحتهم همه الأول. مع العلم، أن ليلة واحدة تكفي لكي يخلف الاضطراب والفوضى الحرية، لذا في اليوم نفسه، اختار أحد القدامى من كل مهنة أو حرفة، وبموافقة الشعب، أسس بهم المجلس الحكومي. لم يتم تعيينه رئيساً لهذا المجلس، ولم يتم تكليفه بمهمة خاصة، ومع ذلك، فقد أخذ كل شيء على عاتقه. لم يجرؤ أحد على فعل أي شيء دونه، كانت نصيحته أوامر في كل شيء؛ ودون أن يطلب ذلك، كان تفكيره هو القاعدة الوحيدة للجمهورية، ها هي تتجلى سلطة العبقرية!

تم القضاء على الجيش الفرنسي. لكن كان من المتوقع أن يرسل فيليب لو بيل، دون أدنى شك، قوات جديدة

وأكثر قوة إلى فلاندرز للانتقام من الإصابة التي لحقت به. لم يفكر معظم المواطنين كثيراً في هذا اليقين الرهيب؛ كانت فرحة الحرية تكفيهم؛ لكن دي كونينك لم يشارك في الفرح العام؛ لقد نسي بالفعل الحاضر لتفادي مخاطر المستقبل. لم يكن يجهد أن الحماس والشجاعة الشعبية تظهران فقط في وجود الخطر؛ لذلك بذل كل جهد ممكن لجعل المدينة منشغلة أن الحرب لا تزال مستمرة. تم إعطاء كل رقيق في مهنة أو حرفة حراباً أو أي سلاح آخر، تم إعادة تشكيل الاتحادات بالأمر لتكون مستعدة دائماً للمعركة؛ بدأت مهنة البنائين في ترميم التحصينات، وفي جميع ورش الحدادة، كان يُمنع صنع أي شيء آخر غير الأسلحة للمقاطعة. أعيد فرض الضريبة على القاعدة القديمة وخفضت الرسوم على سكان المدينة. بفضل هذه التدابير الحكيمة، جعل دي كونينك جميع الأفكار والجهود تتلاقى نحو هدف واحد، وحافظ على مدينته الأم من العديد من الشرور التي تتطوي عليها الثورة مهما كانت عظيمة، ومهما كان الدافع كريماً ونبيلاً. كان يمكن للمرء أن يقول إن حكومة بروج الجديدة قد تعززت بالفعل منذ سنوات عديدة.

مباشرة بعد الخلاص، وبينما كان الناس يشربون نبيذ الفرح في جميع الشوارع، أرسل دي كونينك رسوياً إلى جيش دام لاستدعاء أصحاب المهن والحرف الآخرين

إلى المدينة مع النساء والأطفال. وصلت الأميرة الصغيرة ماتيلد معهم، وقد عُرض على الكوتتيسة مسكن رائع في البرينسنهوف؛ لكنها فضلت منزل نيولاند، ذلك المنزل الذي قضت فيه ساعات طويلة من الحزن والذي ارتبطت به كل أحلامها. فقد وجدت هناك، في أخت أدولف الرائعة، صديقة لطيفة يمكنها في حضنها أن تصب الحب والقلق الذي يملأ قلبها المظلوم. إنه لأمر جميل، عندما يثقل كاهلنا حزن مميت، أن نجد شخصاً يجعل آلامنا مفهومة، شخصاً يحب ما نحبه وشكاواه هي أصداء شكوانا؛ وهكذا، فإن كرميتين صغيرتين تعانقان بعضهما بعضاً وتحملان معاً الإعصار الذي كان سيكسر سيقانهما دون دعم. بالنسبة لنا الأحران والألم هو الإعصار الذي يسرق بأنفاسه المتجمدة من أرواحنا القوة والحياة ويحني قبل التقدم بالعمر جبهتنا نحو القبر، وكأن السنوات التي آسمت بالشدائد تحسب مرتين.. في حياة الإنسان!

للمرة الرابعة، كانت الشمس ترفع قرصها الساطع فوق مدينة بروج المحررة؛ كانت ماتيلد وحدها في الغرفة التي كانت تعيش فيها سابقاً في منزل أدولف دي نيولاند. الطائر المخلص، الصقر الحبيب لم يعد معها؛ لقد مات. رسمت المعاناة والإحباط على ملامح الفتاة الشاحبة والحزينة، وكانت عيناها قاتمتين وغائمتين، وخداها هزيلين، كل ما بداخلها قد أعلن أن دودة الألم كانت تقضم

روحها.

أولئك الذين ظلوا لفترة طويلة في قبضة أحزان مريرة
ينغمسون في أحلام قائمة، كما لو أن الواقع الذي يعذبهم،
لا يكفيهم، فإنهم يخلقون أشباحاً تحزنهم أكثر؛ وكذلك
فعلت ماتيلد التعيسة. تخيلت أن أسرار الإفراج عن والدها
قد تم اكتشافها، ورأت القاتل، الذي رسته الملكة جين،
وهو يخلط السم مع طعام والدها؛ سارت موجة من الخوف
في جسدها، وامتلأت عيناها بالدموع وملاً القلق قلبها.
مات أدولف من أجلها. لقد دفع حياته ثمناً لحبه وتفانيه..
اختفت هذه المشاهد المؤلمة للقلب، لتعاود الظهور قريباً،
وقد جعلت الفتاة المسكينة تعاني من أفظع عذاب.

فبينما كانت صديقتها ماري تدخل الغرفة. كانت
الابتسامة التي ظهرت على وجنتي الكوتتيسة الحزينة
الشاحبة تشبه الابتسامة التي تظهر بعد موت مؤلم على
ملاح بعض الجثث؛ وهي ترسم الحزن والألم والشكوى
اليأس. ثبتت على أخت أدولف نظرة قاتلة:

- أوه، واسيني، خفي عني!

اقتربت ماري من الفتاة الصغيرة الحزينة وضغطت على
يدها بحنان. وقد أعطت صوتها تلك النبرة اللطيفة التي
تخترق كأنشودة عزاء في نفوس المتألمين، ثم خاطبتها:

- أنت تبكين يا ملكتي الحبيبة؛ قلبك في قبضة الحزن

والأأس، ولا شيء، لا شيء يأتي ليخفف من قدرك
الحزين! أوه! أنت تعيسة حقاً!

- تعيسة؟ تقولين، يا صديقتي العزيزة؟ أوه، نعم، هناك
شيء يقيدني ويمزق قلبي. هل تدرين أى رؤى رهيبة
تمر أمام عيني بلا نهاية؟ هل تفهمين لماذا خدائي دائماً
مغموران بالدموع؟ لقد رأيت والدي يموت مسموماً،
وسمعت صوته الخافت يقول لي: «وداعاً، طفلي المسكينة،
لقد أحبتك كثيراً!».

قالت ماري:

- أتوسل إليك، سيدتي الكوتيسة، ابتعدي عن هذه
الرؤى الكثيبة! أنت تجعليني أرتجف! والدك حي. أنت
تخطئين بشدة عندما تسلمين نفسك لليأس. ساحبيني على
جراة لغتي.

أمسكت ماتيلد بيد ماري وضغطت عليها برفق، كما لو
كانت لتجعلها تفهم أن هذه الكلمات قد جلبت لها بعض
العزاء. ومع ذلك، استمرت في التحدث بنبرة تم عن
الأسى كما لو أنها بدت مستمتعة بالبحث عن الرؤى الأليمة.
فالشكوى، عند من يعانون، تنتج نفس تأثير الدموع، فهي
تخفف المعاناة. وقد تابعت:

- لقد رأيت المزيد، ماري: لقد رأيت الجلاد الذي
أرسلته جين دو نافار القاسية ليقع بفأسه على رأس أخيك؛

لقد رأيت رأس السيد أدولف يسقط على بلاط الزنزانة.

صرخت ماري:

- يا إلهي! يا لها من مجرمة!

كانت ماتيلد ترتجف، وامتلات عيناها بالدموع:

- وسمعت صوته أيضًا، صوته يقول: «وداعاً! وداعاً!».

عندما استولت على ماري هذه الرؤى الكئيبة، ألقت بنفسها على رقبة الكونتيسة وانفجرت في البكاء. وقد اختلط بكاء وأنين كل من الفتاتين الشابتين ببعضهما. وبعد أن بقيتا لمدة لحظات في أسي عميق، واصلت ماتيلد:

- هل تفهمين الآن ما أعانيه، ماري؟ هل تفهمين الآن لماذا أحرقت نفسي وأموت موتاً بطيئاً ومخيفاً؟

أجابت ماري بيأس:

- نعم، أنا أفهم وأشاركك مخاوفك. يا أختي المسكينة!

جلست الفتاتان صامتتين ومحطمتين. وقد نظرنا لبعضهما لفترة طويلة بحزن لا يوصف؛ لكن الدموع خففت من آلامهما تدريجياً، وعاد الأمل إلى قلوبهما.

ماري، التي كانت أكبر سنًا وأكثر بأسًا في مقاومة الألم من ماتيلد، خرجت أولاً من قلقها القائم قائلة:

- لماذا، يا سيدتي الكونتيسة، تتألم بسبب أحلام كاذبة؟

لا شيء يؤكد المشاعر الحزينة التي تؤلّنا؛ أنا متأكدة من أنه لم يحدث أي مكروه للسيد روبرت، والدك، وأن أخي بالفعل في طريق عودته إلى فلاندرز.

- وهل تبكين يا ماري! هل من المفترض لنا أن نبكي ونحن نتنظر عودة أخ؟

- أنت تعذبن نفسك يا سيدتي. يجب أن يكون للألم جذور عميقة في قلبك لكي تكوني أكثر تفاعلاً بحماس التوقعات القائمة التي ترهقك! صدقيني، والدك حي، ولعل خلاصه قريب. لذا فكري في الفرحة التي ستأتي إليك عندما يقول لك صوته، نفس الصوت الذي يناديك بحزن شديد في أحلامك: «لقد كسرت قيودي الحديدية!»، وبعدها تضع شفتاه قبلة مليئة بالحنان على جبهتك وعناقه اللطيف يعيد ورود الشباب إلى خديك الشاحبين من الحزن. سيريك قلعة وينينديل الجميلة وستعودين إلى أسوارها، وسيصعد السيد روبرت إلى عرش آبائه، ويكون حبك عزاء له ودعمًا في شيخوخته؛ وحينئذ، لن تفكري في أحزانك اليوم، بل إنك ستفرحين بما عانيت منه من أجل حب والدك العظيم! يا سيدتي، قولي لي إنك تركت شعاع أمل يخترق روحك! ألا يعزيك هذا الاحتمال المبارك؟

حدث تغيير واضح في ماتيلا بينما كانت ماري تتحدث؛ فرحة حلوة حركت نظرتها ورسمت ابتسامة سعادة على

شفتيها. وقالت وهي تنهد وتمرر ذراعها حول عنق الصديقة التي كانت تواسيها:

- يا ماري! إذا كنت تعرفين فقط ما أشعر به من ارتياح، ومن سعادة غير متوقعة صببتها في قلبي مثل البلمس الشافي! عسى أن يعطيك ملاك الرب مثل هذا العزاء في ساعتك الأخيرة! ما أجمل الكلمات التي أهتمك بها الصداقة، أختي الحبيبة!

كررت ماري:

- أختك! هذا الاسم لا يناسب عبدتك المتواضعة، أيها الكونتيسة اللامعة؛ أنا قد حصلت تماماً على مكافأتي عندما رأيت أن الحزن المميت الذي طغى عليك يتبدد.

- اقبلي هذا الاسم يا عزيزتي ماري، أحبك كثيراً! ثم أخوك الكريم أدولف، ألم يربني؟ ألم يمنحني أبي الحبيب إياه كأخ؟ نعم نحن من نفس العائلة.. أوه! أصلي طوال الليالي أن تصطحب الملائكة المقدسة السيد أدولف في رحلته المحفوفة بالمخاطر! صحيح أنه لا يستطيع مواساتي الآن ولا يعيد لي السعادة.. لكن ماذا أسمع؟ هل تستجاب صلاتي؟ نعم، نعم، ها هو أخونا الحبيب!

مدت ذراعها نحو الشارع وظلت صامتة وساكنة. بدت وكأنها تمثال ويبدو أنها تريد أن تلتقط صوتاً يأتي من بعيد. كانت ماري خائفة؛ ظنت أن الكونتيسة أصيبت بالجنون.

وبينما كانت على وشك التحدث، سمعت صوت خطوات حصان أمام الباب؛ ومن ثم فهمت معنى كلمات ماتيلد. لقد شعرت بنفس الأمل وشعرت أيضاً بضربات قلبها المزدوجة.

في غضون ذلك، توقفت الضوضاء التي سمعتها فجأة، وبالفعل بدأ الأمل المبارك الذي استولى عليهما يتلاشى، عندما انفتح باب غرفة النوم بضجيج عالٍ للغاية، صاحت ماتيلد:

- إنه هو! إنه هو! شكراً يا إلهي! إنني أراه مرة أخرى!

وقد اندفعت بسرعة نحو الفارس، ومن جانبه، ركض أدولف إليها؛ لكن الانفعال المفاجئ جعلهما يتراجعان، يرتجفان.

فبدلاً من الأميرة الصغيرة التي في مستقبل العمر التي توقع أن يجدها مرة أخرى، رأى أمامه هيكلاً عظيمًا حيًا، ذا خدود شاحبة ونحيلة وعينين قائمتين. وقد تساءل عما إذا كان هذا الظل البشري ماتيلد أم لا، عندما مرت رجفة جليدية فجأة في أطرافه؛ وتدفق كل دمه إلى قلبه وأصبح أكثر شحوباً من رداء حبيته الأبيض. ترهلت ذراعه بشدة، وحدق بشدة في ملامح ماتيلد المتغيرة، ظل ساكناً كما لو أن البرق قد ضربه، ولكن للحظة فقط حافظ على هذا الموقف الشبيه بالتمثال؛ فجأة أغمض عينيه وألقى سيلاً من

الدموع المريرة. ومع ذلك لم ينطق بكلمة؛ ولا بشكوى، لا بتنهدي على شفتيه، ربما كان سيبكي لفترة طويلة فيما بعد لما يشعر به من يأس، كان قلبه مختنقاً بشدة من الألم، فلا يستطيع أن يريحه بالكلام؛ لكن أخته ماري، التي كانت حتى ذلك الحين: كانت تكبح نفسها احتراماً لما تيلد، ألفت بنفسها على رقبة شقيقها الحبيب وجعلته يعود إلى رشده مرة أخرى عندما غطت خديه بقبلات رقيقة وأغرقتة بعبارات تم عن المحبة.

فكرت الكوتيسة بعمق في هذا التدفق من الحنان الأخوي: بين ماري وأدولف، وبعدها بدأت ترتجف وأصببت بأعظم اكتئاب. فالشحوب الذي غطى وجه أدولف، والصدمة التي أصابته، قالا لها: «أنت بشعة، وخذاك الهزيلان يلهمان الخوف، نظرتك الباهتة والمنطفئة ترهب وتخيف، حتى إنها جعلت الفارس الذي اعتبرته أخوا يرتجف».

في قبضة هذا اليأس المظلم، شعرت أن ساقها اللتين ترتجفان تحتها تتخليان عنها. وقد كالت لتجلس على كرسي بذراعين وسقطت عليه منهكة ومهزومة؛ ثم أخفت رأسها بين يديها كما لو كانت تختبئ من مشهد قاسٍ، ولم تقم بأي حركة أخرى. بعد لحظات قليلة، لم تسمع شيئاً آخر في الغرفة؛ كان أعمق صمت حولها، وتخيلت أنهما قد تركاها بقسوة.

ولكن سرعان ما شعرت بيد تضغط برفق على يدها؛
وسمعت صوتاً تقاطعه التهنيدات يقول لها بحنان:

- ماتيلدا! ماتيلدا! يا أختي البائسة!

فتحت عينيها ورأت أدولف أمامها وهو يبكي. ورأت في
عينه تعاطفاً شديداً وحناناً عميقاً. قالت بحسرة:

- أنا قبيحة للغاية، أليس كذلك يا أدولف؟ هل أنت
خائف مني؟ ألن تحبني أبداً كما كنت تفعل من قبل؟

جفل الفارس وألقى نظرة غريبة على الأميرة الصغيرة؛
لكنه عاد إلى رشده على الفور وأجاب:

- ماتيلدا، هل يمكن أن تشكي في عاطفتي؟ أوه، أنت لا
تبلي بلاء حسناً! نعم، تغيرت، تغيرت كثيراً، يا للأسف،
أي مرض، أي حزن يا أختي المسكينة، قد جعل ألوان
وجهك النضرة ثلثاً؟ بكيت وخفت، هذا صحيح..
لكن كان هذا من الشفقة، من الحزن أن أراك هكذا يا
ماتيلدا؛ سأكون دائماً لك صديقاً، أخاً، دائماً، دائماً! أريد
أن أواسيك وأريحك بأخبار سارة ومبهجة.

انتقلت الفتاة تدريجياً إلى الشعور بالفرح، كان لصوت
أدولف قوة سحرية على روحها؛ فأجابت بسعادة:

- هل تقول أخباراً سارة، أدولف؟ أخبار سارة عن
والدي؟ أوه! تكلم، تكلم يا صديقي!

قربت كرسيين من كرسيها وأشارت إلى ماري وشقيقها.
أعطى أدولف ماتيلد يداً والأخرى لأخته الحبيبة؛ كان
يشبه في وسط الفتاتين ملاك العزاء الذي ينتظر المرء كلماته
مثل ترنية سماوية.

- افرحي يا ماتيلد واشكري الرب على لطفه؛ عاد والدك
إلى بورخس بحزن لا شك فيه، ولكن على الأقل سالمًا؛
لا أحد، باستثناء اللورد الكهل وديديه ديفوس، يعرف
بتحريره المؤقت. إنه يتمتع بقدر معين من الحرية في سجنه؛
أصبح الأعداء المسؤولون عن حراسته أعز أصدقائه.

- لكن إذا أرادت جين الشريرة الانتقام منه لإهانة
فرنسا، فمن سيحميه من الجلادين؟ أنت لم تعد معه يا
صديقي النبيل.

- ماتيلد، الرجال الذين أوكلت إليهم قلعة بورخس
هم جميعاً من المحاربين القدامى الذين جعلتهم الإصابات
الخطيرة غير مناسبين للرحلات الاستكشافية البعيدة.
وقد شهد معظمهم المآثر الحربية الرائعة لأسد فلاندرز في
بينيفينتو؛ إنه لا يمكنك أن تفهمي مقدار الحب، والإعجاب
الذي يشعر به الجندي الحقيقي تجاه الذي غالباً ما يجعل
اسمه أعداء فرنسا يرتجفون. إذا أراد السيد دي بيثون
الهروب دون إذن اللورد، قائدهم، فإنهم سيمنعونه بلا
شك؛ لكنني أوكد لك؛ لأنني أعرف كرم هؤلاء

الرجال الذين ابيض شعرهم تحت الدرع، أوكد لكم أنهم سوف يريقون من أجله، الدم الذي تبقى لهم، حتى آخر قطرة، إذا أراد أحدهم أن يلبس شعر هذا الرأس الذي يقدسونه. لا تخافي، حياة والدك ليست في خطر، وإذا لم تأت مصائب جديدة ومروعة لتضربه، فإنه سيتحمل أسره بالاستسلام.

- يا لها من أخبار سارة تلك التي تخبرني بها يا صديقي! ما أحلى كلامك الذي أصاب قلبي بالسرور! أشعر بنفسي أعود للحياة مرة أخرى تحت ابتسامتك؛ تكلم حتى أظل أسمع صوتك الحبيب.

- طلب مني أسد فلاندرز أن أمنحك أملاً أحلى يا ماتيلد. لعل خلاص والدك قريب. ربما ستجدين نفسك، بعد فترة وجيزة، معه ومع جميع أفراد أسرتك، في قلعة وينينديل الجميلة.

- ماذا تقول يا صديقي؟ إن محبتك لي هي التي تلهمك بهذه الكلمات. لا تتملقني بأمل في سعادة مستحيلة.

- لا تكوني مرتابة إلى هذا الحد، ماتيلد. استمعي إلى ما يستند إليه هذا الأمل الجميل الذي أعطيك إياه؛ أنت تعلمين أن شارل دي فالوا، أنبل الفرنسيين، وأكثر الفرسان شجاعة، انسحب إلى إيطاليا. ولم ينس، في بلاط روما، أنه كان سبب اعتقال أقربائك؛ إنه يعاني بشدة من فكرة أنه

هو الذي، مثل الخائن، ألقى في أيدي أعدائه الفرنسيين أسد فلاندرز، صديقه ورفيقه في السلاح؛ لذلك بذل كل جهد ممكن للإفراج عنه. لقد قام مبعوثو البابا بونيفاس بالفعل بزيارة الملك فيليب، وطلبوا منه إطلاق سراح والدك وجميع أقربائك. لم يدخر الأب المقدس أي جهد في إعادة أرض فلاندرز إلى أمراءها الشرعيين. وقد أبدى البلاط الفرنسي تدابير سلمية. دعينا إذاً نرحب بهذا الأمل المواسي، يا صديقتي العزيزة.

- نعم، أدولف، دعنا نحتضن هذه الفكرة المواسية؛ ولكن ماذا لو كنا نستسلم لوهم كاذب! ألا ينتقم ملك فرنسا لمقتل جنوده؟ السيد دي شاتيلون، عدونا اللدود، ألن يثير غضب ابنة أخته القاسية جين؟ فكّر إذاً، يا أدولف، في التعذيب وفي الأعمال الوحشية التي يمكن أن تخترعها هذه المرأة المتعطشة للدماء لمعاقتنا على السلوك الشجاع للفلمنكيين!

- لا تعذبي نفسك يا حبيبتي ماتيلد؛ مخاوفك لا أساس لها من الصحة. ربما الهزيمة الرهيبة التي عانت منها قواته ستجعل الملك فيليب يفهم أن الفلمنكيين لن يخضعوا أبداً لعبودية فرنسا. مصالحه الخاصة ستجبره على منح الحرية للموكا، وإلا فإنه سيفقد أجمل إقطاعية تحت تاجه.. ألا تعتقدين ذلك؛ أيتها الكونتيسة النبيلة أن كل شيء ييتسم لنا؟

- نعم، أدولف، عندما تكون هنا، فإن حزني ومخاوفي تتغلى عني تماماً. أنت تتحدث بشكل جيد! لديك نبرة تعرف كيف تلمس قلبي تماماً!

لقد تحدثنا لفترة طويلة بهدوء عن مخاوفهما وآمالهما. عندما أعطى أدولف ماتيلد كل توضيح ممكن وملاً قلبها بالعزاء، خاطب أخته بدوره بحنان أخوي. لقد أقام مع كليهما محادثة حميمة جعلتهما يشعران بمتعة رائعة. وقد نسيت ماتيلد كل ما عاتته، وتنفست بحرية أكبر، وعادت إلى خديها تدرجاتهما الوردية الرقيقة.

لجأة ارتفعت ضوضاء صاحبة من الشارع. اتحد ألف صوت في هتافات مدوية، واختلقت صيحات الحشد بهمها؛ على فترات، ومع ذلك، كان يمكننا التقاط عدد قليل منها.

صاح الناس وهم يصفقون بأيديهم. "فلاندرز للأسد، يحيا كونتنا الحبيب!"

اقتربت الفتاتان من النافذة. لقد رأتا عددًا لا يحصى من رؤوس الحشد تتدفق تحتها، تندفع مثل سيل نحو السوق؛ وقد اختلقت النساء والأطفال بهذه الموجات البشرية، التي تموجت تحت أنظار الفتاتين الشابتين، فذهلا بفضول شديد. في شارع آخر، يمكن سماع خطى عدد كبير من الخيول. كل شيء جعلهما يفترضان أن مجموعة من سلاح

الفرسان قد وصلت لتوها إلى بروج. وبينما كانتا تتساءلان بشكل متبادل في السبب المحتمل لهذا الهياج الشعبي، جاء خادم ليعلن لهما أن رسوياً يطلب الإذن ليأتي لمقابلتهما. ما إن أذن له حتى دخل الرسول الغرفة.

كان غلاماً صغيراً، طفلاً ساحراً يمكن للمرء أن يقرأ على وجهه اللطيف والساذج البراءة والإخلاص؛ كان زيه نصفه من الحرير الأسود والأزرق، ومزيناً بزخارف رشيقة. عندما وصل إلى مسافة ما من السيدتين النبيلتين، حياهما باحترام وأحنى رأسه بعمق دون أن يتحدث. سألت ماتيلد بخنان:

- ما هي الأخبار السارة التي ستخبرنا بها أيها الغلام اللطيف؟

رفع الغلام الصغير رأسه وقال بصوت طفولي رقيق:

- إلى الابنة اللامعة لأسد فلاندرز، كونتتنا العظيمة، أحمل رسالة من مولاي السيد جي، الذي وصل لتوه إلى هذه المدينة مع خمسة آلاف فارس (75). أمرني أن أحبي من جانبه ابنة أخيه الجميلة، السيدة ماتيلد دي بيثون؛ وفي غضون ساعات قليلة سيأتي هو نفسه ليؤكد لها عاطفته العميقة. ها هي رسالتي كاملة، أيتها السيدة النبيلة. ثم أحنى رأسه، وأخذ ينسحب إلى الورا، حتى وصل

إلى الباب، واختفى.

مخلصاً للوعد الذي قطعه لدي كونينك في الغابة، عند أنقاض نيوينهوف، وصل الشاب جي دو فلاندرز للتو من نامور بالمساعدة التي تعهد بتقديمها. في الطريق كان قد استولى على قلعة وينينديل وأباد الحامية الفرنسية. كما دمر قلعة سيسيلي بالكامل، وكان سيدها ليليارد سيئ السمعة، قد أقام داخل أسوارها ملجأ للفرنسيين (76). أدى وصول جي المنتصر إلى فرح كل شعب بروج؛ وفي جميع الشوارع صاح الحشد بحماسة:

- يحيا كونتنا! فلاندرز للأسد!

بمجرد وصول المحارب الشاب مع فرسانه إلى سوق الجمعة، أحضر له أصحاب المهن والحرف القدامى المفاتيح، وتم تكريمه مؤقتاً ككونت فلاندرز، أي حتى يتم إطلاق سراح شقيقه روبرت من بيثون. اعتقد سكان بروج بعد ذلك أنهم استعادوا حريتهم بالكامل، حيث أصبح لديهم الآن أمير يمكن أن يقودهم إلى المعركة. تم إيواء الفرسان مع المواطنين الرئيسيين؛ كان الشغف والاضطراب شديدين لدرجة أنهم كالجوع للحصول على ألبسة الخيول؛ لأن الجميع أراد أن يكون معه أحد رفاق الكونت في المنزل. يمكن للمرء أن يشعر بمقدار الود والفرح اللذين استقبل بهما هؤلاء الفرسان المحتفى بهم.

بعد تأكيد الحكومة التي أنشأها دي كونينك، ذهب
جي، دون تأخير، إلى النزول في نيولاند، وبعد أن قبل ابنة
أخيه المريضة عدة مرات، أخبرها ليبهج قلبها، كيف طرد
الفرنسيين من القلعة التي أحببها كثيراً. وجبة رائعة، أعدتها
ماري للاحتفال بالعودة السعيدة لأخيها، جمعتهم جميعاً على
المائدة. لقد شربوا نخب تحرير الفلمنكيين الذين لا يزالون
أسرى وذرفوا الدموع في الذكرى المؤلمة لفيلبين، التي ماتت
مسمومة.

مغطى بالعرق والغبار، يدخل غرفة الأسلحة حيث يتجمع الجميع، ويركع أمام الأمير ويعلن له اقتراب الخطر. ينهض الأمير وينظر حوله ويصرخ وهو لا يزال يرتجف من الغضب: «إلى السلاح من أجل الوطن! إلى السلاح في سبيل الرب أيها الفرسان!».

(ج. أ. دي لات)

بعد الليلة الفظيعة التي شهدت إراقة دماء فرنسية كثيرة، لجأ السيد دو شاتيلون وجون دو جيستل وبعض الفرسان الآخرين الذين نجوا من الموت وراء أسوار كورتراي. في هذه المدينة، كانت لا تزال هناك حامية كبيرة إلى حد ما، والتي يمكن أن تعتبر نفسها آمنة في القلعة، كان هذا المكان من أكثر الأماكن التي يعتمد عليها الفرنسيون بفضل تحصيناته التي لا يمكن اختراقها. كان دو شاتيلون يشعر باليأس من هزيمته؛ وقد التهم قلبه غضب صامت. وقد أرسل إلى بعض الرفاق الآخرين من مدن أخرى لتحسين كورتراي ضد أي هجوم وقد أعطى قيادة المكان للإقطاعي دي سانس، وهو فلنكي متمرّد. ثم قام السيد دو شاتيلون بزيارة المدن الأخرى على الحدود على عجل وملاًها بالقوات التي لا تزال في بيكاردي؛ أعطى قيادة ليل إلى المستشار بيير فلوت (77)، وغادر إلى فرنسا ووصل إلى باريس،

في بلاط الملك، الذي كان قد علم بالفعل بهزيمة جيشه. استقبال فيليب لو بيل حاكم فلاندرز بغضب ووبخه لأنه تسبب، بسبب حكومته الاستبدادية، في كل المصائب التي حلت به. ربما كان السيد دو شاتيلون سيقع في الخزي إلى الأبد، إذا لم تكن الملكة جين، التي لم تستطع تحمل الفلمنكيين والتي ابتهجت برويتهم مظلومين ومضطهدين، قادرة على إعفاء خالها لدرجة أن فيليب انتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأنه أكثر التزاماً بالشكر عن العقاب. وفي هذه الحال الذهنية، صب جام غضبه على الفلمنكيين وأقسم على الانتقام منهم بشكل كامل ونموذجي.

لقد تجمع بالفعل جيش قوامه عشرون ألف رجل في باريس للذهاب وتم إنقاذ مملكة مايوركا من أيدي المعتدين، هؤلاء هم القوات التي أعلن روبرت دي بيثون عن تجمعها للوردات الفلمنكيين. مع هذا الجيش، يمكن للمرء أن يخوض الحرب ضد فلاندرز؛ لكن فيليب لم يرغب في المخاطرة بالهزيمة؛ عقد العزم على تأجيل انتقامه لبعض الوقت، حتى يتمكن من وضع المزيد من الرجال في الحملة. في الوقت نفسه، تم تكليف مبعوثين استثنائيين بتوجيه النداء في جميع أنحاء فرنسا؛ كانت مهمتهما أن يعلنوا لجميع التابعين للمملكة أن الفلمنكيين قتلوا سبعة آلاف فرنسي، وأن الملك يستدعي أتباعه في أقرب وقت ممكن إلى باريس، مع رجالهم، من أجل الذهاب والانتقام من هذه

الإهانة. في ذلك الوقت، كانت أعمال السلاح والحرب هي الشاغل الوحيد للنبلء، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سعداء، طالما كان هناك قتال في مكان ما؛ لذلك لم يكن من المستغرب أنهم استجابوا لهذه الدعوة. من جميع أنحاء فرنسا، جاء أصحاب الإقطاعيات يركضون برجالهم المسلحين والمجهزين، وفي غضون أيام قليلة تجاوز عدد الجيش الفرنسي خمسين ألف رجل.

مع أسد فلاندرز وتشارلز دي فالوا، كان روبرت دارتوا أحد الجنرالات الأكثر شجاعة في أوروبا في ذلك الوقت؛ كان يمتلك، أكثر من الأولين، خبرة نادرة اكتسبها في الرحلات الاستكشافية العديدة التي شارك فيها؛ فهو لم يترك الدرع لمدة أسبوع كامل، وقد ابيض شعره تحت الخوذة. وبسبب الكراهية العنيفة التي يكنها للفلمنكيين؛ لأن ابنه الوحيد لقي حتفه تحت ضرباتهم في فيرن، قررت الملكة جين أن تجعله مسؤولاً عن قيادة الجيش؛ وقد نجحت في ذلك بسهولة؛ لأن هذه المهمة المشرفة لم تناسب أحداً أفضل من روبرت دارتوا (78).

قلة المال، وكذلك الوصول اليومي للأتباع من البلدان البعيدة، أبطت هذا الجيش في فرنسا لبعض الوقت. إن التسرع المفرط الذي اعتاد الفرنسيون على القيام به في بعثاتهم كان قاتلاً لهم مرات عديدة؛ وقد تعلموا، بعد دفع الأتمان، أن الحكمة هي أيضاً قوة؛ وهذا هو السبب

في أنهم أرادوا، هذه المرة، توفير كل شيء وعدم القيام بالحملة إلا بعد اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لضمان النتيجة السعيدة. دعت ملكة نافار الشريفة روبرت دارتوا للحضور ورؤيتها وحثته على إخضاع فلاندرز لجميع الأعمال الوحشية. «وقد أمرته، من بين أمور أخرى، بقطع ضروع كل الخنازير الفلمنكية، وقتل كل صغارهم بالسيف وقتل الكلاب كافة في جميع أنحاء فلاندرز بلا رحمة». كانت كلاب فلاندرز هذه هم الرجال الشجعان الذين -والسيف في أيديهم- كانوا سيقاتلون من أجل بلدهم. هذه الكلمات التي لا قيمة لها، التي قالتها امرأة، التي قالتها ملكة، تم حفظها في سجلات ذلك الوقت، كدليل على قسوتها (79).

خلال هذا التأخير، شهد الفلمنكيون زيادة قواتهم بشكل كبير. حث السيد جون بورلوت سكان غينت على الانتفاضة ضد الحامية التي احتلت المدينة وطردهم الفرنسيين من غينت؛ فقد سبعمئة منهم حياتهم في هذه الانتفاضة. وبالمثل، حررت أودينيردي والعديد من المقاطعات الأخرى نفسها من الهيمنة الأجنبية، بحيث بقيت المعازل فقط في المدن، حيث لجأ إليها جميع الذين فروا. وقد وصل جيوم دي جوليرز إلى بروج مصطحباً معه مجموعة من الرماة الألمان. بمجرد أن وصل السيد جون دي رينيسي، رحل الجميع مع رجالهم وعدد كبير من المتطوعين

لمحاصرة كاسيل وطرده الحامية. كانت هذه المدينة حصينة للغاية وصعبة الاستيلاء عليها؛ كان جيوم دي جوليرز يعتمد على مساعدة السكان؛ لكن الفرنسيين كانوا يراقبون عن كثب لدرجة أنهم لم يجرؤوا على التحرك. وقد أجبر هذا الظرف السيد جيوم على القيام بحصار منتظم، وقد مر وقت طويل قبل أن يتمكن من الحصول على الآلات والمعدات اللازمة. تم الترحيب بيجي الشاب بفرح في المدن الرئيسية في الجزء الغربي من فلاندرز؛ كان وجوده في كل مكان مصدر إلهام لشجاعة كبيرة، وحماسة نارية للدفاع عن البلاد؛ وقد قام أدولف دو نيولاند في الوقت نفسه بزيارة أصغر المدن لدعوة الناس إلى حمل السلاح.

في كورتراي، هناك ما يقرب من ثلاثة آلاف فرنسي تحت قيادة اللورد لنس. وبدلاً من البحث عن التسامح من قبل السكان الأصليين، انخرطت هذه المجموعة من الجنود في جميع أنواع العنف؛ ولكن سرعان ما أصاب ذلك ضجر سكان كورتراي. وشجعهم مثال المدن الأخرى، فاتفقوا بدورهم ضد الظالمين وقتلوا أكثر من نصفهم؛ ولجأ الآخرون على وجه السرعة إلى القلعة حيث حصنوا أنفسهم ضد هجمات الناس. وانتقاماً ألقوا سهاماً مشتعلة وأشعلوا النار في أجمل المباني. وقد سقطت جميع المنازل التي أحاطت بالسوق والبيجوينج (80) فريسة للنيران. حاصر سكان كورتراي القلعة بشجاعة؛ لكن كان من المستحيل

عليهم، في غياب المساعدة، طرد الفرنسيين؛ وفي توقعهم الحزين أنهم سيرون قريباً المدينة بأكلها تلتهمها النيران، أرسلوا رسولاً إلى بروج، وأمره أن يحث السيد جي على مساعدتهم (81).

وصل الرسول إلى جي في 5 يوليو 1302، وأبلغه بالوضع المؤسف الذي وجدت فيه مدينة كورتراي الجميلة نفسها، وقد وعده، باسم السكان، بأنه سيحصل على مساعدتهم وخضوعهم. تأثر الكونت الشاب بشدة بهذه القصة وقرر، دون تردد، الذهاب إلى المدينة التعيسة. ونظراً لأن جيوم دي جوليرز قد أخذ جميع الجنود إلى كاسيل، لم ير جي أي وسيلة أخرى لتنفيذ نيته سوى مناشدة أصحاب المهن والحرف في بروج. دعا على الفور جميع العمداء للذهاب إلى القاعة الكبرى في البرينسنهوف، وذهب هناك بنفسه مع الفرسان الذين انضموا إليه بالفعل. وبعد ساعة اجتمع العمداء المستعدون وعددهم ثلاثون في المكان المحدد؛ ووقفوا ورؤوسهم عارية في نهاية الغرفة وانتظروا بصمت البيان الذي سيتم إبلاغهم به. دي كوينك وبريدل، بصفتهم رئيسين لمهنة أو حرفة أساسية، كانا في المقدمة. كان السيد جي جالساً على كرسي بذراعين متكئاً على الحائط في الجزء الخلفي من الغرفة؛ كان يقف حوله السيد جون دي ليخترفيلد ودي هاین، وهما من أعيان فلاندرز، لورد غاف، والذي قتل أبيه على يد الفرنسيين أمام فيرن، لورد

بورنهام، من فرسان الهيكل، السيد روبرت دي ليويرغيم،
بودوان دي رايفسكوت، إيفون دي بيليغيم، هنري، لورد
لوشين (من لوكسمبورغ)، غوزوين دي جواتزينهوف
وجان فان كويك (من برابانت)، بيير ولويس دي برابانت
ليخترفيلد وبيير ولويس جوثالز (من غينت) وهنري دي
بيرتشم. كان أدولف دو نيولاند على يمين الكونت الشاب
وكان يتحدث معه بشكل ودي.

على مسافة متساوية من العمداء والفرسان وقف مبعوث
كورتراي. بمجرد أن حل الجميع في مكانهم، أمر جي
المبعوث، بحضور العمداء، بتكرار الرسالة التي كان يحملها.
وقد أطاع هذا الأخير قائلاً:

- أيها السادة، إن أهل كورتراي الشرفاء يعلمونكم، من
خلال صوتي، أنهم طردوا الفرنسيين من بلدتهم وقتلوا
سبعمئة؛ لكن المدينة اليوم في ضائقة شديدة. انسحب
اللورد دولنس الخائن إلى القلعة، ومن هناك ألقى المشاعل
المشتعلة على منازلنا كل يوم، وبالفعل تحول الجزء الأغني
من المدينة إلى رماد. جاء السيد أرنولد دي أودينيردي
لتقديم العون والمساعدة إلى أهل كورتراي؛ لكن أعداءهم
كثيرون. في هذا الموقف الرهيب، يطلبون من السيد جي،
على وجه الخصوص، وأصدقائهم في بروج، بشكل عام،
تقديم الدعم لهم؛ وهم مطمئنون إلى أنكم لن تتأخروا يوماً
واحداً في القدوم لتحرير إخوانكم المهددين. هذا ما يقوله

لكم أهل كورتراي الشرفاء.

قال جي:

- لقد سمعتم أيها العمداء، إن إحدى أفضل مدننا في خطر الدمار؛ لا أعتقد أن نداء إخوانكم في كورتراي سيذهب سدى. أيضًا، ليس الشك في نواياكم هو ما يجعلني أتحدث؛ لكن يجب أن نسرع. إن تعاونكم وحده يمكن أن ينقذهم من الخطر الذي هم فيه، ولهذا أتوسل إليكم أن تدعوا رجالكم إلى السلاح في أقرب وقت ممكن. ما المدة التي تحتاجونها لإعداد رجالكم للحملة الاستكشافية؟

أجاب عميد النساجين:

- بعد العشاء، أيها الكونت اللامع، سيكون في سوق الجمعة أربعة آلاف نساك مسلحين. وسوف أقودهم حيث تطلب.

- وأنت سيد بريدل، هل ستكون هناك أيضًا؟

تقدم بريدل إلى الأمام بفخر وأجاب:

- أيها الكونت النبيل، إن خادمك بريدل لن يقدم لك أقل من ثمانية آلاف رجل.

أعرب الفرسان عن دهشة كبيرة.

- ثمانية آلاف، صاحوا في صوت واحد.

- نعم أيها السادة -أجاب عميد الجزائريين- ثمانية آلاف وربما أكثر. اختارني أصحاب جميع المهن والحرف في بروج، باستثناء النساجين، لأكون قائدهم، والرب أعلم كيف سأقدر هذا الشرف العظيم! من وقت الظهيرة، إذا أمر سيدي بذلك، فسيتم تغطية سوق الجمعة بسكان بروج المخلصين؛ ويمكنني أن أقول إن سيدي سيكون لديه مع الجزائريين ألف أسد في جيشه؛ لأنه لا يوجد رجال يمكن أن يقارنوا أنفسهم بهم. كلما أسرعنا كان ذلك أفضل يا سيدي: بدأت فؤوسنا في الصدا.

قال جي:

- السيد بريدل، أنت من ضمن المواطنين الصالحين والجديرين بالاحترام والشجعان تحت إمارة أبي. لا يمكن للدولة التي تلد مثل هؤلاء الرجال أن تبقى مستعبدة لفترة طويلة؛ شكراً لك على حسن نيتك.

وقد شهدت الابتسامة المحببة والمتعاطفة للفرسان الذين أحاطوا بالكونت على مدى روعة كلمات بريدل بالنسبة لهم. انضم العميد إلى زملائه وهمس في أذن دي كوينيك:

- من فضلك، سيدي، لا تنزع مما قلته للسيد جي. أنت كنت قائدي وستظل قائدي؛ لأنه دون نصائحك الحكيمة لم أستطع فعل الكثير من الخير.

صاحف عميد النساجين بريدل في مودة واستحسان. سأل

جي دي كونينك بعد ذلك:

- هل أبلغت أصحاب المهن والحرف برغبتني؟ هل سأحصل على المال اللازم؟

أجاب عميد النساجين:

- أصحاب المهن والحرفيين في بروج، وضعوا كل مواردهم تحت تصرفك يا سيدي. يرجى إرسال وكلائك إلى الباندة بأمر مكتوب؛ سيتم تسليمهم العديد من العملات الفضية كما يحلو لك، كما أن أصحاب المهن والحرفيين يطلبون منك ألا تدخر شيئاً، فالحرية لا يمكن أن تكلفهم الكثير.

في الوقت الذي كان فيه جي على وشك أن يظهر امتنانه لتفاني سكان بروج النبيل، فُتح باب القاعة ودُهشت كل الأنظار على راهب دخل بجرأة دون أن يُستدعى، وتوجه بالقرب من العمداء. كانت سترة من القماش البني محاطة بحبل حول خصره، ويغطي رأسه غطاء أسود يخفي ملامحه، حتى لا يمكن التعرف عليه. بدا كبير السن؛ لأن ظهره كان منحنيًا ولحيته الطويلة نزلت على صدره. بنظرة سريعة حدق بدوره في جميع الفرسان وتوغلت نظرتة الجريئة في أعماق قلوبهم؛ على الأقل كانت هذه نيته الواضحة. تعرف أدولف دي نيولاند فيه على الراهب نفسه الذي أحضر له الرسالة من روبرت دي بيثون، وكان سيحييه بصوت عالٍ؛ لكن حركات الراهب أصبحت

غريبة لدرجة أن الكلمات توقفت على لسان الفارس الشاب. شعر جميع الحاضرين بغضب عظيم؛ كان التفتيش الجريء الذي جعلهم الغريب هدفاً له إهانة تحملوها بصعوبة؛ ومع ذلك، لم يُدوا انزعاجهم؛ لأنهم توقعوا أن اللغز سيحل قريباً.

بعد أن أكل الراهب فحسه، فك الحبل الذي كان يحيط بخصره، وألقى بردائه ولحيته على الأرض وظل في منتصف الغرفة مكشوفاً لجميع العيون. وقد رفع رأسه. كان رجلاً في الثلاثين من عمره تقريباً، يتمتع بقوام أنيق وقوي؛ وقد نظر إلى الفرسان في وجوههم وكأنه يسألهم:

- حسناً، هل تعرفونني؟

لكن المشاهدين، لم يستجيبوا بالسرعة الكافية لرغبته، فصاح:

- أيها السادة، يبدو غريباً بالنسبة لكم أن تجدوا ثعلباً تحت ثوب راهب (82)؛ ومع ذلك، أنا أرتديه منذ عامين.

صرخ جميع الفرسان بصوت واحد:

- نرحب بصديقنا العزيز ديديه! كما نظن أنك ميت منذ زمن طويل.

قال ديديه ديفوس:

- لذلك يمكننا أن نشكروا الرب على أنني عدت من الموت؛ لكن لا، لم أكن ميتاً؛ يمكن لأشقائنا السجناء والسيد دي نيولاند أن يشهدوا لكم بذلك. لقد قدمت المواساة لهم جميعاً؛ لأنني كراهب مسافر أستطيع زيارة الأسرى، قد يغفر لي الرب اللغة اللاتينية التي تحدثت بها! أحمل أخبار جميع مواطنينا التعساء إلى أقربائهم وأصدقائهم.

أراد بعض الفرسان سؤاله عن مصير الأسرى؛ لكنه تجنب الإجابة عن أسئلتهم وواصل:

- بحق الرب، لا تسألوني عن ذلك؛ لدي أشياء أكثر أهمية أتحدث فيها معكم. اسمعوا ولا ترتجفوا، فأنا، أحمل لكم خبراً سيئاً. لقد تخلصتم من عبوديتكم واستعدتم حريتكم في معركة كبيرة، ويؤسفني عدم تمكني من حضور هذا الاحتفال. إنه لشرف كبير لكم أيها الفرسان النبلاء والصالحون، أنكم قد حررتم الوطن! لكن أوكد لكم، أنه لم يتم إعادة الفلمنكيين مرة أخرى تحت نير العبودية في غضون أسبوعين، فلن تتمكن كل شياطين الجحيم من سلبهم حريتهم مرة أخرى؛ لكن هذا ما أشك به بشدة.

صاح جي:

- يرجى التوضيح سيدي، اشرح لنا هواجسك ولا تقلقنا بكلمات غير مفهومة.

- حسنًا، أتعلمون أن اثنين وستين ألف فرنسي يخيمون
أمام مدينة ليل (83).

كرر الفرسان وهم ينظرون إلى بعضهم بقلق:

- اثنان وستون ألف فرنسي!

كرر بريدل، وهو يفرك يديه بفرح:

- اثنان وستون ألفًا؟ يا إلهي ما أجمل القطيع!

أحني دي كوينيك رأسه وسقط في تأمل عميق؛ كان
هذا ما يفعله عميد النساجين دائمًا في الظروف الحرجة. إنه
يفكر في جسامه الخطر أولاً ثم الوسائل الممكنة لإبعاده.

واصل ديديه ديفوس:

- أؤكد لكم أيها السادة، أن هناك أكثر من اثنين وثلاثين
ألفًا من سلاح الفرسان وعلى الأقل نفس العدد من
المشاة، إنهم ينهبون ويحرقون كما لو كانوا سيصلون إلى
الجنة بهذه الطريقة.

سأل جي:

- هل أنت متأكد من هذه الأخبار السيئة؟ ألم يخدعك
من أبلغك بها، سيد ديديه؟

- لا، لا، سيدي جي النبيل، لقد رأيت ذلك بأم عيني،

لقد تناولت العشاء الليلة الماضية في خيمة القهرمان روبرت دارتوا. وقد أقسم على شرفه، في حضوري، أن يموت آخر فلنكي على يده. فكروا الآن فيما يمكن أن تفعلوه. بالنسبة لي، سأرتدي الدرع في أسرع وقت ممكن؛ ولو كنت أنا وحدي لأحارب هؤلاء الاثني والستين ألف فرنسي من الملعونين، فلن أتراجع قدماً واحدة؛ لا أريد أن أرى فلاندرز مرة أخرى تحت نير العبودية.

لم يستطع جون بريدل البقاء ساكناً للحظة؛ أخذ يتململ ويلوح بذراعيه بغضب.

كان يمكن أن يتكلم! لكن الاحترام منعه في وجود النبلاء الذين كانوا أمامه. نظر جي والفرسان إلى بعضهم بإحباط وبأس: اثنان وثلاثون ألف فارس متمرس! كان ذلك بالنسبة لهم كثيراً للغاية، لذا كان من الصعب عليهم أن يصدقوا في إمكانية المقاومة. كان تعداد الجيش الفلنكي يبلغ خمسة آلاف فقط من سلاح الفرسان، أحضرهم جي معه من نامور. ماذا يمكن أن يفعل هذا العدد الصغير ضد التعداد المخيف للأعداء؟

قال جي:

- ما العمل؟ كيف ننقذ الوطن؟

رأى البعض أن يعزلوا ويحصنوا أنفسهم داخل بروج حتى يجبر نقص المؤن الجيش الفرنسي على التراجع؛ أراد

آخرون السير مباشرة إلى العدو ومفاجأته أثناء الليل. تم اقتراح العديد من الوسائل الأخرى، ولكن تم رفض معظمها باعتبارها خطيرة والبعض الآخر باعتبارها غير عملية.

كان دي كونينك لا يزال يفكر، ورأسه منحني؛ لقد استمع باهتمام لكل ما يقال من حوله، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة تأملاته.

أخيراً سأله جي عن الموارد التي يمكن أن يشير إليها في مثل هذه الظروف الحزينة. أجاب دي كونينك وهو يرفع رأسه:

- سيدي، لو كنت قائداً، هذا ما كنت سأفعله، كنت سأسرع في الذهاب مع أصحاب المهن والحرف من بروج إلى كورتراي، لطرد سيد لنس من تلك المدينة؛ وستكون النتيجة أن الفرنسيين لا يمكنهم استخدام هذه المدينة كمركز لعملياتهم في بلادنا؛ سنجد هناك ملاذاً آمناً للنساء والأطفال ولأنفسنا؛ في كورتراي، بفضل قلعتها، فهي قوية ومحصنة، في حين أن مدينة بروج، في الحالة التي هي عليها اليوم، لم تستطع تحمل هجوم واحد. بالإضافة إلى ذلك، سأرسل على الفور نحو ثلاثين رسولاً إلى جميع مدن فلاندرز، مع أخبار اقتراب العدو ودعوة جميع الكوارتس إلى كورتراي؛ أود أيضاً أن يحضر السيد دي جوليرز

والسيد دي رينيسي إلى هناك. بفضل هذه الإجراءات، أيها الكونت النبيل، أنا متأكد من أنه في غضون ثلاثة أو أربعة أيام، سيصل عدد الجيش الفلمنكي إلى ثلاثين ألف مقاتل، وبالتالي، لن نضطر بعد الآن إلى الخوف من العدو إلى هذا الحد.

استمع الفرسان في صمت شديد؛ لقد أعجبوا بالرجل الاستثنائي الذي وضع في لحظات قليلة خطة دفاع عامة وطور أمامهم مثل هذا النظام المفيد من الإجراءات. على الرغم من أنهم لم يشكوا في مهارة العميد، إلا أنهم بالكاد قبلوا فكرة أن النساج، رجل من الشعب، كان يتمتع بقدر كبير من العبقرية. صاح ديديه ديفوس:

- أنت أذكى منا جميعاً! نعم، نعم، فليكن؛ نحن أقوى مما كنا نظن. لمرة واحدة، تغيرت الحال، وأعتقد أن الفرنسيين سيندمون على وضع أقدامهم في بلادنا.

قال الكونت الشاب:

- أشكر الرب لأنه ألهمك هذه الفكرة، سيد دي كوينيك. لن تذهب خدمتك الجيدة والمخلصة دون مقابل. سأتبع نصيحتك، فهي من وحي الحكمة في حد ذاته. سيد بريدل، أتمنى أن تحضر الرجال الذين وعدت بهم.

هتف بريدل:

- لقد أعلنت ثمانية آلاف، أيها الكونت النبيل. حسناً،
الآن أقول عشرة آلاف.. لا أريد أن يبقى رفيق أو تلميذ
واحد في بروج ؛ صغيراً أو كبيراً، يجب أن يكون الجميع
حاضرين. سأحرص على ضمان عدم قيام الفرنسيين بدهس
أجسادنا، وأن العمداء كافة، أصدقائي، سيفعلون الشيء
نفسه، أعرف ذلك.

قال جميع العمداء:

- إنها الحقيقة، لن يتغيب أحد، فكل منا يرغب في
القتال.

قال جي:

- الوقت ثمين للغاية بالنسبة لنا لتتوقف عند هذا الحد؛
أسرعوا باستدعاء كل أصحاب المهن والحرف؛ في غضون
ساعتين سأكون جاهزاً للذهاب وقيادة رجالكم في سوق
الجمعة! هيا اذهبوا! أنا سعيد للغاية بتعاطفكم وتفانيكم
وشجاعتكم.

غادر الجميع الغرفة. أرسل جي على الفور عددًا كبيراً من
الرسل في جميع الاتجاهات، مع أوامر لجميع النبلاء الذين
ظلوا مخلصين لقضية البلاد، كما أبلغ جيوم دي جوليرز
أنه يجب عليه الذهاب إلى كورتراي مع السيد جان دي
رينيسي (84).

انتشر الخبر المروع في وقت قصير في المدينة. مع انتقاله من فم إلى فم، زاد عدد الأعداء بطريقة رائعة؛ وسرعان ما بلغ عدد الفرنسيين، حسب الرأي العام، أكثر من مئتي ألف. نحن نتفهم قلق وأسى النساء والأطفال من أبناء الموت التي سمعوا بها للتو؛ في كل الشوارع رأينا أمهات يبكين يعانقن بناتهن المرعوبات بخوف يختلط بالشفقة. بكى الأطفال لأنهم رأوا أمهاتهم يبكين ويرتجفن دون علم كامل بالخطر الذي يهددهم. صرخات الألم لهذه المخلوقات الضعيفة والتعبير عن الرعب الذي رسم على ملامحها يتناقض بشكل غريب مع موقف الرجال الحازم والقاطع.

من جميع الجهات، جاء أصحاب المهن والحرف يركضون بأسلحتهم؛ ضرب صوت الألواح الحديدية التي أخذها عدد منهم كأسلحة دفاعية الأذن بحزن واختلطت، مثل السخرية المريرة، بنحيب النساء والأطفال اليائسين. عندما اجتمع الرجال في الشارع، كانوا يتوقفون للحظة لتبادل بعض الكلمات وتشجيع بعضهم بعضاً على النصر أو الموت. هنا وهناك، على عتبة المنازل، نرى آباء الأسر يحتضنون زوجاتهم وأطفالهم؛ لكن سرعان ما يمسحون الدموع التي تبلل أعينهم ويقمعون حزنهم، ويختفون مع سلاحهم في اتجاه سوق الجمعة. تبقى الأم عند الباب لفترة طويلة، تنظر إلى زاوية الشارع حيث اختفى زوجها. بدا لها هذا الوداع العظيم فراقاً أبدياً، وتذرف سيلاً من الدموع؛ ثم تلتقط

أطفالها، الذين كانوا ينتحبون على الأرض، وتهرب وهي تشعر بمزيد من اليأس، داخل منزلها.

تم اصطفاة أصحاب المهن والحرف منذ بضعة لحظات في طوابير طويلة في سوق الجمعة؛ لقد أوفى بريدل بوعدة؛ كان لديه اثنا عشر ألف رفيق من جميع المهن والحرف تحت أوامره. تتألق فؤوس الجزارين في الشمس مثل المرايا وتعمي البصر، فلا يمكن للمرء أن يثبت عينيه دون عقاب على هذا التألق المتحمس. فوق مجموعة النساكين، كانت ترتفع ألف من الحراب مزينة بحواف حديدية رائعة؛ كان أمامهم مجموعة أيضاً مسلحة بالأقواس. كان جي في وسط الساحة، محاطاً بنحو عشرين من الفرسان النبلاء؛ كان ينتظر عودة الرفاق الذين صدرت لهم التعليمات بإحضار العربات والخيول التي كانت في المدينة.

ظهر النساك، الذي أرسله دي كونينك إلى برج الجرس، في السوق في هذه اللحظة مع راية بروج الجميلة. بمجرد أن رأى أصحاب المهن والحرف الأسد اللازوردي، ثارت الهتافات المدهشة والصيحات الحماسية من جميع الجهات؛ كانت هذه الصيحة المتكررة باستمرار والتي كانت، في الليل الدامي، إشارة للانتقام:

- فلاندرز للأسد! الموت للأجنبي!

وتحركت الأسلحة واصطدمت وكأن العدو كان موجوداً

بالفعل.

عندما تم تحميل الأمتعة على العربات، أطلقت الأبواق أصواتها المدوية؛ وغادر سكان بروج مدينتهم، مع رفع الراية، عبر بوابة غينت. عندما رأت النساء أنفسهن مهجورات وبلا حماية، ازدادت معاناتهن؛ بدا لهن أن عليهن فقط انتظار الموت. في المساء، غادرت الأميرة الصغيرة ماتيلد المدينة مع جميع خدامها وخداماتها؛ جعل هذا الرحيل الكثيرين يعتقدون أنهم سيكونون أكثر أماناً في كورتراي. لقد جمعت النساء كل ما يمكن حمله بعيداً، وبعد إغلاق الأبواب، غادرن مع أطفالهن عبر بوابة غينت. وهكذا سارت عائلات لا حصر لها في الطريق إلى كورتراي، وهي تغمر رمال الطريق بالدموع المريرة. ومن ثم، أصبحت مدينة بروج صامتة كالقبر.

عظيم هو البطل الذي -على رأس مجموعة من الرجال الشجعان- يركض للدفاع عن الحرية وينشر ويرفع مرة أخرى في الهواء علم الوطن، الذي أهانه الظالمون وداسوه تحت أقدامهم..

(بي. بلومير)

كان الليل قد حل عندما وصل جي إلى كورتراي على رأس نحو ستة عشر ألف رجل. كان السكان، الذين أبلغهم الفرسان الذين وصلوا قبل ذلك، في حشد على أسوار المدينة وقد استقبلوا حاكمهم على ضوء المشاعل وصيحات الفرح. بمجرد دخول الجيش المدينة، جلب سكان كورتراي جميع أنواع المؤن؛ لقد قدموا أطناناً كاملة من النبيذ لإخوتهم المتعبين وبقوا طوال الليل على الأسوار، وعانقوا أصدقاءهم من بروج في كل لحظة بعناق حنون. خلال هذا التعاطف الأخوي المتدفق، ذهب عدد كبير للقاء النساء والأطفال الذين أنهكتهم الرحلة، لتفريغ حملتهم من الأثاث والأشياء الأخرى التي كانوا قادرين على حملها. تم نقل العديد منهم، الذين أصيبت أقدامهم بسبب الطريق، إلى المدينة على الأكتاف القوية لسكان كورتراي الذين كانوا يقدمون يد المساعدة بكل إخلاص، تم تسكينهم جميعاً وتغذيتهم والسعي لراحتهم بكل اهتمام.

زاد امتنان سكان كورتراي وعاطفتهم الحماسية والسخية بشكل فريد من شجاعة سكان بروج؛ لأن الروح البشرية دائماً ما تحلق في أوقات الأزمات.

وصلت ماتيلد وماري، أخت أدولف دي نيولاند، مع عدد كبير من السيدات النبيلات من بروج، إلى كورتراي قبل ساعات قليلة من وصول الجيش؛ وقد تم تسكينهن لدى عائلات يعرفنها وقد بدأن على الفور في إعداد أماكن لإقامة الفرسان أو أقربائهن أو أصدقائهن، حتى يجد رفقاء جي كل شيء جاهزاً عند وصولهم. في اليوم التالي، في الصباح الباكر، ذهب جي مع بعض السكان الرئيسيين لزيارة تحصينات القلعة؛ وقد شعر بحزن شديد؛ لأنه رأى أنه يمكن الاستيلاء على المكان بمساعدة الآلات الحربية الكبيرة. لقد أدرك أن أدنى محاولة متهوره ستكلفه ألف رجل، وبعد دراسة متأنية، قرر عدم المخاطرة بالاعتداء بسهولة. وقد أعطى أوامره ببناء الكباش والأبراج على الفور وإحضار آلات الحرب التي كانت في المدينة؛ تتكون هذه من عدد قليل من المقاليع وعدد صغير من المقذوفات. كان من المحتمل ألا يستمر الحصار لمدة أربعة أو خمسة أيام. لم يعد هذا التأخير ضاراً بسكان كورتراي؛ لأنه منذ وصول الجيش الفلمنكي، توقفت الحامية الفرنسية عن إلقاء السهام المشتعلة على المدينة؛ يمكننا أن نرى بوضوح جنود الحراسة المسلحين بالأقواس عند أسوار

الأبراج، لكنهم لم يعودوا يطلقون أي شيء. ولم يعرف الفلمنكيون سبب تعليق الأعمال العدائية؛ لقد اعتقدوا أن ثمة نفاقاً في الأمر، ومن جانبهم، اتخذوا احتياطاتهم. لقد منع جي أي عدوان، فلم يكن يريد أن يجرب أي شيء قبل أن تؤكد له آلاته فرص النصر.

ذهب سيد القصر، السيد لنس إلى أقصى طرف في المدينة؛ لم يكن لدى رماة السهام سوى عدد قليل من الأسهم، لذلك أمرهم بالاحتفاظ بها كإجراء احترازي في حال حدوث اعتداء يحتاج إلى صده. كما تم تقليص الإمدادات لدرجة أن الحامية لم تملك سوى نصف المؤن الضرورية. كان سيد القصر، السيد لنس يأمل في أن تمام يقظة الفلمنكيين في نهاية المطاف وأن يجد الفرصة لإرسال رسول إلى ليل حيث كان الجيش الفرنسي.

أرنولت دو أودينايردي، الذي وصل قبل أيام قليلة؛ مع ثلاثمئة رجل، لمساعدة كورتراي، استقر مع رجاله تحت أسوار المدينة، في سهل جرونينجن، بالقرب من الدبر. كان هذا المكان موالياً بشكل بارز لمعسكر عام، وتم تحديد هذه الواجهة له في مجلس حربي عقده جي. في اليوم التالي، بينما كانت جماعة النجارين مشغولة ببناء آلات الحصار، خرجت بقية الجيش الفلمنكي من المدينة لحفر الخنادق في المعسكر. تلقى كل من النساجين والجزارين قزمة وفأساً، وشرعوا في العمل بحماس شديد، تم نصب التحصينات كما لو كان

ذلك عن طريق السحر؛ كان الجيش كله يتنافس بمنتهى
الهمة على العمل؛ لقد كان كفاحاً حقيقياً من التفاني.
ارتفعت القزمات والفؤوس وانخفضت بسرعة لم تستطع
العين متابعتها، وحلقت الأرض في كحل كبيرة إلى أعلى
الحصون، مثل الحجارة التي لا تعد ولا تحصى التي يرميها
سكان مدينة محاصرة فوق رؤوس أعدائهم.

عندما اكتملت أعمال الحفر، جاء رجال آخرون لينصبوا
الخيام. من وقت لآخر، يترك العمال أدواتهم مدفونة في
الأرض ويتسلقون على عجل فوق التحصينات؛ ومن ثم
ترتفع هتافات النصر عبر الجيش كله، وصيحة «فلاندرز
للأسد! فلاندرز للأسد!»! يتردد صداها عن بعد كجواب
مليء بالفرح. كان يحدث ذلك كلما وصلت تعزيزات من
مدن أخرى.

اتهم الشعب الفلمنكي، بالخطأ إلى حد ما، النبلاء بالخيانة
والجبن؛ صحيح أن عدداً كبيراً من اللوردات أعلنوا صراحة
موقفهم لصالح الفرنسيين؛ لكن عدد الذين بقوا مخلصين
لقضية الوطن كان أكبر من عدد المرتدين. اثنان وخمسون
من الفرسان الفلمنكيين كانوا أسرى في فرنسا؛ بالتأكيد
كان حبهم لبلدهم وتفانيهم لملكهم هو الذي أوصلهم إلى
هناك؛ أما بالنسبة للنبلاء الذين بقوا في فلاندرز، إذا لم
ينضموا إلى الجماعات المتمردة، فذلك لأنهم اعتبروا ساحة
المعركة المكان الوحيد الذي يمكنهم فيه إظهار شجاعتهم

وتفانيهم. أعطتهم عادات ذلك الوقت هذه المشاعر؛ لأنه كانت هناك مسافة بين الفارس وأهل المقاطعات مثل المسافة الموجودة اليوم بين السيد وخادمه. وطالما كان النضال متمركزاً داخل أسوار المدينة وبتوجيه من الزعماء الشعبيين، فقد بقوا في قلاعهم يتأوهون من اضطهاد الوطن؛ ولكن بمجرد أن دعا جي رعاياه باعتباره صاحب السلطة الشرعي، سارعوا إلى الركض إليه مع رجالهم.

منذ صباح اليوم الأول، وصل اللوردات بودوان دي باينرود، وهنري دي رايفيسشوت، وإيفون دي بيليجيم، وسالومون دي سيفكوت، ولورد مالديجم إلى كورتراي مع ولديه. في منتصف النهار، ارتفعت موجات من الغبار مثل السحابة في اتجاه مورسيل، فوق كتل الأشجار التي تحيط بهذه القرية، وشهدت، في الاستقبال صخب هتافات حماسية من سكان بروج، الواقفين على تحصيناتهم، دخول خمسمئة رجل قادمين من فيرن وعلى رأسهم المحارب اللامع يوستاش سبوركين. رافقهم حشد من الفرسان الذين التقوا بهم في الطريق؛ من بين هؤلاء، كان أهمهم: السادة جون دايشوفن، وجيوم دي داكينام، وشقيقه بيير، وسير دي لانديجم، وهوجز فان دير موير، وسيمون دي كيستير. كان جان ويلبير، من ثورو، قد اصطف أيضاً، مع عدد قليل من الرجال، تحت قيادة سبوركين. في لحظة، كان الفرسان يصلون بمفردهم إلى المخيم،

وكان هناك بعض الذين ينتمون إلى بلدان أخرى أو إلى مقاطعات أخرى والذين -لوجودهم في فلاندرز- لم يترددوا في المشاركة في أعمال تحرير الفلمنكيين. وهكذا، كان هنري دي لوشين من لوكسمبورغ وجوسوين دي جوتسينهوف وجان فان كويك، وهما من نبلاء برابانت، مع جي بالفعل عندما وصل سكان فيرن. حالما اكتمل عدد الرجال، تم إرسالهم جميعاً إلى المعسكر ووضعوا تحت أوامر السيد دي رينيسي.

في اليوم الثاني، جاء أهل أيرس على وجه السرعة. على الرغم من أنه ينبغي لهم ضمان سلامة مدينتهم، إلا أنهم لم يستطيعوا تحمل تحرير فلاندرز من الهيمنة الأجنبية دون مساعدتهم. لقد شكوا أفضل القوات التي يمكن للمرء أن يراها؛ كان خمسمئة منهم مسلحين بكثافة، كانوا يرتدون اللون القرمزي ومغطين بالكامل بقلنسوات تعلوها طيور البلشون المشعة؛ كما كانوا يرتدون ألواحاً فولاذية على صدورهم، وشارات على أذرعهم ودروعا حامية للركبة كانت تتلألأ في الشمس. وحمل سبعمئة آخرون أقواساً كبيرة ذات نوابض حديدية؛ كانوا يرتدون ثوباً أخضر مع خطوط صفراء. وكان معهم جاك ديبرس، قيم إسطبلات الكونت جون دي نامور، والسيد ديديه دي فلامرتيني، وجوزيف فان هوليبك، وبودوين دي باشنديل؛ وكان القائدان هما فيليب بيلد وبيير بيل،

العميدان الرئيسان لأصحاب المهن والحرف في إيبرس.

في فترة ما بعد الظهر، جاءت بقية كتيبة الفرنجة (85)، أي رجال من القرى المجاورة في بروج، وعددهم مائتان، مسلحون ومجهزون للغاية.

في اليوم الثالث، قبل الظهر، وصل الراهب السيد جيوم دي جوليرز، من كاسيل مع جون دي رينيسي. دخل المعسكر معهم خمسمئة فارس وأربعمئة زيلاندي وتعزيز من سكان بروج (86).

استجاب معظم الفرسان المستدعين للنداء، وكانت معظم المدن قد أرسلت رجالها؛ جميع أنواع الرجال المسلحين كانوا تحت أمر جي. الفرع الذي تنقله الفلمنكيون خلال هذه الأيام القليلة نجح في الحقيقة عن وصفه؛ فلقد لاحظوا أخيراً أن مواطنيهم لم يكونوا فاسدين كما كان يظن المرء، وأنه على امتداد الأراضي الفلمنكية، كان لا يزال في البلاد عدد كبير من الرجال الشجعان والأقوياء؛ لقد تم بالفعل تخييم ما يقرب من 21 ألف مقاتل تحت راية الأسد الأسود، وكانت تصل تعزيزات جديدة أقل أهمية في كل لحظة.

على الرغم من أن جيش العدو كان يضم اثنين وستين ألفاً من الرجال، كان نصفهم من سلاح الفرسان، إلا أن الفلمنكيين لم يعودوا يشعرون بأي خوف. في ظل حماسهم

الشديد، غالباً ما كانوا يتركون عملهم لاحتضان بعضهم بعضاً ولا يتبادلون سوى الكلمات التي تشير إلى الانتصار، كما لو أن لا شيء يمكن أن يسلب منهم النصر.

قرب المساء، عندما كانوا عائدین إلى أكواخهم بمعاولهم، تردد صدى صيحة «فلاندرز للأسد!» مرة أخرى على أسوار كورتراي؛ ركض الجميع إلى التحصينات ليروا ما يدور حولها. بمجرد أن نظر الناس خارج أرض المخيم، استجابت صيحات الفرح لهتافات سكان كورتراي. دخل المخيم ستمئة فارس في ملابسهم الحديدية. جاءت هذه القوات من نامور وأرسلت إلى فلاندرز من قبل جون دي نامور، شقيق روبرت دي بيثون. جعل وصول هذه التعزيزات فرحة الفلمنكيين تصل إلى أوجها؛ لأنهم كانوا مفتقرين للغاية لسلاح الفرسان. على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن أهل نامور لا يستطيعون فهمهم، إلا أنهم وجهوا لهم ألف صيحة ترحيب وطلبوا لهم نبیذاً وقيراً. وقد شعر الجنود الأجانب، على مرأى من هذه اللهسات الخنونة، بتعاطف متبادل وأقسموا على أن إراقة دمائهم من أجل هؤلاء الناس الطيبين.

كانت المدينة الوحيدة التي لم تستجب للدعوة هي مدينة غينت؛ لم يحضر بعد رفيق واحد إلى كورتراي. كان معروفاً منذ فترة طويلة أن غينت كان تعج بالليبارد وأن قاضي تلك المدينة كان متعاطفاً تماماً مع الأجانب؛ ومع

ذلك، كانوا في المعسكر في انتظار سبعمئة رجل، فقد وعد جون بورلوت بمساعدته. في شك، لم يجرؤ الفلمنكيون الذين كانوا في المعسكر على اتهام إخوتهم في غينت بالخيانة بصوت عالٍ؛ ومع ذلك، تم اعتبار سكان غينت كمشتبه بهم من قبل عدد كبير، والعديد من الأصوات المنفردة وجهت لهم الاحتقار والازدراء، وكان من الصعب قياس مداها.

في المساء، عندما اختفت الشمس منذ ساعة خلف قرية مورسيل، عاد جميع العمال إلى خيامهم. هنا وهناك كما نسمع أغنية يتلوها تصادم الكؤوس، وكانت العديد من الأصوات كأنها جوقة تردد مذهبها؛ في خيام أخرى كانت هناك محادثات ساخنة ومختلطة نسمع أثمانها صيحة «فلاندرز للأسد»!، مما يسمح لنا بأن نفترض أن المتحاذين كانوا يشجعون بعضهم بعضاً على القتال ببسالة عندما يحين وقت القتال، وكانوا يتبادلون مشاعرهم بحرية.

في وسط المعسكر، على مسافة من الخيام، اشتعلت النيران في حريق كبير أضاء محيطه بوميضه الأحمر. كان العشرات من الرجال مسؤولين عن إبقائها مشتعلة ورأيانهم يصلون بدورهم، وهم يجرون أغصاناً كبيرة، وعلى فترات متقطعة، كان بإمكاننا سماع صوت قائد يصيح:

- انتبهوا! كونوا حذرين! لا تحركوا مصدر اللهب بهذا

الشكل! لا تطاردوا الشرر باتجاه المعسكر!

على بعد خطوات قليلة من موقد النار، كانت خيمة حارس المعسكر، مكونة من سقف مغطى بجلد البقر، وكان هيكلها يحمل ثمانية عوارض كبيرة؛ كانت الأطراف الأربعة مفتوحة، بحيث يمكن مراقبة المعسكر من جميع الاتجاهات.

كان على جون بريدل أن يقوم بمهمة الحراسة تلك الليلة مع خمسين من رجاله؛ كانوا يجلسون جميعاً على مقاعد خشبية صغيرة حول طاولة، تحت السقف الذي كان يحميهم من الندى والمطر، وكانت فؤوسهم، تحت انعكاس اللهب، تلتأ في أيديهم مثل الأسلحة النارية. كان يمكن رؤية الحراس بالخارج وهم يمشون في الظلام. كان هناك إبريق كبير من النيذ وعدد من الكؤوس المصنوعة من القصدير ملقاة أمامهم على الطاولة، وعلى الرغم من عدم منعهم من الشرب، إلا أنه لا يزال من الممكن ملاحظة أنهم كانوا يشربون باعتدال؛ لأنهم نادراً ما كانوا يجلبون الكؤوس إلى أفواههم. كانوا يضحكون ويتحدثون بسعادة ويصفون مسبقاً الضربات الجميلة التي كانوا يعتزمون توجيهها للعدو في المعركة الوشيكة. صاح بريدل:

- يقال، إن الفلمكنيين لم يعدوا يشبهون آباءهم، في حين أن جيشاً مثل جيشنا قد اجتمع بمنتهى الإرادة والقوة!

أتمنى أن يأتي الفرنسيون مع اثنين وستين ألف رجل! كلما زادت الفرائس، أصبح الصيد أفضل! يقولون نحن مجموعة من الكلاب الحقيرة؛ بل يدعون الرب ألا تعضهم هذه الكلاب؛ لأن أسنانها جيدة!

ضحك الجزائريون على هذه الطرافة المثيرة للسخرية التي نطق بها عميدهم؛ وكانوا ينظرون عمداً إلى رفيق مسن تشهد لحيته الرمادية على تقدمه في السن. صاح أحدهم في وجهه:

- وأنت يا جاك، ألا يمكنك أن تعض بعد الآن؟

أجاب الجزائر المسن:

- إذا لم تكن أسناني جيدة مثل أسنانكم، فلا يزال لدي فأس اعتاد على العض لفترة طويلة. أراهن معكم بعشرين كأساً من النبيذ على من سيرسل أكبر عدد من الفرنسيين إلى الجحيم.

صاح آخر:

- لقد تم الأمر، سنشربها على الفور. سأذهب للحصول عليها.

قال بريدل مقاطعاً:

- لحظة من فضلكم، ابقوا في مكانكم. اشربوا غداً؛ لأنني أقولها لكم، إن أول من يسكر، سألقي به في السجن في

كورتراي، ولن يحضر المعركة.

كان لهذا الإجراء تأثير مذهل على الجزائريين؛ مات الكلام على شفاههم ولم يتحرك أحدهم؛ الجزائر المسن وحده هو الذي ما زال يجرؤ على الكلام.

- بلحية عميدنا، صباح هو، إذا حدث مثل هذا الأمر لي، فإنني أفضل أن يتم شوائي حياً كما حدث ذات مرة للسيد سان لوران؛ لأنه في حياتي لن تتاح لي الفرصة لأرى مرة أخرى مثل هذا العيد.

رأى بريدل أن تهديده أصاب جميع الحاضرين بالخوف والحزن؛ وقد أزعجه ذلك كثيراً لأنه كان يميل إلى البهجة. ولكي يحفز الشعور بالفرح في من حوله، أمسك الإبريق وملاً الكؤوس على التوالي، وقد قال:

- حسناً يا رفاق، لماذا تصمتون؟ تفضلوا، خذوا واشربوا، لعل النبيذ يعيد إليكم الكلام! يؤسفني أن تحدثت إليكم كما فعلت للتو. ألا أعرفكم؟ وأعلم دماء الجزائريين تجري في عروقكم؟ هيا، في صحتكم أيها الرفاق!

جفاة ظهر تعبير عن السرور من جديد على وجوه الجزائريين، وتحول الصمت الذي أبقوه إلى نوبات طويلة من الضحك عندما أدركوا أن التهديد من عميدهم كان مجرد مزحة. واصل بريدل وهو يعيد ملء كأسه:

- اشربوا، هذا الإبريق لكم، يجب إفراغه حتى القاع.
سيجد رفاقكم، الذين هم في نوبة الحراسة الآن، واحداً آخر
عند عودتهم. الآن بعد أن رأينا جميع المدن تأتي لمساعدتنا
ووجدنا أنفسنا أقوياء للغاية، يمكننا الاحتفال بهذه
السعادة.

- سأشرب في نخب عار أهل غينت! هتف أحد الرفاق.
لقد عرفنا منذ زمن طويل أن من يعتمد عليهم كأنه لا
يعتمد على شيء، ولكن هذا ليس مهماً! أتمنى أن يبقوا في
مكانهم، إن مدينتنا الشجاعة بروج وحدها ستحظى بشرف
النضال والتحرير.

صاح آخر:

- هل سكان غينت فلمنكيون مثلنا! وهل تنبض قلوبهم
من أجل الحرية؟ هل هناك جزارون مثلنا في غينت؟ تحيا
بروج! هي المكان الذي يولد فيه العرق الفلمنكي الحقيقي!

صاح بريدل:

- كيف؟ يوجد في غينت رجل بقلب أسد. أليس بها
جان بورلوت؟ أنا متأكد من أنه إذا أراد الاستفسار عن
ذلك فسوف يكتشف أن أهله كانوا جزارين أو شيئاً من
هذا القبيل؛ فالسيد جون كواحد من أهل غينت يشبه
الثور بالنسبة للحمل.

انفجر الجزائريون ضاحكين من جديد.

تابع بريدل:

- ولا أعلم، لماذا أرادهم السيد جي أن يأتوا؛ أليس هناك بالفعل مجاعة في المعسكر، فلا داعي لاستدعاء آكلين جدد؟ هل يعتقد السيد جي أننا الرجال الذين سيضيعون الوطن؟ يمكننا أن نرى أنه يعيش في نامور، إنه لا يعرف سكان بروج، ودون ذلك، كان لا يريد أن يأتي سكان غينت. لسنا بحاجة لهم، ليقوا حيث هم؛ سنقوم بعملنا بشكل جيد من دونهم.

بصفته واحداً من أبناء بروج الحقيقيين، لم يحب بريدل سكان غينت. منذ تأسيسهما، كانت المدينتان الرئيستان في فلاندرز في نزاع دائم، ليس لأن إحداهما تمتلك مواطنين أكثر شجاعة وتفانياً، ولكن لأن كليهما، تعيشان من الصناعة، سعتا بشكل متبادل لإخراج بعضهما بعضاً من التجارة واحتكارها لحسابها الخاص. واليوم، لا تزال هذه الكراهية قائمة بين سكان غينت وبروج، ومن الصعب أن ينتزع من الناس مشاعرهم الموروثة، فقد استمر الحسد الذي تحمله المدينتان حتى يومنا هذا.

هكذا تحدث بريدل مع رفاقه؛ تم إلقاء أكثر من إهانة موجهة إلى سكان غينت، وعندما تم الحديث عن الأمر بكل جوانبه، انتقلت المحادثة إلى موضوع آخر. فجأة

انجذب الانتباه العام إلى ضوضاء غير متوقعة؛ بدا الأمر كما لو أن رجلين كانا يتشاجران على بعد خطوات قليلة من الخيمة. نهض الجميع ليروا ما يمكن أن يكون؛ ولكن قبل أن يتمكن أي شخص من مغادرة الخيمة، دخل جزار كان في نوبة الحراسة وشخصية أخرى كان يجذبها بعنف إلى الداخل. قال وهو يدفع الغريب إلى الخيمة:

- سيدي، وجدت هذا المغني المتجول خلف المعسكر؛ كان يستمع إلى ما كان يدور في الخيام وينزلق خلسة في الظلام، ولوقت طويل شاهدته وتابعتة. ولا شك أن هناك خيانة في الأمر؛ لنرى كيف يرتجف الوغد.

كان الرجل الذي أدخله الحارس إلى الخيمة يرتدي ملابس تميز بألوانها الأرجوانية والزرقاء، وكان فوق رأسه غطاء رائع مزين بريشة. غطت لحية طويلة نصف وجهه. كان يمسك بيده اليسرى آلة وترية صغيرة تشبه إلى حد ما القيثارة ويبدو أنه كان يريد أن يعزف لحناً. كان يرتجف من الخوف وكان شاحباً جداً لدرجة أن المرء كان يعتقد أنه سيغادر الحياة؛ كان من الواضح أنه يريد تجنب نظرة جون بريدل؛ لأنه أدار رأسه في اتجاه آخر حتى لا يرى العميد ملاحظه.

- ماذا تفعل في المعسكر؟ لماذا كنت تملصص على ما يدور في الخيام؟ أجب بسرعة.

أجاب المغني المتجول بلغة فصيحة وشبيهة بالألمانية، مما يجعلنا نفترض أنه ينتمي إلى جزء آخر من البلاد:

- يا سيدي، إنني من لوكسمبورغ، وأحضرت رسالة إلى كورتراي موجهة للسيد دي لوشين. قيل لي إن أحد إخوتي موجود في المعسكر، وقد أتيت للبحث عنه. كان قلبي مقبوضاً وأشعر بالخوف من أن يعتبرني الحارس جاسوساً؛ لكن آمل في حمايتك.

بريدل، الذي شعر بالتعاطف مع المغني المتجول، صرف الحارس، وخصص مقعداً للغريب:

- لا بد أنك تشعر بالتعب من هذه الرحلة الطويلة. اجلس يا مغنينا الجميل. ستغني لنا وسنعرف كيف نكافئ موهبتك. تشجع، فأنتك وسط أناس طيبين وشجعان.

أجاب المغني:

- ساحمني، سيدي، لا يمكنني البقاء هنا؛ لأن اللورد لوشين ينتظرنني. أعتقد أنك لن ترغب في إحباط رغبة الفارس النبيل من خلال احتجازي أكثر من ذلك.

صاح الجزارون:

- نحن بحاجة إلى أغنية! لن يرحل حتى يغني.

هتف بريدل:

- أسرع؛ لأنه إذا كنت لا تريد أن تمنحنا متعة سماع بعض الأغاني، فسأبقى هنا حتى الغد. لو كنت قد أظهرت حسن نيتك على الفور، كنت قد انتهيت بالفعل. غني، أنا أمرك بذلك.

ازداد قلق المغني عند هذا التحذير الإلزامي؛ بالكاد كان يعرف كيف يمسك القيثارة في يده، وكان يرتجف بشدة لدرجة أن أوتار الآلة، التي كانت تحتك بملابسه، تحركت وأرسلت بعض النغمات الغامضة إلى آذان الجزائريين، مما جعل رغبتهم أكبر.

صاح بريدل:

- هل تريد أن تعزف لنا أم تغني؟ لأنه إذا لم تسرع؛ فسوف يتحول الأمر بشكل سيئ.

رفع المغني، الذي أصيب برعب مميت، أصابعه المرتعشة على القيثارة، ولم يخرج من الآلة سوى أصوات خاطئة ومشوشة. لاحظ الجزائريون على الفور أنه لا يعرف كيف يعزف على الآلة.

هتف بريدل:

- إنه جاسوس! قتشوه وتأكدوا من أنه لا يحمل أي دليل على الخيانة.

في لحظة جرد المغني من ثيابه الخارجية، وعلى الرغم

من أنه طلب العفو بصوت متوسل، فقد كان أثماناً هذا التفتيش يدفع به في خشونة من جانب إلى آخر.

صاح أحد الجزارين، وكان يضع يده تحت ثوب الغريب:

- أنا أحمله! ها هو الدليل على الخيانة!

سحب يده التي كانت تحمل ورقاً مطوياً إلى ثلاثة أو أربعة أزواج وختوماً بختم مغلف بالشمع. كان المغني مذعوراً كما لو كان قد رأى الموت أمامه؛ بينما كان ينظر بقلق إلى العميد، تتم ببضع كلمات لم يسمعها الجزارون.

أمسك جون بريدل بالمخطوطة، وفتحها وتأملها لفترة طويلة، دون أن يمكنه هذا التأمل من أن يعلم أي شيء ففي ذلك الوقت، باستثناء رجال الدين، قلة من الناس كانوا يعرفون كيفية القراءة، وكان النبلاء أنفسهم في الغالب منغمسين في أعماق جهل. صاح بريدل:

- ما هذا أيها البائس؟

تلثم المغني المزيف بصوت متردد:

- إنها رسالة من اللورد لونشين.

واصل العميد:

- انتظر! سأعرف من هو!

قام بسحب سكينه وقطع الشمع الملفوف حول الختم.

وقد رأى أزهار الزنابق وسلاح فرنسا، فاندفع وهو يزأر نحو الغريب، وأمسكه من لحيته، وهزه بعنف وهتف:

- آه! هل هذه رسالة من السير لوشين؟ لا، إنها رسالة من السيد لنس وأنت جاسوس خسيس. سوف تموت ميتة رهيبة أيها الوغد!

شد لحية الجاسوس بشدة لدرجة أن الشرائط التي تربط اللحية بالرأس قد انفكت، وتعرف بريدل على ملامحه على الفور. لقد دفعه إلى الوراء بغضب شديد لدرجة أنه ارتطم بقوة بأحد الأعمدة التي كانت تدعم الخيمة. صاح بريدل متفاجئاً من الظهور غير المتوقع للخائن.

- أوه، براكلز! حانت ساعتك الأخيرة!

هرع الجزائر المسن الذي كان يمزح بشأن أسنانه السيئة إلى براكلز، وأمسكه من حلقه وضغطه بقوة على العمود الذي ألقى به إلى جواره لدرجة أن عيونه خرجت من رأسه، فقبضة الجزائر كانت قوية لدرجة أنها كادت أن تزهق أنفاس الخائن. كان سيخنق قريباً إذا لم تسمح له الحركات التي قام بها لتحرير نفسه من وقت لآخر بإراحة صدره المضغوط.

أيقظ صخب الجزائريين حشداً من الناس الذين توافدوا بفضول من جميع الخيام المحيطة، بعضهم دون صدرية، والبعض الآخر دون عباءة.. بمجرد علمهم سبب

الاضطرابات، بدؤوا يطالبون بغضب أن يتم تسليم براكلز لهم. وتصايحوا:

- أعطوه لنا. نريد دمه! نريد لحمه!

أمسك بريدل بالجزار المسن من كتفيه وفصله عن براكلز، قائلاً:

- لا تلتطخوا أنفسكم بدم هذا الخائن! إذا لم يكن حقيراً للغاية، لكان قد مات بالفعل على يدي.

هتف الجزار:

- لا! -ورفع فأسه- أريد أن أمنح لنفسي تلك المتعة. أننا نحصل على مكان في الجنة بقتل الخائن لبلده. اتركه لي يا سيدي. أتوسل إليك من أجل محبة الله! ضربة واحدة فقط!

براكلز، راکعاً ومتوسلاً بيد مضمومة حتى يُسمح له بالعيش، جر نفسه إلى العميد وقال، وهو ينتحب:

- أوه! سيدي، ارحمني.. سأخدم الوطن بأمانة.. لا تقتلني!

نظر إليه بريدل بغضب واحتقار، وبركعة في جانبه، ألقاه في الطرف الآخر من الخيمة. في هذه الأثناء، واجه الجزائريون صعوبة كبيرة في احتواء آلاف الرجال الذين احتشدوا حول الخيمة، تملؤهم روح الانتقام، ويطالبون

بصوت عالٍ بتسليم الخائن إليهم.

صرخ الحشد الغضب:

- لنا! لنا! إلى النار! إلى النار!

قال بريدل لرجاله بلهجة امرأة:

- لا أريد، لا أريد أن يلمس دم هذا الأفعى فؤوسكم.

دعونا نسله للشعب.

لم يكذب يخرج هذا الأمر من فمه حتى غادر رجل من الحشد وألقى بجبل حول عنق براكلز؛ أمسكت مئات الأيدي بنهاية الحبل، وقلبوا الخائن وسحبوه إلى خارج الخيمة. ضاعت صرخاته من الألم وسط صيحات الحشد. بعد أن جرجروه حول المعسكر، أحضروه، صارخاً من الألم، بالقرب من النار، ثم جعلوه يمر من خلالها أربع أو خمس مرات حتى التصق الجمر بوجهه وأصبح من المتعذر التعرف إليه. ثم استأنفت الجموع مسارها واختفت في الظلام مع براكلز الذي كان جسده هامداً. ولفترة طويلة ظلت الصرخات تدوي من بعيد؛ ولفترة طويلة عذب جسد الخائن؛ بعد ساعة، علقوه مشوهاً على مشنقة أقيمت بالقرب من النار. عاد الجميع إلى خيامهم، وأعقب الصمت العميق الضجة الرهيبة التي صاحبت إعدامه.

فلاندرز للأسد! كانت صيحة حربنا.

(لويس فان فيلتم)

كان جي قد أعطى الأمر، في صباح اليوم التالي، بأن يصطف كل الجيش، كل مجموعة تحت قيادة قائدها، في طواير في سهل جرونينجن، أمام المعسكر؛ فقد أراد القيام بمراجعة عامة لقواته.

وفقاً لهذا الأمر، تم ترتيب الفلمنكيين في المكان المخصص. كان هذا الترتيب أشبه بالجدران الأربعة التي تشكل أساس صرح مهيب؛ كان على كل جانب ثمانية صفوف ضيقة؛ وقد شكل أربعة آلاف نساج من مجموعة دي كوينك نهاية الجناح الأيمن. يتكون الصف الأول من مجموعة من الرماة الذين يحملون أقواساً ثقيلة على أكتافهم، وعلى الجانب، كانت جعبة مليئة بالسهم ذات الرؤوس الحديدية؛ كان سلاحهم الدفاعي الوحيد عبارة عن لوح حديدي سميك مثبت بأربعة أحزمة على الصدر. فوق الصفوف الستة الأخيرة، ارتفعت بارتفاع عشرة أقدام آلاف الحراب؛ هذا السلاح، الذي لم يكن سوى سلاح الحراب المسنونة الشهير، كان أكثر ما يخافه الفرنسيون؛ لأنه يسمح بالوصول إلى الخيول بسهولة وإصابتها؛ لا يوجد درع يمكن أن يحمي نفسه من ضربات هذا الرمح الهائل؛

أي فارس تم إصابته بهذا السلاح بشكل صحيح يسقط من على الحصان على الفور.

على الجانب نفسه، كان هناك أهل إبيرس بزيمم الأنيق؛ يتكون صفهم الأول من خمسمئة رجل قوي، وكانت ثيابهم في لون المرجان الأحمر. سقطت ريشات متموجة على أكفهم من أعلى خوذة رشيقة الشكل؛ هراوات ضخمة ذات حواف مدببة موضوعة على الأرض، وأيديهم القوية تمسك بالمقبض؛ غطت ألواح حديدية صغيرة أذرعهم وأرجلهم. كانت جميع الصفوف الأخرى من هذه القوات الرائعة ترتدي ملابس خضراء؛ وتبرز من بينها الأقواس الحديدية الطويلة التي تتجاوز رؤوسهم.

كان الجناح الأيسر يتألف فقط من عشرة آلاف رجل من رجال بريدل، من هذا الجانب، كانت ثلثاً فؤوس الجزارين التي لا حصر لها في عيون بقية قوات الجيش، والتي غالباً ما كانت تتجنب النظر لهذا السرب من الشر الذي أوقدته أشعة الشمس المبهرة. لم يكن الجزارون يرتدون ملابس أنيقة، كان ثوبهم يتكون من جوارب بنية اللون وصدريّة من نفس اللون؛ شمّرت أكتافهم حتى المرفق؛ لقد كانت عادة معهم؛ لأنهم كانوا نخورين بقدرتهم على إظهار عضلاتهم القوية. كان لدى العديد منهم شعر أشقر محمر؛ ندوب طويلة، علامة على الجروح التي أصيبوا بها في المعارك السابقة، وهي مرّسمة على

وجوههم بعمق؛ بالنسبة لهم، كان ذلك دليلاً مجيداً على شجاعتهم. تناقضت ملامح بريدل بشكل غريب مع تلك الوجوه القاسية التي لفحتها الشمس؛ فبينما كان مشهد معظم رفاقه يبعث على الرهبة، كان وجه بريدل نبيلاً ورقيقاً، عيناه الزرقاوان الجميلتان تتألقان تحت حواجبه الرقيقة والنحيفة، تموجت خصلات من الشعر الأشقر حول رقبته وأطالت لحيته الحريرية الشكل البيضاوي اللطيف لوجهه. إذا كان التعبير عن ملامحه لطيفاً في هذه اللحظة، فلأنه كان راضياً وسعيداً؛ ولكن كان عندما يجتاحه الغضب، يخيف وجهه أكثر من وجه الأسود؛ فبينما تتكمش وجنتاه وتغطيها تجاعيد محومة، تصر أسنانه وينقبض حاجباه بشكل متشنج.

في الجناح الثالث، كان يتواجد أهل فيرن والرجال المسلحون التابعون لأرنولد دي أودينيردي، وبودوين دي باينرود. بلغ عدد أصحاب المهن والحرف في فيرن ألف مقاتل، كانوا مسلحين بالمقاليع، ونحسمئة فارس يرتدون الخوذات كركندية الذيل، كان الأوائل في المقدمة وكانوا مغطيين بالكامل بالجلد، بحيث لم يكن للمقاليع، أثناء دورانها، قبضة على هذا السطح الأملس. كان هناك حزام عريض يحيط بخصورهم؛ يحتوي على الحصي المستديرة التي كانت ترمى فوق خصومهم بأيادهم اليمنى، كانوا يمسكون بحزام جلدي، في منتصفه كان تجويف. تعد المقاليع

سلاحاً رهيباً، كانوا يعرفون كيف يستخدمونها لضرب العدو بمنتهى الدقة لدرجة أن الحجارة التي كانت تفلت من الجلد نادراً ما أخطأت هدفها. وخلفهم كان يقف أصحاب الخوذات، وقد غُطوا جيداً بألواح حديدية وكانوا يرتدون خوذات قوية على رؤوسهم. كان سلاحهم يسمى الفأس الحربي، بمقبض طويل؛ كان فولاذ الفأس تعلوه حافة حديدية قوية اخترقت بها الخوذات ودروع الصدر، مما أكسبها اسمها. أما عن رجال أودينيردي وباينرود الذين - كما قلنا - كانوا في نفس الجانب، كانوا يحملون أسلحة من جميع الأنواع؛ ومع ذلك، تكون الصفان الأولان حصرياً من رماة الأقواس والنشاب؛ أما الصفوف الأخرى فكانت تضم حاملي الرماح أو الهراوات أو السيوف.

كان الجناح الأخير، الذي يشكل المؤخرة، يتألف من جميع سلاح الفرسان في الجيش، أي ألف ومئة رجل أرسلهم الكونت جون دي نامور إلى أخيه جي. كانت كل هذه القوات مغطاة بالحديد والفولاذ؛ يمكن رؤية عيون الفرسان فقط من خلال الفتحات الموجودة في وافي القناع وأرجل الخيول التي تخرج من دثارها الحديدي. استقرت السيوف الطويلة والقصيرة على كتافات دروعهم، وكان هناك ريش متموج يرفرف في الريح من خلفهم.

وهكذا تم ترتيب الجيش حسب أوامر قائده.

ساد الصمت الشديد في الصفوف؛ وبطبيعة الحال، تساءل الرجال المسلحون عما سيحدث؛ لكنهم تحدثوا بصوت منخفض للغاية لدرجة أنه لم يسمع أي منهم سوى الواقف بجانبه. ورغم أنه قد تم إيواء جي وجميع الفرسان الآخرين الذين لم يجلبوا قوات في كوارتري؛ وكان الجيش على أتم استعداد منذ وقت طويل ولكن لم يظهر أي منهم بعده.

جأة، شوهدت راية السيد جي تظهر تحت بوابة المدينة؛ صاح السيد دي رينيسي الذي يقود الجيش في غياب الجنرال قائلاً:

- السلاح إلى أعلى! أغلقوا الصفوف!

عند هذا الأمر، وضع الجميع أسلحتهم في الوضع المطلوب، واقتربوا واصطفوا في صفوف. ما إن تم إجراء هذه الحركة حتى انفتح صفًا سلاح الفرسان للسماح لجي، تلاه موكب كبير، بدخول الميدان.

في المقدمة، ركب حامل الراية مع راية فلاندرز، وقد ظهر الأسد الرملي في حقل من ذهب برشاقة فوق رأس الحصان وبدا أنه يُظهر مخالبه الهائلة، مثل فأس النصر، للفلمنكيين المتحمسين. جاء جي في الخلف مع ابن عمه جيوم دي جوليرز. كان الجنرال الشاب يرتدي درعاً متألقاً نُحِت عليه جيش فلاندرز بشكل رائع؛ كانت خوذته

تعلوها ريشة رائعة سقطت حتى مؤخرة جواده. على درع جيوم دي جوليرز كان هناك صليب أحمر كبير؛ هرب رداء الراهب الأبيض من تحت لوحه الحديدي ساقطاً على السرج؛ لم تكن خوذته تحمل ريشاً، وكانت حلите بسيطة وخالية من الزينة. تبع أدولف دو نيولاند هذين اللوردين اللامعين؛ كان مجهزاً بشكل جيد، ألف مسمار ذهبي يلمع على الحلقات التي ثبت ألواح درعه؛ كانت ترفرف ريشة خضراء في أعلى خوذته وكانت قفازاته الحديدية مطلية بالفضة. تحت لوحه الحديدي، يمكن للمرء أن يلمح وشاحاً أخضر؛ قدمت له ابنة أسد فلاندرز هذه الهدية كعلامة على امتنانها له. وبجانبه ركبت الأميرة الصغيرة ماتيلد على فرسة صغيرة بيضاء اللون. كانت الكوتيسة لا تزال شاحبة، لكن المرض تركها؛ كانت عودة أخيها أدولف قد طردت معاناتها. سقط ثوبها الأرزق السماوي من أفضل أنواع المخمل، والذي كانت تتناثر فيه الأسود الفضية حتى قدميها، ونزل حجاب حريري من أعلى غطاء رأسها حتى مؤخرة دابتها.

ثم جاء ما يقرب من ثلاثين فارساً وسيدة نبيلة، كلهم يرتدون ملابس رائعة، وكانوا يشعرون بالهدوء والفرح لأنهم كانوا على وشك حضور بطولة سلمية. تقدم الموكب الرائع إلى وسط الميدان حيث توقف وسط صمت الجيوش المهيب.

استدعى جي مناديه المسلح وسلم له مخطوطة ليعلن محتواها. وأضاف:

- لا تنسوا الاسم الحركي، أسد فلاندرز؛ لأن ذلك سيسعد شعب بروج الطيب.

تجلى فضول الرجال المسلحين في حركة مفاجئة قاموا بقمعها على الفور، وأنصتوا بأكبر قدر من الاهتمام. لقد كانوا يشكون في هذا الاحتفال المهيب يخفي وراءه سرًا وأنه بالتأكيد لم يكن دون سبب وملاحظة أن ملكهم والسيدات النبيلات اللائي أحطن به جاؤوا وسطهم وهم يرتدون ملابس يبدو عليها الغنى الفاحش. تقدم المنادي المسلح، ونفخ في البوق ثلاث مرات وصاح بصوت عالٍ:

- نحن، جي دي نامور، باسم كونتنا وشقيقنا روبرت دي بيثون، أسد فلاندرز، إلى كل من سيقراً أو يسمع قراءة هذه الوثيقة، مرحباً!

بالنظر إلى..

بجأة توقف؛ سارت هممة مكتومة من بين الصفوف، ورفع كل منهم سلاحه بينما حاملو الأقواس يستعدون لسحب أقواسهم، كما لو كان هناك خطر وشيك. صاحت بعض الأصوات:

- العدو! العدو!

من بعيد، كان من الممكن رؤية فيلق كبير من الجيش يظهر، كان آلاف الرجال يتقدمون في صفوف عسكرية، لم يكن بالإمكان رؤية النهاية؛ لأنه لم يكن هناك سلاح فرسان. سرعان ما شوهد فارس ينأى بنفسه عن القوات المجهولة ويهرع بسرعة نحو المعسكر؛ كان يميل كثيراً على رقبة حصانه لدرجة أنك لم تستطع التعرف إليه، على الرغم من أنه كان قريباً جداً بالفعل. عند اقترابه من الجيش المذهول، هتف وهو يقترب أكثر من ذلك:

- فلاندرز للأسد! فلاندرز للأسد! ها هم أهل

غينت (87)!

تعرفوا إلى المحارب المسن، وردت عليه هتافات فرحة وخرج اسمه من كل فم.

- تحيا غينت! يحيا السيد جون بورلوت! أهلاً بكم إخواننا

الطيبين!

لم يملك الفلمنكيون أنفسهم من الفرح عندما رأوا مثل هذا التعزيز غير المتوقع لجيش عديد من هذا القبيل ينضم إليهم؛ كان على القادة بذل كل جهد للإبقاء على الرجال في صفوفهم. كانوا يتحركون بسعادة ويبدو أنهم فقدوا رؤوسهم. هتف السيد جون بورلوت:

- تحلوا بالشجاعة، أيها الأصدقاء، فلاندرز ستكون حرة!

أتيت لكم بخمسة آلاف رجل، ومسلحين بشكل جيد.

فأجابه الفلمنكيون المتحمسون بصوت واحد:

- يعيش بطل وريجن! بورلوت! بورلوت!

اقرب السيد بورلوت من الكونت الشاب وذهب لتحيته

باحترام، قال جي وهو يستوقفه:

- كفانا احتفالات، سيد جون، أعطني يدك. إذا كنت

تعرف فقط مدى سعادتي برؤيتك، فأنت الذي عشت

دون مغادرة الدرع ولديك خبرة كبيرة في الحرب! كنت

بالفعل آسفًا جدًا لعدم رؤيتك تصل. لقد وصلت في وقت

متأخر جدًا.

أجاب بورلوت:

- أوه! نعم، سيدي جي، فعلاً الفترة كانت أطول مما

أردت لكن هؤلاء الليليارد الجبناء هم الذين أوقفوني.

هل تصدق، سيدي، أن مؤامرة قد دبرت في غينت

لإعادة فتح أبواب المدينة أمام الفرنسيين؟ لم يتركونا نخرج

لمساعدة إخواننا. ولكن بحمد الله! لم ينجحوا؛ لأن الشعب

بيغضهم ويحترقهم بشدة. طارد أهل غينت القاضي في

بيرت وحطموا بوابات المدينة. وها هم خمسة آلاف رجل

عازمين قد جاؤوا وهم يتوقون إلى القتال كالأعياد؛ وهم

حتى الآن لم يحصلوا بعد على قطعة خبز.

- اعتقدت أن عقبات كبيرة أعاقتك سيد بولوت،
وكنت أخشى ألا تأتي.

- كيف، يا سيد جي، لم أكن لأحضر إلى كورتراي!
أنا، الذي سفك دمي من أجل الأجنبي، كيف لم آت
لمساعدة وطني المنكوب! هذا ما سيختبره الفرنسيون. يبدو
لي أنني لم أبلغ الثلاثين بعد. ورجالي يا إلهي! انتظر، أيها
النبيل، حتى تأتي الساعة الدامية وسترى كيف، مع وجود
أسد غينت على رأسهم، سوف يقضون على العدو.

- ما تقوله لي يفرحني كثيراً، سيد بولوت؛ شعبنا أيضاً
شجاع وحازم. إذا خسرتنا المعركة، سيكون هناك القليل من
الفلمنكيين الذين سيعودون إلى ديارهم، أوكد لك ذلك.

- هل نخسر المعركة، تقول سيد جي، نخسرها؟ لا أصدق
ذلك: إن رجالنا مستعدون للغاية. ويريدل إذا؟ إن النصر
يضيء على وجهه. كما ترى، يا سيدي، أراهن برأسي أنه
إذا سمحنا لبريدل أن يشق طريقه، فسوف يمر عبر الالمين
والستين ألف فرنسي مع جزائريه، كما يمر المرء في حقل
قمح. سيأتي الرب والسيد القديس جورج لمساعدتنا. أرجو
أن تتحلى بالأمل! لكن عذراً، سيد جي، ها هم رجالي.
سأتركك للحظة.

دخل سكان غينت في هذه اللحظة إلى سهل جرونينجن:
لقد كانوا مرهقين ومغطين بالتراب؛ لأنهم قاموا بمسيرة

إجبارية تحت أشعة الشمس الحارقة. كانوا مسلحين بكل طريقة. يمكن للمرء أن يجد بينهم جميع الأسلحة التي وصفناها بالفعل. سار نحو أربعين من النبلاء إلى الأمام؛ وكان معظمهم من أصدقاء الكهل جان بورلوت. كان هناك السيد ليرن، وجون دي كويغين، وبودوان ستيب، وسمون بيت، وبول دي سيفرين وابنه، وجان ديرسيل، والفارس فان فينيت، وتوماس دي فورسيلير، وجون دي ماتشيلن، وجيوم، وروبرت وينير، وأكثر من ذلك بكثير (88). في الوسط، تهيمن على فيلق الجيش كله، رفررت راية غينت بأسدها الفضي. هتف أهل بروج، الذين شعروا بظلم توييخهم الموجه إلى أهل غينت، عدة مرات:

- أهلاً بكم إخواننا من غينت! تحيا مدينة غينت!

في غضون ذلك، رتب جون بورلوت رجاله في صفوف منتظمة أمام الجناح الأيسر للميدان؛ لقد أراد، بطريقة ما، أن يسلط الضوء على شعبه الشجاع من غينت، حتى يتمكن سكان بروج من رؤية أنهم لا يقلون عنهم في حب الوطن. بأمر من جي، ابتعد ووصل إلى المعسكر لينح رجاله الراحة التي هم بأمس الحاجة إليها. بمجرد أن غادر سكان غينت، دخل جون دي رينيسي الميدان وصاح:

- السلاح إلى أعلى! الصمت!

الموكب، الذي وضع نفسه في وسط الجيش، أعيد ترتيبه كما كان قبل؛ صمت الجميع بأمر السيد دي رينيسي، وتحول انتباه الجميع إلى المنادي المسلح الذي قرأ بصوت عالٍ، بعد تكرار صوت البوق ثلاث مرات:

- نحن، جوي دي نامور، باسم كونتنا وشقيقنا روبرت دي بيثون، أسد فلاندرز، إلى كل من سيقراً أو يسمع قراءة هذه الوثيقة، مرحباً!

«بالنظر إلى الخدمات الجيدة والمخلصة التي تم تقديمها إلى فلاندرز وإلى أنفسنا من قبل السيد دي كونينك والسيد بريدل من بروج؛

ورغبة منا في أن نعطيهم شهادة معروفة لجميع رعايانا عن كرمنا؛

ورغبة منا، علاوة على ذلك، في مكافأة حبهما السخي لوطنهما، بالشكل المناسب وعند الضرورة، حتى تستمر ذكرى خدماتهما المخلصة إلى الأبد؛

أعطانا كونتنا ووالدنا، جي دو فلاندرز، الصلاحيات اللازمة لإبلاغكم بما يلي:

بيير دي كونينك، عميد النساجين، وجون بريدل، عميد الجزارين، وكلاهما من مدينتنا الطيبة بروج، وأحفادهم، إلى الأبد سيظلون من الدم النبيل، وسوف يتمتعون بجميع

الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها النبلاء في أنحاء فلاندرز
كافة.

وحتى يتمكنوا من الاستمتاع بذلك بكرامة، يتم منحهم
الجزء العشرين من الضريبة التي تدفعها مدينتنا الطيبة بروج
لتغطية تكاليف صيانة منازلهم».

خفق هتاف النساجين والجزارين بصوت عالٍ صوت
المنادي المسلح قبل أن يكمل إعلانه. كما أن النعمة السامية
التي كانت تُمنح لعميديهما كانت أيضاً مكافأة لشجاعتهم؛
كان جزء من التكريم الممنوح للزعيمين سيعم بالتأكيد
على أصحاب المهنة أو الحرفة. لو لم يكونوا متأكدين من
ولاء عميديهما وحبهما للشعب، لكانوا، بلا شك، قد رأوا
تعظيمهما بعين الغضب وكانوا قد رأوا فيه مكرًا سياسيًا
للنبلاء؛ وكانوا سيقولون:

- النبلاء يسلبوننا المدافعين عن حقوقنا ويغنون عمداءنا
بنعمهم.

في كل الأحوال، لم يكن عدم الثقة هذا بلا أساس؛ في
أغلب الأحيان، يسمح الرجال لأنفسهم بأن يجيدوا بسهولة
عن الطريق الصحيح بسبب الطموح والتعطش للتكريم.
لذلك ليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب من الكراهية
الشديدة التي يشعر بها الناس تجاه إخوانهم الذين ينهضون
عاليًا؛ لأنهم، من الأصدقاء الكرماء للشعب، يصبحون

دينئين وجبناء متملقين ويدعمون القوة التي جعلتهم على ما هم عليه؛ يعرفون أنهم يجب أن يقوموا ويسقطوا معه ويتوقعون أن الناس الذين تركوهم سيرفضونهم ويحتقرونهم كمنشقين.

كان لدى أصحاب المهن والحرف من بروج ثقة كبيرة في دي كونينك وبريدل حتى لم تأت لهم مثل هذه الأفكار في هذه اللحظة. أصبح الآن عميداهما من النبلاء، أصبح من بينهما الآن رجلان يمكنهما الوصول إلى مجلس الكونت يمكنهما من الآن فصاعداً المواجهة ومحاربة أعداء حقوقهم وامتيازاتهم علانية. لقد شعروا بمدى زيادة قوتهم، وهذا هو السبب في أنهم استسلموا لأقصى درجات الفرح. استمرت صرخات الفرح حتى تعبت الحناجر. ثم ساد الصمت والرضا لم يعد يرسم إلا بالتعبير على الوجوه والإيماءات.

ذهب أدولف دو نيولاند إلى العميدين وحثهما على المثول أمام جي؛ أطاعا وسارا ببطء نحو الموكب. كان لا يمكننا قراءة البهجة على وجه عميد النساجين. كان يتقدم وعلى وجهه تبدو الجدية والهدوء، دون أن يبدو أنه متأثر بأي عاطفة، لكن قلبه كان مليئاً بالرضا الحلو والفخر النبيل؛ لكن تعقله المعتاد أخضع ملامحه جيداً لإرادته لدرجة أنه كان من النادر أن يقرأ المرء على وجهه المشاعر التي يشعر بها. إنه يرغب الآن في الاحتفاظ بالحق في أن يكون قادراً

على أن يقول للأمير، في حالة المطالبة ببعض الإجراءات
الضارة بالشعب:

- من طالب بنعمك؟ هل لأنك تعطيني لتطلب مني أن
أظلم أحداً بعد ذلك؟

لم يكن الأمر نفسه مع عميد الجزارين، الذي لم يقيد
نفسه أبداً؛ أدنى عاطفة، أدنى شعور يحرك قلبه ينعكس
على وجهه؛ وكان من السهل أن نرى أن الصراحة الكاملة
هي إحدى فضائله. لذلك لم يستطع كبح الدموع التي
سقطت من عينيه الزرقاوين؛ أحنى رأسه ليخفيه، وبقلب
ينبض، جاء ووقف بجانب صديقه دي كونينك.

نزل جميع الفرسان والسيدات النبلاء وسلهوا خيولهم إلى
الغلان. أحضر جي أربعة مرافقين يرتدون بدلة حديدية
رائعة قدمها إلى العميد، ثم جعلهما يرتديان الدرع وخوذة
تعلوها ريشة زرقاء غطت رأسيهما.

شاهد سكان بروج هذا الاحتفال المهيّب في صمت
شديد. فاضت قلوبهم بالفرح، وتأثروا كما لو أن هذا
الشرف العظيم قد منح لهم. عندما أصبح العميدان
مسلحين، ثنوا إحدى ركبتيهما؛ ثم تقدم جي حاملاً سيفه
فوق رأس دي كونينك:

- سيدي دي كونينك، كن دائماً فارساً مخلصاً، لا تفقد
الشرف والكرامة، ولا تستل السيف أبداً إلا للرب، للوطن

والملك.

في هذه اللحظات، ضرب بسيفه برفق مؤخرة عنق عميد النساجين، وفقاً لعادات الفروسية. أقيم التقليد نفسه لجون بريدل، الذي حصل أيضاً على وسام فارس رسمياً في الوقت نفسه. انفصلت ماتيلد عن الموكب وأتت لتقف أمام العميدين، وأخذت على التوالي حلقتين معدنيتين وعلقتهما بيديها حول رقبتين اثنتين من الحرفيين وأصحاب المهن المكرمين. لاحظ عدد كبير من المتفرجين أنها علقت الحلقة أولاً حول رقبة بريدل، وأنها فعلت ذلك بالتأكيد بنية القصد؛ لأنها من أجل ذلك كان عليه أن تتخذ بعض الخطوات نحو هذا الاتجاه. فقالت:

- أيها السيدان إن شعارات النبالة هذه منحكم إياها والدي وهي تتجه أكثر نحو بريدل؛ أعلم أنكم ستحتفظان بها دون أي بقعة أو دنس، ويسعدني أن أكون قادرة على المشاركة في المكافأة التي يكسبكم إياها إخلاصكم للوطن.

نظر بريدل إلى الأميرة الصغيرة ماتيلد بنظرة مليئة بالامتنان العميق؛ يمكننا أن نقرأ في عينيه الوعد بالعاطفة المتأججة والتفاني الصريح. لا شك أنه كان يريد أن يلقي بنفسه عند قدميها؛ لكن الموقف الرسمي للفرسان الذين أحاطوا به ترك انطباعاتاً قوياً لديه؛ كان واقفاً، بلا حراك، فريسة للارتباك الذي لا يوصف، وبالكد يعرف ما الذي

يجري.

قال جي:

- يمكنكما الانضمام مجدداً إلى رجالكما، أيها السيدان،
ونأمل أن نراكما هذا المساء في مجلسنا؛ يجب أن نتحدث
معكما مطولاً. أعيدا قواتكما إلى معسكراتهم.

انحنى دي كونينك باحترام وابتعد. فعل بريدل الشيء
نفسه؛ لكنه ما كاد أن يخطو بضع خطوات حتى شعر
بالأسلحة الثقيلة التي كان يلبسها تقيده من جميع الجهات؛
فعاد على عجل إلى جي وقال:

- أيها الكونت النبيل، لدي خدمة أخرى أطلبها منك.

- تحدث، السيد بريدل، سيتم منحها لك.

استأنف العميد:

- أيها الكونت اللامع، لقد منحتني معروفاً اليوم؛
ولكنك لا تريد أن تمنعني من محاربة أعدائنا، أليس
كذلك؟

تساءل جي:

- ماذا تعني؟

- هذه الأسلحة ثقيل كاهلي وتزعجني في كل الأحوال،
سيدي الكونت. أنا لا أستطيع أن أتحرك في هذا الدرع

وهذه الخوذة تزن أطناناً على رأسي كثيراً لدرجة أنني لا أستطيع تحريك رقبتى.

قال أحد الفرسان:

- إن هذا الدرع سيحميك من الأعداء.

قال بريدل:

- هذا شيء عظيم، لكنني لا أحتاج إليه. عندما أكون حراً في التحرك ولدي فأس في يدي، لا أخشى شيئاً. حقاً سأبدو بهذا الشكل رائعاً في المعركة، لكنني أريد أن أظل قاسياً وأحرق كما أنا! يا سادة، لا أريد كل ذلك؛ أيضاً، سيدي الكونت، اسمح لي أن أبقى ببساطة حرفياً وصاحب مهنة إلى ما بعد المعركة؛ ثم سأتعرف إلى هذه الدرع المزعجة بعد ذلك.

أجاب جي:

- افعل كما يحلو لك، سيد بريدل، لكنك أصبحت وستظل فارساً!

صاح العميد بفرح:

- حسناً، أنا فارس بفأس! شكراً لك، شكراً لك أيها الكونت اللامع.

ثم ترك الموكب وانضم إلى رجاله الذين استقبلوه،

مظهرين فرحتهم بصيحات الترحيب التي لا تنتهي. كان بريدل لا يزال على مسافة من جزاريه عندما أصبحت كل قطع درعه ملقاة فوق الأرض. احتفظ فقط بشعار النبالة الذي علقته ماتيلد حول رقبته. صاح في أحد رجاله:

- ألبرت، صديقي، التقط هذه الأسلحة واحملها إلى خيمتي؛ لا أريد الحديد على جسدي لأن صدروكم العارية ستواجه ضربات العدو. أريد أن أحضر الاحتفال في زي جزار. لقد جعلوني نبيلاً أيها الرفاق، لكن هذا لا يهم، قلبي قلب جزار ولا يزال؛ والأجانب سوف يلاحظون ذلك. هلموا بنا، دعونا نعود إلى المعسكر، أريد أن أشرب الخمر معكم، وكما في السابق؛ سأعطي لكل واحد منكم كأساً منه. يعيش أسد فلاندرز!

هذه الصيحة تكررت من قبل جميع الرفاق. كان هناك بعض الفوضى في الصفوف فقد كانوا يريدون الوصول إلى المعسكر في أسرع وقت ممكن، فكانوا يركضون من كل اتجاه، فقد جعلهم وعد العميد سعداء. صاح بريدل:

- قفوا! قفوا! ليس بهذا الشكل، كل واحد في مكانه وإلا سأغضب!

كانت القوات الأخرى تتحرك بالفعل وتتجه نحو التحصينات، تردد صوت الأبواق ورفعت الرايات؛ مر موكب الكونت عبر بوابة المدينة واختفى خلف الأسوار.

في وقت لاحق، تحدث الفلمنكيون أمام خيامهم على تكريم العميدين. جلس عدد كبير من الجزائريين على الأرض في دائرة واسعة، وفي يد كل منهم كأس؛ لم تكن بعيدة عنهم الأباريق الكبيرة المليئة بالنبيذ؛ وقد غنوا بصوت واحد أغنية أسد فلاندرز. في وسطهم، على برميل فارغ، كان يجلس بريدل، والذي ينشد كل مقطع من الأغنية؛ وقد شرب رشقات مضاعفة من أجل خلاص بلده وسعى -بأكبر قدر من الألفة مع رجاله- إلى جعلهم ينسون تغيير حالته؛ لأنه كان يخشى أنهم قد يعتقدون أنه لم يعد يريد أن يكون صديقهم ورفيقهم كما كان في الماضي.

هرباً من تهنئة النساجين؛ كان دي كوينك قد انسحب داخل خيمته، فلقد تأثر تأثراً شديداً بتعبيرهم عن التعاطف ووجد صعوبة في إخفاء مشاعره؛ لهذا بقي وحيداً طوال اليوم، بينما استسلم الجيش بأكله لأقوى وأصدق الابتهاجات.

وصمة عار يجب أن تميز وجوهكم، أتم يا من تريدون أن تظلوا عبيداً دائماً، والندم يجب أن يمزق قلوبكم الخسيسة إلى الأبد.

(ب. ف. فان كيركهوفن)

كان الجيش الفرنسي قد عسكر على مسافة قصيرة من مدينة ليل، في سهل شاسع؛ غطت الخيام التي لا حصر لها، والضرورية لإيواء هذا العدد الكبير من الرجال، عدة أميال من الأرض. ونظراً لأن متراًساً تريباً كان يحيط بالميدان، فقد يعتقد المرء من بعيد أن أمامه مدينة قوية، إذا لم يكن سهيل الخيول، وصراخ الجنود، ودخان الحرائق، وألف راية مرفرفة دلت على وجود جيش. كان الجزء الذي يسكنه الفرسان النبلاء يتميز براياتهم الغنية ولافتاتهم المطرزة، بينما لا نلح إلا خياماً وأجنحة من المخمل من جميع الألوان، أما في الجزء الآخر فلا تلح إلا أكواخاً متواضعة مغطاة بالقماش أو القش. كان من حق المرء أن يتفاجأ من أن مثل هذا الجيش الضخم لم يكن يعاني من الجوع؛ لأنه في ذلك الوقت كان من النادر أن تحمل القوات العسكرية بعض المؤن معهم؛ ومع ذلك، كان كل شيء بوفرة: كان القمح مكديساً في الوحل وكان أفضل طعام يداس هناك. نفذ الفرنسيون طريقة جيدة للحصول

على كل ما يحتاجون إليه، وفي الوقت نفسه، كانوا يفعلون ما يزيد بغضهم في قلوب الفلمنكيين؛ ففي كل لحظة، تخرج مجموعات عديدة من الجنود من التحصينات للتجول في المناطق المحيطة، والاختطاف والنهب أو تدمير كل شيء يقابلونه في طريقهم؛ لقد فهموا تماماً نوايا زعيمهم روبرت دي أرتوا، ولتحقيقها، ارتكبوا أفظع الجرائم التي يمكن ارتكابها في زمن الحرب. وكرمز للدمار الذي يهددون به فلاندرز، قاموا جميعاً بتعليق المقشاة الصغيرة في رماحهم، في محاولة لإعلان أنهم قادمون لاكتساح وتطهير فلاندرز. لم يدخروا شيئاً، حقاً، في الوفاء بوعدهم؛ في غضون أيام قليلة، لم يبق قائماً، في الجزء الجنوبي من البلاد، لا منزل ولا كنيسة ولا قلعة ولا دير ولا حتى شجرة؛ كل شيء تم هدمه وتدميره. لم يُحترم العمر ولا الجنس؛ تم قتل النساء والأطفال، وتركت أجسادهم غير مدفونة للطيور الجارحة.

كانت هذه هي الطريقة التي افتتح بها الفرنسيون غزورهم. ولم يوقفهم أدنى خوف ولا أدنى ندم عن أعمال التدمير؛ كانوا واثقين من عددهم وقوتهم، وبالتالي من انتصارهم؛ ولكن سلوكهم كان بغيضاً ويستحق الإدانة، فكانت كل فلاندرز تعاني من هذا المصير، فلقد أقسموا على ذلك!

في صباح اليوم ذاته عندما كافأ جي خدمات دي

كونينك ودي بريدل المخلصة، دعا الجنرال الفرنسي قواد
الفرسان الذين رافقوه إلى مأدبة عظيمة.

كانت خيمة الكونت دي أرتوا طويلة للغاية وواسعة
للغاية ومقسمة إلى مقصورات مختلفة؛ كانت هناك أجنحة
لفرسان حاشيته، وغرف للغلمان والمسؤولين عن الخيول،
والخدم وعدد من الأشخاص الآخرين المرتبطين بشخصه.
في وسط الخيمة كانت هناك غرفة كبيرة مخصصة للولائم
 واجتماعات مجلس الحرب، والتي يمكن أن تحتوي على
عدد كبير من الفرسان. كان الحرير المخطط الذي غطى
هذا الجناح مرصعاً بعدد لا يحصى من زهور الزنابق. على
الواجهة، فوق الباب الأمامي، تم تعليق شعار منزل دي
أرتوا؛ وعلى بُعد من ذلك بقليل، وفوق أحد النصب التي
أقيمت خصيصاً لهذه المناسبة، تم رفع راية فرنسا الكبيرة
المزينة بزهور الزنابق. داخل القاعة الرائعة، والمغطاة بأغلى
السجاد والمفروشات، تم ترتيب طاولات طويلة ومقاعد
مغطاة بالخمير، لا يمكن للقصر حقاً أن يقدم المزيد من
الثراء والروعة.

في الطرف العلوي من طاولة الشرف جلس السيد
روبرت، كونت دو أرتوا؛ كان قد بلغ سنّاً كبيرة بالفعل
ولكنه لا يزال في كامل قوة الحياة؛ ندبة شوهت خده
الأيمن تشهد على شجاعته وتزيد من صلابة ملامحه. على
الرغم من تجاعيد خديه العميقة والملطخة بالبقع البنية، إلا

أن عينيه ما زالتا تتألقان بحماسة رجولية تحت حواجبهما الكثيفة. أظهر وجهه كله القسوة وأعلنت نظرتة الشديدة عن رجل حرب لا يعرف شفقة ولا رحمة.

بجانبه، على يمينه، جلس المسن سيجيس، ملك ميليند، كان العمر قد شيب شعره وأحنى جبهته، لكنه أراد أن يكون حاضراً في المعركة. في وسط العديد من قدامى المحاربين، شعر بشجاعة الماضي تولد من جديد في قلبه، ووجد نفسه بتميز نفسه مرة أخرى ببعض الأعمال الرائعة. قد أهدمت ملاح الأمير لكهل أعرق الاحترام؛ كان لطف الشخصية وهدوء الروح قد تركا بصمتهما على ملامحه. من المؤكد أن سيجيس الطيب لم يكن يريد محاربة الفلمنكيين، إذا عرف الحال الحقيقية للأشياء؛ لكنه كان قد ضل مثل كثيرين آخرين، من خلال التأكيد على أن الفلمنكيين كانوا مسيحيين سيئين، وبالتالي، سيكون موقفاً جديراً بالتقدير من الرب إذا تمت إبادتهم حتى النهاية (89). في ذلك الوقت من الإيمان الشديد، كان يكفي اتهام شخص ما بالهرطقة لجعله العدو اللدود للجميع.

على يسار الكونت دارتوا كان بالتازار، ملك مايوركا، محارباً متهوراً وشجاعاً.

تم الإعلان عن هذا بوضوح من خلال وجهه: كان من المستحيل تحمل النظرة المتحمسة لعينيه السوداوين.

أضواء فرحة وحشية ملامحه؛ لأنه كان يأمل في استعادة ملكية مملكته التي أخذها المغاربة منه. بجانبه كان السيد دو شاتيلون، الحاكم السابق لفلاندرز، الرجل الذي كان - كأداة للملكة جين- سبب كل المصائب التي حدثت؛ لقد كان خطأه أن العديد من الفرنسيين قد قُتلوا في بروج وغينت، وكان أيضاً سبب المذبحة البشرية المروعة التي كانت وشيكة. يا لها من تيارات من الدماء صاحت للسماء للانتقام من هذه الطاغية! كان يتذكر كيف طرده سكان بروج من مدينتهم بعدما ثار غضبهم، وقد تعهد بارتكاب أعمال انتقامية مروعة؛ وبدا له أنه من المستحيل أن يتمكن الفلمنكيون من مقاومة سلطة العديد من الملوك والأمراء والكوئونات الموجهة ضدهم؛ لذلك كان قلبه يفرح كثيراً، وكان وجهه مبهجاً متألقاً.

بعده جاء أخوه جي دي سان بول، الذي لم يكن أقل توقاً للانتقام منه؛ ثم تيبوت، كونت لورين، بين اللوردات، جان دي بارلاس ورينود دي تري؛ اللذان جاءا لمساعدة الفرنسيين بستمئة حصان وألفي رام. جلس رودولف دي نيسل، الفارس الشجاع والكريم، بجوار السيد هنري دي لينى، على الجانب الأيسر من الطاولة؛ ظهر السخط والحزن على وجهه، وقد لوحظ أن التهديدات القاسية التي قيلت من حوله في حق الفلمنكيين لم تقابل تعاطفه بأي حال من الأحوال. في الوسط، على الجانب الأيمن، بين لويس

إيدي كليرمون والكونت جان ديومال، كان جودفري دي برابانت، الذي جلب للفرنسيين تعزيزاً بنحسمئة حصان (90).

ليس بعيداً عن هؤلاء، أعجب المرء بالمكانة العظيمة للزيلاندي هيوز داركيل؛ كان رأسه يرتفع فوق رأس كل الفرسان الآخرين، وبنيته القوية والشديدة تدل بما يكفي كيف يجب أن يكون مثل هذا المقاتل مخيفاً في ساحة المعركة. لسنوات عديدة لم يكن لهذا الفارس موطن آخر غير المعسكرات. اشتهر في كل مكان ببسالته ومهاراته الرائعة في استخدام الأسلحة، فقد جمع فرقة من ثمانئة رجل مقدام وذهب معهم إلى جميع البلدان حيث كانت هناك فرصة للقتال فيها. مراراً وتكراراً كان قد جلب الانتصار للأمير الذي يخدمه، وكان مغطى بالجروح، وكذلك رجاله. هذا الكفاح المستمر كان حياته وسعادته. لم يستطع تحمل الراحة. كان قد التحق بالجيش الفرنسي لأنه وجد عدداً كبيراً من الإخوة في السلاح هناك؛ ونظراً لأنه كان مدفوعاً فقط بميله للقتال، لم يكن يهتم بمن أو ما الذي سيقاتل من أجله.

وكان من بين الضيوف أيضاً، بالإضافة إلى ضيوف آخرين، السادة سيمون دي بيدمونت، ولويس دي بوجيو، وفروالد، رب قصر دواي، وآلان دي بريتاني.

احتل فرسان آخرون الطرف السفلي من الطاولة. كما لو أن الفرنسيين لا يريدون الاختلاط بهم، فقد جلسوا معاً في أقل مكان جدير بالاحترام. والفرنسيون لم يكونوا مخطئين؛ ففي الحقيقة هؤلاء الفرسان لا يستحقون الإحتقار؛ بينما كان أتباعهم -الفلمنكيون المخلصون- ينتظرون العدو بثبات، فقد وجدوا أمراءهم، في المعسكر الفرنسي. يا له من عمى قاتل دفع هؤلاء الأبناء الأوغاد لتمزيق صدر أمهاتهم مثل الثعابين! كانوا في طريقهم، تحت راية العدو، لسفك دماء مواطنيهم على أرض بلادهم؛ ربما دم أخ أو صديق؛ ولماذا؟ لجعل البلاد التي ولدتهم أرضاً مستعبدة وإخضاعها لظلم عبودية الأجنبي.

لذلك لم يكن لهؤلاء الأوغاد قلب جعلهم يتنبؤون بالعار والخزي الذي ينتظرهم؛ ولم يشعروا بأي وخز في الضمير ولا أي ندم! تم الاحتفاظ بأسماء هؤلاء الفلمنكيين الحقراء للأجيال القادمة؛ من بين كثيرين آخرين، كان أهمهم: هنري دي بيوتيرسم، جيلدوف دي وينجين، أرنول دي إيكوف وابنه الأكبر، هنري دي ويلري، جيوم دي ريلينجي، أرنولد دي هوفستاد، جيوم دي غريندوندك وجون دي رانيل.

أكل جميع الضيوف في أطباق من الفضة المنقوشة وشربوا أنعم أنواع النبيذ في كؤوس ذهبية. كانت تلك التي كانت أمام روبرت دي أرتوا وأمام الملكين أغلى

من الأطباق الأخرى؛ وقد رسمت نقوشها بمهارة تامة،
وقد كانت مرصعة بالأحجار الكريمة التي لا تقدر بثمن.
أثناء الوجبة، قيل الكثير عن حالة الأشياء، ولم توضع لغة
الضيوف سوى المصير الرهيب المخصص لفلاندرز المدانة.

- نعم، نعم، قال الكونت دارتوا ردًا على سؤال السيد
دي شاتيلون، يجب القضاء على كل شيء. لا يمكن
ترويض هؤلاء الفلمنكيين الملعونين إلا بالحديد والنار؛ وإذا
تركا هذه المجموعة من المتمردين على قيد الحياة فلن تتغلب
عليهم أبدًا؛ لذلك، يجب أن ينتهي كل شيء. سيدي،
دعونا ندير العمل بسلاسة، حتى لا يتلطح سيفنا طويلًا
بهذا الدم النجس.

قال جون دي رانيل الليليارد:

- حقًا، سيد دارتوا، أنت محق؛ لأنه من المستحيل فعل
أي شيء مع هؤلاء المتمردين؛ إنهم أثرياء للغاية وسرعان
ما سيصدقون أنهم أعلى منا بكثير. لقد رفضوا بالفعل
الاعتراف بالحق في أننا - المولودون من دم نبيل - يجب أن
نعاملهم كرعايا لنا، كما لو أن الأموال التي حصلوا عليها عن
طريق التجارة يمكن أن تجدد دمائهم. لقد بنوا منازل في
بروج وغينت تتجاوز قلاعنا في الفخامة والروعة؛ أليست
هذه إهانة دامية لنا؟ لا يمكننا تحمل هذا أكثر من ذلك.

ضحك العملاق هيز داركيل:

- وماذا ستفعلون عندما تقتلون كل أتباعكم؟ أقسم لك يا سيدي، سوف تحرثون أراضيكم بأنفسكم؛ احتمال جميل، في الواقع!

أجاب جان دي رانيل:

- أوه! أعرف طريقة ممتازة لتوفير ذلك: عندما يتم تطهير فلاندرز من هؤلاء الأوباش المتعنتين، سأحضر عبيدًا فرنسيين من نورماندي وأعيد تعمير أراضي بهم.

أجاب السيد دارتوا:

- بهذه الطريقة، قد تصبح فلاندرز جزءًا من فرنسا، إنها فكرة جيدة، وسأقدمها إلى الملك حتى يتمكن من تشجيع التابعين الآخرين على استخدام نفس الطريقة. أعتقد أنه لن يكون من الصعب تحديدهم.

- بالتأكيد لا يا سيدي. ألا تجد فكري ممتازة؟

- نعم، نعم، سنفكر في الأمر؛ ولكن لنبدأ بتمهيد الطريق. تقلصت ملاح رودولف دي نيسل تحت تأثير الاستياء الشديد؛ الكلمات التي سمعها للتو أغضبته بشدة، فطابعه السخي ثار على مثل هذه القسوة. قائلًا بحدة:

- لكن، سيدي دارتوا، أسألك، هل نحن، فرسان، نعم أم لا، وهل الشرف لا يتطلب منا أكثر من أن نتصرف بصرامة أكثر مما لو كنا نتعامل مع المسلمين؟ أنت تبالغ في

القسوة؛ أؤكد لكم أن مثل هذا التصرف سيكون عاراً لنا أمام العالم كله. لنحارب الجيش الفلنكي ونحقق النصر، هذا يكفي! ولكن، لا تحتقروا هذا الشعب كثيراً، لكون ذلك سيتسبب لنا بالمزيد من الإحراج؛ ثم، أليس هؤلاء الناس تحت قيادة ابن ملكهم؟

أجاب الكونت دارتوا بسرعة:

- كونستابل دي نيسل، أعلم أن لديك تعاطفاً مفرطاً مع الفلنكيين؛ هذا التعاطف يشرفك في الحقيقة! لا شك أن ابنتك هي التي تلهمك بهذه المشاعر المحمودة (91).

أجاب رودولف:

- السيد دارتوا، على الرغم من أن ابنتي تعيش في فلاندرز، فلا تمنعوني من أن أكون فرنسياً جيداً مثل أي شخص آخر؛ لقد أثبت سيفي ذلك بشكل كافٍ في مناسبات عديدة، ولدي سبب للاعتقاد بأن هؤلاء الفرسان الشرفاء لن يصدقوا على كلامك الساخر. ولكن ما يثقل كاهل قلبي هو شرف الفروسية، وأنا أؤكد لكم أن هذا الشرف في خطر كبير.

هتف الكونت دارتوا:

- ماذا يعني هذا؟ لا تقل إنك تريد التبرير لهؤلاء المتمردين؟ ألم يستحقوا الموت بذبح سبعة آلاف فرنسي

دون أن يظهروا لهم العفو أو الرحمة؟

- لا شك أنهم يستحقون الموت، لذا سأنتقم قدر المستطاع من الإهانة التي لحقت بتاج ملكي؛ لكنني سأفعل ذلك فقط مع أولئك الذين أجد السلاح في أيديهم. إنني أناشد جميع الفرسان الحاضرين هنا، وأسألمهم إذا كان من المناسب أن يتصرف سيفنا كجلاد ويقتل الأشخاص العزل وهم يحرثون حقولهم؟

صاح هيوز داركيل بغضب:

- إنه على حق! نحن لا نحارب المغاربة، أيها السادة، وهذا عمل مخزٍ لنا هذا الذي تقترحه علينا. ضعوا في اعتباركم أننا نتعامل مع مسيحيين. لا يزال دم ثيوس (92) يتدفق في عروقي، ولن أسمح لإخوتي أن يعاملوا مثل الكلاب؛ سيقدمون لنا معركة مفتوحة وعلينا أن نقاتلهم حسب قوانين الحرب.

أجاب الكونت دارتوا:

- هل من الممكن أن تقف إلى جانب هؤلاء الفلاحين البائسين؟ لقد حاول ملكنا بالفعل، بدافع من اللطف المفرط، كل السبل للتوفيق بيننا، لكن لم ينجح شيء؛ والآن علينا أن نسمح بذبح رجالنا وإهانة ملكنا والاقتراء عليه ونبقي على أرواح هؤلاء الرعايا المتمردين! لا، لن

يكون الأمر كذلك: أنا أعرف الأوامر التي أعطيت لي،
وسأنفذها وساجعلكم تتفدونها.

قال رودولف دي نيسل بمزيد من الحدة:

- سيد دارتوا، لا أعرف ما هي الأوامر التي تلقيتها،
لكنني أصرح لك أنني لن أطيعها إذا كانت معارضة
لشرف الفروسية؛ الملك نفسه ليس له الحق في إهانة
سلاحي. اسمعوا يا سادة، إذا لم أكن على حق. لقد
غادرت المعسكر هذا الصباح مبكراً جداً، ووجدت آثاراً
لأبشع دمار في كل مكان. أضرمت النيران في الكنائس،
وجردت المذابح وودنت، ووضعت أكوام من جثث
النساء والأطفال في الحقول، ملقاة كفرائس للغربان. هل
هذه طريقة شريفة لشن الحرب؟ أنا أسألكم.

بعدها نهض من على المائدة ورفع باب الخيمة وواصل
مشيراً إلى الريف:

- انظروا يا سادة! انظروا! في كل الاتجاهات ستلتقي
أعينكم بلهيب الدمار؛ يحجب الدخان السماء. هناك قرية
بأكملها تحترق. هل هذه هي الحرب؟ إنها أسوأ مما لو عاد
البرابرة النورمانديون ليحولوا العالم إلى وكر للقتلة!

روبرت دارتوا، محمراً من الغضب، تشنج على مقعده وقال
بنفاد صبر:

- لقد استغرق ذلك طويلاً. لن أسمح للناس بالتحدث بهذه الطريقة في حضوري؛ أنا أعرف ما عليّ أن أفعل. يجب تطهير فلاندرز، لا يمكنني فعل أي شيء حيال ذلك. موضوع المحادثة هذا يثير استيائي بشكل كبير، وأرجو من الكونستابل ألا يعبر عن نفسه كما فعل للتو. ليحافظ على سيفه طاهراً من كل الدنس، وسنعرف كيف نفعل الشيء نفسه؛ ولا يمكن لأعمال وإيماءات جنودنا أن تلتطخ شرفنا. لئن هذا النقاش المزيج، وليفكر كل منا بالواجب الذي لا بد أن يقوم به.

وقد رفع كأسه الذهبية وصاح:

- على شرف فرنسا وإبادة المتمردين!

كرر راؤول دي نيسل: «على شرف فرنسا» وشدد عمداً على هذه الكلمات. لقد فهم الجميع أنه لا يريد أن يشرب على نخب إبادة الفلمنكيين. وضع هيوز داركيل يده على الكأس أمامه، لكنه لم يرفعها عن الطاولة ولم ينطق بكلمة. أما بقية الآخرين فقد ردّدوا كلمات الجنرال وشربوا على نخب إبادة الفلمنكيين.

لبضع لحظات، ارتسم على وجه هيوز داركيل تعبير غريب؛ كما نستطيع أن نقرأ على ملامحه الاحتقار والغضب؛ كان يحدق بثبات في الكونت دارتوا، كما لو كان على وشك أن يتحداه.

ثم صاح فجأة:

- سأجعل من الاستمرار في الشرب على شرف فرنسا!

احمر روبرت دارتوا من الغضب؛ لدرجة أنه ضرب الطاولة بكأسه بقوة بحيث وثبت أكواب الضيوف الآخرين. وهتف:

- سيد دراكيل، سوف تشرب على شرف فرنسا! أنا أريد ذلك!

أجاب هيوز بهدوء مصطنع:

- سيدي، أنا لا أشرب في نخب خراب بلد مسيحي. لقد حاربت لفترة طويلة في جميع البلدان. لكنني لم ألتق قط بفرسان يوافقون على تحميل ضمائرهم بمثل هذه الجرائم الفظيعة.

- سوف تجعلني على صواب، وأنا أريد ذلك، أقول لك ذلك!

أجاب هيوز:

- وأنا لا أريد ذلك! اسمع، سيد دارتوا، لقد أخبرتني بالفعل أن رجالي يطالبون براتب مرتفع للغاية ويكلفونك الكثير؛ حسناً، لن تضطر إلى الدفع لهم بعد الآن، ولا أريد أن أخدم في جيشك بعد الآن، لقد انتهى نزاعنا.

تأثر الفرسان كافة والكونت دارتوا نفسه بشدة بهذا الإعلان؛ لأنهم كانوا يعتبرون رحيل هيوز خسارة حقيقية. دفع الزيلاندي مقعده بقوة إلى الخلف، ورمى واحداً من قفازي على الطاولة وهتف:

- أيها السادة أقول لكم جميعاً إنكم تكذبون! أنا أهينكم في وجهكم. ها هو واحد من قفازي: ليأخذه من يريد! أنا اتحداه في مباراة فردية.

اندفع معظم الفرسان، بمن فيهم راؤول دي نيسل، إلى الاستيلاء على القفاز؛ لكن روبرت دارتوا كان هو الأسرع لدرجة أنه أدركه قبل أي شخص آخر. قائلاً:

- أنا أقبل تحديك، دعنا نذهب!

وقف الملك الكهل سيجيس من ميليندا ووضع يده على الطاولة، مشيراً إلى رغبته في التحدث. الاحترام العميق الذي شعر به كلا البطلين تجاهه كبح جماحهما؛ وصمتا لسماعه. ثم قال:

- أيها السيدان، خففا من حدة غضبكما قليلاً، وأرجو الاستماع إلى نصيحتي. أنت، الكونت روبرت، لم تعد مسيطراً على حياتك في هذه اللحظة. إذا استسلمت، سيجد جيش صاحب السيادة نفسه دون قائد وسيكون عرضة لرؤية نفسه غير منظم ويبدو منقسماً، لا يمكنك المخاطرة. أما بالنسبة لك، سيد داركيل، أسألك إذا كنت تشك في

شجاعة السيد دارتوا؟

أجاب داركيل:

- لا على الإطلاق، إنني أقدر السيد روبرت كفارس

شجاع وجريء.

- أسمعت، سيدي - استأنف ملك ميليندا - شرفك ليس

على المحك؛ يبقى لك فقط أن تنتقم من إهانة فرنسا. أنصح

كلاكما بتأجيل المباراة إلى اليوم التالي للمعركة. أسألکم

جميعاً أيها السادة. أليست هذه النصيحة تملها الحكمة؟

أجاب الفرسان:

- نعم، نعم، ما لم يمنح سيدنا الكونت أحدنا تفضيل أخذ

التحدي بدلاً منه.

هتف الكونت دارتوا:

- الصمت! لا أريد أن أسمع عن ذلك. السيد داركيل،

هل توافق على التأجيل المقترح؟

- لا يهمني! لقد رميت قفازي، ورفعها سيدي الكونت؛

فليحدد هو الوقت الذي يناسبه ليعيدها لي.

قال روبرت دارتوا:

- وهو كذلك! إذا لم تستمر المعركة حتى غروب الشمس

سأذهب لأقابلك في نفس المساء.

أجاب هيوز:

- لا تزج نفسك، سألتقي بك في وقت أقرب أكثر مما
تعتقد.

تبادل الخصمان بعض التهديدات، لكن ذلك لم يذهب
أبعد من ذلك.

قال الملك سيجيس:

- أيها السيدان، دعونا لا نتكلم أكثر من ذلك. دعونا نملأ
الكؤوس مرة أخرى وننسى مشاعرنا في الوقت الحالي.
اجلس، سيد داركيل.

صاح هيوز:

- لن أجلس؛ سأغادر الجيش على الفور. وداعاً أيها
السادة. سنلتقي مرة أخرى في ساحة المعركة. ليرعاهم
الرب!

بعدها ترك الخيمة وجمع رجاله الثلاثمائة دون تأخير. بعد
ذلك بوقت قصير، سُمع صوت أبواق وصرير الأسلحة مع
مجموعة من الجنود وهم يسرون. غادر هيوز داركيل المعسكر
الفرنسي، وفي المساء نفسه، وصل إلى الفلمنكيين الذين قدم
لهم خدماته. نحن نتفهم مدى الفرح الذي تم استقباله
به؛ لأنه كان ورجاله يتمتعون بسمعة أنهم لا يقهرون وهم
يستحقونها عن جدارة (93).

جلس الفرسان الفرنسيون على المائدة مرة أخرى واستمروا في الشرب بهدوء. وبينما كانوا يناقشون جرأة هيوز، دخل منادٍ مسلح إلى الخيمة، وانحنى أمامهم باحترام؛ كانت ملابسه وأسلحته مغطاة بالغبار والعرق يتساقط على جبهته. أظهر كل شيء أنه كان في عجلة من أمره وأنه كان يركض بطريقة تجعله يلهث، إذا جاز التعبير. راقبه الفرسان بفضول شديد وهو يسحب رقاً من تحت درعه. وقد سلم هذا الرق إلى الكونت دارتوا وقال:

- سيدي، هذه الرسالة موجهة إليك من كورتراي من قبل سيد لنس، لإبلاغك بالأزمة الكبيرة التي نعيش فيها. صاح الكونت دارتوا بنفاد صبر:

- كيف، ألا يعرف السيد لنس كيف يدافع عن قلعة كورتراي ضد حفنة من الفلاحين المترجلين؟ أجاب الرسول:

- اسمح لي أن أخبرك أنك مخطئ، يا سيدي، الفلمنكيون لديهم جيش لا ينبغي احتقاره؛ كأنهم اجتمعوا عن طريق السحر فهم أكثر من ثلاثين ألف محارب ولديهم خيول وآلات حربية بكميات كبيرة؛ وقد قاموا ببناء آلات هائلة لمحاصرة القلعة. نفذت مؤونتنا وسهامنا، وبدأنا بالفعل نأكل أسوأ خيولنا. إذا تأخرنا سيدي يوماً آخر في القدوم لتحرير

السيد لنس، فإن جميع الفرنسيين الموجودين في كورتراي سيفقدون حياتهم هناك؛ لأنه لا يوجد مخرج للفرار. يتوسل إليك كل من السيد لنس، والسيد دي مورتماي والسيد دي رايكورت بكل تواضع لإنقاذهما من هذا الخطر العظيم (94).

هتف روبرت دارتوا:

- أيها السادة، هذه فرصة رائعة، لم يكن بإمكاننا أن نتمنى الأفضل، لقد تجمع كل الفلمنكيين بالقرب من أسوار كورتراي. سوف نسقط عليهم ولن يفلت الكثير، أقوى خيولنا ستنتقم من هذا الجنس اللعين؛ وأنت، أيها المناادي، ابق في المعسكر. غداً ستكون معنا في كورتراي. والآن، الكأس الأخيرة أيها السادة! ثم بعد ذلك، تذهبون وتجعلون رجالكم مستعدين للمسيرة، سرحل قريباً.

بعد لحظات، غادر جميع الضيوف الخيمة لتنفيذ أوامر قائدهم. دوت الأبواق من جميع نقاط المعسكر لاستدعاء الجنود للاتحاق بالجيش، صهلت الخيول، اصطدمت الأسلحة بصوت عالٍ ومن جميع الجهات وارتفعت الأصدااء المشؤومة. بعد بضع ساعات، تم طي جميع الخيام وتحميلها على العربات، كان كل شيء جاهزاً. كان لا يزال هناك عدد كبير من الجنود مشغولين بالنهب هنا وهناك، لكن عددهم لا يمكن ملاحظته في جيش كبير للغاية.

وضع كل قائد نفسه على رأس جنوده، واتحد الفرسان في فرقتين وترك الجيش التحصينات بالترتيب التالي:

تتكون الكتيبة الأولى التي عبرت حدود المعسكر من ثلاثة آلاف رجل من النخبة يمتلكون جياداً صغيرة؛ كانوا يمسكون بأيديهم بالفؤوس والبلطات، وسيوفاً طويلة تتدلى من سروجهم. لم يكن سلاحهم ثقيلاً مثل سلاح الفرسان الآخرين؛ لهذا شكلوا الطليعة وكانهم مخصصون للمناوشات الأولى. وبعدهم مباشرة جاء أربعة آلاف من الرماة المترجلين؛ كانوا يتقدمون بجديّة، في صفوف عسكرية، ويحجبون وجوههم من أشعة الشمس بدروعهم العظيمة؛ كانت جعباتهم ممتلئة بالسهم وسيف دون غمد يتدلى من أحزمتهم، جاؤوا من جنوب فرنسا؛ كان أكثر من نصفهم من الإسبان أو من اللومبارديين. جون دو بارلاس، رجل حرب شجاع، كان ينتقل من واحدة إلى أخرى من هذه الكائب التي كان هو قائدها.

كان الفيلق الثاني تحت قيادة رينود دي تري وبلغ عدده ثلاثة آلاف ومئتي رجل من سلاح الفرسان الثقيل. كانوا يركبون خيولاً حربية كبيرة وقوية ويحمل كل واحد منهم على كتفه الأيمن سيفاً عريضاً يدويّاً بأضواء مثل أضواء البرق، بدروع من الحديد الخام تحمي جذعه، وشفائح من قطعة واحدة، مثبتة بأشرطة، تحمي ذراعيه وقدميه. جاء معظمهم من أورليانز.

كان الكونستابل دو نيسل يقود الفيلق الثالث. تتكون الكتيبة الأولى من سبعمئة فارس يرتدون مجموعة من أروع الأسلحة ويحملون رايات جميلة في نهايتها رماح طويلة، تسقط ريشات متموجة من قمم خوداتهم حتى نهاية دروعهم. كانت الخيول التي يركبونها مغطاة بالحديد من الرأس إلى أنحص القدمين، وتأرجح خصلات أكياس السرج الأنيقة على جوانبها. رفرت مثلًا راية مطرزة ومرصعة فوق هذه القوات؛ لقد كانوا حقًا أفضل تجمع للفرسان يمكن رؤيته في ذلك الوقت. وخلفهم جاء ألفا جندي على ظهور الخيل يحملون مطارق ثقيلة على أكتافهم. علاوة على ذلك، كان سيف حربي يتدلى من سرجهم. لقد تم تجنيدهم في الجيش الدائم للملك فيليب لو بيل.

على رأس الفيلق الرابع سار لويس دي كليرمون، محارب مليء بالخبرة. كان هذا الفيلق يتألف من ثلاثة آلاف وستمئة فارس مسلحين بالرماح قادمين من مملكة نافار. يمكن للمرء أن يلاحظ بسهولة، من خلال انتظام معداتهم وسلوكهم، أنهم كانوا من رجال النخبة ومدربين تدريباً كاملاً. في الصف الأمامي، كان حامل اللواء يحمل أعلى راية لنافار.

احتفظ الكونت روبرت دارتوا بقيادة القوات التي شكلت مركز الجيش. كان معه جميع الفرسان الذين لم

يحضروا أفراداً أو وضعوهم في فرق أخرى؛ ركب ملوك
مايوركا وملك ميليند إلى جانبه. من بين الآخرين، يمكن
للمرء أن يتعرف من خلال درعه الرائع، تيبوت، دوق
لورين؛ كانت هناك أيضاً اللافتات الشهيرة لجون، كونت
تانكارفيل، أنجيليان دي فيموكس، رينو دي لونجيفال،
مولى ريمس، أرنول دي ويسيمييل، مارشال برابانت،
روبرت دي موتفورت والعديد من الآخرين الذين شكلوا
أنفسهم في فيلق خاص. تجاوز هذا الفيلق الفيلق الثالث
في العظمة؛ خوذات الفرسان كانت من الفضة أو الذهب،
وكانت دروعهم مزينة بمسامير ذهبية. حولت الشمس،
التي تلقي بأشعتها القوية على الفولاذ المتلألئ لدروعهم،
القوات النبيلة إلى مصدر مبهر للضوء. كانت السيوف
الحرية، المعلقة من السروج، تطيع حركات الخيول
وتتصادم بضجيج مدو لصوت الحديد، والذي نتج عنه نوع
من الموسيقى الحرية التي رافقت باستمرار مسيرة الفرسان.
بعد هؤلاء تقدم خمسة آلاف فارس مسلحين بالفؤوس
والصولجانات. ينتمي إلى هذه الفرقة ستة عشر ألفاً من
المشاة الأخرى، مقسمة إلى ثلاثة فيالق. تم تشكيل الأول
من ألف من رماة الأقواس: لقد حملوا فقط من الأسلحة
الدفاعية صفيحة حديدية فقط على الصدر وخوذة مسطحة
ذات شكل رباعي الزوايا؛ كانت جبعات صغيرة ممتلئة
بأسهم ذات رؤوس حديدية مربوطة بأحزمتهم وسيوف

طويلة معلقة على جانبهم. يتكون الفيلق الثاني من ستة آلاف رجل مسلحين بالهراوات مزودة بمسامير حديدية هائلة في أطرافها السفلية. ويتكون من فرسان مسلحين بفؤوس ذات مقبض طويل. كل هؤلاء الرجال جاؤوا من جاسكوني، لانغدوك، وأوفيرني.

قاد السير جاك دي شاتيلون، حاكم فلاندرز، الفيلق السادس. بلغ عدد الرتب المكونة لهذه القوات ثلاثة آلاف ومئتي رجل على ظهور الخيل. لقد رسموا المقصات المشتعلة على أعمدة رماحهم، في إشارة إلى عزمهم على تطهير فلاندرز؛ كانت خيولهم من أقوى خيول الجيش، ومع ذلك كانوا يتقدمون بصعوبة تحت ثقل الحديد الذي كانوا محملين به.

ثم جاء الفيلقان السابع والثامن، الأول بقيادة جون، كونت أومالي، والثاني بقيادة السيد فيري دي لورين. يتألف كل من هذين الفيقلين من ألفين وسبعمئة من سلاح الفرسان، وجميعهم من لورين ونورماندي وبيكاردي.

شكل اللورد جودفري من برابانت، مع أتباعه الذين بلغ عددهم سبعة آلاف، الفيلق التاسع.

عهد بالكتيبة العاشرة والأخيرة من الجيش إلى سيد دي سان بول؛ لقد عملت كحارس خلفي للجيش وكانت مهمتها

رعاية أمتعة الجيش. وقد سار على رأس هذه الكتيبة ثلاثة آلاف واربعمئة فارس من جميع الأسلحة؛ ثم تبع ذلك عدد كبير من المشاة المسلحين بالأقواس أو بالسيوف الحربية؛ ولقد تجاوز عددهم سبعة آلاف. ابتعد فريق منهم عن الجيش في كل الاتجاهات وركض بالمشاعل التي أشعلت النار في كل ما يمكن أن تدمره النيران. أخيراً، تم إحضار عدد لا يحصى من عربات الأمتعة والخيام وآلات الحرب لتغلق المسيرة.

انقسم الجيش الفرنسي إلى عشرة فيالق وأكثر من ستين ألف جندي، عبروا ببطء الريف الفلمنكي، متبعين الطريق المؤدية إلى كورتراي. لم تستطع العين قياس هذا اللقاء الهائل للمقاتلين! كان الأوائل بالفعل قد اختفوا في الأفق، في حين أن الآخرين لم يخرجوا بعد من التحصينات. استمر العرض عدة ساعات.

كانت آلاف الأعلام والرايات ترفرف في مهب الريح فوق الجيش السائر، وأشرق الشمس بشكل رائع على دروع المحاربين. صهلت الخيول بصوت عال عندما اصطدمت ببعضها، وقد نتج عن كل هذه الأصوات همهمة باهتة، مثل قعقة البحر الغاضب، وكانت هذه الهمهمة غامضة وغير حاسمة لدرجة أنها لم تزج صمت القرى التي يتم تركها. وحيثما مر هذا الجيش المدمر، كان يخلف وراءه ألسنة اللهب المخيفة، التي ارتفعت نحو السماء،

وضاعت في تصاعد الدخان. لم ينبجُ أي منزل من الدمار، ولم يبق أي إنسان أو أي حيوان، والحوليات تشهد على ذلك. في اليوم التالي، عندما أنجزت السنة اللهب عملها الرهيب، كان لا يمكن رؤية إنسان ولا أي عمل بشري من بعيد؛ وكانت فلاندرز، من ليل إلى دواي وكورتراي، مدمرة للغاية لدرجة أن الفانداال الجدد كان لهم الحق في التباهي بأنهم قاموا بتنظيفها فعلياً باستخدام المقشاة (95).

كان الليل قد حل تماماً عندما وصل جيش السيد دارتوا بالقرب من كورتراي. السيد دو شاتيلون، بعد أن عاش في هذه المدينة لفترة طويلة، عرف البلد تماماً؛ هذا هو سبب استدعائه من قبل الكونت دارتوا وطلب منه اختيار مكان المعسكر الذي بدا له الأفضل.

بعد مداولات قصيرة، تحركت فرق القوات المختلفة قليلاً إلى اليمين وذهبت لنصب خيامها في بوتيلبيرج وفي المناطق الريفية المحيطة (96). أقام السيد دارتوا والمملكان وبعض اللوردات الرئيسيين في قصر هوغموشر، بالقرب من بوتيلبيرج. تم وضع العديد من الحراس وذهب الآخرون للراحة دون ارتياب أو قلق؛ لقد اعتمدوا كثيراً على تفوقهم العددي حتى إنهم لم يفكروا ولو لحظة أنه يمكن أن تتم مهاجمتهم.

وهكذا وجد الجيش الفرنسي نفسه على بعد ربع فرسخ من

أصحاب المهن والحرفيين؛ كان جنود الحراسة الذين كانوا يذهبون ويأتون يمكن أن يروا بعضهم بعضاً.

عند ورود أنباء وصول العدو، ضاعف الفلمنكيون أعداد الحرس، وصدرت الأوامر بالراحة فقط إلى جانب السلاح.

هناك يرقد جيش الفرسان الفخور، غارق في الدماء،
 جماجمهم محطمة؛ في السهل الدامي الممتد تحت أسوار
 كورتراي، حُفظ هذا المصير لهم. كانوا قد قتلوا بأقصى
 سرعة على الأراضي الفلمنكية، وها هم يرقدون دون دفن
 إلى جانب ملاميزهم التي تسبب في صداها ماء السماء.

(ث. فان ريسويك)

كان جميع الفرسان الفلمنكيين، الذين استقروا في
 كورتراي، يخلدون إلى الراحة عندما جاء ضجيج وصول
 الفرنسيين، الأخبار المروعة التي انتشرت في لحظات قليلة
 في جميع أنحاء المدينة بأكملها، لإيقاظهم. قام جي على الفور
 بدق الأبواق وضرب الطبول، وبعد ساعة تم تجميع جميع
 الرجال القادرين على حمل السلاح الموجودين في المدينة
 عند الأسوار. كما اندفع الفرسان، مسلحين من الرأس إلى
 القدمين، معتقدين أن الفرنسيين سيهاجمون على الفور.

وحيث كان يُخشى أن يغادر السيد لنس القلعة ويسقط
 على المدينة أثناء القتال، فقد تم إحضار سكان مدينة
 إيبرس من المعسكر، وتم تكليفهم بمهمة الإشراف على
 الحامية الفرنسية ومنع الخروج. تم وضع عدد كبير من
 جنود الحراسة عند البوابة الحجرية لإبقاء النساء والأطفال
 داخل الأسوار؛ كان القلق شديداً بالنسبة لسكان هذا

المحيط لدرجة أنهم أرادوا، في تلك الليلة بالذات، الفرار عبر الحقول. الموت، إذا جاز التعبير الحتمي والذي لا مفر منه، كان يهددهم؛ لأنه من ناحية، كان بإمكان سيد لنس، في أي لحظة، ترك القلعة على رأس جنوده القاسين، من ناحية أخرى، كان الاحتمال أكثر فظاعة؛ لأنهم لم يكن لديهم ثقة كافية في العدد القليل لإخوانهم المسلحين، ليأملوا في تحقيق النصر. في الحقيقة، إذا لم تمنعهم الجرأة البطولية للفلمنكيين من قياس مدى اقتراب الخطر، لكانوا قد فكروا في توجيه صلاتهم الأخيرة إلى الله، فبالإضافة إلى حقيقة أن مشاة العدو كانوا متفوقين في العدد عليهم، كان عليهم أن يحاربوا اثنين وثلاثين ألف فارس.

لقد حسب قادة الجيش الفلمنكي برابطة الجأش الفرص التي توفرها لهم المعركة الوشيكة، ومهما كانت شجاعتهم وحماسهم في الانخراط في القتال، فلم يتمكنوا من إخفاء الخطر عن أنفسهم: فالقرار الأكثر بطولة لا يمنع الرجل من رؤية الجانب الحرج للموقف؛ والشجاعة لا تبديد الخوف الفطري الذي لدينا من الموت، لكنها تمنح الإنسان القوة الكافية للقهر والتغلب على المشاعر التي تسلب طاقته؛ إلى هذا الحد فقط تستطيع الروح أن تحث الجسد على مواجهة تدميره.

لم يخف اللوردات الفلمنكيون على أنفسهم؛ لكن الوطن والحرية كانا مصائرهما على وشك المخاطرة بهما في صراع

غير متكافئ، كان هذا هو ما ألهمهم بمشاعر القلق الشديد. وعلى الرغم من قلة الأمل التي كانت لديهم، فقد عقدوا العزم على قبول النضال والموت كأبطال في ساحة المعركة بدلاً من تقديم استسلام جبان ومهين.

تم إرسال الكونتيسة ماتيلد، وأخت أدولف، وعدد كبير من السيدات البارزات الأخريات إلى دير جرونينجن، حتى يتمكن من العثور على ملاذ آمن هناك، إذا استولى العدو على كورتراي. بعد اتخاذ هذه الإجراءات وإجراءات أخرى، عاد الفرسان إلى المعسكر.

كان الكونت دارتوا بالفعل محارباً شجاعاً وخبيراً، لكنه كان متهوراً جداً؛ لقد اعتبر أن الحذر لا طائل من ورائه، وكان يتصور أنه سيمر فوق جسد الجيش الفلمنكي عند الصدمة الأولى. كان هذا الرأي المتعطرس، الذي يمليه الفخر الوطني، يعم قلوب رجاله، لدرجة أنه بينما كان جيش جي يستعد في الظل للمعركة، استراح أفراد الجيش الفرنسي بهدوء كما لو كان في بلدة صديقة واثقين في سلاح الفرسان الذي لا حصر له، كان الفرنسيون مقتنعين بأنه لا شيء يمكن أن يقاومهم. إذا لم يكونوا متحمسين ومتسرعين للغاية، لكانوا قد بدؤوا باستكشاف المجال الذي سيقاتلون فيه وكانوا سيحسبون مزاياه وعيوبه. كان من الممكن أن يدركوا بعد ذلك أن التضاريس التي تفصل بين الجيوش جعلت سلاح الفرسان عاجزاً وعدم الجدوى، ولكن ما

فائدة هذا الاحتياط غير الضروري بالنسبة لهم؟ هل كان الجيش الفلمنكي يستحق عناء اللجوء إلى الحرص والحذر؟ روبرت دارتوا لم يعتقد ذلك.

اتخذ الجيش الفلمنكي مواقعه في سهل جرونينجن، وخلفه، على الجانب الشمالي، مر على نهر ليس، وهو نهر واسع يجعل أي هجوم من هذا الجانب مستحيلاً؛ يتدفق في المقدمة جدول جرونينجن الذي، بعرضه وشفافه المنخفضة والمستنقعية، شكل عقبة أمام سلاح الفرسان الفرنسي؛ استقر الجناح الأيمن على جزء من أسوار كورتراي المجاورة لكنيسة سانت مارتن، وكان الجناح الأيسر محاطاً بتعرج في جدول جرونينجن (97)، بحيث وجد الفلمنكيون أنفسهم على جزيرة وكان من الصعب مهاجمتهم في هذا الموقف. كانت المسافة التي تفصلهم عن الجيش الفرنسي تشغلها مروج منخفضة تبللت تربتها وأصبحت لزجة بسبب ماء الجدول، كما يقول موشر (98)، الذي رسم هذه التعرجات في لوحاته.

لذلك كان على سلاح الفرسان الفرنسي عبور نهرين صغيرين على الأقل قبل أن يتمكنوا من العمل بفعالية، ولم يكن من السهل التغلب على هذه العقبات؛ لأن أقدام الخيول لم تستطع العثور على نقطة دعم تستند إليها في حواف المستنقعات من الجداول وكان عليها أن تغوص فيها

حتى الركبتين.

اتخذ الجنرال الفرنسي تدابير كما لو كان عليه القتال على أرض صلبة ووضع خطته على عكس كل قوانين فن الحرب، صحيح أن الإفراط في الثقة يجعل الرجل الأكثر ذكاءً غير حكيم.

منذ الفجر، قبل أن تظهر الشمس قرصها في الأفق، تم وضع الفلمنكيين في مجموعات قتالية على حافة جدول جرونينجن. تولى السيد جي قيادة الجناح الأيسر وكان تحت أوامره أصحاب المهن والحرف الأقل أهمية في بروج؛ وقد احتل يوستاس سبوركين، مع سكان فيرن، مركز هذا الفيالق؛ وكان الفيالق الثاني برئاسة السيد جون بولوت وعدده خمسة آلاف من سكان غينت؛ وكان الفيالق الثالث، بقيادة جيوم دي جوليرز، وكان مكوناً من النساجين والأحرار من بروج؛ كان الجناح الأيمن، المتكئ على أسوار كورتراي، مكوناً من الجزارين، برئاسة جون بريدل، ورجال من زيلاند؛ كان السيد جون دي رينيسي هو من يقودهم. لم يكن للفرسان الفلمنكيين الآخرين موقف محدد؛ ذهبوا حيث يحلو لهم؛ وحيث قد يكون تدخلهم ضرورياً؛ تم وضع الألف ومئة من سلاح الفرسان من نامور خلف خط المعركة؛ لأنهم لم يرغبوا في الاستعانة بهم للوهلة الأولى، حتى لا يلقوا الفوضى في المشاة.

بدأ الجيش الفرنسي بدوره الاستعداد للمعركة. سمعت آلاف الأبواق بأصواتها المدوية في الوقت نفسه، صهلت الخيول، تصادمت الأسلحة لدرجة أن الفلمنكيين لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الشعور برجفة جليدية عند اقتراب هذا الخطر منهم. يا له من عدد لا يحصى من الأعداء التي كانت على وشك الاندفاع نحوهم! بالنسبة لهؤلاء الرجال الشجعان والحازمين، لم يكن هناك شيء مهم؛ كانوا على وشك الموت، لقد عرفوا ذلك؛ ولكن ماذا سيكون مصير زوجاتهم وأولادهم المتروكين بلا دعم؟ أوه! في هذه اللحظة الجليدة، كان الجميع يفكر في أكثر ما أحبه على وجه الأرض. عانى الأب من أعماق قلبه لرؤية أبنائه معرضين ليصبحوا عبيداً للغزاة الأجانب؛ تنهد الابن وهو يفكر في والده كبير السن الذي سيضطر إلى تحمل نير الاستبداد وحده. سيطر عليهم شغفان: الجرأة التي دفعتهم للقتال والقلق الذي تبثه فيهم عواقب الصراع الذي كان على وشك أن يبدأ. ومع ذلك، عندما يندمج شغفان في وجود خطر وشيك، يتحولان إلى نوع من الغضب اليأس. هذا ما حدث مع الفلمنكيين؛ كانت أعينهم ثابتة بلا حراك، وأسنانهم متشنجة، وعطش شديد يجفف أفواههم، وكان تنفس رئاتهم المضغوطة قصيراً ومؤلماً. خيم صمت مخيف على الجيش؛ لم يتكلم أحد عن مشاعره مع الآخرين؛ لأن الجميع كانوا مستغرقين في الهواجس المظلمة

والقائمة. منذ وقت طويل، كانوا مصطفين في صف طويل استعداداً للمعركة، وعندما ظهرت الشمس في الأفق ومكنتهم من رؤية الجيش الفرنسي. كان عدد الفرسان كثيراً للغاية لدرجة أن حقول القمح كانت بها سنابل أقل من الحراب التي كانت تومض فوق صفوف العدو. قامت الخيول الموجودة في الصفوف الأمامية بضرب أقدامها بفارغ الصبر وغطت أعينها الحديدية برفاتق بيضاء من الرغوة. كانت الأبواق ترسل نغماتها مثل نداء بهيج يتردد صداه فوق لاندربوش (99) وكانت الرياح تعزف بلا نظام في الطيات المتموجة للرايات والأعلام. كانت أصوات القيادات تأتي من وقت لآخر للسيطرة على هذه الضوضاء الحربية، بينما صيحات المعركة: «عيد الميلاد! عيد الميلاد! فرنسا! فرنسا!» ترتفع على فترات وتسيطر على كل البقية. كان الفرسان الفرنسيون غير صبورين ومليئين بالحماسة؛ قاموا بتحفيز خيولهم بطرف المهماز، ثم قاموا بضربها وتحدثوا معها حتى يتعرفوا بشكل أفضل على صوت سيدهم في صخب المعركة. من سيحظى بشرف توجيه الضربة الأولى؟ كان هذا هو الفكر الذي كان يشغلهم دائماً. كان هذا الشرف ذا قيمة عالية في زمن الفرسان؛ عندما يفوزون به في معركة مهمة، كان يعتبر مجداً لهم فيها طوال حياتهم واعتبروه دليلاً على الشجاعة التي لا جدال فيها؛ هذا هو السبب في أن الجميع أبقوا خيولهم جاهزة

ورماحهم مرفوعة للاندفاع إلى الأمام عند أول أمر، أو عند أدنى إشارة من الجنرال.

في المروج الممتدة أمام الجيش، تقدم المشاة الفرنسيون، واحتشدوا، وانتشروا ببطء، راسمين تموجات على الأرض، مثل الثعبان الهائل، كان كل ذلك في صمت شديد.

عندما أدرك جي أن الهجوم على وشك البدء، أرسل ألفاً من رماة السهام بقيادة السيد دي سيفكوت إلى حافة الجدول الثاني، لإزعاج الطليعة الفرنسية؛ ثم جعل مختلف فرق الجيش تتخذ موقعاً جعل شكلهم مربعاً ومكنهم من رؤية مركز المعسكر. وقد نصب مذبحاً من العشب؛ ورفعت راية كبيرة للقديس جاورجيوس، شفيع المحاربين، وهي عبارة عن صورة للقديس جاورجيوس الذي هزم التنين فوق الراهب الذي كان يرتدي الزي الكهنوتي الكامل ويصلي على درجات المذبح من أجل النتيجة السعيدة للمعركة. وعندما انتهى من تضرعه صعد إلى آخر درجات المذبح واستدار ورفع يديه فوق الجيش (100).

بجأة، وبحركة واحدة، ثنى الجميع ركبهم على الأرض وتلقوا، في صمت مهيب، البركة العظمى. أثر هذا الاحتفال المهيب بعمق في جميع القلوب؛ استيقظ لدى الجميع شعور نبيل بالزهد الشخصي، وبدا لهم أن صوت الرب يدعوهم إلى الموت شهداء ممتلئين بالنار المقدسة، نسوا كل ما كان

عزيرًا عليهم في العالم، واستولى عليهم الحماس الشديد الذي رفعهم إلى مرتبة الأبطال، أسلافهم. انتفخت صدورهم واتسعت، وسار الدم في عروقهم، وكانوا يتوقون للقتال وكذلك الخلاص.

عندما أنزل الراهب يديه قام الجميع بصمت؛ قفز الشاب جي من فوق حصانه وتقدم إلى منتصف الميدان وصاح:

- أيها الفلمنكيون! تذكروا أعمال آبائكم المجيدة؛ إنهم لم يخافوا من أعدائهم. بفضل شجاعتهم، أصبحتم تمتلكون الحرية التي يرغب الطغيان الأجنبي في حرمانكم منها. أنتم أيضًا ستراق دماءكم اليوم من أجل هذه القضية المقدسة، وإذا كان لا بد لنا من الموت، فليكن كمشعب حر وبطل، كأحفاد جديرين بالأسود الجامعة! فكروا في الرب، الذي أضرم هؤلاء الرجال الأتقياء النار في معابده، في أولادكم الذين سيقتلونهم؛ في نسائكم الحزينات والخائفات، في كل ما تحبون؛ وأعداؤنا، حتى في حال هزيمتنا، لن يضطروا إلى التباهي بانتصارهم؛ لأن عدد الفرنسيين الذين سيسقطون على أرضنا سيفوق عدد الفلمنكيين. احترسوا من الفرسان، وادفعوا حرايكم المسنونة في أرجل الخيول، وقبل كل شيء لا تتركوا صفوفكم. إذا قام شخص ما بسرقة عدو سقط، إذا هرب شخص ما من المعركة، اقتلوه، أنا أمركم بذلك. إذا كان بينكم جبان، فليمت على أيديكم، وليسقط دمه عليّ وحدي (101).

ثم انحنى على الأرض، والتقط القليل من التراب،
ووضعه في فمه، ورفع صوته، ثم أطلق صيحته:

- من خلال هذه الأرض الحبيبة التي أريد أن أحملها
بداخلي، سأعرف اليوم كيف أهزم أو أموت!

كلهم انحنوا بنفس الطريقة وتناولوا القليل من تراب
أرض الوطن. هذه الأرض، التي نزلت في صدورهم،
ملأتهم بغضب شديد ورغبة شديدة في الانتقام؛ وأضاءت
لهباً رهيباً في عيونهم، رأيناه بالتناوب يشحب ويحمر في
وجوههم المنقبضة من الغضب. ترددت بعض المهمات
وبعض الهمسات داخل الجيش؛ مثل هدير إعصار في
أعماق الكهف؛ اندمجت كل الصيحات وكل العهود في
صخب هائل بصدى لكلمات مميزة:

- نريد وسنعرف كيف نموت!

وسرعان ما عادوا إلى خط المعركة على حافة جدول
جروينجن.

في غضون ذلك، اقترب روبرت دارتوا مع بعض
الضباط الفرنسيين، على مسافة قصيرة من المعسكر الفلنكي،
لإجراء استطلاع. اشتبك رماة السهام على الفور ضد رماة
جي، وتبادلت طلعة الجيشين السهام والحجارة، بينما تقدم
روبرت بسلاح الفرسان. عندما رأى أن جي قد رتب

قواته في خط واحد، قسم جيشه إلى ثلاثة فيالق: الأول، كان تحت قيادة راؤول دي نيسل، ويتكون من عشرة آلاف جندي؛ أما الثاني، كان تحت قيادة روبرت نفسه، وكان يتألف من أفضل القوات وبلغ عددها خمسة عشر ألفاً من نخبة الفرسان؛ أما الثالث، الذي شكل الحرس الخلفي وكان له مهمة خاصة للدفاع عن المعسكر، تم وضعه تحت قيادة جي دي سان بول. عندما كان القائد العام للقوات المسلحة على استعداد لدفع هذه القوات الهائلة ضد الجيش الفلنكي، اقترب منه السير جون دي بارلاس، رئيس القوات الأجنبية، قائلاً:

- من أجل محبة الرب، سيد دارتوا، دعني أمضي قدماً مع رجالي؛ لا تعرض زهرة الفروسية الفرنسية للهلاك على يد فلاحي فلاندرز هؤلاء؛ إنهم أناس أغاظهم اليأس. إنني أعرف عاداتهم؛ لقد تركوا مؤنهم في المدينة. ابق هنا في الصف، وأنا، مع سلاح الفرسان الخفيف، سأقطع طريقهم إلى كورتراي وأحتفظ بهم للمناوشات الخفيفة. يأكل الفلنكيون كثيراً وطوال اليوم، فهم بحاجة إلى الكثير من الطعام؛ إذا قطعنا عنهم المؤن، فإن الجوع سوف يغير من موقفهم، ويمكنك مهاجمتهم في مكان آخر بمزيد من المزايا. وبهذه الطريقة يمكنك القضاء على هذا العرق الملعون دون إراقة الكثير من الدماء.

وافق الكونستابل دي نيسل والعديد من اللوردات

الآخرين على هذه النصيحة؛ لكن روبرت، الذي أعماه الغضب، لم يستمع إليه وفرض الصمت على جون دي بارلاس.

كل هذه الاستعدادات استغرقت وقتاً؛ كانت الساعة السابعة صباحاً بالفعل عندما وجد أفراد سلاح الفرسان الفرنسي أنفسهم داخل نطاق مرمى رماة سهام العدو. كان نهر الموسشيريك يفصل بين الرماة الفرنسيين والرماة الفلمنكيين، لذلك لم يتمكنوا من الاقتراب وكان هناك عدد قليل من الضحايا على كلا الجانبين. أعطى القهرمان دارتوا راول دي نيسل، قائد الفيلق الأول، الأوامر بالهجوم.

اندفعت أول كتيبة من سلاح الفرسان بقوة إلى ضفاف نهر الموسشيريك؛ لكن الفرسان غرقوا هناك حتى السرج في الوحل. اندفع بعضهم البعض لدرجة أن الأوائل الذين سقطوا من على خيولهم قتلوا من قبل الفلمنكيين أو هلكوا غرقاً في المستنقعات. أولئك الذين هربوا عادوا بخطواتهم بخفة ولم يعودوا يجروون على إظهار أنفسهم مرة أخرى بتهور واستهتار (102). خلال هذا الوقت، بقي الجيش الفلمنكي ساكناً خلف الجدول الثاني وتأمل، في صمت عميق، الكارثة التي عانى منها العدو.

رأى الكونستابل راول أن المر لا يمكن السير فيه بالنسبة لسلاح الفرسان، فجاء ليقابل السيد دارتوا وقال له:

- في الحقيقة، سيدي الكونت، إننا نعرض شعبنا لخطر كبير، من خلال رميهم بهذه الطريقة في هذا الجدول؛ لن نستطيع الحصان عبوره. لنسع بالأحرى إلى إبعاد العدو عن مركزه. صدقني، أنت تخاطر بكل حياتنا في هذه اللعبة.

لكن الجنرال العام كان غاضباً للغاية للاستماع إلى هذه النصيحة الحكيمة، فصاح بغضب:

- أيها الكونستابل، هذه نصيحة من لومباردي! هل ستكون خائفاً من هذه المجموعة من الذئاب، أم أنك ستحصل على فرائها بأي حال من الأحوال؟

كان يقصد بهذا أن الكونستابل يحب الفلمنكيين وربما أراد تفضيلهم في القتال على حساب فرنسا. رؤوالم مجروح من هذا اللوم، استولى عليه غضب شديد؛ اقترب من الكونت دارتوا وقال له بنبرة مريرة:

- هل تشك في شجاعتي؟ هل أنت تهينني؟ حسناً، أسألك، أنا، إذا كنت تجرؤ على ملاحقتي على الفور وحيداً، في صفوف العدو؟ أعدك بأخذك بعيداً حتى لا تعود أبداً.

توسط عدد قليل من الفرسان الآخرين بين القائدين وقاموا بعمل جيد لدرجة أنهم نجحوا في تهدئتهما؛ وهم بدورهم أوضحوا للقهرمان أيضاً أن مرور الجدول من فوق كان مستحيلاً؛ لكن الكونت دارتوا لم يسمعهم وأمر

راؤول دي نيسل بالسير للأمام مرة أخرى (103).

شرع الكونستابل، الذي حمّله استياؤه، في سباق مع قواته إلى الجيش الفلمنكي؛ ولكن عند حافة الجدول، غرق جميع فرسان الصفوف الأولى في الوحل وتساقتوا؛ وسحقوا بعضهم بعضاً بشكل متبادل في هذا الاختلاط الخفيف، وقتل أكثر من خمسمئة رجل، في حين ألقى الفلمنكيون عليهم كمية من الحجارة لم تستطع الخوذات ولا الدروع أن تقاومها. عندما حدث ذلك، اضطر السيد دارتوا إلى الأمر بانسحاب قوات راؤول دي نيسل. لم ينجحوا في ترتيب هذا الفيلق غير المنظم والمرتبك بشدة في صفوف منظمة إلا بصعوبة شديدة.

في غضون ذلك، تمكن السيد جون دي بارلاس من إيجاد مكان يمكن فيه عبور الجدول الأول بسهولة أكبر ووصل إلى الضفة الأخرى مع ألفين من رماة الأقواس. عند وصوله إلى المرج حيث كان يقف رماة السهام الفلمنكيون، رتب رجاله في صفوف مسلحة، وأطلق على العدو الكثير من السهام وقد بدا الجو وكأنه معتم من كثرة السهام التي تم رميها (104). سقط عدد كبير من الفلمنكيين بين قتيل وجريح، وقد كسب رماة الأقواس الفرنسيون الكثير من الأرض على أثر ذلك.

كان السيد سالومون دي سيفيكوت قد أخذ بنفسه

مقلع قتيل من الحرفيين وقد شجع ذلك الكثير أن يحدوا
حدوه؛ ولكن سهماً حديدياً اخترق حاجب خوذته وأوقعه
هامداً. الفلمنكيون، عندما رأوا قائدهم يسقط بجانب العديد
من أفرادهم، ولم يعد لديهم حجارة لرميها، تراجعوا بمنتهى
النظام إلى الفرقة الرئيسة للجيش؛ بقي رامي سهام واحد
من فيرن في منتصف المرج، كما لو كان يريد أن يتحدى
سهام الفرنسيين. كان هناك، بلا حراك، وساكناً تماماً، رغم
أن الأسهم كانت تطن فوق رأسه ومن حوله. وضع يبطء
حجراً ثقيلاً في مقلعه وصوب بعناية نحو الهدف الذي
أراد إصابته. قام بتدوير مقلعه بضع لفات سريعة، وترك
الحزام، وأطلق الحجر صغيراً في الهواء. صرخة ألم خرجت
من صدر القائد الفرنسي الذي سقط ميتاً على الأرض؛
خوذته، التي كسرت بسبب الضربة العنيفة، لم تكن قادرة
على حماية جمجمته. كان السيد جون دي بارلاس مستلقياً
في دمه؛ وهكذا، في الاشتباك نفسه، لقي قائدا الفيلق
العدوان حتفهما.

عند رؤية قائدهم يسقط، استولى على رماة الأقواس
الخوف الشديد لدرجة أنهم ألقوا أقواسهم، وسحبوا السيوف،
واندفعوا بقوة نحو الفلمنكيين وطاردهم إلى الجدول الثاني
الذي كان بمثابة حصن لجيش العدو.

وقد صاح السيد فالبيالي، الذي كان يقف بالقرب من
السيد دراتوا، عندما رأى نجاح رماة الأقواس قائلاً:

- أوه! سيدي الكونت! هؤلاء الرجال البأسون الذين يسرون على الأقدام فقط سيبلون بلاء حسناً لدرجة أنهم وحدهم سينالون شرف المعركة. إذا تصدوا للعدو دون مساعدتنا، ماذا نفعل نحن الفرسان هنا؟ إنه لعار! نحن هنا كما لو أننا لم نجرؤ على القتال.

صاح روبرت:

- مونتجوي، سانت دينيس (105)! إلى الأمام، أيها الكونستابل، إلى الأمام (106).

عند هذا الأمر، قام فرسان الكتيبة الأولى باطلاق العنان لخيولهم ودفعوها إلى سباق غير منظم؛ أراد كل منهم أن يصل أولاً، ليحصل على وسام الشرف. وبسبب هذا السباق الجنوني المحموم، مروا فوق أجساد رماة الأقواس، وكافح المئات منهم الموت تحت أقدام الخيول التي سحقتهم، بينما هرب الآخرون من ميدان المعركة في جميع الاتجاهات. وهكذا قلص الفرسان إلى الصفر الميزة التي فازوا بها وأعطوا رماة السهام وقتاً لترتيب صفوفهم.

ارتفعت من المناورة المخيفة، صرخات الموت والألم، والتي ربما كانت، من بعيد، قد استخدمت لتلهيل جيش منتصر. صاح الفرسان التعساء، الذين سقطوا من سروجهم، والذين اجتازوا مجموعة كاملة من سلاح

الفرسان، قائلين إنهم لم يداسوا تحت أقدامهم (107).
لقد تلاشت بالفعل أصوات أولئك الذين سقطوا أولاً في
صرخة احتضار عليا؛ لكن أولئك الذين أسقطوهم أرضاً
سُحِقوا بدورهم من قبل أولئك الذين تبعوهم، واستمرت
الحفلة الموسيقية الرهيبة من الصرخات والأنين (108).
الفيالق الأخرى، اعتقاداً منها أن الصراع قد اندلع، دفعوا
خيولهم وألقوا بها نحو الجدول الذي كان يحدث هذا
المشهد المروع على ضفافه، وجاء عدد كبير منهم ليؤدي إلى
تضخم عدد ضحايا حماقة الكونت دارتوا، وهو رقم مخيف لم
يسمع به أحد من قبل.

لم يكن الفلمنكيون قد تحركوا بعد؛ ما زالوا صامتين
وساكنين، يتأملون بدهشة المشهد الرهيب الذي يحدث
أمام أعينهم. كان قوداهم يتصرفون بمزيد من المهارة
والحصافة؛ بالنسبة لأي قائد عسكري آخر، كانت هذه
اللحظة ستبدو مناسبة للانخراط في القتال، وربما كان سيعبر
الجدول ويسقط على الفرنسيين؛ لكن جي وجون بورلوت،
اللذين قبل الكونت نصيحتهما، بعد أن أدركا مزايا الموقع
الذي يشغلانه، لم يرغباً في تركه على حساب مثل هذه
الميزة. استمر الصمت الشديد في الصفوف، بحيث يمكن
لجميع أن يسمعوا الأوامر.

أخيراً، امتلأ النهران بجثث الرجال والخيول، ونجح

راؤول دي نيسل في عبورها بنحو ألف فارس. وقد
حشدهم في صفوف مرتبة وصاح:

- فرنسا! فرنسا! إلى الأمام! إلى الأمام!

اندفع الجنود بجرأة إلى مركز جيش العدو؛ أسند
الفلمنكيون على الأرض حواف حراهم الطويلة واستقبلوا
سلاح الفرسان الفرنسي على رأس هذه الأسلحة
الهائلة (109). سقط عدد كبير من الأعداء من السرج
تحت عنف الصدمة وسرعان ما تم ثقبهم بضربات الرماح.
لكن غودفري دي براينت، الذي عبر مع سلاح الفرسان
بتسعمئة أيضاً، سقط بهذه القوة على الفيالق الذي يقوده
جيوم دو جوليرز، لدرجة أنه أطاح بهذا الفارس مع
الصفوف الثلاثة الأولى من قواته، وبالتالي قطع خط
المعركة على الجيش الفلمنكي.

من ثم بدأ صراع مخيف؛ كان جنود سلاح الفرسان
الفرنسي قد ألقوا برماحهم وهاجموا الفلمنكيين بضربهم
بسيوفهم الهائلة؛ دافع الفلمنكيون عن أنفسهم بشجاعة
باستخدام صولجانهم وفؤوسهم، وأبعدوا العديد من الفرسان
عن القتال؛ لكن الميزة بقيت مع جودفري دي براينت؛
لأن رجاله قد نثروا الأرض حولهم بكومة من الجثث
وتركوا فجوة واسعة في خط معركة الفلمنكيين. بفضل هذا
الممر الذي تم فتحه أمامهم، جاء جميع الفرنسيين الذين

تمكنوا من عبور الجدول لمهاجمة أعدائهم من الخلف. كان هذا الوضع محفوفاً بالمخاطر بشكل كبير على الفلمنكيين؛ لأن بما أن العدو كان يهاجمهم من الأمام والخلف، لم تكن لديهم مساحة كافية لعمل حراهم المسنونة لذلك اضطروا للجوء للدفاع عن أنفسهم، إلى القنوس، والصولجانا، والسيوف، مما أعطى الفرسان الفرنسيين ميزة كبيرة عليهم؛ لأن هؤلاء، الذين يسيطرون على الفلمنكيين، بفضل ركوبهم للخيل، يمكن أن يعرقلوهم بسهولة، وإذا جاز التعبير، فكل ضربة تشق رأساً أو تقطع طرفاً.

قاتل جيوم دي جوليرز مثل الأسد؛ وقد وجد نفسه وحيداً، مع مرافقه فيليب دي هوفستاد، متورطين في وسط نحو ثلاثين عدواً أرادوا انتزاع رايته منه؛ ولكن كل الأيدي التي امتدت للقبض عليها سقطت تحت سيفه.

آرثر دي ميرتيليت، فارس نورماندي، يعبر الجدول في هذه اللحظة مع عدد كبير من الفرسان ويدفع نفسه بأقصى سرعة على جيوم دي جوليرز. لقد جعل وصول هذا التعزيز وضع الفلمنكيين أسوأ؛ فقد أصبح عدد الأعداء للقتال كبيراً جداً وكان من المستحيل مقاومتهم. عندما رأى النورماندي راية جيوم، أطلق حصانه بسرعة السهم وأنزل رمحه لاختراق حامل الراية، لكن فيليب دي هوفستاد، عند هذا المنظر، اندفع عبر بعض الفرنسيين، أمام ميرتيليت. كانت صدمة الفارسين عنيفة لدرجة أن

رحمين انغرسا في صدرهما؛ لقد اخترق الحديد القاتل قلب كل من المقاتلين. ظل البطلان وحصاناهما بلا حراك، كما لو أن قوة خارقة للطبيعة أوقفت فجأة اندفاعهما وجمدت حماستهما؛ كان يمكن للمرء أن يظن أنهما كانا ينظران إلى بعضهما باهتمام وأنهما كانا يضغطان بكل ثقل أجسادهما على الرمح، كما لو كانا يجدان متعة قاسية في تعذيب عدوهما أكثر؛ لكن هذا لم يدم طويلاً: سرعان ما قام حصان ميرتيليت بحركة وسقطت الجثتان على الأرض.

السيد جون دي رينيسي، الذي كان في الجناح الأيمن، لاحظ الخطر الذي يواجهه جيوم دي جوليرز، ترك موقعه واندفع وراء الخط، وسقط على جناح الفرنسيين مع جون بريدل وجزاريه. لا شيء يمكن أن يقاوم رجالاً مثل جزاري بروج. فقد ألقوا بأنفسهم عراة الصدور وسط الأسلحة بجميع أنواعها وتلقوا الموت أو الضربة التي جاءت لتضربهم دون أن ينسحبوا إلى أي مكان في العالم. هؤلاء وحدهم تجرؤوا حقاً على النظر إلى وجه الموت والاستهزاء به؛ لذلك سقط كل شيء تحت ضرباتهم بمجرد ظهورهم. قطعت فؤوسهم أرجل الخيول وشققت رؤوس الفرسان الساقطين من على دوابهم. بعد لحظة من قدومهم لمساعدة جيوم دي جوليرز، قاموا بتمهيد الطريق بشكل جيد بحيث بقي نحو عشرين فرنسياً فقط خارج خط معركة الفلمنكيين. كان من بينهم جودفري دي برابانت الذي قاتل في

صفوف أعداء وطنه.

عندما لمح السيد دي رينيبي، صاح فيه:

- جودفري! جودفري! سوف تموت!

رد جودفري، بضربة عنيفة على رأس السيد جون:

- أترك تتحدث عن نفسك!

لكن الأخير، الذي كان يتحرك بسيفه بسرعة، ضرب جودفري تحت ذقنه بقوة لدرجة أنه ألقى به من فوق السرج. ثم سقط عليه عشرون جزاراً، وأصيب بعشرين جرحاً كان أقلها يكفي لقتله. في غضون ذلك، كان جون بريدل، مع بعض رجاله، بعد أن توغلوا في صفوف العدو، قاتلوا بشكل جيد لدرجة أنهم حصلوا على راية برابانت؛ وقد استعاد جون بريدل، بهذه الغنيمة، الجزء الأكبر من أتباعه، ومن ثم مزق الراية إرباً وألقى بالعمود بعيداً، وقد صاح: عار على الخونة!

رغب البرابنتيون في الانتقام من هذه الإهانة، وسقطوا على العدو بغضب مضاعف وبذلوا جهوداً لم يسبق لها مثيل من قبل لهدم راية جيوم دي جوليرز انتقاماً منه؛ لكن حامل اللواء جون فيران دافع عن نفسه بشراسة ضد كل من اقترب منه. تم إسقاطه أربع مرات، وقام أربع مرات بالراية، على الرغم من أنه كان مغطى بالجروح.

كان جيوم دي جوليرز قد أسقط بالفعل على الأرض عدداً كبيراً من الفرنسيين؛ فقد كانت كل ضربة من سيفه العملاق تقتل عدواً. منهك من مدة القتال وعنفه، كان يعاني من جروح بسبب الضربات وأنفه وفه ينزفان، أصبح وجهه شاحباً فجأة وشعر أن قوته تتخلى عنه. في استياء عميق، انسحب وراء خط المعركة ليتعافى قليلاً. قام جون دي فلامينك، مرافقه، بفك أحزمة درعه وخلع أسلحته، للسماح له بالتنفس بحرية أكبر.

خلال غياب جيوم، استعاد الفرنسيون بعض الأرض، وبدأ الفلمنكيون على وشك التراجع. عند هذا المشهد، انغمس جيوم في الحزن، وانفجر في أنين يأس. ابتكر جون دي فلامينك حيلة ثبت مدى شهرة سيده بالشجاعة. لبس سلاح جيوم بالكامل، وألقى بنفسه في وسط الأعداء، ثم صاح:

- إلى الورا، رجال فرنسا! لقد عاد جيوم دي جوليرز!

في الوقت نفسه بدأ بضرب العدو ببسالة، وألقى بالكثير منهم على الغبار حتى انسحب الآخرون، مما أعطى الصفوف الفلمنكية وقتاً لإعادة الترتيب.

راؤول دونيسل، مع الجزء الأكبر من سلاح الفرسان، سقط على خمسة آلاف من سكان غينت تحت قيادة السيد بورلوت. عبثاً، سعى المحارب الفرنسي الشجاع لاختراق

هذه القوات؛ قام سكان غينت بصدده ثلاث مرات، دون كسر صفوفهم، مما تسبب في فقدانه للعديد من الرجال. جون بورلوت، عندما رأى أنه سيكون مضرًا للغاية إذا ترك مكانه لمهاجمة فيلق راؤول دي نيسل، فكر في وسيلة أخرى. لقد أخذ الصفوف الأخيرة من رجاله وشكل كتبتين جديدتين منهم خلف خط المعركة، بحيث يلبس أحد أطراف هاتين الكتبتين الجيش والآخر يكون أبعد في اتجاه الريف. تلقت الشعبة المركزية التي تشغل المساحة بين الشعبتين الآخرين، من قبل جون بورلوت، أمرًا بالتراجع عند الصدمة الأولى للفرنسيين.

راؤول دو نيسل، بعد أن حشد فرسانه من جديد، سقط مرة أخرى بسرعة فائقة على شعب غينت؛ وفي الوقت نفسه، انسحبت الشعبة المركزية إلى الوراء، وبدأ الفرنسيون، معتقدين أنهم كسروا خط المعركة في الصباح بفرح:

- عيد الميلاد! النصر! النصر!

وقد حاولوا دخول الممر الذي فتح عبر صفوف العدو بقصد مهاجمة الجيش من الخلف؛ ولكنهم وجدوا أمرًا لم يكن في الحسبان؛ لقد واجهوا من جميع الجهات جدارًا من الرماح والفؤوس. قام جون بورلوت، من خلال دفع جناحي فيلقه بشكل غير مباشر، بتشكيل شعب غينت في مثلث وبالتالي أغلق الشبكة التي أمسك فيها بما يقرب

من ألف فرنسي. ومن ثم بدأت مجزرة مروعة؛ لمدة ربع الساعة، تم خلالها تبادل ضربات الفأس، وضربات السيف، وضربات الرمح وسط معركة مخيفة، دون أن يكون من الممكن رؤية من استسلم أو من انتصر. الرجال والخيول، مطروحون أرضاً، مختلطون، يصرخون، يعوون، يسهلون؛ صخب مروع لا يمكن سماع أو تمييز أي شيء فيه.

لفترة طويلة راؤول دي نيسل، مغطى بالجروح، ملطخ بدماء رجاله، حارب فوق كومة من الجثث؛ وكانت وفاته مؤكدة. عند هذا المنظر، اتاب جون بورلوت شعور بالتعاطف تجاه الفارس البطل، وصاح فيه:

- إلى اللقاء يا سيدي راؤول! لا أريد أن أراك تموت.

راؤول قد جن جنونه من الغضب واليأس؛ لقد فهم كلمات بورلوت، وربما اتابه شعور بالامتنان حرك قلبه؛ لكن اللوم المتمثل في التحالف مع العدو، وهو لوم سيوجه إليه من قبل الكونت دارتوا، قد جرحه وأثار غضبه بشدة لدرجة أنه لم يرغب في العيش أكثر من ذلك. وقد قام بإشارة بيده، كما لو كان يودع جون بورلوت أخيراً، وبقاءة طرأ أرضاً امين من سكان غينت ميئين. وفي النهاية، بعد أن ضرب على رأسه بهراوة، سقط هامداً على الجثث المتراكمة لإخوته في السلاح. أراد العديد من الفرسان، الذين سقطوا من خيولهم، التخلي عن أسلحتهم؛ لكن لم يتم

الاستماع إليهم، ولم يخرج فرنسي واحد من الدائرة القتالة التي أحاطت بهم.

بينما كان رجال السيد بورلوت يقومون بعمل الإبادة هذا، كان النضال شرساً على طول خط المعركة بأكمله. وهناك كما نسمع الصيحة: عيد الميلاد! النصر! النصر؛ والتي يمكن للمرء أن يستنتج منها، في هذه النقطة، أن الفرنسيين كانوا يتمتعون بالأفضلية؛ في مكان آخر صعدت الصيحة الرهيبة: «فلاندرز للأسد!» إشارة إلى هزيمة فيلق فرنسي.

أصبح جدول جرونينجن أحمر بالدم ومليناً بالجنث. تلاشت صرخات الموتى العالية وسط صوت تصادم الأسلحة؛ ضجيج حزين باهت، مثل زئير الرعد، حلق فوق المقاتلين. طارت الرماح والصولجان على شكل قطع في الهواء؛ وشكلت كومة طويلة من الجنث سداً أمام خط المعركة. كان من المؤكد أن الجرحى سيهلكون، إذ لم يرفعهم أحد، فقد حكم عليهم بالاختناق في الوحل أو بالدوس تحت أقدام الخيول.

في هذه الأثناء، توغل هيوز داركيل، مع ثمانئة من رجاله الجريئين، إلى مركز الجيش الفرنسي؛ لقد كان محاطاً بالعدو من جميع الجهات لدرجة أنه كان من المستحيل على الفلمنكيين رؤيته. وهناك قاتل بشجاعة وبراعة لدرجة أن الأعداء الكثيرين الذين كان عليه أن يتعامل معهم لم

يتمكنوا من التأثير على كتيبته، وإن كانت قليلة العدد؛ من حوله كان عدد كبير من الضحايا، ومن تجرأ على الاقتراب منه دفع حياته مقابل هذه الجرأة. كان يقترب تدريجياً من المعسكر الفرنسي ويبدو أنه يريد الوصول إليه. لم يكن هذا في نيته، لكنه عندما وجد نفسه وسط القوات الفرنسية، انطلق جانباً إلى راية نافار ونزعها من أيدي حاملها. سقط عليه أهل نافار بغضب وقتلوا عدداً كبيراً من رجاله؛ لكنه كان يعرف جيداً كيف يدافع عن الراية التي استولى عليها لدرجة أن الفرنسيين لم يتمكنوا من استعادتها منه. لقد كاد أن يعود إلى الجزء الأكبر من الجيش الفلمنكي، عندما وجه لويس دي فورست له ضربة مروعة على كتفه اليسرى لدرجة أن نصف ذراعه انفصل عن الجسد؛ يمكنك أن ترى الذراع المقطوعة معلقة على طول الدرع، والدم يتدفق في سيول من الجرح، وشحوب مميت منتشر على ملامحه، لكنه لم يترك الراية. قُتل لويس دي فورست على يد فلمنكي آخر، وعاد هيوز داركيل هامداً تقريباً مع راية نافار وسط رجاله. حاول أن يردد الصيحة: «فلاندرز للأسد!»، لكن صوته الميت خانه، وهربت روحه مع دمه من الجرح القاسي الذي أصيب به وسقط في التراب مع الغنيمة المجيدة والتي كانت دليلاً على شجاعته.

في الجناح الأيسر، كان القتال أكثر حدة بالنسبة للفرقة التي يقودها السيد جي؛ هاجم جاك دي شاتيلون، على

رأس بضعة آلاف من سلاح الفرسان، أصحاب المهن والحرفيين في فيرن، واستسلم عدة مئات من الفلنكيين في الصدمة الأولى. استلقى يوستاس سبوركين مصاباً بجروح بالغة خلف خط المعركة وصاح في رجاله لكي لا يستسلموا؛ لكن تفوق العدو ضغط عليهم لدرجة أنهم اضطروا إلى التراجع. متبوعاً بعدد كبير من الفرسان، اخترق دو شاتيون خط المعركة، وبدأ الصراع مع سبوركين التعيس، الذي لم يمض وقت طويل عليه حتى تخلت الروح عنه.

ظل أدولف دو نيولاند بمفرده مع الكونت جي ومرافقه، بحيث تم فصلهم عن الفرقة الرئيسية للجيش، وكان عليهم توقع الموت الأكيد. بذل دو شاتيلون قصارى جهده للاستيلاء على راية فلاندرز الرائعة؛ ولكن، على الرغم من أن سيغير لونكي، الذي كان يحمل الراية، قد أطيح به عدة مرات، إلا أن السيد دي شاتيلون لم يتمكن بعد من تحقيق هدفه؛ فتحرك بغضب، وانفجر في اللعنات ضد رجاله وأمطر ضربات شرسة على أسلحة الفلنكيين الثلاثة الذين لا يقهرون. من المؤكد أن هؤلاء لم يكن بإمكانهم الصمود طويلاً ضد سرب من الأعداء اللدودين؛ لكنهم قتلوا الكثير منهم في بداية القتال لدرجة أن الجثث المتكدسة، بعد أن وصلت إلى ارتفاع معين، جعلت من الصعب الوصول إلى الفرسان الآخرين وخدمتهم كنوع من الحواجز.

محملاً بمشاعر نفاذ الصبر والغضب، انتزع السيد دو شاتيلون رمحاً طويلاً من بين يدي أحد رجاله واندفع نحو جي. كان من المستحيل أن ينجو الرجل الشاب دون شك من الموت؛ لأنه كان مشغولاً بالقتال ضد مهاجمين آخرين، لذا، لم ير خصمه الجديد الذي ينقض عليه. كان الرمح على وشك أن يضربه في رقبته باختراق المكان بين الخوذة والدروع، ولكن رفع أدولف دي نيولاند سيفه بسرعة البرق، وقطع نصل الرمح إلى نصفين، وبالتالي أنقذ حياة قائده.

في نفس اللحظة، وقبل أن يحظى السيد دو شاتيلون بالوقت لحمل سيفه، قفز أدولف دي نيولاند فوق الجثث ووجد نفسه أمام الفارس الفرنسي، وجه له ضربة على رأسه بشكل فظيع لدرجة أنها نزعت جزءاً كبيراً من خوذته. كان الدم يسيل على كتفيه، وأراد أن يستمر في الدفاع عن نفسه، ولكن ضربتين أخريين أسقطتاه من على حصانه، مما جعله يidas عليه من أقدام الخيول الأخرى. قبض عليه الفلمنكيون وجروه وراء خط المعركة ووجهوا له ألف ضربة انتقاماً منه على الاضطهاد الوحشي الذي فعله

٢٣٢

في غضون ذلك، هرع أرنولد داودينيردي لمساعدة الجناح الأيسر، مما أدى إلى تغيير الوضع تماماً؛ اندفع أصحاب المهن والحرفيين مرة أخرى إلى الأمام مع هذا التعزيز

غير المتوقع، وتم صد الفرنسيين، مما أصابهم بحالة من الفوضى. سقطت الخيول والفرسان بأعداد كبيرة، وكان هناك ارتباك في صفوف العدو، لدرجة أن الفلمنكيين، الذين يعتقدون أنهم سينتصرون في المعركة، لم يستطيعوا منع أنفسهم من الصياح على طول خط المعركة بصيحتهم الشهيرة:

- النصر! النصر! فلاندرز للأسد!

أي شخص كان بإمكانه رؤية الجزائريين في تلك اللحظة حتى دون التعرض لضرباتهم كان سيتراجع في حال من الرعب والذعر. عارين الصدر، عارين الذراع، فؤوسهم ملطخة بالدماء، شوهوا وهم يندفعون فوق جثث الرجال والخيول، يضربون في جميع الجهات، وكلهم مغطون بالدماء، شعورهم شعناء، ووجوههم لا يمكن التعرف إليها وهي ملطخة بالوحل والعرق والدم؛ ووسط كل هذه الأهوال، رسمت ابتسامة مخيفة على ملامحهم، ابتسامة عكست كلاً من الكراهية المميّنة للغزاة الأجانب وفرحة القتال الشديدة.

الفرنسيون، الذين كانوا قد تحدثوا في اقتراضاتهم السابقة عن المعركة، عن أنهم يجب أن يسحقوا الفلمنكيين من الضربة الأولى، شعروا عند خسارتهم الشديدة، أن التبجح والتكبر العقيم غير مفيد على الإطلاق في ساحة المعركة.

لقد أعربوا عن أسفهم لعواقب جرأتهم غير الحكيمة ورأوا، في كفاحهم ضد الجزارين، ما كان الشعب الذي يجب عليهم التعامل معه. لكنهم لم يفقدوا شجاعتهم؛ كانوا لا يزالون أكثر بكثير من الفلمنكيين، وعدد كبير نسبياً من فرقهم لم تشارك بعد في القتال.

بينما هُزمت طليعة الجيش الفرنسي، وجد الكونت دارتوا نفسه، مع الفرقة الثانية، على مسافة أكبر من الجيش الفلمنكي. ونظراً لأن خط معركة العدو لم يكن طويلاً بما يكفي لإشراك قوات كبيرة مثل رجاله في الوقت نفسه، فإنه لم يتقدم للأمام بعد. لم يكن يعرف كيف كان يدار القتال، لكنه تخيل أن رجاله يتمتعون بلا شك بالأفضلية؛ لأنه لم ير أي أحد يعود. في هذه الأثناء، أرسل لويس دي كليرمون، مع ألف فارس نورماندي، لمهاجمة الجناح الأيسر للجيش الفلمنكي. نجح السيد دو كليرمون في إيجاد أرضية صلبة في هذا الجانب؛ وتمكن من عبور الجدول بكل فرقته وسقط بشكل غير متوقع على القوات التي يقودها جي. هؤلاء، الذين هاجمهم أعداء جدد من الخلف، في حين أن فيلق السيد دي شاتيلون قد أرهقهم بالفعل، لم يعد بإمكانهم الصمود؛ تمت الإطاحة بالصفوف الأولى وتقسيمها إلى أجزاء، وأصاب الارتباك الصفوف الأخرى، وسقط كل هذا الجزء من الجيش الفلمنكي في حال من الفوضى. وكان صوت جي، الذي

كان يحثهم على الثبات بحزم، قد أعاد إحياء شجاعتهم، لكن ذلك لم يساعد في شيء؛ فقد كان الضغط كبيراً للغاية، وما كان بإمكانهم فعله، بناءً على طلب قائدهم، هو التراجع في أبطأ وقت ممكن.

لسوء الحظ، تلقى جي في هذه اللحظة ضربة عنيفة على خوذته حتى سقط على رقبة حصانه وترك سيفه يسقط؛ في هذا الموقف الحرج شاعرًا بالدوار الشديد، كان من المستحيل عليه أن يدافع عن نفسه. بلا شك، كان سيلقي حتفه إذا لم يأت أدولف لمساعدته. قفز الفارس الشاب أمام حصان جي وناور بسيفه جيداً لدرجة أن الفرنسيين لم يتمكنوا من الوصول إلى الكونت الشاب. بعد لحظات قليلة من هذا القتال المريع، ثقلت ذراعه وتعبت؛ يمكنك رؤية ذلك في حركات سلاحه، التي كانت تتباطأ بالفعل وأصبحت أقل نشاطاً. انهالت الضربات على ألواح المعدنية الحامية، وقد شعر بالجروح في لحمه تحت الدرع، وكان يودع هذا العالم بالفعل؛ لأنه رأى الموت أمامه.

في هذه الأثناء، كان جي قد أُعيد إلى وراء خط المعركة، وقد رأى بقلق الموقف الخطير لمنقذه، فاستولى على سيف آخر، وركض إلى جانبه وبدأ في القتال مرة أخرى. انضم إليه بعض الشجعان، وتوقف الفرنسيون في اندفاعهم، حتى جاء تعزيز جديد لينضم لهم. لم تعد الشجاعة الجريئة للفرسان الفلمنكيين قادرة على تحمل الصدمة. أفسحت

صبيحة « فلاندرز للأسد » المجال لصبيحة أخرى، فقد كان الفرنسيون يهتفون:

- عيد الميلاد! عيد الميلاد! إلى الأمام! النصر لنا!

تم إبعاد الفلمنكيين والإطاحة بهم. فعلى الرغم من جهود جي المضنية، إلا أنه لم يستطع منع رجاله من التراجع، حيث كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة فرسان ضد أحد جنود المشاة؛ فداست الخيول الفلمنكيين بالأقدام أو أجبرتهم على التراجع بشكل لا يقاوم. وحل الاضطراب في صفوفهم وهرب نصف الجيش الفلمنكي أمام العدو؛ تم ضرب عدد كبير منهم ووجد الآخرون أنفسهم مشتتين لدرجة أنهم لم يتمكنوا من مقاومة سلاح الفرسان وطاردهم الفرنسيون حتى نهر ليس، حيث وجد جزء كبير منهم الموت في مياهه. ومع ذلك، نجح جي في حشد بعض من رجاله على حافة هذا النهر؛ لكن عدد الأعداء كان كبيراً للغاية. أهل شعب فيرن، بالرغم من تشتتهم هنا وهناك، حاربوا بغضب ويأس؛ غطت الرغبة شفاههم، وتدفت دماؤهم، ومع ذلك فإن الشجاعة البطولية التي أظهروها حتى تلك اللحظة لم تكن كافية لهم؛ كان كل منهم قد قتل بالفعل ثلاثة أو أربعة فرسان، لكن عددهم كان يتضاءل أكثر فأكثر، بينما يزيد عدد الأعداء؛ فقط أرادوا أن يموتوا بشرف وينتقموا من أولئك الذين استسلموا في ظل تفوقهم المادي.

عندما رأى جي هزيمة جيشه وآمن بخسارة المعركة، كان سيبيكي بحزن، لو وجد الحزن مكاناً في قلبه؛ لكن استولى عليه غضب قاتم. ولقد أقسم على ذلك، فإنه لم يكن يرغب في أن يعيش أكثر من ذلك، ومثل المجنون، ألقى حصانه في وسط الأعداء المنتصرين. تبعه كل من أدولف دو نيولاند وأرنولد دأودينيدي عن كذب؛ لقد قاتلوا مثل الإعصار الغاضب الذي جعل الأعداء المخيفين ينكمشون أمامهم أو يسقطون تحت سيفهم كما لو كان السحر؛ لكن الفلمنكيين كانوا يشعرون بالهزيمة، وكان الفرنسيون على حق في الصباح «عيد الميلاد! عيد الميلاد!» لأنه لا شيء بدا قادراً على إنقاذ قوات جي.

يمكننا الآن أن نرى، في اتجاه أودينيدي، وراء نهر جافري، من يتحرك في وسط الأشجار.. ثمة شيء يتلأأ تحت أشعة الشمس؛ تقدم هذا الظهور المفاجئ بسرعة وكان قريباً من المنطقة المنبسطة. شوهد اثنان من الخيالة يركضان بأقصى سرعة نحو ميدان المعركة: أحدهما كان فارساً، يمكننا أن نؤمن ذلك من صولجانه الرائع، درعه وغطاء حصانه الحديدي اللذان كانا يتألقان بانعكاسات ذهبية. ترفرف ريشة زرقاء كبيرة في الريح خلفه؛ كانت أحزمة سرج دابته مغطاة بشرائط فضية، ورُسم صليب أحمر على صدره؛ علاوة على ذلك، يمكن للمرء أن يقرأ هناك، بأحرف فضية كبيرة بارزة على خلفية سوداء، كلمة:

لم يكن هناك فارس في ساحة المعركة كان يرتدي درعاً رائعاً مثل هذا الغريب؛ لكن أكثر ما يميزه هو حجمه: لقد كان رأسه أطول من أقوى الرجال وكان يتمتع بقوام قد يجعله أحد أبناء العمالقة. أضاف الحصان الذي امتطاه الكثير إلى حجمه المذهل، حيث كان يتمتع أيضاً بحجم وقوة غير عاديين. تسربت رقائق كبيرة من الرغبة من فم الحيوان القوي وخرجت أنفاسه صفيراً من الرئتين في غيمتين كثيفتين من البخار. كان السلاح الوحيد الذي يحمله الفارس مطرقة هائلة، أو بالأحرى صولجان، برز فولاذها بوضوح مقابل اللون الأصفر المشرق لدرعه الذهبي.

كان الخيال الآخر راهباً سيئ التسليح والتجهيز؛ وقد أصاب الصداً درعه وخوذته لدرجة أنهما بدتا وكأنهما مطليتان باللون الأحمر. كان اسمه الأخ جيوم دي سيفتينج. أثناء تواجده في ديره في دوست، علم أن المعركة ستخاض ضد الفرنسيين، بالقرب من كورتراي؛ أخذ حصانين من إسطبالات الدير، واستبدل أحدهما بالأسلحة الصدئة التي كان يحملها، وركض فوق الحصان الآخر ليشارك في المعركة الكبرى. هو أيضاً كان قوياً بشكل غير عادي وقلبه مقداما، سيف طويل أشرق في يده، وكانت عيناه تعكسان لهباً يدل على أنه محارب لا يقهر. كان قد

التقى للتو بالفارس الغامض، وبما أنهما كانا يسيران نحو نفس الهدف، فقد سافرا معاً (110).

حول الفلمنكيون أعينهم بأمل بهيج إلى الفارس الذي كان يرتدي درعاً ذهبياً.. ذلك الذي جاء راکضاً نحوهم. لم يتمكنوا بعد من قراءة كلمة فلاندرز، المكتوبة على صدره، وبالتالي لم يعرفوا ما إذا كان صديقاً أم عدواً؛ لكن في الموقف الحرج الذي وجدوا أنفسهم فيه، تخيلوا أن الرب، بهذا الشكل، أرسل لهم أحد قديسيه لإنقاذهم من الخطر. كل شيء يمكن أن يلهمهم بهذا الاعتقاد، درعه المتلألئ وحجمه الهائل والصليب الأحمر الذي كان يرتديه على صدره.

جي وأدولف، اللذان كانا محاطين بالأعداء، دافعا عن نفسيهما بشجاعة، ونظر كل منهما إلى الآخر بنشوة؛ لقد تعرفا على الفارس في الدرع الذهبي. بالنسبة لهما، لقد خسر الفرنسيون؛ لأنهما كانا على ثقة كاملة في التدخل القوي للوافد الجديد. قالت النظرة التي تبادلهاها:

- أوه! بالسعادة! إنه أسد فلاندرز!

وصل الفارس ذو الدرع الذهبي أخيراً إلى صفوف الفرنسيين؛ وقبل أن يسأله أي شخص عن أتى للقتال أو المساعدة، هرع إلى النقطة التي كان فيها الفرسان أكبر عدداً وبدأ في ضرب صولجانه بمثل هذه الضربات الرهيبة

التي أصابت الفرسان بالرعب الشديد في وجود مثل هذا العدو الذي لا يقهر، تراجع الفرسان في حالة من الفوضى هرباً من هجماته. سقط كل شيء تحت مطرقة الهائلة، وترك خلف جواده، في صفوف العدو، فراغاً يشبه الفجوة التي تركها السفينة وراءها؛ وأثناء قتاله أو إبعاده لكل من يقابله، اقترب بسرعة مذهلة من الكائب الفلنكية المحاصرة على ضفاف نهر ليس وصاح:

- فلاندرز للأسد! اتبعوني! اتبعوني!

أطاح بالعديد من الأعداء في الوحل، وأظهر هذه القوة في عمله التدميري، لدرجة أن الفلنكيين آمنوا أكثر فأكثر بأنهم يرون فيه كائناً خارقاً للطبيعة.

أعادت هذه الفكرة الشجاعة إلى قلوبهم؛ اندفعوا إلى الأمام بقلب رجل واحد، بهتافات النصر، وتبعوا الفارس بالدرع الذهبي في مسيرته المنتصرة. لم يستطع الفرنسيون مقاومة هؤلاء الرجال الذين تحولوا إلى أسود؛ أدار من كانوا في الصفوف ظهورهم وأرادوا الفرار، لكنهم تعثروا في خيول من يقف خلفهم وسقطوا جميعاً واختلطوا بشكل عشوائي. ومن ثم بدأت مذبحه هائلة على طول خط المعركة كله؛ بدأ الفلنكيون يقتلون دون شفقة أو رحمة، وعبروا أكوام الجثث التي سقطت تحت ضرباتهم ليصلوا إلى أعداء آخرين. لم تسمع صيحة «عيد الميلاد!»، في هذه اللحظة،

دوت الصيحة الهائلة «فلاندرز للأسد!» وتردد صداها في جميع النقاط، وأصيب المقاتلون بالذهول من صخب الانتصار هذا لدرجة أنهم لم يعودوا يسمعون حتى صوت ضربات أسلحتهم.

نزل الأخ جيوم الراهب من على ظهر حصانه وكان يقاتل على الأقدام؛ سقط كل من كان في مرماه بضربة قاتلة؛ كان يقوم بتدوير سيفه كما لو كان يمسك بريشة، وكان يتحدى، بابتسامة ساخرة، الأعداء الذين هاجموه. كان الأمر كما لو كان يسلي نفسه في لعبة؛ لأنه كان سعيداً ويضحك كما لو كان يقاتل أطفالاً. ومع ذلك، على الرغم من مهارته، سقطت العديد من ضربات السيف على درعه الصديء. ولكن، بينما تنهال كل ضربة وضربة على درعه، ظل الأخ جيوم واقفاً راسخاً على جثث الأعداء الذين أطاح بهم. أي شخص لسوء الحظ يجروء على الاقتراب منه يقع على الفور تحت سيفه الهائل ويدفع حياته ثمناً لجرأته. وبجأة لمح على مسافة ما السيد لويس دي كليرمون مع رايته. صاح جيوم:

- فلاندرز للأسد! هذه الراية لي!

كما لو كان ميتاً، ألقى بنفسه على الأرض، وزحف على يديه وقدميه بين الخيول ونهض فجأة بجانب لويس دي كليرمون؛ سقطت عليه سيوف من جميع الجهات. لكنه

دافع عن نفسه بشكل جيد لدرجة أنه أصيب ببعض الكدمات فقط. لم يظهر بأي حال من الأحوال أنه يريد الاستيلاء على الراية، حتى إنه أدار ظهره لها؛ لكنه استدار فجأة، وطرح ذراع حامل الراية، ومزقها إرباً.

من المؤكد أن الراهب سوف يموت، ولكن القسم الأعظم من الجيش تمكن بالفعل من الوصول إليه؛ وتراجع الفرنسيون الذين حاصروه في حال من الفوضى. قام الفارس ذو الدرع الذهبي بتفريق الأعداء المحيطين بجي في لحظات قليلة؛ وكان لا يزال يسير إلى الأمام دون هدنة أو راحة. بكل ما يملك من أسلحة، حطم الخوذات والجماجم في طريقه ولم يلتقي بأحد يستطيع مقاومته؛ كل الذين سقطوا فاقدى الوعي دفعتهم الخيول إلى الورااء عند أقدامها، في هذا الوقت، اقترب منه جي، وقال له في سرعة:

- يا روبرت أخي الحبيب كيف أحمد الرب على إرسالك إلى هنا! لقد أنقذت فلاندرز!

لم يرد الفارس الغامض، بل وضع إصبعه على شفثيه كأنه يريد أن يقول:

السرية! السرية!

لاحظ أدولف أيضاً هذه الإيماءة، وقرر أن يتصرف، كما لو أنه لم يتعرف إلى كونت فلاندرز.

في غضون ذلك، دخل الفرنسيون في هزيمة كاملة؛ دفعت القوات الفلنكية بقوة العدو، الذي تراجع، وقضى على الفرسان الذين أطيح بهم بالفؤوس والهرافات. كانت آلاف الخيول غارقة في الأرض المحطمة وغطت جثث العدو الأرض بكميات كبيرة لدرجة أن المقاتلين لم يعودوا يقاتلون على العشب بل على فراش من الجثث وشظايا الأسلحة. اختفى جدول جرونينجن، ولم تشكل الجثث التي كانت تكسدت فيه الآن سوى أكوام من الجثث التي ترقد على ضفافه؛ كان يمكن للمرء أن يتعرف إلى مساره بمياهه الدامية، لكن الدم شكل في كل مكان بركا كبيرة.

اختلطت آهات المحتضرين مع أنين الجرحى الذين اختنقوا تحت الضغط الرهيب للمعركة، مع هتافات النصر التي أطلقها الفلنمكيون في ضجة مروعة ساهم فيها كل من دوي الأبواق، تصادم السيوف بالدرع، الصهيل المؤلم والخيف للخيول الغارقة في الوحل، ها هو بركان ينفجر ويمزق أحشاء الأرض ويطلق الصواعق التي ولدت بداخله، هذا البركان يمكنه وحده أن يعطينا فكرة عن هذا الاختلاط الخيف للصبح والضوضاء، واللذين كل منهما مرعب أكثر من الآخر. كان الأمر كما لو أن آخر ساعة من العالم قد حانت.

دقت الساعة التاسعة في برج الجرس في كورتراي عندما انسحب سلاح فرسان راؤول دي نيسل وسير دي

شاتيلون مهزومين وانضموا إلى قوات الكونت دارتوا. عندما علم روبرت بهزيمة رجاله، أصبح أعمى من شدة الغضب وأراد أن يركض إلى الجيش الفلمنكي مع الفيالق العديدة التي كانت تحت إمرته. سعى فرسان آخرون لجعله يتخلى عن خطته غير الحكيمة، من خلال الزعم أن الخيول لا تستطيع المغامرة فوق الأرض حيث اندلعت المعركة؛ لكنه لم يسمع لأحد وانطلق، تبعه جميع رجاله، وسط حشد الهاربين. الفرسان الذين هربوا من الضربة الأولى تمت إعادتهم إلى الورا من قبل القهرمان وقواته وهربوا في حال من الفوضى من جميع الجوانب للخروج من المعركة الخفيفة؛ لكن هذا كان مستحيلاً بالنسبة لهم، فالصفوف الأولى كانت تدفع للأمام من قبل أولئك الذين تبعوها، وسقطت القوات الجديدة، بأكبر قدر من الجرأة، على الجيش الفلمنكي. عند الصدمة الأولى، أُجبرت قوات جي على التراجع إلى الجزء الخلفي من جدول جرونينجن؛ لكن الخيول التي سقطت هناك خدمتهم كطريق ووجدوا أنفسهم في مأوى محصن.

لم يستطع الفرسان الفرنسيون الوقوف على الأرض الموحلة؛ سقطوا فوق بعضهم البعض، وهلك الكثير منهم، وانداسوا تحت الأقدام وسحقهم الآخرون. عند هذا المشهد، غضب السيد دراتوا غضباً شديداً، واندفع بالفرس خلف الجدول مع عدد قليل من الرجال الجريئين وسقط

على قوات جي. بعد معركة قصيرة استسلم فيها العديد من الفلنكيين، أمسك روبرت دراتوا براية فلاندرز الكبيرة ومزق منها قطعة صغيرة كانت تحتوي على أول مخلب للأسد (111). وارتفعت هتافات غاضبة من صفوف الفلنكيين:

- إلى الموت! إلى الموت! صاح الفلنكيون من كل حدب وصوب.

سعى القهرمان إلى انتزاع الراية من أيدي سيغير لونكي، الذي يحملها؛ لكن الأخ جيوم، ألقى سيفه؛ وركب على ظهر حصان السيد دراتوا؛ قام بربط ذراعيه حول رقبة الكونت، وأراح قدميه على السرج، وسحب روبرت للخلف بقوة بحيث سقط الكونت من على حصانه؛ وتدرج الخصمان فوق الأرض. في غضون ذلك، هرع الجزائريون، وقام جوان بريدل، الذي كان يرغب في الانتقام من الإهانة التي حدثت لراية فلاندرز، بضرب ذراع روبرت بضربة من فأسه. الشيخ البأس، الذي رأى نفسه وجهاً لوجه مع الموت، سأل عما إذا كان هناك رجل نبيل يمكنه الاستسلام له؛ لكن الجزائريين صاحوا فيه أنهم لا يفهمون لغته وضربوه بفؤوسهم حتى أسلم روحه.

في هذه الأثناء، قام الأخ جيوم أيضاً بضرب المستشار بيير فلوت ورفع سيفه لشق رأسه؛ توسل المستشار من

أجل الرحمة. ابتسم الأخ جيوم بسخرية وشق رأسه إلى مؤخرة رقبته؛ سقط المستشار، محروماً من الحياة، على وجهه في دمه. تمت الإطاحة بالسيد تانكارفيل وأسبريمونت بصولجان الفارس في الدرع الذهبي. قام جي بشق رأس رينو دي لونجيفال بضربة، وأطاح أدولف دي نيولاند براؤول دي نورثفورت من على السرج. أكثر من مئة رجل فقدوا حياتهم في لحظات قليلة.

حارب السيد رودولف دي غوكورت، والملك بالتازار وسيجيس مع سبعين فارساً من النخبة لفترة طويلة ضد شعب غينت التابع لجون بولوت. الملك وجميع رفاقهما قد لقوا حتفهم، وظل رودولف، الذي سقط من على حصانه، منتصباً وسط أعدائه، الذين واجههم بشجاعة رائعة. لقد حارب شعب غينت بمهارة فائقة وأبقاهم على مسافة ما منه بضربات سريعة من سيفه. وبقية رأى مجموعة قوامها نحو أربعين فارساً فرنسياً، ولج فيما بينهم؛ لكن جون بولوت لاحقه على رأس عدد كبير من شعب غينت. سرعان ما استسلم الأربعة فارساً، وما زال رودولف دي غوكورت يدافع عن نفسه بنفس الشجاعة. منهكاً من الجروح والتعب، انهار أخيراً فوق جثث إخوانه في السلاح وركض أهل غينت إليه لقتله؛ لكن جون بولوت لم يكن يريد أن يفقد الفرنسي الشجاع حياته، فأعاده إلى خلف خط المعركة وأخذه تحت

على الرغم من تعرض الصفوف الأولى في الجيش الفرنسي لهزيمة مدوية في هذا الصراع الناري، إلا أن الفلمنكيين كانوا يحرزون تقدماً ضئيلاً؛ لأن تعزيزات جديدة للعدو كانت تأتي باستمرار لتحل محل أولئك الذين هلكوا.

حارب الفارس ذو الدرع الذهبية مثل أسد حقيقي، في الجناح الأيسر، ضد كتيبة كاملة من سلاح الفرسان. إلى جانبه قاتل بنفس الشجاعة جي وأدولف دي نيولاند؛ كان هذا الأخير يندفع في كل لحظة إلى وسط صفوف العدو، وكان قد عرّض حياته للخطر بشكل متكرر؛ كان يمكن للمرء أن يقول إنه عقد العزم على الموت أمام أعين الفارس بالدرع الذهبية. «والد ماتيلد الأميرة الصغيرة يراني!» كان يفكر بهذا الشكل؛ ومن ثم شعر برثته تمتص الهواء بحرية أكبر؛ وشعر بقوة أكبر في عضلاته، وشعر في روحه بازدياد أكبر للموت. صاح الفارس ذو الدرع الذهبية في وجهه عدة مرات حتى لا يكشف عن نفسه بهذا الشكل؛ لكن صدى هذه الكلمات، التي دقت في أذني أدولف مثل المديح، كان لها تأثير معاكس تماماً؛ لأنه عند كل نداء من الفارس ذي الدرع الذهبية، كان حصان الشاب الشجاع يتجه نحو العدو ويندفع أكثر إلى صفوف الفرنسيين. لحسن حظه، كانت هناك ذراع أقوى من ذراعه تراقب

حياته وكان هناك رجل بجانبه أقسم بحب أبي علي حمايته.
في الجيش الفرنسي بأكله، بقيت راية واحدة فقط قائمة.
لا تزال الارية تحمل شعار النبالة المبره، بزهوره الزنابق
الفضية وجواهره اللامعة التي تزين شعار فرنسا. أشار جي
للفارس بالدرع الذهبية باتجاه من يحمل الارية المقدسة ثم
صاح:

- هذا جل ما نحتاج إليه!

لقد جاهدوا، كل على حدة، لاخترق الصفوف
الفرنسية؛ لم ينجحوا في البداية، لكنهم استمروا في إبعاد
الأعداء من أمامهم. وجد أدولف دو نيولاند أخيراً مكاناً
أكثر ملاءمة، حيث مر بمفرده عبر سلاح الفرسان
الفرنسي ووصل، بعد جهود طويلة بالقرب من الارية
النبيلة.

أي يد قاتلة، أي روح شريرة دفعت الشاب إلى موته؟ لو
كان يعرف مقدار الدموع المريرة التي تذرّفها الناس عليه
في هذه اللحظة وهم يفكرون به، لو كان يعرف كم مرة
قيل اسمه من بين شفّتي امرأة ليصعد إلى السماء بصلاة..
أوه! لم يكن ليعرض نفسه بشكل متهور للموت، ربما كان
سيتراجع مثل الجبان!

كانت الارية محاطة بمجموعة صغيرة من الفرسان. لقد
أقسموا على شرفهم أن يموتوا تحت ثايا الارية المقدسة

بدلاً من تركها تنزع بيد العدو. ما الذي يمكن أن يفعله أدولف ضد هذا العدد من الأبطال الشجعان؟ وأيضاً، بمجرد ظهوره، تم الترحيب به بهتافات ساخرة؛ دارت كل السيوف حول رأسه، ورأى نفسه محاطاً من جميع الجهات بدائرة من الأعداء، وسقطت ألف ضربة على درعه، وعلى الرغم من براعته، فقد أصبح من المستحيل الدفاع عن نفسه بعد الآن. وبالفعل تدفق الدم تحت خوذته وجب بصره؛ أصيبت عضلاته بالشلل بسبب كدمات لا حصر لها. استولى عليه الغضب واليأس الشديد وشعر أن ساعته الأخيرة قد حانت، فأخذ يصبح حتى سمعه الفرنسيون:

- ماتيلدا! ماتيلدا! وداعاً!

قال ذلك، واندفع عبر سيوف الأعداء إلى الراية، التي انتزعها من حاملها، ولكن عشرات الأيدي أخذتها منه؛ وقد شعر بأنه يضرب ضربات مضاعفة وانهار على ظهر حصانه.

أظهرت الحركة التي كانت تجري في هذه اللحظة بين المقاتلين للفارس ذي الدرع الذهبية الخطر الذي كان يواجهه أدولف. لقد فكر في الألم الذي ستشعر به ماتيلدا المسكينة إذا مات أدولف تحت ضربات العدو؛ التفت إلى الجنود المحيطين به وصرخ بصوت مدو طغى على جلبة المعركة:

- هلهوا لي يا أهل فلاندرز! إلى الأمام! إلى الأمام!

مثلها يقاتل البحر الغاضب بقوة لا تقاوم العوائق التي تبقى في القاع، وبعد صراع طويل يبتلع في أعماقه التي لا يسبر غورها السد الذي يوقفه، وينثر موجاته الرغوية في الريف ويقتلع الغابات والأشجار ويطيح بالمدن، هكذا اندفع الجيش الفلمنكي بناء على دعوة الفارس المجهول.

تعرض الفرنسيون لهجوم شديد لدرجة أنه تم كسر صفوف كاملة في الصدمة الأولى؛ وسقطت ضربات العصي والفؤوس بقوة مثل البرد الذي يقضي على ثمار الأرض. لم نشهد مثل هذا الصراع العنيف؛ كان جميع المقاتلين ملطخين بالدماء ولا يزال العديد منهم شاهراً سلاحه في قبضته بعد أن تعرضوا لضربات قاتلة لفترة طويلة. لقد كان خليطاً من الرجال والخيول يفوق الوصف. اندمجت أكثر صيحات الموت شراً، مع الأنين الذي يدمي القلوب في صخب واحد رهيب وهائل، مما أدى إلى المزيد من الغضب في القلوب. لم يعد الفرسان الفرنسيون قادرين على التحرك، فقد تم دفعهم من جميع الجهات إلى الخلف على من تبعهم، بينما قامت الفؤوس والسيوف بعملها الرهيب في صفوفهم الأمامية.

كان الفارس ذو الدرع الذهبية قد شق، بفضل فأسه القتالية الهائلة، ممراً عبر العدو واقترب من راية فرنسا؛ وقد

تبعه جي أرنولد دأودينيردي مع بعض من أكثر الفلمنكيين شجاعة. حاول، ولكن دون جدوى، أن يكتشف حول الراية الريشة الخضراء لأدولف دي نيولاند؛ لكنه اعتقد، بعد لحظة، أنه تعرف إليها بعد قليل ما بين الفلمنكيين. اندفع الأربعون فارساً من نخبة الفرسان، الذين وقفوا حول الراية، مثل الأبطال الحقيقيين إلى الفارس بالدرع الذهبي؛ لكنه قام بتدوير صولجانه بمهارة بحيث لا يستطيع أي سيف الوصول إليه. مع الضربة الأولى، حطم جمجمة السير آلان دي بريتاني؛ ومع الضربة الثانية، كسر درع ريتشارد دي فاليس وأخرج ضلوعه من جانبه. في غضون ذلك، حارب الفلمنكيون الآخرون بشجاعة ممثلة؛ وأصيب أرنولد دي أودينيردي بجرح في الرأس، وسقط أكثر من عشرين من رجاله تحت ضربات الفرنسيين.

الفارس ذو الدرع الذهبية أطاح بكل من يأتي في متناول يديه؛ بالفعل كان جون ديميري وأرنولد دي فاهين وهو جيز دي فيان مستقلين عند قدميه. لم تستطع العين أن تتبع الفأس الذي يستخدمه في المعركة، فسرعان ما كان يسقط عدوا تلو الآخر. وسرعان ما أدرك الشخص الذي يحمل الراية أنه سيكون من المستحيل عليه الاحتفاظ بها في هذا المكان فهرب بها إلى مكان أبعد؛ ولكن عند هذا المنظر، دفع الفارس ذو الدرع الذهبية بعنف ثلاثة أو أربعة أعداء من طريقه، وطارد حامل الراية إلى منتصف الصفوف

الفرنسية، على مسافة كبيرة من مكان القتال؛ ولقد وصل إليه وقاتله طويلاً وبطريقة جيدة لدرجة أنه استولى أخيراً على الراية. هرعت إليه مجموعة كاملة من الفرسان لاستعادتها. لكن الفارس وضعها في ركاب السرج كالرمح وجعل الكثيرين من خصومه يسقطون على التراب بينما يتراجع عبر صفوف العدو. عاد أخيراً إلى وسط الجيش الفلمنكي، ورفع الراية التي تم الاستيلاء عليها في الهواء، وصاح:

- فلاندرز للأسد! النصر لنا!

دوت هتافات حماسية استجابة لهذه الصيحة، ولوح كل منهم بسلاحه في ذراعه في الهواء كعلامة للفرح؛ لقد ازدادت شجاعة الفلمنكيين أكثر عند رؤية الغنيمة التي تم الاستيلاء عليها.

كان جي دو سان بول لا يزال بالقرب من بوتيلبيرج وقد جمع نحو عشرة آلاف من المشاة وفرقة كبيرة من سلاح الفرسان. كان قد حزم بالفعل كل الأشياء الثمينة الموجودة في المعسكر، وكان يفكر في إنقاذ رجاله بالهروب؛ ولكن بيير ليرون، الذي نحن نوايا جي، هرع إليه وتبع ذلك بالصياح قائلاً:

- أوه! السيد دي سان بول، هل تجرؤ على التصرف على هذا النحو؟ مثل الجبان، هل ستترك موت السيد دارتوا

وجميع إخوتنا دونما أي انتقام؟ أوه! أتوسل إليك، من أجل شرف فرنسا، لا تفعل ذلك. بل دعونا نموت هرباً من عار الهزيمة. قد رجالك إلى الأمام؛ ربما مع هذه القوات الجديدة سوف تجلب لنا النصر.

لم يكن جي دي سان بول يريد أن يسمع شيئاً عن القتال، فقد استولى عليه الخوف. فأجاب:

- السيد ليرون، أعرف ما عليّ فعله. لن أدع أمتعة الجيش تقع في أيدي العدو؛ من الأفضل أن أعيد الرجال الذين بقوا إلينا إلى فرنسا بدلاً من تعريضهم للموت المؤكد وغير المجدي.

- وهل ستتخلى، بتسليمهم للعدو، عن أولئك الذين ما زالوا يحملون السيف في أيديهم؟ أوه! هذا سلوك غادر! إذا نجوت اليوم سأتهمك أمام الملك بالجبن وبالخيانة.

- الحكمة تأمرني بالتراجع، سيد ليرون. سأرحل، مهما قلت؛ لأن نصيحتك مستوحاة من حماس يعميك؛ أنت منزع للغاية!

- وأنت خائف للغاية! لكن فليكن الأمر كذلك كما تشاء؛ لأظهر لك مع ذلك أنني أتصرف بحكمة أكثر منك، فسأمضي قدماً بكتيبة لتغطية الانسحاب وتسهيله. اذهب، وسأصدي أنا للعدو (113).

وبالفعل، أخذ فيلقًا من ألفين من المشاة وقادهم إلى ساحة المعركة. في غضون ذلك، كان عدد الفرنسيين المشاركين في القتال متناقصًا لدرجة أن هناك العديد من الثغرات في خط المعركة، مما مكن الفلمنكيون من مهاجمتهم من الأمام والخلف.

تمكن الفارس ذو الدرع الذهبية -الذي بفضل طوله ومكانه العالي على حصانه- من مسح ساحة المعركة بأكملها بنظرة، ولاحظ حركة ليرون وفهم نيته. كان من الواضح له أن سان دي بول يريد الهروب بأمتعة الجيش؛ فاقرب من الكونت جي وأبلغه بتصميم العدو. تم إرسال عدد قليل من الفرسان على الفور لإعطاء الأوامر إلى قادة مختلف الفرق. بعد لحظات قليلة، بدأ العديد منهم في التحرك والانتشار في جميع الاتجاهات؛ اقترب السيد جون بورلوت من أسوار المدينة مع جنود شعب غينت وهاجموا ليرون من كل جانب؛ وقام الجزارون، بقيادة عميدهم بريدل، بإحاطة قلعة نديرمورشير وحاصروا المعسكر الفرنسي من الأمام والخلف.

لم تتوقع قوات سان دي بول هذا العدوان: لقد كانوا منشغلين في جمع أغلى الأشياء على عجل، عندما ظهر فجأة على رؤوسهم فأس الجزارين، رفيق الموت. الصيحات الرهيبة للفلمنكيين قد أربعتهم لدرجة أنهم فروا في حال من الفوضى في كل الاتجاهات؛ وقد ارتكب الجزارون

مذبحة فظيعة ضدهم. نجى دو سان بول، الذي امتطى حصاناً جيداً، من خطر الموت وفر على عجل دون أن يفكر في رجاله. وسرعان ما تم اجتياح المعسكر؛ وبعد بضع ساعات لم يبق أي فرنسي على قيد الحياة.

وهكذا استولى الفلنكيون على أواني الذهب والفضة الثمينة والكنوز التي لا تعد ولا تحصى التي كان العدو يحملها معه.

في ميدان المعركة، لم يكن القتال قد انتهى بعد، حيث تجمع نحو ألف فارس في مجموعة واحدة، ما زالوا يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون مثل الأسود، رغم أنهم كانوا مغطين بالجروح؛ كان من بينهم أكثر من مئة من الفرسان النبلاء الذين لم يرغبوا في العيش والنجاة بعد هذه الهزيمة. وقد اندفعوا للقتال بغضب أعمى في صفوف الفلنكيين. وشيئاً فشيئاً أُعيدوا إلى أسفل أسوار المدينة، في المكان الذي يدعى بترميرش. هناك سقطت خيولهم إلى الورا في الروندويتبيك وغرقت في الوحل على ضفاف هذا الجدول؛ الفرسان؛ الذين أصبحوا عاجزين عن استخدام خيولهم، ترحلوا واحداً تلو الآخر، وبعد أن تم ترتيبهم في دائرة، قاتلوا سيراً على الأقدام وقتلوا عدداً كبيراً من الفلنكيين، بينما كان عدد أكبر منهم سقط في الوحل مثل خيولهم. لم تكن بترميرش أكثر من بركة من الدماء اختفت فيها أقدام المقاتلين. القتلى والمحتضرون والجرحى

يرقدون الحابل مع النابل وسط الخوذات المكسورة،
وشظايا السيوف، والدروع المحطمة.

ركض عدد قليل من اللييارد، من بينهم جون دي
جيستل وعدد معين من البرابانتين، الذين رأوا أنه لم يعد
هناك أي خلاص محتمل، بين الفلمنكيين، وهم يصيحون:

- فلاندرز للأسد! تحيا فلاندرز!

ظنوا أنهم سينقذون أنفسهم بهذه المناورة؛ لكن نساجاً
اندفع في الحال نحو جون دي جيستل ووجه له ضربة
مروعة على رأسه حتى كسرت جمجمته؛ وغمغم بصوت
باهت:

- قال لك والدي أيها الخائن إنك لن تموت في سريرك!

أما الآخرون، فقد خانتهم دروعهم وقتلوا كأشخاص تخلوا
عن بلادهم.

كان جي يتعاطف مع الفرسان الذين كانوا لا يزالون
واقفين ويدافعون عن أنفسهم بشجاعة؛ وصاح فيهم أن
يستسلموا له، معلناً أن حياتهم ستنقذ. واقتناعاً منهم أن
أي ذرة شجاعة لم تعد قادرة على خدمتهم، استسلموا ونزع
سلاحهم؛ تم تعيين جون بولوت مسؤولاً عن حراستهم.

كان تيبوت الثاني، دوق لورين سابقاً، على رأس هؤلاء
الأسرى النبلاء، الذين ارتفع عددهم إلى ما يقرب من

الستين؛ كان الباقون جميعاً من النبلاء والمعروفين بالمحاربين الشجعان.

لم يعد هناك عدو يمكن قتله في ساحة المعركة؛ لكن كان بإمكاننا أن نرى، في جميع الاتجاهات، الهاربين يتعدون بسرعة كبيرة هرباً من الخطر. فوجئ الفلمنكيون بعدم الاضطرار إلى القتال ولكنهم ما زالوا محملين بحماس المعركة، فاندفعوا في القوات عبر الحقول لملاحقة الهاربين؛ بالقرب من مستشفى سانت مادلين وصلوا إلى كتيبة من رجال سان دي بول وقتلهم جميعاً؛ بعد ذلك بقليل وجدوا السيد جيوم دي موشيري، الليليارد الذي هرب من المعركة مع عدد قليل من الآخرين. عندما رأى نفسه محاصراً، توسل من أجل الرحمة ووعد بخدمة روبرت دي بيثون من الآن فصاعداً كمواطن مخلص؛ لكن لم يستمع إليه أحد، وحرمه فأس الجزارين من الكلام مع الحياة في الوقت نفسه.

استمرت هذه المطاردة طوال اليوم ولم يتوقف إلا عندما لم يعد هناك عدو واحد في أي مكان.

يا إلهي! بأي حال.. تجده..!

(نص مقدس)

على الرغم من أن جزءًا كبيراً من الجيش الفلمنكي طارد العدو عبر الحقول، إلا أن القوات النظامية لا تزال تحتل ساحة المعركة. كان جون بورلوت قد جعل رجاله يبقون هناك لحراسة الأرض التي دار فيها القتال حتى اليوم التالي، وفقاً لعادات الحرب؛ فقط قلة منهم، دفعهم الحماس المفرط، لتجاهل هذا الأمر؛ كان عدد الفيلق الذي يقوده بورلوت لا يزال يبلغ ثلاثة آلاف من غينت؛ كان هناك أيضاً العديد من الرجال الذين أنهكهم التعب أو الجروح التي أصيبوا بها، ولم يتمكنوا من ملاحقة العدو، وبالتالي ظلوا في ساحة المعركة؛ الآن بعد تحقيق النصر، صاح الفلمنكيون، المدافعون المنتصرون عن وطنهم، بحماس:

- فلاندرز للأسد! النصر! النصر!

ومن أعلى الأسوار، استجاب سكان إبيرس وكورتراي بهتافات أكثر حيوية. هم أيضاً كانوا يصيحون بالنصر؛ لأنه بينما كان الجيشان يتصارعان في سهل جرونينجن، سقط السيد لنس من القلعة في المدينة مع مئة من رجاله،

وربما قاموا بتحويل كورتراي إلى رماد؛ لكن سكان إبيرس قاتلوا الفرنسيين بشجاعة شديدة لدرجة أن العدو أجبر على العودة إلى القلعة في حال من الفوضى. وقد وجد السيد لنس، عندما أحصى رجاله، أن عشر رجاله هم الذين نجوا فقط من غضب سكان المدينة.

ذهب معظم الرؤساء والنبلاء إلى المعسكر وتجمعوا حول الفارس ذي الدرع الذهبية؛ وقد أعربوا له عن امتنانهم الشديد؛ لكنه خوفاً من الكشف عن نفسه لم يجبههم. التفت الكونت جي، الذي كان بجانبه، إلى الفرسان الآخرين قائلاً:

- أيها السادة، الفارس الذي أنقذنا بأعجوبة نحن جميعاً وكذلك فلاندرز، هو صليبي لا يرغب في أن يُعرف. يحمل أنبل أبناء فلاندرز اسمه.

صمت الفرسان، لكنهم سعوا، كل على حدة، إلى تخمين من هذا الرجل الذي كان من عرق نبيل للغاية وشجاعاً وقويًا للغاية في الوقت نفسه. أولئك الذين كانوا حاضرين في الاجتماع في غابة ديلز كانوا يعرفون لفترة طويلة من هو، لكنهم لم يجرؤوا على الكلام؛ لأنهم وعدوا رسمياً بإبقاء الأمر سراً. من بين الآخرين، كان الكثيرون قد شككوا في أنه كونت فلاندرز، ولكن كان يكفي أن جي قد أعرب عن رغبة الفارس المجهول لهم حتى اعتبروا أن

الصمت أمر واجب.

بعد أن تحدث روبرت لبعض الوقت بصوت منخفض مع جي، نظر حوله إلى جميع الكآبب الموجودة. وبعد أن تفقد بعينه ساحة المعركة بأكملها، اقترب من جي أكثر، وسأله:

- أنا لا أرى أدولف دو نيولاند؛ أنا أرتجف من القلق. هل من الممكن أن يكون صديقي الشاب قد وقع تحت ضربات العدو؟ أوه! سيكون حزناً مميتاً بالنسبة لي. وماتيلد المسكينة، كيف ستحزن على أخيها الحبيب!

- إنه لم يميت يا روبرت؛ يبدو أنني رأيت ريشته تتوج الآن بين أشجار الغابة الهولندية. إنه بلا شك يلاحق آخر أعدائنا؛ لقد رأيت بنفسك كيف كان يندفع بشكل لا يقاوم في وسط الفرنسيين. لا تخف، لن يسمح له الرب أن يموت!

- أوه! هل يمكنك قول الحقيقة يا جي! ينفطر قلبي من فكرة أن ابنتي المسكينة، في مثل هذا اليوم الجميل، لا تستطيع أن تفرح. أتوسل إليك يا أخي، أن ترسل رجال السيد بورلوت إلى ساحة المعركة، والسماح لهم بالبحث حتى يتم العثور على جثة أدولف. سأقوم بمواساة عزيزتي ماتيلد، على أمل أن يمنحها وجود والدها لحظة من السعادة على الأقل.

لوح للفرسان الحاضرين وركض في اتجاه دير جرونيجنج. أمر جي جون بورلوت بإرسال رجاله إلى ساحة المعركة لإخراج الجرحى من بين الجثث وإعادة الفرسان القتلى إلى المعسكر.

عند وصولهم إلى مكان القتال، توقف أهالي غينت فجأة، وكأنهم مذعورون من المشهد المروع الذي أصاب أعينهم. الآن بعد أن تبدد شغف القتال، تحولت أنظارهم في رعب على هذا السهل الشاسع مغموراً بالدماء، حيث ترقد الجثث والخيول المذبوحة والرايات المهجورة والأطراف المتناثرة لعدة آلاف من الجنود. من بعيد، هنا وهناك يمكن رؤية رجل يحتضر وهو يرفع ذراعه إشارة للصلاة والدعاء. ضجيج حزين وممل، مئة مرة وأكثر شراً من عار الصمت وشره، حلق فوق هذه الأجساد المكدسة. إنه صوت الجرحى ينادي:

- أعطونا نشرب! أعطونا نشرب! بحق الرب، أعطونا نشرب!

أهبت الشمس عضلاتهم العارية بأشعتها الحارقة وعرضتهم لعذاب عطش لا يطاق؛ التصقت شفاههم بعضها ببعض، فكانوا بالكاد يستطيعون أن يصدروا صرخات الألم والاحتضار. الغربان السوداء تلقي بظلالها على الهواء مثل السحب في العاصفة؛ وقد حلق النعيق

الجنائزي لهذه الطيور الجارحة الجشعة فوق ساحة المعركة
وملاً بالرهبة قلوب أولئك الذين ما زالوا يتنفسون وتسري
بهم حياة. سرعان ما انقضت الغربان على الجثث ومزقت
بمخالبها العضلات التي لا تزال تنبض. كإفخ الجرحى في
يأس ضد هؤلاء الأعداء المخيفين وارتجفوا رعباً من فكرة
أن لحمهم سيستخدم كغذاء لها؛ وهذا يعني بالنسبة لهم أنه
لا يوجد قبر؛ ولا توجد لهم راحة بعد الموت؛ ولا توجد
أرض مقدسة ينامون فيها حتى يوم القيامة!

يا له من احتمال رهيب! يا لها من فكرة مروعة!

جاء عدد لا يحصى من الكلاب الجائعة تجري من
المدينة، تجذبها رائحة الدم؛ ركضت من جثة إلى أخرى
ونادت بعضها بعواء طويل وحزين، كأن الجحيم قد أرسل
كل هذه الشياطين للاحتفال بقدم أرواح كثيرة. لكن
هذه الحيوانات لم تلمس الجثث؛ يبدو أنها، على العكس من
ذلك تتنحب حزناً على رفات الموتى. على الرغم من أنها
كانت تعلق هنا وهناك دماء البشر مع دماء الخيول، إلا
أنها قاتلت الغربان بضراوة وبالتالي احتفظت بالعديد من
الجثث من مخالبها القذرة. إلى كل هذه الأصوات المشؤومة
اختلط الصهيل الباهت، أو بالأحرى آهات الخيول
المحتضرة وهتافات الانتصار للرجال العائدين إلى المدينة.
أوه! نعم، يا له من مشهد مرعب، كل هؤلاء الشجعان
والذين جعل الموت ملاحظهم شاحبة، قد ناموا نومهم

الأبدي (114).

عندما انتشر سكان غينت عبر ساحة المعركة، حلقت الغربان أمامهم وذهبت بعيداً للبحث عن فريسة جديدة. كان يتم البحث عن كل من قلبه لا يزال ينبض ويتم نقلهم إلى المعسكر لإعادتهم إلى الحياة. ذهب عدد كبير من الجنود للحصول على المياه العذبة في جميع أنواع الأواني من جدول جافريس لإغاثة أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة. كان منظرًا مؤثرًا للغاية عندما رأينا الرغبة المحمومة التي يشرب بها الجرحى هذا الماء المنعش والامتنان الذي استقبلوه به والدموع في عيونهم من أيدي إختهم أو أعدائهم (115). كلما انشغل شخص ما بأحدهم، ترفع الأذرع بالدعاء في الجوار، ويقول عدد من الأصوات الضعيفة:

- أوه! أغيثوني أنا أيضاً، أعطوني حتى ولو قطرة ماء واحدة.. باسم آلام مخلصنا، أيها الإخوة، أنعشوا شفتي وأنقذوني من الموت..

تلقي سكان غينت أمراً بنقل جميع الفرسان الفلمنكيين الذين وجدوا أحياءً أو أمواتاً إلى المعسكر؛ لقد قاموا بالفعل بفحص ما يقرب من نصف الجثث واستكشاف جزء كبير من ساحة المعركة؛ تم بالفعل نقل جثث اللوردات النبلاء سالومون دي سيفيكوت، وفيليب دي هوفستاد،

ويوستاش سبوركين، وجان دي سيفرين، وبيبر دي بروج، وكانوا مشغولين بإزالة درع جون، رب ماتشيلن، الذي كان مصاباً فقط. لقد اقتربنا بالفعل من المكان الذي كان القتال فيه أكثر شراسة، حيث أحاطت أكوام هائلة من الجثث الدامية بالمستكشفين من جميع الجهات. وبينما تم إغاثة رب ماتشيلن، سمعت فجأة تنهيدة خانقة، بدا وكأنها تخرج من تحت الأرض؛ استمع الجميع، لكنهم لم يكتشفوا شيئاً؛ لم تظهر أي من الجثث الملقاة أدنى علامة للحياة. عند تحريك الجثث للعثور على الشخص الذي كان يئن للتو، سمع سكان غينت أنيناً آخر ولاحظوا أنه كان يخرج من كومة من الخيول التي سقطت والتي كانت بعيدة إلى حد ما. بدأ الجميع في العمل مرة واحدة وبعد جهود طويلة، تم تنحية الخيول الميتة جانباً واكتشاف الفارس المحتضر.

كان مستلقياً على ظهره؛ كان الدم يتدفق من تحته مثل النبع، ويشق طريقه نحو جدول جرونيجن. تناثرت حوله أذرع وأرجل مقطوعة؛ وسوت درعه تحت ثقل حصان؛ في يده اليمنى ما زال يحمل سيفه وفي يده اليسرى وشاح أخضر؛ كان خداه شاحبين وباهتين ويحملان كل علامات الموت الوشيك. ألقى نظرة حائرة على الذين جاؤوا لإنقاذه؛ لم يعد لدى جفنيه الضعيفين القوة لحماية عينيه المظلمتين من أشعة الشمس الحارقة. تعرف جون بورلوت

على أدولف دي نيولاند البأس.

وقد أسرعوا بفك سيور درعه؛ رفعوا رأسه من الوحل وبللوا شفثيه بماء عذب. همس صوته المحتضر ببعض الكلمات غير المفهومة وأغلقت عيناه تماماً كما لو أن روحه قد حلقت بعيداً.

كان الهواء والماء العذب قد أمدها بالقوة إلى حد ما ولكنه ظل فاقداً للوعي بعضاً من الوقت؛ عندما وصل إليه السيد بورلوت، كان ما زال ضعيفاً ومنهكاً، وقد قال بصوت بطيء للغاية لدرجة أنه كانت هناك وقفة بين كل كلمة وهو ممسك بيده:

- أنا أموت، كما ترى، سيدي جون، لن تصمد روحي طويلاً على الأرض؛ لكن لا تبك علي. إنني أموت سعيداً، فلقد تم الانتقام للوطن.

كان تنفسه قصيراً جداً بحيث لم يعد قادراً على الكلام؛ انهار رأسه على ذراع جان بورلوت، ورفع ببطء الوشاح الأخضر إلى شفثيه. في هذا الوضع، فقد كل الحس وظل ساكناً مثل جثة على صدر جون بورلوت. ومع ذلك، استمر قلبه في الخفقان ودفء الحياة لم يترك صدره. لا يزال فارس من غينت يحمل بعض الأمل، وقد نقل الرجل الجريح إلى المعسكر، مع كل الاحتياطات الممكنة.

كانت ماتيلد الأميرة الصغيرة قد لجأت، قبل المعركة،

مع أخت أدولف، إلى زنزانة في دير جروينجن. من المؤكد أنه لم يكن هناك أحد في هذه اللحظة في كل فلاندرز كان فريسة لقلق أكثر إيلاًماً وتأثراً؛ كانت هذه المعركة لرفع عرش فلاندرز أو كسره إلى الأبد. إذا انتصر الفرنسيون، فقد توقعت موت كل من كان عزيزاً عليها، ومصيرها الأكثر فظاعة!

بمجرد أن دق البوق في ساحة المعركة بأصواته الحربية، ارتجفت الفتاتان وشجبتا، كما لو أن ضربة مميتة قد أصابتهما في الوقت نفسه. في هذه اللحظة الرهيبة والمهيبة، كان من الصعب عليهما التعبير عن المشاعر الغامرة التي تعذب روحيهما؛ كانت كل كلمة يتم تبادلها تضاف إلى مخاوفهما؛ لذلك كاتتا قد سقطتا، مع نفس الحركة، على ركبهما، راكعتين إلى الرب. انهارت رؤوسهما بشدة على المنضدة وتدفقت الدموع الصامتة على وجنتيهما. كاتتا هناك تصليان بحماسة لا توصف وبلا حراك كما لو كاتتا قد غرقتا في نوم عميق. فقط من وقت لآخر، عندما ترتفع أصوات المعركة، تفلت تنهيدة خانقة من صدريهما، وتقول ماري وهي تئن:

- الرب القدير، رب الجنود ارحمنا! ساعدنا في محنتنا يا

رب!

ويرد صوت ماتيلدا قائلاً:

- يا يسوع يا حلیم، يا مخلصنا، احفظه، لا تستدعه بالقرب

منك يا ربي الرحيم! يا أم الرب المقدسة، صلي من أجلنا!

- يا أم المسيح -مواسية البائسين- صلي من أجله!

كلما ازداد صحب المعركة دوى الشؤم في قلبيهما،
وارتجفت أيديهما من الرعب مثل أورك شجر الحور
المرتعشة؛ وانحنت جباههما بشكل أعمق، وكلما غمرت
عيونهم الدموع الغزيرة، أصبحت صلاتهما مرة أخرى غير
واضحة وغير مفهومة.

استمرت المعركة وقتاً طويلاً للغاية، وكان الصخب المروع
للقوات التي تشتبك معاً يرتفع ويصل لفترة طويلة إلى دير
جرونيجن، لكن صلاة الفتاتين الشابتين استمرت لفترة
أطول؛ لأن الفارس ذا الدرع الذهبية عندما طرق باب
الدير، كاتتا لم تنتهيا من الصلاة بعد. صوت خطوات رجل
في الممر الذي تطل عليه الزانزة، جعلتهما تديران رأسيهما؛
وأخذتا تحدقان بثبات في الباب وكتاهما ترتجف وتحس
بإحساس جميل. قالت ماري:

- عاد أدولف! أوه! إن صلاتنا استجابت!

استمعت ماتيلد باهتمام أكبر وقالت بحزن:

- لا، لا، ليس هو، خطوته ليست ثقيلة بهذا الشكل، يا

ماري، ربما يكون رسول الهلاك.

كانت مفصلات باب الزنزانة تصدر صريراً؛ فتحته راهبة

ودعت الفارس ذا الدرع الذهبية يدخل.

ماتيلد، عند رؤيته، ارتجف كل جسدها؛ وأخذت تمظر
بتردد على من ظهر أمامها وفتحت ذراعها لاستقباله؛ بدا
لها أن الوهم الكاذب كان يخدعها، لكن هذه المشاعر
كانت أسرع من البرق. قفزت إلى الأمام بشكل متهور
وألقت بنفسها بصيحة فرح في حضن الفارس. صائحة:

- يا أبي، يا أبي الحبيب، أراك حراً مرة أخرى، متحرراً
من قيودك! دعني أعتصرك بين ذراعي! يا إلهي كم أنت
طيب!

روبرت دي بيثون قبل ابنته بفرح؛ وعانقها في حضنه
حتى هدأت نبضات قلبيهما قليلاً، ثم وضع خوذته وقفازاته
على المنضدة. شاعرًا بالإعياء، جلس على مقعد وانهار
عليه. وضعت ماتيلد الرقيقة ذراعها حول رقبته؛ ثم بعد
ذلك تأملته، باحترام ممزوج بالإعجاب، تأملت هذا الرجل
الذي جعلته ملامحه تشعرها بالسلام مثلما تشعر عندما
تصلي للرب، هذا الرجل الذي يتدفق دمه النبيل أيضاً
في عروقها، والذي تحبه بحنان شديد. استمعت، وصدرها
ينبض، للكلمات الحلوة التي أرسلها هذا الصوت الحبيب
إلى أذنيها:

- ماتيلد، ابنتي الحبيبة، لقد اخترنا الرب فترة طويلة؛
ولكن الآن كل معانينا تقترب من نهايتها؛ فلاندرز حرة،

تم الانتقام لوطننا الأم، أسدنا القديم مزق أزهار الزنابق
إلى أشلاء. لا تخشي شيئاً الآن، لقد قتل كل أعدائنا؛
مات الجنود الوحشيون الذين أرسلتهم جين دونافار ضدنا.

استمعت الفتاة بحرص شديد للكلمات التي خرجت من
بين شفتي أبيها، حدقت في عينيه وابتسمت بتعبير غريب.
انتقل إليها الفرح لدرجة أنها ظلت بلا حراك وكأنها مسلوحة
الشعور. بعد لحظات قليلة، لاحظت أن والدها لم يعد
يتكلم، فهتفت:

- يا إلهي! لقد أصبح الوطن حرّاً! لقد هزم الأجنبي!
وأنت يا أبي عدت إليّ! أوه! سنعود إلى قلعتنا الجميلة في
وينينديل؛ لم يعد الحزن يخيم على شيخوختك ويا لها من
حياة طيبة وسعيدة سأقضيها معك بين ذراعيك! إنها
سعادة لم أستطع أن أتمناها؛ لم أجرؤ على طلب الكثير من
الرب في صلاتي!

- استمعي إليّ يا طفلي، ورجاءً لا تنزعجي مما سأقوله لك:
يجب أن أترك مرة أخرى اليوم. تلقى المحارب الكريم
الذي حررني مرة أخرى كلمة شرف مني بأني سأعود إلى
سبجني بمجرد انتهاء المعركة.

حنت الفتاة رأسها إلى صدرها وبصوت مليء بالحزن
العميق، قالت:

- سيقتلونك يا أبي البأس!

استأنف روبرت:

- لا تنزعجي كثيراً، ماتيلدا، لقد أخذ أخي جي ستين من الفرسان الفرنسيين من العرق النبيل أسرى؛ سوف نجعل فيليب لو بيل يعرف أن حياتهم مقابل حياتي، ومن المستحيل عليه التضحية من أجل الرغبة في الانتقام لنفسه من الرجال الشجعان الوحيدين الذين نجوا من الموت. ليس لدي ما أخشاه، فلاندرز أقوى من فرنسا؛ لذا من فضلك لا تبكي. بل على العكس، ابتهجي لأن أجمل مستقبل ينتظرنا. سأقوم بترميم قلعة وينينديل التي ستستقبلنا جميعاً كما في السابق.. ثم نستأنف صيد الصقور.. هل تفهمين كم سنكون سعداء؟

كانت إجابة ماتيلدا ابتسامة من السعادة التي لا توصف وأحلى قبلة. ولكن بدا فجأة وكأن فكرة مؤلمة استولت على روحها؛ ارتسم على وجهها تعبير من الحزن وخفضت عينيها بصمت كما لو كانت تشعر بالارتباك.

ألقي روبرت على ابنته نظرة فاحصة وقال لها:

- ماتيلدا، طفلي، لماذا أصبحت ملاحك قائمة فجأة؟

رفعت الفتاة نصف رأسها وقالت بصوت متردد:

- لكن يا أبي، أنت لا تتحدث معي عن أدولف. لماذا لم

يأت معك؟

مرت لحظة قبل أن يجيب روبرت عن هذا السؤال. كان يعتقد أنه اكتشف في ماتيلد شعوراً رقيقاً ربما لم تكن قد أدركته بعد. عن تعمد، تحدث بهذه العبارات:

- أدولف بلا شك يلاحق الأعداء المشتتين في الريف. أستطيع أن أخبرك، ماتيلد، أن صديقنا الشاب هو أنبل فارس عرفته. لم أر قط مثل هذا السلوك البطولي! لقد أنقذ حياة عمك جي مرتين. حتى تحت راية فرنسا، سقط الأعداء تحت سيفه في حشود؛ يتفاخر الجميع بشجاعته وينسبون له جزءاً كبيراً في الخلاص المجيد لفلاندرز.

سكت روبرت، وعيناه مثبتتان على ابنته، انعكاس عواطفها على وجهها. رأى الفرح والفخر يرتسمان عليه بالتناوب، ولم يعد يشك في أن شعوره كان له ما يبرره.

استمعت ماري، التي كانت تقف أمام روبرت، بفرح لأجل الثناء على أخيها.

بينما كانت ماتيلد تحرق في والدها بنوع من النشوة، سمعت فجأة أصواتاً مشوشة عند الباب الخارجي للدير. استمر ذلك لحظات قليلة وأصبح كل شيء صامتاً كما كان من قبل. وسرعان ما انفتح باب الزنزانة، ودخل جي، شقيق روبرت، بخطوة بطيئة، وقد ارتسم الحزن على ملامحه؛ واقترب من الكونت قائلاً:

- مصيبة كبيرة يا أخي تصيبنا اليوم في رجل عزيز علينا

جميعاً؛ وجده أهل غينت بين الموتى في ساحة المعركة وقد أحضروه للتو إلى هنا. روحه تطفو على شفتيه، وربما اقتربت ساعته الأخيرة. يطلب رؤيتك قبل مغادرة هذا العالم. أرجوك يا أخي امنحه هذه الخدمة الأخيرة.

والتفت إلى أخت أدولف وأضاف:

- يريدك أيضاً أيتها السيدة النبيلة.

صرخة ألم خرجت من صدر الفتاتين. سقطت ماتيلد بين ذراعي والدها، وأغمى عليها وكأنها تعرضت للضرب حتى الموت؛ واندفعت ماري، دون أن تنتظر كلمة أخرى، نحو الباب وهي تصرخ بشكل تنفطر له القلوب وخرجت من الغرفة. ركضت راهبتان عند سماع صراخها الحزين واستلمت ماتيلد، هامدة، من بين ذراعي الفارس. هذا الأخير أعطى ابنته قبلة أخرى واستعد للذهاب لرؤية أدولف المحتضر؛ لكن الكونتيسة التي كانت تفتح عينيها في هذه اللحظة، فهمت نيته، ونزعت نفسها من بين أيدي الراهبات، وتعلقت بروبرت، وصاحت:

- دعني أرافقك يا أبي! دعه يراني مرة أخرى. كم أنا تعيسة! يا له من ألم شديد يخترق قلبي! أبي، أنا أستسلم له.. أشعر بالفعل بالموت بداخلي. أريد رؤيته؛ هيا نسرع! هيا بنا، هيا بنا سريعاً! إنه يحتضر.. أدولف!

ألقي روبرت على ابنته نظرة متعاطفة. لم يكن لديه شك

بشأن الشعور السري الذي ترسخ ببطء في قلب ابنته. هذا اليقين لم يثر فيه استياء ولا غضباً. غير قادر على موازنة ابنته بالكلمات، ضغط عليها بقوة في حضنه؛ لكن ما تيلد سرعان ما حررت نفسها من هذا العناق الحنون؛ وجذبت روبرت بيدها، وهي تهتف:

- يا أبي ارحمني! تعال حتى أسمع صوت أخي الحبيب مرة أخرى، وتراني عيناه مرة أخرى في هذا العالم!

ألقت بنفسها على ركبتيها واستأنفت، وهي تذرف سيلاً من الدموع:

- أتوسل إليك، لا ترفض صلاتي؛ اسمعني يا مولاي وأبي!

كان روبرت يفضل ترك ابنته في رعاية الراهبات لأنه كان يخشى، ولسبب وجيه، أن مشهد الفارس المحتضر قد يسبب لها الكثير من الانفعال؛ ومع ذلك، لم يعد قادراً على مقاومة توسل ما تيلد الملح؛ فأخذ يدها هامساً:

- حسناً، يا ابنتي، رافقيني وتعالني نزور أدولف البأس، لكن أرجوك توقفي عن إيذائي بيأسك؛ أعتقد أن الرب قد منحنا إشارات لنعم واضحة لنا اليوم، وأن هذا اليأس قد يثير غضبه.

كانا بالفعل خارج الزنزانة وفي الممر. نُقل أدولف إلى

قاعة الطعام الكبيرة في الدير؛ كان سرير من الريش مفروشاً على الأرض والجريح قد وضع عليه بعناية. قام راهب ماهر للغاية في فن الشفاء باستكشاف جسده بعناية ولم يعثر على جروح ظاهرة. اتجهت كل العيون بقلق إلى الراهب. كان الأخير، خلال هذا المشهد، قد وضع عيناً ثابتة على الجريح وراقب كل الانفعالات التي أصابته. ثم أخذ بيد أدولف وفحص نبضه بينما تبع جميع المتفرجين باهتمام شديد جميع تحركاته؛ واستطاعوا أن يروا من ملامح الراهب أن كل الرجاء في الخلاص لم يضع بعد للرجل الجريح. واصل الراهب فحصه بصمت؛ رفع جفني الجريح ومرر يده على صدره؛ ثم التفت بعد ذلك إلى الفرسان الذين أحاطوا به وقال بنبوة تم عن اقتناع تام:

- أعلن لكم أيها السادة أن الحمى التي كان من المفترض أن تقتل هذا الفارس الشاب قد اختفت؛ وأنه لن يموت! شعر جميع الحاضرين بعاطفة غريبة، وكان يمكن للمرء أن يقول إن فم الراهب قد نطق للتو بحكم الإعدام، ولكن سرعان ما سمحت الدهشة، التي أصابتهم بالغباء والجمود، بأن يشهدوا بفرحهم في كلمة وإيماءة.

استجابت ماري بصرخة عالية لبيان القس وضغطت بشكل متشنج على أخيها بين ذراعيها. سقطت ماتيلد على ركبتيها، ورفعت يديها إلى السماء وصاحت:

- أشكرك يا رب الخير والرحمة أشكرك على استجابتك
لדعاء عبدتك المتواضعة!

بعد هذه الصلاة القصيرة، نهضت بسرعة، وتحركت بفرح
وألقت بنفسها في أحضان والدها. قائلة بسعادة:

- سوف يعيش! لن يموت! أوه! أنا سعيدة الآن!

مرت ثوان ثم اتكأت على صدر روبرت، منهكة من
العاطفة. لكنها سرعان ما عادت إلى أدولف وبدأت في
تبادل الكلمات المرححة معه.

ما رآه الجميع معجزة كان نتيجة لحال أدولف. لم تظهر
عليه جروح ظاهرة أو إصابات خطيرة، فقط كدمات
ورضوض عديدة؛ كانت المعاناة القاسية التي تسببت بها
له قد أدت إلى حمى خطيرة كان من المفترض أن تتغلب
عليه؛ لكن وجود ماتيلدا ضاعف طاقته المعنوية، وبدد
هذه الحمى المميتة، وبفضل هذا التدخل المبارك، هرب من
القبر الذي كان مفتوحاً أمامه.

ترك روبرت دي بيثون ابنته، محمولة بسعادة، على ركبتيها
بجانب أدولف، واقترب من الفرسان، وتحدث إليهم:

- يا نخبة الفرسان وأنبل قلوب فلاندرز، لقد حققتم اليوم
انتصاراً، ستشهد ذكراه على شجاعتكم العظيمة لأبنائنا في
الأجيال القادمة؛ لقد أظهرتم للعالم كله ما يتكلف

الغزو الأجنبي الذي يجروء على أن يطأ أرضنا. حب الوطن أعطى قلوبكم البطولية شجاعة فائقة كان على كل شيء أن يستسلم أمامها، وأذرعكم المسلحة بالانتقام المشروع، أسقطت الطغاة. الحرية عزيزة على الناس الذين كسبوها على حساب دمائهم. الآن لم يستطع كل أمراء الجنوب أن يثقلوا بنير العبودية على الفلمنكيين للحظة واحدة؛ لأنكم سموتون جميعاً قبل أن تُخضعوا؛ لكن لم يعد علينا الخوف من ذلك. لقد ارتفعت فلاندرز اليوم فوق كل الأمم الأخرى، وأنتم، الذين قاتلتم ببسالة من أجلها، تدين البلاد لكم بهذا المجد العظيم. الآن نريد السلام والطمأنينة كمكافأة رعايانا على تفانيهم المخلص والسخي؛ سيكون من دواعي سرورنا أن تتم تحيئتنا جميعاً باسم الأب، إذا كان من شأن تعاطفنا الحنون ورعايتنا المستمرة لسعادة الجميع أن يجعلنا جديرين بهذا اللقب الجميل. ومع ذلك، إذا تجرأ الغرباء على العودة، فسيجدون أسد فلاندرز، الذي سيعيدكم إلى المعركة. تتوسل إليكم أيها السادة بمجرد أن تعودوا إلى مناطقكم أن تعملوا على تهدئة عقول الناس وإعادة الطمأنينة في كل مكان، حتى لا يفسد النصر بأي إفراط؛ وفوق كل شيء، لا تسمحوا للناس أن يتعهدوا باضطهاد الليليارد؛ الأمر متروك لنا لتحقيق العدالة. نحن مضطرون لترككم. في غيابنا ستطيعون أخانا جي مثلها تطيعون مولاكم وكوتكم.

صاح جون بورلوت بشكل لا يصدق:

- تتركنا! هل ستعود الى فرنسا أوه! لا تفعل ذلك، أيها الكونت النبيل؛ سوف ينتقمون منك بسبب الهزيمة التي تعرضوا لها.

قاطعته روبرت:

- أطلب منكم أيها السادة، هل هناك من بينكم، خوفاً من الموت، يوافق على الحنث بيمينه وإيمانه كفارس؟

كلهم أحنوا رؤوسهم دون أن ينطقوا بكلمة؛ لقد فهموا بحزن أن لا شيء يمكن أن يجعل الكونت يعدل عن قراره. واستكمل هو قائلاً:

- السيد دي كونينك، كانت حكمتك العظيمة وستظل تساعدنا كثيراً؛ ندعوك إلى مجلسنا ونرغب في أن تستقر في قصرنا. السيد بريدل، إن شجاعتك وتفانيك يستحقان مكافأة عالية؛ كن، الآن وإلى الأبد، القائد الأعلى لجميع مواطنيك القادرين على حمل السلاح من أجل خدمتنا. بالإضافة إلى ذلك، فأنت تنتمي أيضاً إلى قصرنا، ويمكنك الإقامة هناك إذا كان ذلك مناسباً لك. وأنت يا أدولف، صديقي الشاب؛ يحق لك الحصول على مكافأة أكبر. لقد شهدنا جميعاً شجاعتك الفائقة؛ لقد أظهرت أنك جدير بالاسم النبيل لآبائك؛ لم أنس أبداً تفانيك الرائع. أنا أعلم بأي رعاية، بأي حب حميت وعزيت طفلي المسكينة في

مصاها، أعر ف ما هى المشاعر النقية والمتوقدة التى نمت
وكبرت فى قلبىكما، دون علمكما. حسناً، أرى أن أساوىك
فى الكرم: أن تمتزج الدماء اللامعة لكوت فلاندرز مع
دما عائله نىولاند النبيلة؛ أتمنى أن يلع أسدنا المجد على
شارة شرفك.. إنى أعطىك حببى مائىلدا كروجة لك!

صرخة واحدة، باسم أدولف، هربت من شفى مائىلدا؛
لكنها أمسكت بىد الفارس الشاب وارتجفت من الانفعال
ونظرت إله بثبات فى عىنه؛ ثم بدأت تذرف المزىد من
الدموع، لكنها كانت دموع الفرح الآن كما أن الفارس
الشاب لم ىنطق بكلمة؛ كانت سعاده أكبر من أن ىعبر
عنها. لكن نظرتة كانت مليئة بالحب لمائىلدا، مليئة بالعرفان
والجميل لروبرت، ثم ارتفعت مليئة بالامتنان تجاه السماء.

بعدها سمع ضجىج كبرى عند الباب الخارجى للدرى. بدا
صوت مرتبك وقوى لانتفاضة شعبية. وازداد هذا
الضجىج أكثر فأكثر وسيطرت عله فى قترات متقطعة
هتافات فرحة. جاءت راهبة لتعلن أن حشداً كبرى قد
تجمع أمام باب الدرى، وأن هذا الحشد طالب بصوت عالٍ
أن ىرى الفارس ذا الدرع الذهبية. عندما فُتح باب القاعة،
استطاع الفارس أن ىسمع بوضوح:

- فلاندرز للأسد! ىعش محررنا! عىد المىلادا! عىد المىلادا!

التفت روبرت إلى الراهبة وقال:

- اذهبي وأخبريهم أنه في غضون لحظات قليلة، سيكون
الفارس الذي يطلبونه في وسطهم. ثم اقترب من أدولف
وأخذ بيده وقال:

- أدولف دي نيولاند، حبيبتى ماتيلد ستصبح زوجتك؛
نرجو أن تحل نعمة الرب عليكما! عسى أن يمنح أطفالكما
الشجاعة البطولية لأبيهم وفضائل والدتهم. أنت تستحق
أكثر، لكن ليس في وسعي أن أقدم لك هدية أغلى
من ابنتي التي كان من المفترض أن تكون عزاء ودعماً
لشيخوختي.

بينما كان أدولف يعبر عن امتنانه، ذهب روبرت سريعاً
إلى الكونت جي. ثم قال:

- أخي الحبيب، إنني أرغب في الاحتفال بهذا الاتحاد
بروعة في أسرع وقت ممكن، وأن يتم تكريسه بالتدخل
المقدس والرسمي والديني. أيها السادة، أترككم على أمل
أن تتمكن قريباً، بحرية ودون عوائق، من العمل من أجل
سعادة الرعايا المخلصين.

عاد إلى أدولف، وقبله وقال:

- الوداع يا بني!

ثم اعتصر ماتيلد على صدره قائلاً:

- وداعاً، حبيبتى ماتيلد. لا تبكي بعد الآن على مصيري.

أنا سعيد الآن لأن الوطن الأم قد انتقم له. سأعود قريباً.
قبل أخاه مرة أخرى، ثم جيوم دي جوليرز وعدداً قليلاً
من الفرسان الآخرين الذين كانوا أصدقاءه؛ صاح الجميع
وهتف وهو يبتعد:

- وداعاً لكم جميعاً أبناء فلاندرز النبلاء! وداعاً إخوتي
المخلصين في السلاح!

لبس درعه وركب على ظهر حصان في الفناء؛ ثم أنزل
قناع خوذته ومر عبر باب الدير. وقد وجد حشداً هائلاً
هناك، والذي بمجرد ظهوره، افرق للسماح له بالمرور،
وحياه بالإجماع وبالهتاف الحماسي:

- عيد الميلاد! يعيش الفارس الذهبي! يعيش منقذنا!

تكررت هذه الصيحات مئة مرة بنفس الحماس. لوح
الناس بأيديهم في الهواء كعلامة للفرح، والتقطوا، مثل
أثر قديم، التراب الذي داسه حصان. ولبساطتهم، اعتقد
هؤلاء الأشخاص الساذجون أنهم رأوا القديس جورج
الذي توسلوا له خلال المعركة في جميع كئاس كورتراي،
وقد اتخذ هذا الشكل ليساعدهم. وأكدت مسيرة الفارس
البطيئة المهيبة وصمته الغامض هذا الاعتقاد، وسقط عدد
كبير من المتفرجين على ركبهم وهم يصلون أثناء مروره.
تبعه الحشد لبعض الوقت وسط المزارع ويبدو أنهم كانوا
غير قادرين على الحصول على ما يكفي من رؤيته؛ لأنه كلما

ابتعد الفارس في درعه الذهبية، زادت روعته وزاد رونقه؛
أعطاه خيال الناس الشكل الذي يطمون به من أجل
القديسين؛ كانت علامة واحدة من روبرت تكفي ليجعل
نفسه محبوباً من قبل هذا الجمهور الذي يشعر بالنشوة.

أخيراً أعطى حصانه ضربة محفزة واختفى مثل السهم
تحت أشجار الغابة: حاول الناس مرة أخرى رؤية درعه من
خلال أوراق الشجر؛ لكن الفرس الرشيق قد حمل بالفعل
سيده بعيداً عن مرمى البصر؛ ثم تساءل الجميع بأعينهم
وقالوا بحزن:

- لقد صعد إلى السماء!

الختامة

من بين الستين ألف رجل الذين أرسلهم فيليب لو بيل لتدمير فلاندرز، نجا نحو سبعة آلاف فقط من الموت، وقد سعوا في كل عجلة وبطرق مختلفة للعودة إلى الأراضي الفرنسية. حشد جي دو سان بول خمسة آلاف منهم بالقرب من ليل وكان يفكر في العودة إلى فرنسا مع هذا الفيلق؛ لكنه تعرض لهجوم من قبل فرقة من الجيش الفلمنكي، وتعرض القائد الفرنسي لهزيمة دامية، وأثناء ذلك الوقت، لقي معظم رجاله الموت الذي تم إنقاذهم منه في ساحة معركة كورتراي. يخبرنا السجل الممتاز بعدد الفرنسيين الذين عادوا إلى وطنهم:

«من بين كل هذا الحشد الهائل، الذي اتحد لتدمير فلاندرز وإبادتها، تمكن ثلاثة آلاف فقط من الهروب من الموت والعودة إلى بلادهم ونقل أخبار المصير المحزن لرفاقهم».

اللوردات الرئيسون، أشجع الفرسان لقوا حتفهم على خط المعركة في كورتراي؛ كان العدد كبيراً لدرجة أنه، وفقاً للتاريخ، لم يكن هناك في فرنسا قلعة ولا قصر حيث لم يكن الناس في حالة حداد. في كل مكان كان هناك شخص ما يحزن على وفاة الأب أو الزوج أو الأخ؛ فكانت الدموع والآهات في أنحاء البلاد كافة. تم دفن الملوك وأبرز

اللوردات في دير جرونينجن برعاية قادة الجيش الفلنكي، كما يتضح من لوحة قديمة موجودة الآن في كنيسة القديس ميشيل، في كورتراي؛ وهي تحمل النقوش التالية، التي نسخها كما هي أمين المحفوظات ب. فان دوز:

«وقعت معركة جرونينج، في الحادي عشر من يوليو 1302، في سهل جرونينج، حيث يمر الطريق المؤدي إلى أودينايردي، بالقرب من كورتراي، وفيما يلي أسماء النبلاء الذين لقوا حتفهم في المعركة ودفنوا في دير جرونينج:

«ملك مايوركا، ملك ميليند، دوق كورسين، دوق برابانت، أسقف بوفيس، كونت دأرتوا، أمير أسبرمونت، جاك دي سيمبل، كونت كليرمون، أمير شامبان، كونت ميلي، كونت تراب، كونت لينجوي، كونت بونين، كونت هينو، كونت فريزلاند، كونت لا مارش، كونت بار وإخوته الثلاثة، رب بنترسم، رب وينيل، رب قصر ليل، رب فلينز، كلاريون، شقيق ملك ميليند، اللورد جون دي كريكي، رب ميرل، كونت لينجوي إن باروا، رب مارلوس، رب ألبمارل، شقيق أسقف بوفيس، رب فيرسن، رب روشفور، اللورد جيل أولينجي، رب موتفورت، جودفروي، شقيق كونت بونين، وأكثر من سبعمئة ربح ذهبي».

«رحم الرب أرواحهم!»

وما زال بإمكاننا أن نرى في مكتبة السيد/ جيثيلز فيركرسن، في كورتراي، حجراً كان يغطي قبر الملك سيجيس سابقاً ويحمل، مع شعاره، النقوش التالية: في سنة الرب 1302، في يوم القديس بنديكتوس، في شهر يوليو، وقعت معركة كورتراي. تحت هذا الحجر دفن الملك سيجيس. صلوا من أجل روحه. أمين. 1302.

إلى جانب المزهريات الذهبية والأشياء الثمينة والأسلحة باهظة الثمن، وجدوا في ميدان المعركة سبعة رمح ذهبي كان للنبلاء وحدهم الحق في استخدامها؛ تم إرفاق هذه الرماح مع الأعلام التي تم تعليقها في قبة كنيسة نوتردام في كورتراي، ومن هنا جاء اسم المعركة «الرمح الذهبية». وسقطت بضعة آلاف من الخيول أيضاً في أيدي الفلمنكيين، الذين استخدموها جيداً في الحروب التالية. في عام 1831، خارج بوابة غينت، على مسافة ما من كورتراي وفي وسط ساحة المعركة، تم بناء كنيسة صغيرة تكريماً لسيدة جرونينجن؛ يمكننا أن نقرأ على المذبح أسماء الفرسان الفرنسيين الذين ماتوا في القتال، وأحد الرماح الذهبية معلقاً في وسط القبة. تم الاحتفال بهذا اليوم السعيد كل عام في كورتراي من خلال حفل عام ومواكب شعبية؛ وقد ظلت ذكرى هذا العيد إلى أيامنا هذه من خلال مهرجان خاص يطلق عليه: أيام اللقاءات. في كل عام، في شهر يوليو، يتنقل الفقراء من

منزل إلى منزل ويطلبون الملابس القديمة لبيعها، كما فعلوا، في عام 1302، مع غنائم المعركة غالية الثمن؛ ورفقة آلة الكمان، يذهبون إلى بوتيلبيرج، المعسكر السابق للفرنسيين، ويستمتعون سويًا هناك حتى نهاية اليوم.

عندما وصلت أنباء هزيمة الجيش إلى فرنسا، تسببت في استياء شديد في القصر؛ غضب فيليب لو بيل بشدة من زوجته الملكة جين، التي كان فسادها هو السبب الرئيس لهذه الكارثة. ووبخها بمرارة كما ذكر الشاعر المعاصر لوس فان فيلتييم؛ وقد عبر عن ذلك بهذه العبارات في سجله المقفى والذي يحمل عنوان «الشبيجل التاريخي» (116):

«ألقي الملك على صدرها خطاباً ينبعث منه رائحة الدم؛ لأن الشخص الذي كتبه أعلن أن الكونت دارتوا قد مات في ساحة المعركة، مخترقاً بجروح قاسية ومتعددة».

وأبعد من ذلك بقليل:

قال لها: «سيدتي الملكة، استعدي للندم! لماذا لم تفكري في الأمر بشكل أفضل مسبقاً! أنت سبب كل شيء، ولن تجرئي على نسب هذه المحنة إلى أي شخص آخر غيرك».

لقد وجدنا في معظم تاريخ فرنسا أن جين دي نافار صورت على أنها ليست أقل من شريرة ومنحرفة. الفرنسيون، بفضل طابعهم القومي البارز، الذي لا يمكننا

إلا أن نثني عليه بشدة، يبررون طواعية الصفات السيئة لأمرائهم عند وفاتهم؛ لكن الحقيقة واضحة للغاية في سجلاتنا بحيث لا يمكن لأي شخص أن يشك في الشخصية البغيضة للملكة جين.

أراد قضاة غينت، الذين كانوا جميعاً من الليليارد ويعتقدون أن فيليب لو بيل سيسرع لإرسال جيش جديد إلى فلاندرز، إبقاء أبوابهم مغلقة للحفاظ على المدينة للفرنسيين حتى وصولهم؛ لكن لم يمض وقت طويل في معابقتهم من قبل سكان غينت على هذه النوايا الخائنة. ركض الناس إلى السلاح. تم إعدام القضاة والليليارد، وجلب السكان الرئيسون للمدينة مفاتيح المدينة إلى الشاب الكونت جي، الذي أقسموا له بالإخلاص الأبدي.

في هذه الأثناء، جاء جون، كونت نامور وشقيق روبرت دي بيثون، إلى فلاندرز وتولى حكم البلاد؛ سارع إلى تشكيل جيش جديد وأكثر قوة، ليتمكن من مقاومة الفرنسيين عند الحاجة، ونظم إدارة المدن. دون إعطاء قواته الوقت للراحة، سار إلى ليل، التي استسلمت بعد بضعة هجمات من هناك، وهاجم دواي، واستولى عليها أيضاً وجعل من حاميتها أسرى حرب؛ كما استسلمت مدينة كاسل بشروط معينة. بعد أن أخذ بعض الحصون الأخرى من الفرنسيين، رأى جون دي نامور أنه لم يظهر أعداء جدد، فسرح الجزء الأكبر من جيشه واحتفظ فقط بقليل

من قوات النخبة المكونة من الجنود ذوي الخبرة الكبيرة. كانت البلاد هادئة وبدأت التجارة تزدهر مرة أخرى؛ تم زرع جميع القرى من جديد على أمل جني محصول جيد، وكان يمكن للمرء أن يقول إن فلاندرز قد استأنفت حياة جديدة، طاقة جديدة؛ كان يُعتقد، لسبب ما، أن الأجنبي تلقوا درساً كافياً، كما قال فان فيلتم: «الآن احذر من المخاطرة بمثل هذه اللعبة، أيها الفرنسي! لقد تمت إهانتك هنا، وتلقيت درساً قاسياً».

فيليب لو بيل لم تكن لديه رغبة كبيرة في بدء الحرب مرة أخرى؛ لكن صيحات الانتقام التي تردت في جميع أنحاء فرنسا، وشكاوى الفرسان الذين مات إخوانهم في كورتراي، وقبل كل شيء تحريضات الملكة القاسية جين، قرر أخيراً استئناف الأعمال العدائية. جمع جيشاً من ثمانين ألف رجل، كان فيه ما يقرب من عشرين ألف فارس. لكن هذا الجيش لا يُقارن بالجيش الذي فقده؛ لأنه كان يتألف في معظمه من جنود مرتزقة أو جنود أُجبروا على الانضمام إلى الجيش.

أعطيت القيادة الرئيسية للملك لويس دي نافار؛ وقد تم تكليف هذا الشخص بمهمة، قبل خوض المعركة، ألا وهي استعادة دواي من الفلمنكيين والمدن الفرنسية الأخرى على الحدود. هذا الجيش، الذي كان زحف نحو فلاندرز،

نصب خيامه بالقرب من فيتري، على بعد فرسخين من دواي.

عندما سمع نبأ تشكيل جيش فرنسي في فلاندرز، دوت صيحة «إلى السلاح! إلى السلاح!» في جميع أنحاء البلاد. لم يسبق أن رأينا مثل هذا الحماس: من جميع المدن وحتى من أصغر القرى، جاء حشد من الناس مسلحين بكل أنواع الأسلحة؛ ساروا نحو العدو يغنون فرحين؛ لدرجة أن جون دي نامور، خوفاً من نفاذ المؤن، اضطر إلى طرد عدد كبير من أولئك الذين جاؤوا لتقديم خدماتهم له. توسل أولئك الذين تم التعرف عليهم على أنهم ليليارد بجدية للسماح لهم بإقامة دمائهم من أجل الوطن كرمز لتغييرهم، وقد تم منحهم ذلك بكل سرور. بأوامر من جون دي نامور، تواجد معظم الفرسان الذين تميزوا في معركة كورتراي: الشاب الكونت جي، جيوم دي جولير، جون دي رينيسي، جون بورلوت، بيير دي كوينك، جون بريدل وعدد من الآخرين. لم يستطع أدولف دو نيولاند، الذي لم يتعاف بعد من جروحه، المشاركة في الحملة.

بعد أن تم تقسيم هذا الجيش إلى فيالق مختلفة، تقدم الفلمنكيون إلى مسافة ميلين من العدو واتخذوا مواقعهم هناك. بعد أن مكثوا هناك لفترة قصيرة، وصلوا إلى ضفاف السكارب، بالقرب من فلاينز؛ كل يوم يذهب الفلمنكيون لتحدي العدو في القتال. ولكن، كما بدا بعد

ذلك كان القادة، الفلمنكيون والفرنسيون، يريدون تجنب المعركة، فلم تكن هناك اشتباكات. وكان السبب في هذا النوع من الهدنة هو أن جون دي نامور، الذي كان يرغب في الحصول على خلاص والده وشقيقه، أرسل سفراء إلى فرنسا بهدف التحقق مما إذا كان فيليب لو بيل على استعداد لإقامة السلام أم لا. ويبدو أنه لم يتم التوصل إلى اتفاق في القصر في فرنسا بشأن الشروط؛ لأن المبعوثين لم يعودوا ولم يتم تلقي سوى الردود السلبية.

بدأ الجيش الفلمنكي في التذمر وأراد -على الرغم من دفاع الجنرال- أن يخوض المعركة ضد الفرنسيين؛ وقد استمر ذلك لفترة طويلة وتجلت إرادة القوات أخيراً بطريقة جادة، لدرجة أن جون دي نامور رأى نفسه مضطراً لعبور السكارب لمهاجمة العدو. وقد ألقوا من ضفة إلى أخرى جسراً على خمسة قوارب، وعبر الفلمنكيون، وهم سعداء لأنهم كانوا على وشك القتال، ولكن فجأة جاءت من فرنسا بعض الأخبار المشكوك فيها وغير الحاسمة التي أوقفتهم لبضعة أيام أخرى. وأخيراً، لم تعد القوات تريد، بأي ثمن، أن تظل بلا حراك وأظهرت نوايا جادة للتمرد. تم تجهيز كل شيء للهجوم وسار الفلمنكيون إلى العدو؛ الفرنسيون، الذين لم يجرؤوا على المخاطرة بالمعركة، رفعوا معسكرهم على عجل وانسحبوا في حال من الفوضى. سقط عليهم الفلمنكيون وقتلوا عدداً كبيراً منهم؛ وفي الطريق،

استولوا على قلعة هارن، حيث أنشأ ملك نافار المقر العام للجيش. سقطت المؤن والحيام وسقط كل شيء، أحضره العدو معه في أيدي الفلمنكيين. كان هناك عدد قليل من المناوشات، وبعد ذلك تم طرد الفرنسيين إلى بلادهم. في هذا الوقت بالتحديد، كتب شاعرنا الوطني فان دوزير عن هذه المناسبة قائلاً:

«اتصريا وطني!

المجد للأعمال العظيمة للأجداد؛

احتفظت أكاليل الغار القديمة انخاصة بك بخضرتها
الخالدة؛

الشهرة تحتفل بك في جميع أنحاء الكون.

أتمنى أن تتجلى هكذا حتى الساعة الأخيرة من العالم!».

عندما رأى الجنرالات الفلمنكيون أنهم لم يعودوا مضطرين لمحاربة العدو في المناطق المفتوحة، أعادوا جزءاً من الجيش إلى البلاد واحتفظوا بعدد من الرجال، العدد الذي يكفي فقط لمنع الحاميات في المدن الفرنسية على الحدود من القيام بعمليات النهب والسلب والحرائق المتعمدة.

من مدينة ليسين الصغيرة، الواقعة على حدود هينو، غزت مجموعات من الجنود الأراضي الفلمنكية كل يوم

وألحقت ضرراً كبيراً بسكان البلد بأكمله. عند هذا الخبر، ذهب جون دي نامور، على رأس بضعة فيالق من جيشه، إلى مكان الحادث وحاصر وأحرق ليسين، التي تنتمي إلى كونت هينو.

في غضون ذلك، سار جيوم دو جوليرز مع أصحاب المهن والحرفيين في بروج وفي كورتراي إلى سان أومير لانتزاع هذه المدينة من أيدي الفرنسيين. عند وصوله إلى هناك، هاجمه سلاح فرسان العدو، وهو متفوق للغاية في العدد؛ وبما أنه كان لا يرى مخرجاً، رتب رجاله على شكل دائرة وأخذ يدافع عن نفسه بشجاعة حتى سمح له الظلام بالانسحاب وبالتالي الهروب من هزيمة مؤكدة.

بعد بضعة أيام، عاد جون دي نامور من ليسين للانضمام إلى جيوم، الأمر الذي جعل قواتهما المتحدة يبلغ عددها ثلاثين ألف رجل. ومن ثم هاجما الجيش الفرنسي ودفعاه إلى الهروب وطاردا في جميع الاتجاهات فرقه المشتتة.

بدأ حصار سان أومير؛ تعرضت المدينة كل يوم للهجوم في عدة نقاط بشجاعة واندفاع غير مسبوقين؛ ولكن، نظراً لأن الحامية كانت قوية للغاية، فقد تم صد المحاصرين في كثير من الأحيان مع خسارة كبيرة؛ ولكن لم يمنعهم ذلك من إلقاء كمية هائلة من الحجارة الكبيرة على الأسوار وداخل المدينة، حيث ألحقوا أضراراً جسيمة بالمنازل

وقتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من السكان. خوفاً على سلامة المدينة، قام الفرنسيون بتسليح جميع المواطنين وحصلوا بهذه الطريقة على فرقة كبيرة قسموها إلى قسمين. أثناء الليل، عندما غطى الظلام الذي لا يمكن اختراقه الريف، ساروا سراً خارج المدينة ووضعوا نصف قواتهم في غابة كثيفة توجد على جانب المعسكر الفلمنكي؛ وصل الجزء الثاني إلى محيط قلعة أركيس، والتي كان يحاصرها الفلمنكيون أيضاً. عند شروق الشمس، بدأ الهجوم في أركيس، مع اندفاع شديد لدرجة أن الفلمنكيين، الذين تم أخذهم على حين غرة، كانوا على وشك الفرار؛ لكن صوت قادتهم أحياء شجاعتهم، وجعلوا الفرنسيين يتراجعون، وبدا بالفعل أن النصر كان يميل إلى جانبهم، عندما سقطت مجموعة كبيرة من سلاح الفرسان عليهم من الخلف، وسقطت عدة صفوف عند الصدمة الأولى، ولكن بعد المقاومة العنيدة، تمت هزيمتهم.

الجزء الفلمنكي الآخر، الذي تمت مهاجمته بشكل غير متوقع أيضاً من قبل القوات المختبئة في الغابة، دخل على عجل إلى المعركة وانسحب دون ارتباك أو اضطراب؛ ربما كان بإمكانه الهروب دون خسارة كبيرة، لكن حادثاً مؤسفاً كان سبباً في هزيمته. عند وصولهم إلى نهر الآه، اندفع الفلمنكيون بأعداد كبيرة على الجسر لدرجة أن هذا الجسر، الذي لم يكن قادراً على تحمل وزن مثل هذا العدد

من الرجال، غرق في النهر بصيرير مخيف. صرخات اليأس وعواء الذين اجتاحتهم الأمواج تسببت في إحباط أولئك الذين كانوا لا يزالون على ضفاف النهر؛ ودون أن يستمعوا إلى أصوات قادتهم فروا وابتعدوا في حال من الفوضى عن ساحة المعركة. هذه الهزيمة كلفت الفلمنكيين ما يقرب من أربعة آلاف رجل.

رأى جون دي نامور وجيوم دي جوليرز أن العدو قد توقف عن ملاحقتهم للذهاب ونهب المعسكر الذي تركه للتو، فحشدا الهاربين قدر استطاعتهم، وأظهرا لهم عار هزيمتهم وتحذثا بشكل جيد لدرجة أنهما أيقظا في قلوب رجالهما رغبة في الانتقام السريع.

وقد عادوا إلى العدو، وفاجأوه وسط أعمال النهب التي يقوم بها، وسقطوا عليه فجأة، وأطلقوا صيحات عالية؛ وتم ذبح معظم اللصوص وإعادة الآخرين إلى المدينة. وهكذا أنقذ الفلمنكيون معسكرهم وممتلكاتهم واكتسبوا الأفضلية الأخيرة في ذلك اليوم.

وبينما استمرت هذه الحرب البطيئة وغير الهامة ضد فرنسا، ترك الموتزيلاند دون ملك. أراد جيوم دوهينو الاستيلاء على هذا البلد، بحجة أنه يخصه بحق الميراث؛ كما قدم أبناء كونت فلاندرز مطالبات بشأن هذه المقاطعة. سارع جون دي نامور إلى تجهيز أسطول وهبط بالجيش

الفلمنكي في جزيرة كادساند؛ بعد مناوشة طفيفة، واصل حملته إلى والشرين، حيث استسلمت فيري. جيوم دوهينو كان لديه أيضًا جيش على الأقدام ودخل زيلاند، حيث قدم معركة إلى جون نامور. جعله الفلمنكيون يعاني من هزيمة مروعة، وهرب حتى أرغويدن. وجد جيوم دوهينو تعزيزًا في بعض القوات الجديدة هناك، وحشد جيشه المشتت وسار مرة أخرى ضد الفلمنكيين؛ لكن هذه المرة تعرض للهزيمة بشكل أكبر، وقد وجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى جزيرة شوين. بعد فترة وجيزة، استولى الفلمنكيون على ميدلبورغ والعديد من المدن الأخرى. ومن ثم وافق جيوم دوهينو على هدنة مؤقتة تم بموجبها التخلي عن الجزء الأكبر من زيلاند إلى الفلمنكيين.

ومع ذلك، جمع فليب لو بيل جيشاً أقوى، من أجل الانتقام من الهزيمة التي تعرض لها في كورتراي؛ أعطى القيادة إلى جوتيه دي شاتيلون مع إعطائه الأمر أنه عند وصوله إلى فلاندرز، يجب عليه ضم الحاميات في جميع البلدات الواقعة على الحدود، وبالتالي، كان من المفترض أن يزيد عدد جيشه على خمسة آلاف رجل.

فليب، أحد أبناء كونت فلاندرز الكهل، الذي ورث مقاطعتي تيتا ولوريت في إيطاليا، بعد أن علم بتشكيل الجيش الفرنسي، جاء إلى فلاندرز مع مجموعة مساعدة واختاره إخوته كقائد رئيس للجيش. بالإضافة إلى قوات

جديدة إلى الجيش الذي حارب في زيلاند، زاد العدد إلى خمسين ألف رجل، وانطلق إلى سان أومير لانتظار الفرنسيين، واقتحم قلعة أركيس.

وسرعان ما رأت جيوش العدو أن عليها أن تتواجد في ساحة المعركة وأن تواجه الجيش الفلمنكي. خلال اليومين الأولين كانت هناك بعض الاشتباكات الجزئية حيث بيهر دي كوترينيل، أحد قادة فرنسا الرئيسيين، فقد حياته، وكذلك أبناءه، وحيث تخلى الفرنسيون عن العديد من الناس. جوتيه دي شاتيلون، الذي غلبه الخوف، لم يجرؤ على المخاطرة باشتباك عام؛ انسحب ليلاً باتجاه أوترخت، وبسريرة شديدة لدرجة أن الفلمنكيين، الذين لم يلاحظوا شيئاً، اندهشوا في الصباح عندما اكتشفوا عدم وجود أي فرنسي. استفاد فيليب من هروب العدو وحاصر واستولى على مدن ثيروان ولنس ولبليه وباسيه. ورداً على الدمار الذي لحق بفلاندرز من قبل الفرنسيين قبل معركة كورتراي، دمر الفلمنكيون البلاد المحيطة ونهبوها، وعادوا إلى ديارهم محملين بغنائم غالية الثمن.

عندما اقتنع ملك فرنسا بسبب كثرة الهزائم أنه سيكون من المستحيل عليه استعادة فلاندرز بقوة السلاح، أرسل أميدي دي سافوا كسفير مسؤول عن مفاوضات السلام إلى فيليب، قائد الجيش الفلمنكي. أبناء الكونت السجين، الذين كانوا لا يريدون أكثر من أن يكونوا قادرين على

الحصول على خلاص والدهم جي دي دامبير وشقيقهم روبرت، رغبوا بجدية في السلام مع فرنسا، وتجاوزوا عن طيب خاطر بعض الصعوبات؛ وتم إبرام الهدنة و قبول الشروط من الجانبين.

في غضون ذلك، كان يجري إعداد معاهدة سلام في قصر فرنسا تحتوي على فقرات مختلفة تضر بفلاندرز، لكن الملك فيليب كان يأمل -من خلال الخداع- في أن يتم قبولها. سمح لكونت فلاندرز الذي يبلغ من العمر ثمانين عاماً بمغادرة سجنه في كومبيين والعودة إلى فلاندرز، طالباً منه التعهد بشرف، في حالة عدم قبول المعاهدة كما تم وضعها في قصر فرنسا، العودة إلى السجن مرة أخرى في مايو من العام التالي. تم استقبال الكونت الكهل بشكل رائع من قبل رعاياه وذهب للإقامة في قلعة وينينديل. تم اقتراح شروط السلام مع فرنسا ورفضتها المدن بشكل عام؛ لكن الكونت الكهل، الذي لا يزال أمامه وقت، كان يأمل في أن ينجح، مع مزيد من الإصرار، في الحصول على موافقة الشعب.

بعد انتهاء الهدنة مع جيوم دوهينو، علم الكونت أن الجيش الهولندي كان ينظم للاستيلاء على زيلاند؛ وتم إرسال جون دي رينيسي وفلوران دي بورسيل على الفور للوقوف في وجه العدو الجديد. هزم الفلمنكيون الأسطول الهولندي في معركة بحرية حيث فقد الهولنديون والوالونيون

أكثر من ثلاثة آلاف رجل وجميع سفنهم تقريباً؛ تم أسر أسقف أوترخت، قائد قوات أبرشيته، واقتيد إلى وينينديل، حيث تم اعتقاله. في نفس المعركة مات كل من جيوم دي هورن وديديه دي هارلم وديديه دي زولين وسويدروس دي بيفيرنويردت. الفلمنكيون، الذين اجتازوا كل شمال هولندا منتصرين، استولوا على جميع المدن تقريباً باستثناء هارلم، التي استمرت في الدفاع عن نفسها بعناد؛ تم نقل السكان الرئيسيين للبلاد إلى غينت كرهائن.

في حين أن كونت دوهينو، الذي تخلى عن الحملة، سلم هولندا إلى الفلمنكيين، كان هناك في دوردرخت رجل شجاع وحازم اسمه نيكولاس فان دن بوت، والذي كان يرغب في إنقاذ وطنه، فجمع بعض القوات، وسقط على فرقة من الجيش الفلمنكي وتسبب في خسارة أكثر من ألفي رجل في معركة طويلة؛ من ناحية أخرى، جمع ويت دو هامستيد، وهو رجل شجاع أيضاً، فيلقاً كبيراً وسرعان ما واجه، فيهيليجم، جزءاً من الجيش الفلمنكي الذي أباده حتى آخر رجل. هذه الاشتباكات الخاصة لم تفعل شيئاً يذكر لتعديل الوضع في زيلاند ولم تمنع استمرار حصار زيريكزي.

ومع ذلك، فإن نهاية الهدنة مع فرنسا تقترب، وكل شيء ينذر بحرب جديدة؛ لأن السلام لم يتم، والشروط غير

مقبولة للفلمنكيين. في الأيام الأخيرة من شهر أبريل، عاد جي المسن، المعذب والمريض، إلى سجنه مثل أي ملك تافه آخر. أثناء تعليق الحرب، لجأ فيليب لو بيل إلى جميع الوسائل لتجميع جيش هائل؛ في جميع البلدان، تم تجنيد القوات المساعدة لحسابه، وتم فرض ضرائب جديدة مختلفة لتغطية نفقات الحرب. في شهر يونيو، جاء الملك بنفسه مع جيشه إلى حدود فلاندرز. وعلى الرغم من أنه كان لديه بموجب أوامره أكبر عدد من القوات العسكرية التي تمتلكها فرنسا على الإطلاق، إلا أن أسطولاً كبيراً، تحت قيادة ريجنييه جريمالدي، من جنوة، ظهر على السواحل الفلمنكية للتصدي للشاب الكونت جي وجون دي رينيسي المتواجدين في زيلاند.

ناشد فيليب دو فلاندرز، من جانبه، البلاد وجمع جيشاً قوياً؛ وسار إلى المعسكر الفرنسي بنية عرض المعركة على فيليب لو بيل؛ وكان الجيشان قريبين جداً من بعضهما لدرجة أنه يمكن رؤية الرايتين وهما ترفرفان إلى جانب بعضهما. في اليوم الأول كانت هناك معركة جزئية قتل فيها قائد فرنسي مع جميع رجاله. والواقع أن الفلمنكيين، الحريصين على الانخراط في النضال، اصطفوا في الصف في اليوم التالي واستعدوا لهجوم عنيف؛ ولكن، في ظل ذلك، تراجع الفرنسيون على عجل نحو أوترخت وتركوا معسكرهم إلى الفلمنكيين، الذين أخذوا غنيمة كبيرة هناك وأزالوا

جميع أعمال الدفاع التي قام بها العدو. اقتحمت بلدة باسيه مرة ثانية واحترقت ضواحي بلدة لنس.

تحرك فيليب لو بيل نحو تورناي بقصد مهاجمة الفلمنكيين على جانب حدود هينو؛ ولكن من يوم وصوله كان العدو أمامه. الملك كان غير مستعد لقبول المعركة حتى يعرف ما فعله أسطوله في زيلاند. ومن أجل عدم التعرض للضربات، كان يرفع المعسكر كل ليلة تقريباً ويتجول من مكان إلى آخر، يتبعه دائماً الفلمنكيون.

في 10 أغسطس 1304 التقى الأسطولان؛ استمرت المعركة لمدة يومين، من الصباح حتى المساء: في اليوم الأول، كانت الأفضلية إلى جانب الفلمنكيين، وربما كانوا سيحققون نصراً كاملاً، لكن سفنهم اصطدمت أثناء الليل بجرف رملي، وقد تعرض للضرب في اليوم التالي من قبل الفرنسيين، كما هو متداول بقيادة الأدميرال الشهير ريجنير جرمالدي؛ وقد أحرقت سفنهم وسقط الشاب الكونت جي مع كثيرين آخرين في أيدي العدو. أراد جون دي رينيسي، الزيلاندي الشجاع الذي احتل أوترخت مع حفنة من الرجال، مغادرة هذه المدينة وإلقاء نفسه في قارب لعبور نهر الليك؛ لكن القارب، وهو مملّ للغاية، غرق، وغرق معه الفارس النبيل بشكل كارثي للغاية. عندما علم الفلمنكيون بهذه الكارثة من الهارين، حزنوا بمرارة على مصير إخوتهم وأقسموا على ألا يتركوهم دون

انتقام.

عندما وصلت أخبار نتيجة المعركة البحرية إلى المعسكر الفرنسي، تم نصب المعسكر في بينفيلبرج، بالقرب من ليل. قام فيليب لو بيل بحركة غير محسوبة وتخلى عن هذا الموقع الإيجابي الذي احتله الفلمنكيون على الفور. لم يرغب هؤلاء في تأجيل المعركة أكثر من ذلك، وكان من المستحيل على قادتهم احتواؤهم؛ فاصطفوا في الطابور لمهاجمة العدو. بعدها، أرسل فيليب لو بيل نائباً من نواب البرلمان لاقتراح السلام؛ لكن الفلمنكيين رفضوا سماع أي شيء وقتلوا المبعوث الفرنسي. بعد فترة وجيزة، سقطوا، وهم يطلقون ضجيجاً عنيفاً، على الجيش الفرنسي الذي أصابته المفاجأة والخوف وتمت هزيمته. في هذه الصدمة المفاجئة، تمت الإطاحة بالصفوف الأولى وسحقها. كان الجيش الفلمنكي يتحرك بغضب أكبر مما كان عليه في معركة كورتراي. لذلك، على الرغم من أن الفرنسيين قاتلوا بشجاعة كبيرة، إلا أنهم لم يتمكنوا من مقاومة طويلة. توغل فيليب دو فلاندرز وجيوم دو جوليرز، عبر كل فيالق العدو، حتى ملك فرنسا، الذي وجد نفسه بالتالي في خطر كبير. كان حراسه الشخصيون يتساقطون من حوله، ومن دون شك، كان سيقتل أو يُسجن، إذا لم يأخذوا عباةته والعلامات الأخرى التي كان يرتديها؛ وبهذا يتعذر التعرف إليه، وقد غادر على عجل من هذا المكان الخطير، ولكنه أصيب

بجروح طفيفة أثناء هروبه بسهم. تمت هزيمة الجيش الفرنسي أخيراً هزيمة ساحقة وحقق الفلمنكيون نصراً كاملاً.

تمزقت الراية إرباً إرباً، وقد شهد سجل فلاندرز على ذلك بالعبارات التالية:

«ومن ثم تمزقت راية فرنسا، التي كانوا نخورين بها للغاية، وقتل تشيروسيوس الذي كان يحملها».

فقد جيوم دي جوليرز حياته في المعركة. قضى الفلمنكيون بقية اليوم في تجريد خيمة الملك وجمع الغنائم الفخمة. بعد ذلك، ذهبوا إلى بينفيلبرج لأخذ بعض الطعام من هناك؛ ولكن، بعد عدم العثور على أي مؤن، توجهوا إلى ليل؛ وعادوا في اليوم التالي إلى بلدهم. وقعت هذه المعركة في 15 أغسطس 1304.

بعد أسبوعين، عاد فيليب لمحاصرة ليل بجيش جديد. أغلق الفلمنكيون منازلهم ومتاجرهم وحملوا السلاح بأعداد كبيرة؛ حشدهم فيليب دو فلاندر بالقرب من كورتراي ووصل بعد بضعة أيام إلى ليل على مرأى من العدو. فيليب لو بيل عند رؤيته هذا الحشد صاح بدهشة:

- أعتقد أنها تمطر جنوداً في فلاندرز!

لم يعد يجرؤ على تعريض نفسه للهزيمة، فاقترح السلام

بعد بضع مناوشات، ودخلت المفاوضات بعد أن أبرمت هدنة؛ لكن مرت فترة طويلة قبل أن يتفق الطرفان على شروط المعاهدة.

في غضون ذلك، توفي الكونت دي دامبيير في كومبيين، كما ماتت جين دي نافار.

تم إبرام السلام أخيراً وتوقيع بين فيليب دي فلاندرز وفيليب لو بيل.

تم إطلاق سراح روبرت دي ييثون وشقيقه جيوم وجي وجميع الفرسان الأسرى الآخرين وإعادتهم إلى وطنهم. كان الناس غير راضين عن شروط المعاهدة وأطلقوا عليها اسم ميثاق الظلم. لكن هذا السخط لم تكن له عواقب.

تم منح روبرت دي ييثون لقب الكونت، عند وصوله إلى فلاندرز، في احتفال غاية في الروعة. عاش سبعة عشر عاماً أخرى، وقد حافظ على شرف ومجد فلاندرز دون أي شائبة، وتوفي في 18 سبتمبر 1322.

في يوليو 1302، عملت فرنسا في عصر فيليب لو بيل بدهشة أن زهرة سلاح الفرسان الجميلة - التي فازت قبل بضعة عقود بالنصر المدوي في بوفين - قد هلكت للتو في ثلاث ساعات على يد «العمال والفلاحين». في ساحة المعركة، بالقرب من كورتراي، نجد جثث 68 من كبار اللوردات و1100 فارس وعدداً كبيراً من المرافقين من

أرقى عائلات إيل دو فرانس، بيكاردى، أرتوا، نورماندى. تم جمع 700 ربح ذهبي للفرسان الفرنسيين من قبل النبلاء الفلمنكيين. النساجون والجزارون وغيرهم من الفلاحين مسلحون بحراهم المسنونة تحت إشراف حفنة من اللوردات الذين ظلوا مخلصين لكونت دي فلاندرز (روجر دي ليل، ديديه دي هوندسكول، سيجر دي بيلول، جيرار دي رويه، جان دي رينيسي..). كانوا قد استفادوا من غرور روبرت دارتوا. وقد دوت صيحة «فلاندرز للأسد»!

(1) - كان الفرسان يرتدون هذا الثوب فوق الدرع. ينزل فقط إلى مستوى الركبتين، بلا أكمام، وكان يصنع من الحرير أو من الجلد المرصع بالذهب، وشعار النبالة وشعارات الفرسان مطرزة على الصدر.

(2) - فيما يلي أجزاء بذلة الفارس في ذلك الوقت: خوذة حديدية كبيرة، بريشة أو من دون، الدرع الحديدي، قفازات جلد مع الجزء العلوي المغطى بدروع فولاذية، صفائح حديدية تغطي الساقين، درع رسم عليه شعار الفارس، ربح طويل، سيف حربي كبير أو حربة كبيرة.

(3) - خنجر قصير ذو حدين، مقبضه مزود بقضيب عرضي، يجعله يشبه الصليب. كان للناس من المدن الكبرى وحدهم الحق في حمل هذا السلاح.

(4) - وهذا يعني أن الفرسان لم يكونوا يحملون إلا منخساً واحداً.

(5) - كان تشارلز، الابن الثاني لفيليب لو هاردي، كونت فالوا وألنسون وبيرشبي. كان قد تسلم من أخيه، فيليب لو بيل، قيادة الجيش الفرنسي وقام بغزو فلاندرز.

(6) - كان جون بريدل عميد الجزارين في بروج.

(7) - تقع قلعة وينينديل، التي أصبحت الآن أنقاضاً، بالقرب من القرية التي تحمل الاسم نفسه، بالقرب من ثوروت (فلاندرز الغربية).

(8) - كان جي دي دامبيير، ابن جيوم دي دامبيير الكهل، هو الكونت الثالث والعشرون لفلاندرز (وقائع فلاندرز الممتازة).

(9) - الأول كان روبرت دي نيفير أو دي بيثون، الذي قدم خدمة عظيمة للكنيسة المقدسة، وفي رحلة استكشافية إلى إيطاليا، قتل مينفروي، العدو اللدود للدين المقدس. (السجل الممتاز). نحن نعلم الحقيقة التي يشير إليها هذا المقطع. أراد تشارلز أنجو، ملك صقلية، شن الحرب على المعتصب مينفروي، الذي احتل مملكته ضد إرادة البابا، وجمع جيشاً فرنسياً، قوامه ما يقرب من عشرين ألفاً من النخبة، وأعطى القيادة العليا لروبرت دي بيثون، الذي كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً فقط. بعد مرور بعض الوقت، أسر تشارلز أنجو الشاب كوزادين، حفيد الإمبراطور الألماني فريدريك. أراد تشارلز التخلص من مثل هذا العدو المشهور، وعزم على إدانته بالإعدام. قاضي واحد فقط تجرأ على النطق بحكم الإعدام، ونُقل الشاب كوزاديان إلى السقالة لقطع رأسه. قرأ القاضي الذي أدان كوزاديان عليه الحكم الذي أعلن أنه خائن للتاج وعدو للكنيسة. كاد ينهي القراءة ويعلن حكم الإعدام، عندما اندفع روبرت دو فلاندرز، صهر تشارلز دانجو، نحو القاضي وغرس سيفه في صدره، صائحاً: «ليس لك، أيها التعيس، أن تحكم بالموت على مثل هذا السيد النبيل واللطيف!» سقط القاضي ميتاً في حضور الملك، ولم يجرؤ هذا الأخير على الانتقام من المفضل لديه. العديد من السمات الأخرى

لرورث دي يثون ثبت أن لده شجاعة بطولية، ويمكن للبرء أن يقول عنه: كانت لده شجاعة أسد في جسد من الحديد».

(10) - مدن في بلجىكا.

(11) - التفاصيل التاريخية والشعارات المتعلقة بهذا الفارس الشاب، أبلغني بها صديقي المثقف إم. أوكتاف ديلابير، من مدينة بروج.

(12) - لهذا السبب أرسل الكونت جي، بأمر من ملك فرنسا، وإيماناً منه بإرضاء الملك المذكور، ابنته فيلين إلى باريس، مع ثلاثين سيدة نبيلة، ورورث، شقيقها الأكبر، لمرافقتها مع ثلاثين غلاماً، وقد ظل هذا الأخ رورث المذكور، بمغامرة غير محسوبة، خارج باريس. عندما وصلت شقيقته فيلين، التي كانت في باريس لزيارة الملك، إلى القصر، قامت الملكة باعتمالها مع كل سيداتها وخدمها، وظلت فيلين أسيرة لدى الملك. (السجل الممتاز).

(13) - إنجويراند دو ماريني، لورد نورماندي، قائد اللوفر والمسؤول عن الإدارة المالية في عهد فيليب لويل. لقد استخدم سلطته فقط في فعل الشر، وتبديد موارد المملكة، وتزييف العملات، وإفقار الناس بإغراقهم بضرائب ظالمة وتعسفية.

(14) - جين، الابنة الوحيدة لهنري الأول، ملك نافار، ورثت مملكة والدها، وبالتالي أصبحت واحدة من أغنى الأميرات في ذلك الوقت. تزوجت من فيليب لويل، وبذلك جمعت تاجين على رأسها.

(15) - تم دعوة الفارس للمعركة بإلقاء القفاز عليه. فإذا رفع القفاز، فقد قبل القتال. وإذا لم يرفعه، يثبت هذا القفاز بباب منزله أو يوضع في أعلى عمود، حتى يرى الجميع أنه رفض القتال بسبب الجبن.

(16) - تمت معركة بينيفنت يوم الجمعة 26 فبراير 1266. وبفضلها،

فقد مينفروي التاج والحياة أيضاً.

(17) - أرسل الملك شقيقه تشارلز دي فالوا، بكامل الصلاحيات، لحكم بلاد فلاندرز، وبعد أن وصل إلى بروج، قال إنه يريد تحقيق السلام الحقيقي بين الملك أخيه ودولة فلاندرز. وعد تشارلز دي فالوا، على شرفه كفارس، الكونت جي، بأنه سيحظى بالسلام، بشرط أن يذهب إلى الملك مع خمسين من نبلائه: وعد جي بفعل ذلك، وفعل ذلك بالفعل. (السجل الممتاز).

(18) - كانت آلات الحرب الرئيسة المستخدمة في الحصار قبل اختراع البارود هي الكبش، البرج، المنجنيق والقذافات. الأول عبارة عن عارضة ضخمة من خشب البلوط، تنتهي برأس كبش حديدي. يتم تعليق هذه المجموعة معاً بشكل متوازن بواسطة سلاسل أو حبال؛ يسحبونها للخلف، ثم يتركونها تسقط بكل ثقلها على الحائط الذي تنتهي هذه الضربات المتعددة بفتح ثغرة فيه. يتم رفع البرج، المثبت على عجلات، على الجزء العلوي من الجسر المتحرك الذي يسقط على السور العلوي ويسمح بالوصول إلى المدينة. يطلق المنجنيق خمسين سهماً في وقت واحد، على مسافة مذهلة. وتطلق القاذفات الحجارة الضخمة داخل المدينة.

(19) - مدن في فرنسا وبلجيكا.

(20) - يقدم السجل الممتاز تعداداً كاملاً لأسماء هؤلاء الفرسان الذين راققوا جي إلى كومبيين.

(21) - في الماضي، كانت الأجر الكريمة تستخدم على نطاق واسع في الطب، وكانت تُنسب إليها قوة خارقة للطبيعة. وكان الحجر الذي يتم العثور عليه في عش النسريعبر، من بين أمور أخرى، علاجاً سيادياً لجميع الأمراض.

(22) - كان لويس، وفقاً للتاريخ، أميراً كريماً وطيباً، أثبت أنه يستحق حب رعاياه.

(23) - نحن نعلم أن سيارا كولونا الذي كان في أناجني مع السيد دي نوجاريت، قد ضرب البابا في وجهه بقفاز.

(24) - «وأيضاً بسبب الملكة، التي كرهت الفلمنكيين كراهية شديدة؛ لأن أحوالها قد تم أسرهم في فلاندرز. وقد قطع فيليب دالساس رأس اثنين منهم في فلاندرز. وكانا خالين غير شرعيين».

(السجل الممتاز).

(25) - في ذلك الوقت، كانت فرنسا ونافار تشكلان مملكتين مستقلتين. لم يكن للملك فرنسا أي حقوق على نافار ولم يكن عليه التدخل في حكومتها. كانت عائدات هذا البلد ملكاً للجن، التي لم تكن، بصفتها ملكة نافار، تعتمد بأي حال على زوجها.

(26) - كان الكونت جي قد أبرم بالفعل، في عام 1295، تحالفاً مع ملك إنجلترا، قد نص -من بين شروط أخرى- على زواج أمير ويلز من ابنة كونت فلاندرز (حوليات بروج).

(27) - كانت الملكة غاضبة من إخراج السجناء من باريس؛ لأنها كانت تفضل أن يشنق الملك الكونت جي وجميع الذين أتوا معه في باريس. شارل دو فالوا، عندما رأى الكونت جي وعائلته في السجن، اشتكى وشعر بالندم على إحضارهم إلى باريس. ولأنه لم ينجح في إعادتهم إلى بلادهم، فقد شعر بالحزن الشديد؛ وغادر مدينة باريس وفرنسا ليعيش في إيطاليا، حيث وضع نفسه في خدمة البابا بونيفاس.

(السجل الممتاز).

(28) - حصل السادة في حزب فرنسا وأتباعهم على اسم الليليارد

من الكلمة الفلمنكية ليليس (بمعنى الزنابق). من ناحية أخرى، فإن الشعب والطبقة المتوسطة اللذين يشكلان الحزب الوطني، أطلقوا على أنفسهم اسم الكلوارتس، من الكلمة الفلمنكية كلوالين (مخالب)، للإشارة إلى المخالب المهددة للأسد رمز جيش فلاندرز.

(29) - انظر إلى الملاحظة ص 57.

(30) - قرية بجوار بروج، حيث كانت توجد ذات يوم كنيسة سانت-كروا الصغيرة.

(31) - راؤول دي نيسل، المعين حاكماً لبلاد فلاندرز، بعد مصادرتها، عامل الفلمنكيين بلطف وجعل نفسه محبوباً منهم.

(32) - شملت أراضي يوليش مدن جوليرز ودورين وإيكس لا شاييل. كان جيوم، ابن شقيق روبرت دي بيثون، رئيس شمامسة لبيج وعميد إيكس لا شاييل، حيث كان يقيم.

(33) - كانت كل مهنة أو حرفة لها النزل الخاص بها، حيث تعقد اجتماعات المهنيين أو الحرفيين، ويتم وضع المعايير الخاصة بكل مهنة أو كل حرفة... إلخ. كان هذا المبني كان الباند.

(34) - كان الفلمنكيون يمتلكون سلاحاً هائلاً عرفوا كيفية استخدامه بمهارة كبيرة. لقد كان ربحاً طويلاً انتهى بنقطة حديدية. ومن المفارقات أنهم أطلقوا عليه جويدينداك (مرحياً)، كما لو كان هذا يعني أنه يستخدم لتحية العدو. يعرف جيوم جيارت هذا السلاح بالمصطلحات التالية:

مع عصي حديدية كبيرة ثقيلة الوزن،

لديه نقطة حديدية كبيرة في الأمام،

ذهب به الفلنمكيون لاستقبال من يأتون من فرنسا.

إنهم يحملونه دائماً في الحروب.

يسمونه في الميدان جويدينداك.

جويدينداك تعني مرحباً.

من يريد أن يصفه بالفرنسية.

إنه يستخدم في المعارك.

ويعسك بكتتا اليدين.

(35) - عندما ذهب سكان بروج لدفع الضرائب، استقبلهم

الموظفون الفرنسيون بخشونة. ومن ثم أطلقوا عليهم السناكر (الخشانين). احتفظ الجسر المجاور الذي كان يتواجد عليه مقر إقامة محصل الضرائب باسم سناجيرتس بروج (جسر الخشانين).

(36) - ساراسين أو ساراكينوس مصطلح استخدمه الرومان

للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني ثم أصبح يطلق على العرب، وفي العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية توسع المصطلح ليشمل كل الذين يديتون بالإسلام. وانتقل الاسم إلى اللغات الرومانية وباقي اللغات الأوروبية.

(37) - "بعد أن تم أسر الكونت جي وعائلته، احتل الملك فيليب

فلاندرز واستولى عليها لصالح عائلته، وقام بزيارة فلاندرز شخصياً برفقة الملكة، أي غينت وبروج وإيبرس»، (السجل الممتاز)

(38) - لويل تعني الجميل باللغة الفرنسية.

(39) - فيليب لويل، عندما دخل بروج؛ اندهش من أن السكان لم

يستقبلوه بدرجة كافية من الرضا. (حوليات بروج).

(40) - شعرت الملكة بجيئة أمل كبيرة لرؤية نساء غينت وبروج وإيرس اللاتي، تكريمًا للملكة، لبسن أرق ثيابهن، وتزين بثراء فاحش. ومن ثم قالت الملكة: «اعتقدت أنني الملكة الوحيدة في فرنسا ولكن يبدو أن كل الفلمنكيين الموجودين في سيجون فرنسا هم أمراء. لأن كل هؤلاء النساء يرتدين ملابس مثل الملكات والأميرات». (السجل الممتاز).

(41) - يمكن العثور على منظر لهذا المبنى في فلاندريا إليوستاراتا دو ساندروس. المكان الذي كان يقع فيه اليوم مغطى جزئيًا بمبانٍ أخرى.

(42) - عين الملك جاك دي شاتيلون، شقيق جي دي سان بول، وكلاهما من أحوال الملكة، الحاكم العام لفلاندرز (حوليات بروج).

(43) - يتم وضع الدرج أمام دار البلدية أو المحكمة، ويصعد عليه الناس لكي يتحدثوا إلى الشعب.

(44) - كان الجنيه الفلمنكي يساوي عشرين شلنًا، والشلن 6 غيلدر (55 قرشًا) والجنيه الكبير يساوي كروينثالرين (5 قروش).

(45) - «أحد قادة أعمال الشغب هذه كان بيير دي كوينك، عميد النساجين، وهو رجل يبلغ من العمر نحو ثلاثين عامًا ولديه عين واحدة فقط، لكنه كان بليغًا جدًا ولديه منطق وجيه؛ بعد أن علم المأمور والقضاة بذلك، اعتقلوه على الفور. (حوليات ديسبارس).

(46) - حرفيًا بالهولندية، تعني محكمة الأمراء.

(47) - «ولكن لم يكده الكونت يرحل (1282) إلا واندلعت أعمال شغب جديدة أطلق عليها اسم المورليما العظيمة. وقد تم حمل السلاح وقتل ديريك فرانيكسون، الذي قيل إنه سبب غضب الكونت».

(حوليات بروج)

(48) - لم يمكث دي كونينك هناك لفترة طويلة (في السجن)، لأنه بعد ما تمردت المدينة بأكلها في اليوم نفسه، تم تحريره بالقوة المسلحة وتم إطلاق سراحه. (حوليات بروج).

(49) - في الواقع، بدؤوا في بناء قلعة في المكان الذي تقف فيه آلة الطاحونة المائية اليوم؛ لكن هذه القلعة لم يكتمل بناؤها.

(50) - قرية صغيرة بالقرب من بروج.

(51) - في 15 أغسطس 1280، احترقت المحلات والمخازن والبرج في بروج، والتي كانت كلها مصنوعة من الخشب فقط والتي تلاشت فيها امتيازات وأوراق المدينة بسبب النيران. (حوليات بروج).

(52) - لا تزال قلعة مالميه موجودة حتى الآن. عندما ذهبت لزيارتها حتى أتمكن من وصفها عن معرفة، خدعت في توقعاتي. فنذ أن قنا بإعادة بنائها؛ أصبحت تشبه مزرعة كبيرة من الممتلكات السائدة؛ حيث نجد بصعوبة بعض بقايا الأسوار القديمة تحت العشب. كما أنه يوجد درج حجري في وسط القرية. قبل بضع سنوات، كان جزء من الغابات العظيمة لا يزال ينمو في المنطقة؛ لكن المجارف والمحارث قد قامت بأعمالها منذ ذلك الحين (ملحوظة من الكاتب).

(53) - هذه الأغنية، التي نحاول ترجمتها إلى آيات من الشعر، من تأليف أم. جيه. إيه دي لوكت (ملاحظة من المترجم).

(54) - في الحروب كافة التي شنها المسيحيون لغزو القدس وتحرير قبر المسيح، كان للبلجيكيين النصيب الأكبر. في عام 1095، جود فرويد دي بوالون، المولود في قلعة بايسي، على بعد أربعة فراسخ من بروكسيل، قد دخل فلسطين مع ثلاثمائة ألف رجل، واستولوا على

القدس. في عام 1204، غادر بودوان، كونت فلاندرز، إلى الشرق على رأس بعض الفرسان الفرنسيين مع داندولو دوك البندقية، وهزم الأتراك في عدة معارك. وقد انتخب لشجاعته إمبراطوراً للقسطنطينية من قبل جميع الحلفاء..

(55) - في الأول من مايو التالي، ذهب جان بريدل للشرب في قلعة ماليه، حيث تشاجر مع أحد سكان القصر، الذي عاتب الحرفي لكونه أحد المتمردين، وقد قتل هذا الرجل على الفور (حوليات بروج).

(56) - أراد صاحب القصر بمساعدة أتباعه، الانتقام، لكن بريدل قاومه بشجاعة (حوليات بروج).

(57) - أثقل حاكم المدينة على الناس بالضرائب؛ انظر السجل الممتاز، فيما يتعلق بضريبة العملة الفضية الرابعة على الأجور.

(58) - عاد بريدل إلى بروج، وقص ما حدث على الجزائريين وأصدقائه الآخرين، وعددهم سبعمئة، تسلحوا جيداً، وذهبوا إلى ماليه، حيث قتلوا صاحب القصر مع كثيرين آخرين (حوليات بروج).

(59) - في صيف عام 1296، في ليلة القديس يوحنا، جاء الملك فيليب إلى فلاندرز برفقة 20 ألف رجل، واستولى على دواي وفرض حصاراً على ليل.. وقد قاتل بشدة كل من كونت بلوتس وجميع كونتات غيز، الذين حضروا المعركة الأولى، ولكنهم لقوا حتفهم، ولم يتبق من هؤلاء الفرنسيين سوى 4000 فارس؛ وقد فقدت فلاندرز الغرية كلها. وقد نهب الفرنسيون ليل وإيبرس وكورتراي وروسيلاري وأحرقوا الكائس والأديرة والقرى والمستشفيات. (السجل الممتاز).

(60) - جاء جون دو نامور وجي، شقيقه، وهما من أبناء الكونت الأسير، مع جيوم دي جوليرز، ابن عمهما، الذي كان حتى ذلك الحين في نامور، إلى فلاندرز لاتخاذ قرار مع بيير دي كوينيك، بشأن ما يجب

القيام به (حوليات بروج).

(61) - (.. في هذا الوقت حاصر المسلمون مملكتين مسيحيتين بقوة كبيرة، وهما: مايوركا وميليد. ثم أتى ملكان إلى باريس، إلى الملك، لطلب النصيحة والمساعدة وكتب البابا إلى ملك فرنسا، باعتباره الملك الأول المسيحي ليطلب منه أن يجمع الأمراء المسيحيين، من أجل إعادة احتلال البلدين مايوركا وميليد).. (السجل الممتاز).

(62) - غضب الملك والملكة لدرجة أنهما سمما فيلين. وقد أمر الملك خادمتها الثلاثين، بإلقائها في نهر السين، وعلقوا الثلاثين فارساً الذين جاؤوا معها على المشنقة (السجل الممتاز).

(63) - "...كانوا يرمون في السجن أولئك الذين لا يستطيعون الدفع ويشنقون أو يقطعون رؤوس من يقاوموا أو يهمسوا» (السجل الممتاز).

(64) - انظر السجل التاريخي الممتاز لفلاندرز.

(65) - جاك دي سان بول، الذي كان في كورتراي، عندما علم أن سكان بروج رفضوا الانصياع لأوامره، ودفع ضريبة العملة القضية ولم يعودوا يرغبون في العمل، أرسل براميل مليئة بالحبال إلى بروج لتعلق على نوافذ العليات وشنق عليها جميع رؤوس أصحاب المهن والحرف (السجل الممتاز).

(66) - بالكاد دخل الجنود إلى المدينة واخترقوا بالقوة منازل الهاربين ونهبوا كل شيء وقتلوا كل من قاومهم. (حولية ديسبار).

(67) - بوا دي باي.. «واتفقوا على أنه في اليوم التالي، عند الفجر، قبل شروق الشمس، سيلتقون في سانت كروا، بالقرب من بروج، وكلهم مسلحون جيداً ومجهزون جيداً». (السجل الممتاز).

(68) - ذهب جان بريدل، مع قوة أخرى، عبر باب سباي، بالقرب من جسر سناجارتس حيث تم إيواء الرجال المسلحين وخدم جي دو سان بول، والذي بلغ عددهم أربعة آلاف، وكان يطلق عليهم السناكرز (السجل الممتاز).

(69) - انظر السجل الممتاز.

(70) - جملة هولندية بمعنى درع وصديق.

(71) - تم الاتفاق على أن أولئك الذين لا يستطيعون نطق شيلد أن فريند سيعدمون بلا رحمة (السجل الممتاز).

(72) - انظر السجل الممتاز.

(73) - في هذه الجمعة، قُتل أكثر من خمسة آلاف فرنسي في بروج، وفي اليوم التالي، قُتل أكثر من ألفين آخرين أيضًا في غنت: حدث هذا في عام الرب 1302. (السجل الممتاز).

(74) - في نحو الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، أخذ جاك دو سان بول (دي شاتيلون) ملابس راعي كنيسته، وارتداها ووصل إلى الأسوار وقد مر خلف سانت كلير ومن هناك، مشى على طول السور إلى باب الحدادين، حيث اندفع مع حصانه في الخندق، الذي عبر من خلاله، ليس من دون التعرض لخطر كبير من الغوص، فقد بقي مرافقه الرئيس وغاص في الخندق. (السجل الممتاز).

(75) - في... يونيو، استقبل سكان بروج جي دي نامور، ابن الكونت جي، الذي كان سجينًا، بفرح غير عادي؛ لأنه جاء لمساعدتهم بجيش ألماني صغير (سجل فلاندرز).

(76) - لقد تحول أولاً إلى أنقاض قلعة سيسيلي، التي ينتمي سيدها إلى الحزب الفرنسي وقد ألحق ضرراً كبيراً بجده في الحرب الأخيرة (بجمل فلاندرز).

(77) - انظر فوسين، إشعار حول معركة كورتراي.

(78) - كان الكونت دارتوا، الذي كان يعد واحداً من أشجع المحاربين وأكثرهم مهارة في عصره، العدو الذي لا يقبل المصالحة بينه وبين الفلمنكيين، فهو لم يستطع أن يغفر لهم موت ابنه، الذي لقي حتفه أمام فيرن (فوسين، إشعار حول معركة كورتراي).

(79) - انظر السجل الممتاز، الذي أعدنا صياغة كلماته كما هي.

(80) - عبارة عن مجمع معماري تم إنشاؤه لإيواء رجال الدين.

(81) - انظر فان فيلتي، المرأة التاريخية (الشبيجل التاريخي).

(82) - تذكروا أن كلمة فوس تعني الثعلب في اللغة الفلمنكية.

(83) - اختلف المؤرخون كثيراً في تقديرهم لقوة الجيش الفرنسي: ولقد أخذنا المتوسط بين الإصدارات المختلفة.

(84) - حالما علم جي دي نامور بوصول الفرنسيين إلى فلاندرز، أرسل بأوامره في جميع أنحاء البلاد بجمل السلاح والقدوم إليه. منذ 16 يونيو، جاء أرنولد، ابن حاكم أودينبردي، الذي كان في فرنسا مع الكونت، للتخيم في سهل جرونينجين، بالقرب من كورتراي.. أرسل (جي) أيضاً مرافقاً إلى ابن أخيه جيوم دي جوليرز، الذي بعد أن طرد الفرنسيين من فلاندرز الغربية، حاصر كاسل؛ وقد أبلغه بحالة الأمور، وحثه على رفع الحصار عن هذا المكان والذهاب إلى كورتراي لمحاربة

العدو المشترك (فويسين).

(85) - فرنجة بروج.

(86) - انظر السجل التاريخي الممتاز لفلاندرز.

(87) - أخيراً، شوهد أحد أبطال معركة ورنجين الشهيرة قادماً ومعه خمسة آلاف شخص من أهل غينت، من بينهم سبعة من أقاربه وأصدقائه؛ السيد جون بورلوت، الذي اكتسب شهرة كبيرة في الجراءة والمعرفة العسكرية» (فويسين)

(88) - في مخطوطة قديمة كتبها لوس فان هوت دي دينزي عام 1482، والتي نسخها السيد فويسين في مذكرته حول معركة الرماح الذهبية، نقول، في هذه المخطوطة، نجد أسماء عدد كبير من الشخصيات التي كانت حاضرة في معركة كورتراي.

(89) - عند وصوله إلى ليل، قال روبرت دارتوا للملكي مايوركا وميليند: «أعتقد أن الفلمنكيين أسوأ من المسلمين، لأنهم مسيحيون سيئون، وأيضاً، إذا حاولوا التمرد ضدنا وجعلناهم لا شيء، فلن نفعل شيئاً أكثر من ذلك يرضي الرب، وسيجزينا خيراً كما لو أننا انتصرنا على كل البربر». (السجل الممتاز).

(90) - بلغ عدد الجيش الفرنسي أكثر من خمسين ألف رجل؛ ولقد أصبح أقوى، بعد أن استقبل في صفوفه.. «عدداً كبيراً من سكان برابانت، من بينهم جودفري، عم دوق برابانت». (فويسين).

(91) - تزوجت أديل، ابنة راؤول دي نيسل، من جيلانمي دي ديندرموند، أحد أبناء كونت فلاندرز.

(92) - تمت تسمية الشعوب التي تتحدث اللغة الفلمنكية سابقاً

بتسمية عامة ثيوس (الألمان)، تسمية تم استبدالها اليوم بالألمان الأدنى (نديرديوتش).

(93) - كان الفارس هيوز داركيل، ولقبه بترمان، لا يزال يرى هناك؛ وقد أضاف إلى مكانته العملاقة قوة خارقة. قاد فرقة من الرجال الشجعان في السلاح وعرض خدماته أولاً على ملك فرنسا؛ ولكن، لأنه طالب براتب مرتفع للغاية، لم يتم قبول عرضه، وغضب باترمان، وانتقل إلى جانب الفلمنكيين، حيث تم استقباله بفرح كبير. (فويسين).

(94) - لكن هذه المقاومة العنيدة لم تستطع إنقاذ قلعة كورتراي خاصة أن الحامية كانت تمثقل إلى الطعام. هذا هو السبب في أن رب القصر، بعد أن وجد وسيلة لإرسال رسول إلى الكونت دارتوا، حثه على القدوم، دون تأخير، لمساعدته. (فويسين).

(95) - فيما يلي المصطلحات التي عبرت بها حوية فلاندرز، المنشورة في بروج، بواسطة أندريه ويدتس، نحو عام 1725، عن نفسها حول هذا الموضوع، ونحن ملزمون بحذف بعض التعبيرات القوية للغاية: «ارتكب الجيش الفرنسي، أثناء عبوره جنوب فلاندرز، هذا الخراب الخيف، من ليل إلى دواي، لم يعد هناك منزل أو قلعة أو كنيسة أو حتى شجرة. ما لم يفعله أقوى الوثنيين من قبل بدا مسموحاً لهؤلاء المدمرين؛ لم يشفقوا على الرجال ولا النساء ولا الأطفال. الصور ذاتها التي كانت في الكائس، والتي خصصت لذكرى قديسي بلاد فلاندرز، تم تشويهها بشكل شنيع. دمرت الأديرة، وقتل الرهبان.. لم يكن هناك فرق بينهم وبين الشياطين».

(96) - وصل الكونت دارتوا مع الجزء الأكبر من جيشه واستقر على بعد نصف ميل من كورتراي، على جبل ويلدي، والذي يحمل اليوم اسم بوتيلبيرج، والذي يقع ما بين ليس والطريق الذي يؤدي إلى زويفيجيم. (فويسين).

(97) - إن جدول جروينجن، الذي كان عرضه في ذلك الوقت يبلغ ثلاثين قدمًا، وفقًا لسجلات التاريخ، هو اليوم مجرد تسرب مائي، والذي، مثل جدول جافري، يخرج من المروج الموحلة، والتي تعتمد على مزرعة بالقرب من قرية.

(98) - كان جاكوب فان موشر رسامًا لمناظر الطبيعية من العصر الذهبي الهولندي.

(99) - الغابة الهولندية.

(100) - ثم أظهر الراهب القربان المقدس للجيش كله وقدم البركة العامة، في تلك اللحظة الجليدة، رقع الجميع، ورفعوا القليل من تراب أرض الوطن، وحملوا هذا التراب إلى شفاههم. (فويسين).

(101) - انظر السجل التاريخي الممتاز.

(102) - الفرسان الأوائل الذين، عند وصولهم إلى السهل، أرادوا عبور الجدول، غرقوا حتى السرج في الوحل وثقتهم سهام الرماة الفلنكيين. (فويسين).

(103) - عدد كبير من الضباط الآخرين، الذين لاحظوا أيضًا صعوبة مرور الجدول، قدموا ملاحظاتهم إلى الكونت دارتوا: لكن هذا الأمير لم يرغب في أخذها في الاعتبار. (فويسين).

(104) - في غضون ذلك، سار رماة الأقواس إلى الأمام ووجدوا طريقة لعبور الجدول إلى نقطة أخرى، حيث قام السيد جون دي بارلاس، الذي يقودهم بترتيبهم في صفوف ضيقة. (فويسين).

(105) - شعار سانت ديبس! كان صرخة المعركة وشعار مملكة

فرنسا. يُزعم أنه يشير إلى لافتة شارلمان الأسطورية، أوريفلام، والتي كانت تُعرف أيضًا باسم «مونتجوي» وتم الاحتفاظ بها في دير سانت ديتيس، رغم وجود تفسيرات بديلة. عُرف أول مرة أن صرخة المعركة استخدمت في عهد لويس السادس ملك فرنسا، أول حامل ملكي لأوريفلام.

(106) - وقد حدث هذا في اليوم الحادي عشر من شهر يوليو 1302، يوم القديس بنديكتوس، نحو الساعة السابعة صباحًا (السجل الممتاز).

(107) - كانوا لا يزالون يتقدمون، تتسارع الخيول وتعثّر ضد بعضها. سقط الفرسان على الأرض ومحقهم بقسوة من تبعهم. وهكذا يموت الكثير منهم قبل أن يصلوا إلى العدو. (فويسين).

(108) - كل تفاصيل هذه المعركة التي لا تُنسى، في النص الفنلندي، مستندة إلى اقتباسات من الشيجل التاريخي، السجل المقفى لفان فيلتم، وإلى سجل فلاندرز الممتاز.

(109) - استقبلهم الفنلنديون على رؤوس رماحهم الطويلة، وفي هذا الهجوم، على الرغم من كسر ترتيبهم في المعركة، إلا أنهم قتلوا عددًا كبيرًا من الفرسان والخيول. (فويسين).

(110) - يقدم السجل الممتاز تفاصيل مثيرة للاهتمام حول تدخل هذا الراهب في معركة الرماح الذهبية؛ نعتقد أنه من غير المجدي إعادة إنتاج المقطع من الوقائع، حيث يتم دعم جميع حلقات رواية الروائي بدقة من خلال نصوص لا يمكن الشك في سلطتها، ولكن ترجمتها، كما قلنا أعلاه، لا تهم القراء الفرنسيين كثيرًا.

(111) - انظر مذكرة فويسين.

(112) - مذكرة فويسين.

(113) - عند علمهم ب وفاة الكونت دراتوا، عقد الفرسان الفرنسيون

العزم على الانتقام أو على الموت؛ واستأنفوا النضال بتصميم جديد. حاول أحدهم، ويدعى بيير ليبرون، أن يقود جي دي سان بول، الذي كان قائداً للحرس الخلفي، إلى المعركة؛ ولكن عبثاً عتابه على جنبه (فويسين).

(114) - فيما يلي أسماء الفرسان الأساسيين الذين لقوا حتفهم

في صفوف الفرنسيين. استعرنا هذه القائمة من أعمال السيد فويسين التي يكثر الاستشهاد بها: «جون، كونت تانكارفيل؛ جون دي بونتيو، كونت أومالي؛ جاك دي شاتيلون، رب ليون وحاكم فلاندرز كندوب عن ملك فرنسا؛ هوجو دي بروينين، كونت لا مارش وأنجوليم؛ أنجلين، كونت فيميو أو فيمي؛ لويس دي فورست، لورد بوجيو ودومبس؛ كونت سواسون؛ كومت دابفيل؛ كونت فوا؛ آلان بريتاني؛ جون الأول، فيكونت شارتر؛ فروالد، رب قصر دواي؛ جون الرابع، رب قصر ليل؛ هنري، لورد لينني؛ رينود الأول، ربلونجيفال؛ السيد دي أبريمونت؛ لورد فرسن؛ راقول، رب ترير؛ لورد فرين؛ بودوين دهنين، رب بوسو؛ جون، لورد كريجي؛ راؤول الرابع، الملقب بالقلنسكي، رب كاني؛ رب بريوت؛ فارالد ريمس؛ جون بروسيل؛ جون، ولقبه سانس ميرسي (بلا رحمة)، بن جون، كونت هولندا وهاينو؛ جودفري دي برابانت، عم دوق برابانت، وابنه جون، رب فيرسون ورب قصر تورناي؛ أرنولد الرابع، رب ويسمايل، مارشال برابانت؛ هنري، لورد بوتسم؛ ارنويد، رب واهين، وابنه لوران؛ هوجو دي وير؛ جيوم دي ريدينغين؛ أرنولد دي هوفستاد وأبناء أخيه الثلاثة؛ جيوم، لورد غريندونك؛ بالدارد دي بارفيسيان؛ جون دي كيرلي؛ بالدارد دي بيرويلز؛ فرناند داراييج؛ بودارد بيرتز؛ هرقل، رب بيليل؛ ثمانية عشر فارساً لقوا حتفهم مع عدد كبير من سكان برابانتس حول خيمة جودفري دي برابانت؛ إيجيد، رب أنتويج. ريتشارد، سيد فلايس؛

ميشيل، رب هارنس؛ ألبرت، سيد لانجينديل؛ أسيا د كيسنوي، دي سالينز، دي روتسفوري، دي مارلو، دي فلاينز، دي مالفي، دي ألينجيك، دي بيثيسي ودي كروي؛ جيل، رب ألينجي؛ روبرت، لورد مونتفورت؛ راؤول، سيد نورثفورت؛ جون كوك؛ جون، رب إميري، خادم الملك؛ كوتتات أنجيه، شامبان، درو، تراي، أوجي، لوس، فاندوم، بوربون، توسن وإيتامبيس؛ كونت هار وإخوته الثلاثة: كونت ألبا وأخوه. دوك دي بري، وأمير شيمبي.

(115) - انظر فان فيلتم، المرأة التاريخية (الشيكل التاريخي).

(116) - المرأة التاريخية.

واحدة من كلاسيكات الرواية التاريخية الأوروبية



تحكي هذه الرواية الملحمية، والتي نُشرت لأول مرة قبل نحو مئتي عام، قصة معركة الرماح الذهبية أو معركة كورتريك التي وقعت في أوروبا عام 1302.

تقدم الرواية في قالب أسطوري قصة الصراع بين سكان منطقة "فلاندرز" والملك الفرنسي، وهو الصراع الذي تطور إلى حرب انتهت بانتصار جيش الفلاحين الفلمنكيين على الفرسان الفرنسيين في معركة "الرماح الذهبية".

تعد الروح الوطنية هي الموضوع المركزي الحقيقي، حيث يسعى المؤلف من خلال مزج التاريخي بالخيالي إلى تقديم سردية حول التحرر من المستعمر وسط قصة المعركة الشهيرة.

ولكنها كذلك رواية ممتعة ومليئة بالأحداث على نمط الأعمال التاريخية المكتوبة في القرن التاسع عشر، ولا سيما طريقة تصوير المعارك والثورات في العصور الوسطى والتي تتميز بالحيوية مع قدر كبير من الرومانسية.

أعيد طبع الرواية في أكثر من 70 طبعة وترجمت إلى العديد من اللغات، كما تم اقتباسها في المسرح والسينما وحتى على شكل قصص مصورة.

هنريك كونسينس: ولد في أنتويرب (في بلجيكا حاليًا) عام 1812 لأب من أصل فرنسي وأم من أنتويرب. كتب نحو مئة رواية، بما في ذلك رواية "معركة الرماح الذهبية- أسد فلاندرز"، والتي حازت نجاحًا كبيرًا، وكان من بين الروائيين الأكثر قراءة في القرن التاسع عشر. تُرجمت رواياته إلى جميع لغات أوروبا، وحتى إلى العربية والأرمنية واليابانية.

عند وفاته في عام 1883، قام الفلمنكيون الذين ساعدتهم من خلال عمله لإعادة اكتشاف هويتهم وشخصيتهم بنقش شاهد قبر فخم له في أنتويرب كتب عليه: "لقد علم شعبه القراءة".

